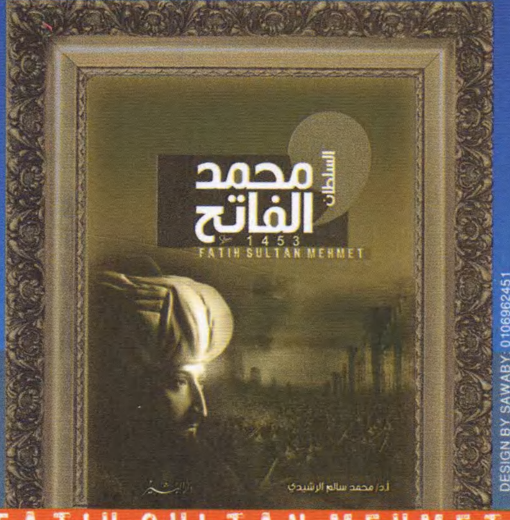
السلطان محمد الفاتح

1453

FATIH SULTAN MEHMET

أ.د/ محمد سالم الرشيدي

دار البشير



FATIH SULTAN MEHMET

تُوفي "محمد الفاتح" لكنّ آثارَه تبقى شاهدةً على ما قام به من خدمات للإسلام والمسلمين، محقّقًا ما بشّر به النبي- صلى الله عليه وسلم- في حديثه: "لتفتحنّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش".

وفي سكرات موته أخذ يوصي ابنه "بايزيد" بوصايا توحي في مدلولها بمدى صلاح هذا الرجل، إذ يقول له: "يا بني إن نشر الإسلام في الأرض واجبُ الملوك على الأرض، فاعمل على نشر دين الله حيثما استطعت.. يا بني اجعل كلمة الدين فوق كل كلام، وإياك أن تغفل عن أي أمر من أمور الدين، وأبعد عنك الذين لا يهتمون بأمر الدين، وإياك أن تجري وراء البدع المنكرة.. يا بنيّ قرب منك العلماء، وارفع من شأنهم؛ فإنهم ذخيرة الأمة في المُلمّات"

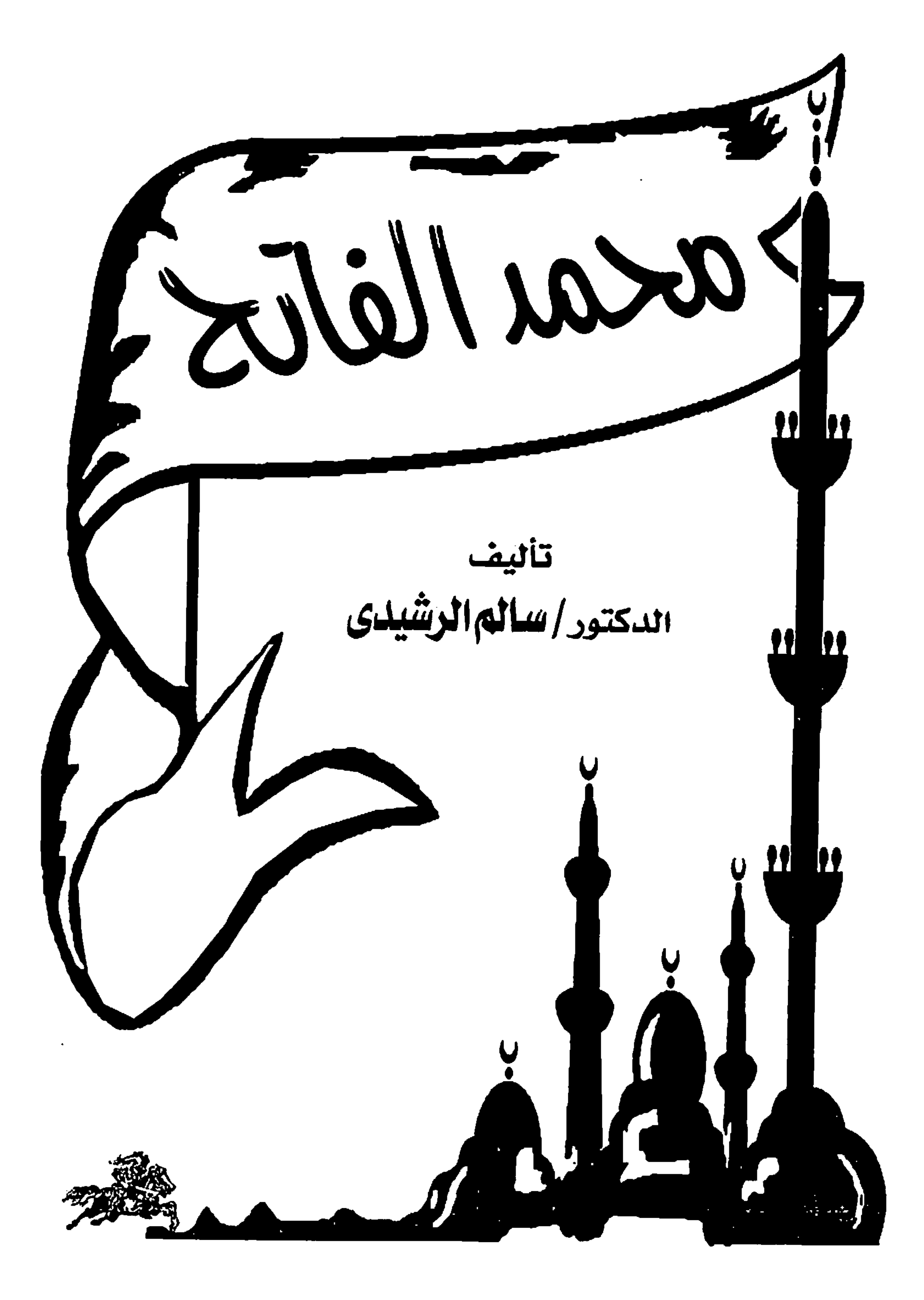
DESIGN BY SAWABY: 0106962451

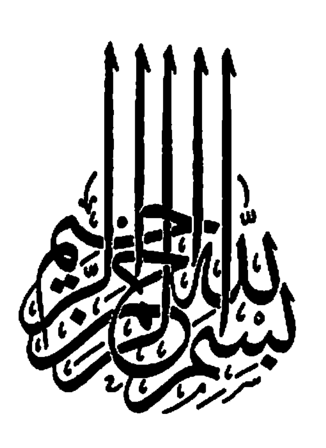


اسم الكتـــاب: محمد الفاتح
التـــــأليف: دكتور/ سالم الرشيدي
الصف التصويري: الندي للتجهيزات الفنية
عدد الصفحـــات: 376
عـــدد الطبعات: (الطبعة الثانية 2013)
النشـــر والتوزيع: دار البشير للثقافة - مصر
01062836461 - 01067467492
dar_elbasheer@yahoo.com
darelbasheer@hotmail.com
info@Daralbasher.com
Alnahdah@Daralbasher.com
الإيداع القانوني : 2013/15439
الترقيـــم الدولي : I.S.B.N.978/977/278/145 /X

1434 هـ
2013 م

دار البشير للثقافة والعلوم


محمد الفاتح
تأليف
الدكتور/ سالم الرشيدى



توطئـة

حكم السلطان محمد الفاتح نيفًا وثلاثين عامًا تعد من أهم الفترات فى تاريخ العلاقات السياسية والحربية بين الإسلام والنصرانية وبين الشرق والغرب ، ولا تنحصر أهمية أعمال الفاتح الحربية فى فتح القسطنطينية عاصمة النصرانية التليدة فى الشرق ، والتى قامت خلال عشرة قرون بأسوارها الضخمة المنيعة تدفع عن نفسها غزوات الغزاة من الشرق والغرب ، فما هذا الفتح ـ على عظم خطورته وبُعد آثاره ـ إلا واحد من فتوحاته العديدة الكثيرة فى أوروبا وآسيا .

أما فى أوروبا وبخاصة الجزء الجنوبى الشرقى منها فقد أدت فتوحاته إلى توطيد السيادة العثمانية فيها توطيدًا مكيناً راسخًا بعد أن كانت فى عهود سلفه من السلاطين مزعزعة مضطربة .

وأما فى آسيا فقد قضى السلطان الفاتح على البقية الباقية من الإمارات والقلاع القائمة فى آسيا الصغرى وجعل هذه البقعة برمتها تحت سيادة عثمانية خالصة .

على أن حروب السلطان الفاتح فى آسيا لم تكن حروباً أسيوية محضة ، أعنى أنها لم تكن بين الدولة العثمانية وبين دول وإمارات آسيوية فحسب بل دخلت فيها عناصر وعوامل أخرى مختلفة امتزجت امتزاجاً عجيباً كان من أثره ذلك التحالف الغريب ضد الدولة العثمانية بين إمارات إسلامية وأرثوذوكسية فى الشرق وبين البابوية وبعض الدول الأوروبية الكاثوليكية والتجارية فى الغرب .

وماذا كان موقف مصر من هذه الدول المتنازعة المصطرعة أمامها وبالقرب من حدودها فى بعض الأحيان وماذا كان موقف هذه الدول منها ؟ هل لزمت مصر الحيدة تشاهد الأحداث الجارية الخطيرة بدون اكتراث ولا مبالاة ؟ أم ألقت دلوها فى الدلاء لتجنى لنفسها بعض الغنم ، وما كان أثر ذلك فى العلاقات السياسية بينها وبين الدولة العثمانية ، هذه العلاقات التى ظلت منذ قيام هذه الدولة على خير ما تكون من الصفاء والمودة ؟

وقد بلغ الصراع بين الفاتح والبابوية درجة من الحدة والعنف لم يبلغها فى أى عهد من قبل ، ولأول مرة فى تاريخ العلاقات الحربية بين الإسلام والنصرانية نشاهد أحد البابوات يخرج من روما ليتولى بنفسه قيادة حملة صليبية .

ولأول مرة أيضاً فى تاريخ العلاقات بين الإسلام والنصرانية نرى سلطاناً مسلماً يدعوه البابا إلى اعتناق النصرانية ويعده بالملك العريض والمجد الشامخ فى الأرض .

وقد وصل الجيش العثمانى فى زحفه إلى الغرب شواطىء بحر الأدرياتيك ولم يلبث أن وثب إلى إيطاليا نفسها ووطد أقدامه فى جنوبها ، فإلى أى مدى كانت تمتد فتوحاته فى أوربا لو لم يباغت الموت السلطان محمد فى ذلك الحين وهو فى اسكدار بين جيشه ولم يكن قد جاوز الحادية والخمسين من عمره ؟

لقد حاولنا فى هذا الكتاب أن ندرس جميع هذه الأحداث الحربية والعلائق السياسية المختلفة ونجلوها على حقيقتها ونرد كل شىء إلى بواعثه وأسبابه ونكشف عن آثاره ونتائجه .

وكان لابد بعد انتهاء الحديث عن هذا كله من خاتمة تتناول جوانب أخرى من شخصية محمد الفاتح وأعماله ، فإن وهج الشهرة العظيمة الذائعة التى نالها هذا السلطان بأعماله السياسية والحربية ، لا سيما فتح القسطنطينية الذى اصطلح المؤرخون على اتخاذه بداية للعصور الحديثة قد أعشى أبصار كثير من الناس فلم ينظروا أو لم يتبينوا أعماله ومآثره الأخرى فى غير ميدانى الحرب والسياسة ، وإن للفاتح لمآثر جليلة جمة فى ميادين الثقافة والعلم والفن والإدارة والحكم لاتقل جدارة فى إكسابه الشهرة الواسعة وإنزاله المنزلة الرفيعة بين عظماء الرجال . وإذا كانت العسكرية قد وجدت فى محمد الفاتح جندياً وقائداً من أشجع الجند وأمهر القواد ، ووجد فيه الإسلام مجاهداً من أصدق المجاهدين فى سبيله فإن العلوم والآداب والفنون قد وجدت فيه راعياً كريماً فذا لعل الزمن لم يَجُد عليها بمثله .

وقد رأينا قبل كل شىء أن نصل حكم السلطان محمد الفاتح بحكم من سبقه من سلاطين آل عثمان فأتينا لذلك بتمهيد وجيز جامع عن نشأة الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى إلى أن تولى زمامها محمد الفاتح ليكون البحث متصل الحلقات متسق الأجزاء

مطرد الخطوات .

وبعد ، فهذا الكتاب كنت قد قدمته عام 1953 لنيل درجة العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه) من قسم التاريخ الإسلامى فى كلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية .

وعندما زرت تركيا عام 1933 عرضت هذه الرسالة على بعض علمائها والمشتغلين بالتاريخ فيها وقد لقيت منهم فوق ما كنت أؤمل من القبول والتقدير .

وقد تفضل الأستاذ الجليل على همت بركى الأقسكى ـ الرئيس السابق لمحكمة النقض فى تركيا ـ مع بعض زملائه بترجمة هذه الرسالة إلى اللغة التركية فأحببت أن تظهر الرسالة أيضاً فى أصلها العربى فقدمتها للطبع وأرجو أن تكون قد سدت بعض الفراغ فى جانب من جوانب تاريخنا الإسلامى المجيد .

المؤلف

نظرات فى بعض المراجع والمؤلفين

بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية سنة 857 هـ (1453 م) عمد فريق ممن كانوا محصورين فيها إلى تسجيل وقائع الحصار وما أعقبه من دخول العثمانيين المدينة وأفعالهم فيها ، وفى مقدمة هؤلاء جورج فرانتزتس George Phrantzes صديق الإمبراطور قسطنطين وأمينه وصاحب مشورته الذى يعتد برأيه فى مهم الأمور ، وقد أسر هو وأهله بعد الفتح ثم خرج من القسطنطينيةبعد أن أطلق سراحه فقصد المورة فإيطاليا واستقر به المقام آخر الأمر فى جزيرة كورفو حيث ترهب وأخذ فى كتابة تاريخه عن الدولة البيزنطية من سنة 1258 إلى 1476 ، وتمتاز الأقسام المتعلقة من هذا الكتاب بالحوادث التى شاهدها بنفسه أو اشترك فيها لا سيما فتح القسطنطينية بأهمية خاصة ، وفيها نفث فرانتزتس كل ما كانت تضطرم به نفسه من حقد وضغينة على العثمانيين وعلى رأسهم السلطان محمد الفاتح فتقول عليهم ما تقول وتخرص عليهم الأكاذيب ، وقد كان فرانتزتس بطبعه رجلاً حقوداً ينبض قلبه بالكراهية والحقد على منافسيه فكيف بمن استولى على بلدته ؟ (انظر هذا الكتاب ص 130 وما بعدها) .

وممن كتب عن حصار القسطنطينية نيكولو باربارو Nicolo Barbaro وهو نبيل بندقى كان بالقسطنطينية حينما حاصرها العثمانيون إلى أن فتحوها وكتب يوميات خاصة عن حوادث الحصار والقتال ، وقد كان عدواً لدوداً للجنويين شديد التحامل عليهم لما كان بين البندقية وجنوا من عداء قديم أورثته المغالبة على التجارة والتنافس على الربح والثروة ، فما يكون إذن مبلغ كراهيته وحقده على العثمانيين الذين نازعوا البندقية أملاكها ومستعمراتها فى الشرق ومصادر ثروتها فيه ، وما يكون حقده على السلطان محمد الفاتح بنوع خاص وقد قضى على المركز التجارى الممتاز للبندقية فى القسطنطينية وأخضع تجارتها فى الشرق تحت سيطرته ؟

وممن كتب عن حصار القسطنطينية وفتحها وشهد حوادثها بنفسه الكاردينال إيسيدور Isidore الذى بعثه البابا إلى القسطنطينية للقيام بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وقد كان أول ما فعله بعد خروجه من القسطنطينية ووصوله إلى إيطاليا أن

استنفر الدول النصرانية إلى حرب العثمانيين وصب لعناته على السلطان محمد الفاتح « عبد الشياطين وابن إبليس » كما سماه فى منشوره .

وإلى جانب هؤلاء طائفة أخرى من المؤرخين النصارى ، عاصروا فتح القسطنطينية ولكنهم كانوا بمبعدة عن الميدان لم يشهدوا شيئاً من حوادث الحصار والقتال .

من هؤلاء جان دوكاس Jean Ducas وهو ينتمى إلى إحدى الأسر الإمبراطورية فى بيزنطة ، وقد قام بالسفارة لدى السلطان الفاتح ، وكان دوكاس فى جزيرة لسبوس عندما حاصرها العثمانيون سنة 1462 ودكوا أسوارها بالمدافع ، ولا يبعد أنه قد أصابه فى هذا الحصار ما أصاب صاحبه فرانتزتس فى حصار القسطنطينية وقد كتب تاريخه عن الدولة البيزنطية من سنة 1341 م إلى 1462 م .

ومنهم خالكونديل Ghalcondyle ، وهو ينتسب إلى إحدى الأسر الرفيعة المشهورة فى أثينا ، وقد أسره العثمانيون مرتين فى عهد السلطان مراد الثانى والد السلطان الفاتح ، ويتناول تاريخه حوادث سنة 1298 م - 1463 م .

هؤلاء هم أساطين الرواية النصرانية المعاصرة الذين كتبوا عن السلطان الفاتح وعن فتح القسطنطينية ، وكل منهم - كما رأينا - أسير مقهور وجريح موتور ، فأى نزعة ينزعون وعن أى روح يصدرون حينما يكتبون عن الدولة العثمانية وعن السلطان الفاتح بخاصة وهو الذى قضى على الدولة البيزنطية واستولى على عاصمتها القسطنطينية معقل النصرانية منذ عشرة قرون ؟

لقد حاولنا الاطلاع على ما كتبه هؤلاء المعاصرون فى اللغات التى كتبوا بها أو اللغات التى ترجمت إليها ولكننا لم نوفق ولم نجد لهذه المؤلفات أثراً فى المكاتب القائمة بين ظهرانينا ولكن القارئ يجد فيما كتبه المؤرخون الأوربيون المحدثون ما يغنيه أو ما يكاد يغنيه عن تلك المراجع الأصلية .

وقد اعترف بعض هؤلاء المؤرخين مثل جبون وبيورى وهمر بتعصب المؤرخين البيزنطيين وتحاملهم الشديد على الأتراك ، ولكنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا التحرر والتخلص من هذا التعصب والتحامل ، بل نجد فيهم من فاق البيزنطيين القدماء فى هذا

المضمار ، فهذا الأستاذ بيرز ـ وهو فيما نعلم آخر من كتب بالإنجليزية عن فتح القسطنطينية ـ نجد عند مقارنته بين فتح اللاتينين للقسطنطينية سنة 1204 وفتح العثمانيين لها سنة 1433 أنه على الرغم من اعترافه بفظائع اللاتينيين الشنيعة فى القسطنطينية وما ارتكبوه فيها من انتهاك الحرمات والمقدسات وتحطيم الآثار الفنية والتاريخية فى هذه المرة آسيويون وأن دينا جديداً قد حل فى القسطنطينية محل النصرانية ويأبى الأستاذ بيرز إلا أن يسمى هذا الدين الجديد ـ الذى هو الإسلام طبعاً ـ « ديناً مزيفاً »[١] .

ومثل هذه الروح الصليبية القائمة والنعرة العنصرية الغاشمة نجدهما عند كثير من المؤرخين الأوربيين المحدثين على درجات متفاوتة فى الحدة والعنف .

ويستدل هؤلاء الأوربيون المحدثون على ما ذهبوا إليه من التنديد الشديد بفظائع الأتراك عقب دخولهم القسطنطينية بأن قريتوورلوس[2] ـ وهو مؤرخ رومى أهدى كتابه إلى السلطان محمد الفاتح نفسه ـ قد عرض لهذه الفظائع التى ذكرها غيره من مؤرخى الروم .

ويجب علينا قبل كل شيء أن نعلم أن قريتوولوس كان بجزيرة ايمبروس حينما فتحت القسطنطينية ، فلم يشهد شيئاً من حوادث حصارها ودخول العثمانيين فيما ، وإنما تلقف أخبارها تلقفاً من أفواه الناس ولم يميز بين الغث والسمين ، لذلك كثر التناقض والتضارب بين أقواله (انظر هذا الكتاب ص) . على أن قريتوولوس وإن كان قد أهدى كتابه إلى السلطان الفاتح فانه حينما ألف هذا الكتاب لم ينس روميته ولم يخف حقيقة شعوره نحو بنى جلدته ، كما أنه لم يجعل هذا الكتاب ثناء خالصاً للسطان الفاتح وحده . فهو كما مدح هذا السلطان وأشاد بمناقبه وسجاياه فعل مثل ذلك أيضا نحو أعدائه

---

(١) " Now all was changed : the new conquerors were Asiatics A false religion replaced christianity " .

Pears, The Destruction of the Greek Empire and the Story of the Capture of Constantionople by the Turks .

(٢) هكذا رسم اسمه فى الترجمة التركية لكتابه عن تاريخ السلطان محمد الفاتح . أما الأوربيون فيكتبونه Critobulus أو Critobule

فأثنى على الإمبراطور [1] قسطنيطن وأشاد بشجاعته ونبله وبعد نظره وقوة عزيمته ، وأسبغ مثل هذا الإطراء أيضاً على نوتاراس (انظر كتابه تاريخ سلطان محمد خان ثانى ص 87 و 89) .

وقد يسأل سائل : وكيف تقبل السلطان الفاتح كتاباً يهدى إليه وقد ملئ قذعاً وذماً له ولجنوده وإشادة بأعدائه ؟

هنا تتجلى لنا ناحية من نواحى العظمة الانسانية فى السلطان محمد الفاتح ، هى تقديره لحرية الرأى والقول فى الغير ، وقد عرضنا لهذه الناحية من شخصية الفاتح وجلوناها فى خاتمة البحث من هذا الكتاب .

ولو قد فهم المؤرخون الأوربيون هذا الأمر حق الفهم لما وقعوا فيما وقعوا فيه من خليط وتخليط والتواء .

وقد كتب عن فتح القسطنطينية بعد الأستاذ بيرز الأستاذ جوستاف شلانبرجيه ضونتم مخىز لمنصرعفولزمشزم عضو المعهد العام بفرنسا ويتشابه هذان المؤلفان تشابهاً كبيراً فى ذكر حوادث فتح هذه المدينة وعرضها وفى الروح التى كتبابها ، ومرد ذلك بلاشك إلى وحدة المصادر التى اعتمدا عليها واستقيا منها .

لذلك لابد لمن أراد إستيفاء البحث فى هذا الموضوع ومعرفة وجهة النظر التركية من الاطلاع على كتاب أحمد مختار باشا « فتح جليل قسطنطينية » وهذا الكتاب لا يعرض لنا صورة منسقة مرتبة عن فتح القسطنطينية ، كيف بدأت وكيف انتهت ، ولكنه يسرد لنا سرداً خالصاً نصوصاً حرفية قد تطول وقد تقصر من كتب مختلفة غربية مثل ما كتبه همر

---

(1) يقول اللغوى العلامة الأب أنستاس مارى الكرمل . « إن كتابة الإمبراطور بهذا الرسم كما يرسمه المعاصرون لا يوافق القواعد العربية لأنه لا يرى فى الكلم الضادية من عربية ومعربة فيها الميم ساكنة ويليها باء متحركة ، فإذا وقع مثل ذلك رسمت الميم نوناً . ولهذا يجب أن تكتب (الإنبراطور) بنون وهناك لغات أخرى فى كتابة هذه الكلمة وانبرادور وانبرور وجميعها بالنون . أ هـ .

ونحن مع تقديرنا لهذا الرأى آثرنا أن نكتب كلمة الإمبراطور على الصورة الشائعة المنتشرة اليوم على أقلام الكتاب والباحثين .

وما كتبه لامارتين وما كتبته دائرة المعارف الفرنسية وغيرها . ولكن القيمة العلمية الحقيقية لكتاب أحمد مختار باشا إنما هى فى تلك النصوص التركية الثمينة الفريدة التى اجتمعت فى هذا الكتاب أخمد مختار باشا إنما هى فى تلك النصوص التركية الثمينة الفريدة التى اجتمعت فى هذا الكتاب ولم يتيسر اجتماعها فى أى كتاب آخر .

ويأتى بعد هذا الكتاب كتاب لأستاذ ضياء شاكر . « كيف استولى الفاتح على استانبول ؟ » وهو فيما نعلم آخر ما كتب باللغة التركية عن فتح القسطنطينية وقد طبع بالحروف اللاتينية ونجد فيه نصوصاً تركية أخرى قيمة ليست فى كتاب أحمد مختار باشا .

وينفرد فريدون بك فى كتابه القيم « مجموعة منشأت سلاطين » ـ الذى يعتبر سجلاً للمكاتبات التى تبودلت بين سلاطين آل عثمان وغيرهم من الملوك والأمراء ، وقد كتب بعضها باللغة الفارسية وبعضها بالتركية وبعضها بالعربية ـ بإيراد الرسائل التى تبودلت بعد فتح القسطنطينية بين السلطان محمد الفاتح وبعض ملوك المسلمين فى عهده[1] .

ومن المراجع الهامة فى تاريخ السلطان محمد الفاتح تاريخ عاشق زاده باشا ، وهذا المؤرخ ـ فيما يرجح ـ معاصر وقد كتب عن الدولة العثمانية منذنشأتها إلى عهد السلطان بايزيد الثانى ابن السلطان الفاتح .

وفى الكتاب الذى نشره الأستاذ ميرمير أوغلو بعنوان « وثائق خاصة بعهد السلطان محمد الثانى الفاتح » نجد عدة وثائق على جانب عظيم من الأهمية والخطورة لم يسبق نشرها ، ولا يفوتنى هنا أن أسدى أجزل الشكر إلى الأستاذين الفاضلين على حسين يعقوب بالقسم التركى بمكتبة جامعة القاهرة (فؤاد الأول سابقاً) وعبد العزيز أمين

---

(١) أورد ابن تغرى برى فى كتابه « حوادث الدهور جـ 3 ص 256 وما بعدها » رسالتين قال عنهما فى كتابه النجوم الزاهرة (جـ 7 ص 468) أنهما تبودلتا بين سلطانى تركيا ومصر بشأن البشارة بفتح القسطنطينية ولكننا إذا نظرنا إلى تاريخ وصول رسالة الفاتح إلى مصر وهو الثامن عشر من جمادى الأولى سنة 860 هـ ، وإذا نظرنا إلى أسماء الأماكن والقلاع التى وردت فى رسالة الفاتح والأمير الذى حاربه وهو « يوركى » وهو الأسم الذى يطلقه الأتراك على جورج برانكوفيتش أمير صربية ، إذا نظرنا إلى كل ذلك أيقنا أن الرسالتين اللتين أوردهما ابن تغرى بردى لم تتبادلا بعد فتح القسطنطينية وإنما تبودلتا بعد غزو الفاتح لصربية عام 859 هـ واستيلائه على بعض الأماكن والقلاع الهامة فيها .

الخانجى بالقسم التركى بدار الكتب المصرية على تفضلهما بترجمة الكثير من النصوص التركية الهامة إلى اللغة العربية .

ومن المراجع الهامة كتاب « تاريخ الدولة العثمانية » للمؤرخ النمسوى المشهور فون همر Von Hammer ويقول هذا المؤلف فى مقدمة كتابه ـ الذى تناول فيه تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها إلى معاهدة كينارجى سنة 1774 ويشغل 16 جزءاً من الترجمة الفرنسية ـ أنه أنفق ثلاثين عاماً فى جمع عناصر ومواد هذا الكتاب ، لم يضن فيها بجهد ولا مال ، واتصل بجميع مكاتب العالم فى الشرق والغرب واطلع على مافيها من مطبوع ومخطوط ، والحق أن هذا الكتاب فى جملته أكبر كتاب فى الموضوع الذى تناوله ، وما من مؤرخ بعده كتب فى الدولة العثمانية إلا أشار إلى هذا الكتاب ورجع إليه . وقد ترجم إلى اللغة التركية ومعظم اللغات الأوربية .

غير أننا نلاحظ فيما يتصل بالمراجع العربية أن همر لم يورد من مؤلفات المؤرخين المصريين غير « حسن المحاضرة » للسيوطى ، ومعنى ذلك أن هذا المؤلف قد فاته الانتفاع بأعظم وأقيم ما كتبه مؤرخو مصر فى القرن التاسع الهجرى وبخاصة مؤلفات ابن تغرى بردى وابن إياس كما سنبين ذلك فيما بعد ، لذلك جاء ما كتبه همر عن العلاقات السياسية بين مصر والدولة العثمانية فى عهد الفاتح ظاهر النقص والقصور .

وثمة ملاحظة أخرى وهى أن هذا المؤرخ نمسوى نصرانى قبل كل شىء ، يكتب عن دولة إسلامية اكتسحت الممالك النصرانية فى أوربا الشرقية وأوشكت أن تلتهم النمسا نفسها لذلك لم يخل كتاباته عن سلاطين آل عثمان من التعصب والتحامل ونجد مثلاً لذلك فيما كتبه عن السلطان محمد الفاتح أنظر هذا الكتاب ص97 و 191 و 294 .

يهم القارئ العربى بعد ذلك أن يعرف شيئاً عن المراجع العربية فى الموضوع الذى نعالجه ، لقد كان من حسن المصادفة والاتفاق أن عاصر السلطان محمد الفاتح أربعة من أعاظم مؤرخى مصر فى القرن التاسع الهجرى وهم : ابن تغرى بردى والسخاوى والسيوطى وابن إياس .

وهؤلاء المؤرخون ومن جاء بعدهم كالإسحاقى وابن العماد الحنبلى ممن عرضوا للكتابة فى الدولة العثمانية أو ترجمة بعض سلاطينها مؤرخون مسلمون قبل كل شىء ،

لذلك كثر فى كتاباتهم ذكر الجهاد وغزو الفرنج ودك حصونهم وقلاعهم والإشادة بسلاطين آل عثمان باعتبارهم درعاً للإسلام وسياجاً ، وقد بهرهم أول ما بهرهم من أعمال السلطان محمد الفاتح فتحه للقسطنطينية ، هذه المدينة التى تواترت فيها الأحاديث عن الرسول - ﷺ - مبشرة بفتحها وحاول المسلمون فتحها منذ أيام الخليفة عثمان بن عفان واستشهد تحت أسوارها الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى أول من نزل عليه الرسول - ﷺ - عند هجرته إلى المدينة ، ومن هنا اكتسب السلطان الفاتح بفتحه القسطنطينية مقاماً وشهرة لدى المؤرخين العرب لم يظفر بهما أحد من السلاطين العثمانيين .

وقد أخذ محمد بن على الشوكانى اليمانى الحافظ بن حجر وشمس الدين السخاوى على إهمالهما وعدم تقصيهما فى ترجمة سلاطين آل عثمان ومن كان فى عهدهم من العلماء فيقول « وقد أهمل الحافظ بن حجر ذكر ملوك الروم (الدرر الكامنة فى أهل المئة الثامنة) فلم يذكر من كان فيها منهم ، وكذلك السخاوى أهمل بعضاً ممن كان منهم فى المئة التاسعة وذكر بعضاً وهذا عجيب فإنهما يترجمان لجماعة من أهل سائر الديار هم معدودون من أحقر مماليك سلاطين الروم ، مع أنهما يترجمان لكثير من صغار الملوك والأمراء الكائنين بالأندلس واليمن والهند وسائر الديار ، وهكذا أهملا غالب علماء الروم ولم يذكرا إلا شيئاً يسيراً منهم مع أنهما يترجمان لمن هو أبعد منهم داراً وأحقر قدراً فالله أعلم بالسبب المقتضى لذلك ، وقد ذكرنا فى هذا الكتاب كثيراً ممن أهملاه [1] » .

والحق أن هذا الاهمال أو هذا التقصير من ابن حجر والسخاوى أو غيرهما لم يكن فى الواقع شيئاً مقصوداً متعمداً ، وإنما يرجع إلى فقدان المصادر والمعلومات ، وقد اعتذر السخاوى لنفسه من التقصير من قبل أن يؤاخذه الشوكانى - بالرغم مما أورده من تراجم بعض السلاطين والعلماء فى كتابه (الضوء اللامع) - إذ يقول إن بالروم علماء وفضلاء بالعقليات ولكن « قل أن تصل إلينا أخبارهم » [2] . لذلك لما ظهر كتاب « الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية » الذى فرغ مؤلفه طاشكبرى من كتابته فى سنة 965 هـ تسارع العلماء المصريون وغيرهم كابن العماد الحنبلى والشوكانى نفسه إلى

---

(١) البدر الطالع .

(2) الإعلان بالتوبيخ .

الإكباب عليه والاغتراف منه ، وجاء كل ما كتبوه بعد ذلك عن العلماء العثمانيين اختصاراً محضاً من هذا الكتاب لا جديد فيه .

ونلاحظ أن عناية هؤلاء المؤرخين بالناحية الدينية والعلمية أكبر من عنايتهم بالناحية السياسية ونجدهم إذا ما عرضوا للأحداث والعلائق السياسية المختلفة كثر فى كتابتهم الخطأ والاضطراب , ونستثنى من هؤلاء المؤرخين المصريين الجليلين ابن تغرى بردى وابن إياس وقد عرض الأول فى كتابه « النجوم الزاهرة » وفى كتابه « حوادث الدهور » بوجه خاص للأحداث والعلاقات السياسية المختلفة بين مصر وجاراتها لا سيما تركيا , وتمتاز كتابة ابن تغرى بردى بالدقة والوضوح وقدر كبير من الإسهاب ، مما يدل على سعة اطلاعه ومعرفته لدخائل السياسة المصرية ، وخباياها ، ويرجع ذلك بلا ريب إلى اتصاله الوثيق بالبلاط المملوكى والمناصب والوظائف المختلفة التى شغلها فى الدولة المملوكية .

على أن هذه العوامل نفسها هى التى أضفت على كتابته فى بعض الأحيان شيئاً من روح التحزب والانحياز عندما يعرض لخلاف وقع بين السلطانين العثمانى والمصرى [1] :

وقد عرض ابن إياس فى كتابه (بدائع الزهور) لما عرض له ابن تغرى بردى من ذكر الأحداث والعلاقات السياسية بين مصر وتركيا ، غير أنه فى كتابته أميل إلى الإيجاز والاختصار الشديد فى بعض الأحيان .

ونحن لم نثبت فى « ثبت المراجع » إلا الكتب الهامة ذات القيمة العلمية والمتعلقة بموضوع الكتاب تعلقاً مباشراً ، أما الكتب التى استفدنا منها استفادات عارضة فقد اكتفينا بإثبات أسمائها مؤلفيها فى الهامش .

***

(١) طبع كتاب « حوادث الدهور » فى كاليفورنيا تحت إشراف الأستاذ بوبر Popper سنة 1930 ـ ، وقد وصل هذا الكتاب فى الأجزاء التى وصلت إلينا إلى حوادث ذى الحجة 873 هـ (توفى ابن تغرى بردى فى ذى القعدة 874 هـ) . وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية فى مجلدين (تحت رقم 2397 تاريخ) وبها زيادهات ليست فى المطبوعة . غير أن هذه المخطوبة لم تصل إلا إلى حوادث سنة 860 هـ أما إبن إياس فقد امتد به العمر إلى سنة 930 هـ وشهد بنفسه فتح العثمانيين لمصر سنة 923 .

تمهيد

من نشأة الدولة العثمانية إلى ارتقاء محمد الفاتح عرش السلطنة

قبيلة عثمان فى آسيا الصغرى - الإمارة ونموها - أورخان فى أوروبا - مراد الأول - فتح أدرنة - موقعتا مارتزا وقوصوه - بايزيد الأول - موقعة نيكوبولى - موقعة أنقرة - هزيمته وأسره - الحرب الأهلية - محمد الأول - مراد الثانى - الفتن والاضطرابات - الفتوحات فى آسيا وأوروبا - حصار بلغراد - صلح سزجدين - محمد الفاتح - موقعة وارنة - تنازل مراد للمرة الثانية - ثورة الإنكشارية - فرار إسكندر بك - معركة قوصوه الثانية - وفاة مراد وسلطنة محمد .

شهد العالم الإسلامى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) غزوات مريعة مدمرة ، لعلها كانت أشد مانكب به المسلمون فى تاريخهم ، تلك هى غزوات المغول التى انطلقت من شرقى آسيا فى بداية هذا القرن على يدجنكيزخان ، فاندفعت كالسيل الآتى الجارف لا يقف فى سبيله شىء ، فاكتسح ممالك ودمر عواصم وأزهق أرواحاً لا تحصى ، وكانت دولة خوارزم شاه فى ماوراء النهر أول دولة إسلامية استهدفت لهذا السيل المغولى فلم تقو على صده وبانهيار هذه الدولة سنة (617 هـ - 1220 م) انطلق هذا السيل غربى آسيا ولم تكن هناك فى ذلك الوقت غير ممالك ضعيفة مفرقة فطواها فى أحشاءه ، وجفل الناس أمام هذا الخطر الداهم وفروا يطلبون النجاة .

وكان فيمن فر سليمان بن قيالب (جد عثمان) فنزح بأهله وعشيرته من مستقرهم بخراسان التى هاجروا إليها منذ أمد بعيد من موطنهم الأول فى أواسط آسيا ، واتجه بهم إلى الغرب وكانوا زهاء خمسمائة ألف نسمة .

ومضى سليمان يجد فى سيره ، حتى استقرت به النوى سنة (621 هـ - 1224 م) فى أرمينية على ضفاف الفرات فيما بين أرزنجان وأخلاط , ولبث سليمان وقومه فى مقرهم الجديد بضع سنين إذ بلغه موت جنكير خان ، وظن أن الخطر المغولى قد زال والبلاء قد انقشع ، وساوره الحنين إلى العودة إلى موطنه السابق ، فأجمع أمره واتخذ سبيله بمحاذاة

الفرات ، غير أنه عند ماهم بعبوره في مكان وعر زلقت قدم فرسه براكبه إلى النهر وابتلعه الماء (628 هـ ـ 1231م) .

وانقسم أتباعه من بعده إلى طائفتين .

أما الأولى : ـ وهي الأكثر عدداً ـ فقد واصلت سيرها إلى خراسان بقيادة سليمان سنقور تكين وكوند وغدى وهؤلاء قد طوى الدهر أخبارهم ولم يذكر التاريخ من أمرهم شيئاً .

أما الطائفة الأخرى ؛ وكانت نحو أربع مئة أسرة ـ فقد تولى أمرها أرطغرل بن سليمان فأخذ يرود بعض سهول أرضروم بالقرب من منابع الفرات ثم اتجه بقومه نحو الغرب ينشد لهم المقر الأمين والعيش السهل الخفيض ، وإنه لفي سيره عند حدود سلطنة سلاجقة الروم إذ وقع بصره في سهل من السهول على جيشين يقتتلان دون أن يعرف من أمرهما شيئاً فدفعته النخوة إلى نجدة أضعفهما حتى تمت له الغلبة والنصر ، وتبين لأرطغرل بعد ذلك أنه إنما انتصر لجيش علاء الدين سلطان سلاجقة الروم على المغول وابتهجت لذلك نفسه ، إذ أنه انتصر لقوم تربطه بهم أواصر الدم واللغة والدين ، ولا غرو فقبيلة أرطغرل والسلاجقة فرعان من فروع الدوحة الكبيرة أوغوز .

وقدر علاء الدين لأرطغرل صنيعه وحسن بلائه كما رأى فيه قوة يستطيع أن يستعين بها فيما بعد على إعدائه من الروم والمغول فأقطعه جبال قره جه وطومانيج وأرمني وسهل سكود ، وتقع هذه الأراضي في الناحية الغربية من الدولة السلجوقية ، وتحاذي حدود الروم الذين كانوا لاتزال لهم بعض المدن في آسيا الصغرى ، وقد أبلى أرطغرل أحسن البلاء في جهاد أعداء سيده من الروم والمغول فزيد في إقطاعه ومنح ألقاب الشرف والتكرم .

عثمان :

وبعد وفاة أرطغرل سنة (680 هـ ـ 1281 م) خلفه ابنه عثمان فسار سيرة أبيه في الجهاد والفتح واستولى سنة (687 هـ ـ 1288 م) على « قرجه حصار » وهي قلعه عظيمة للروم تقع على نهر سقاريا ، فأحبه السلطان علاء الدين الثالث وبالغ في إكرامه وأذن له بضرب السكة وذكر اسمه في خطبة الجمعة مع اسم السلطان ، وضم إليه جميع الأراضي التي فتحها .

على أن دولة سلاجقة الروم كانت قد تضعضعت وانحلت من طول ما أصابها من الغزوات الخارجية والفتن الداخلية وكان سلطانها علاء الدين الثالث إذ ذاك رجلاً ضعيفاً جباناً أخرق مكروهاً عند الناس ، وحدث في سنة (699 هـ ـ 1300 م) أن أغار عليه المغول واشتعلت في الوقت نفسه نيران الفتنة داخل دولته ، وأطبق عليه الخطر من هنا وهناك وتملكة الفزع والرعب ، ففر إلى القسطنطينية حيث لقى مصرعه ، ولم يكن لعلاء الدين عقب يخلفه على السلطنة فاستقل الولاة بالمقاطعات التي كانوا يحكمونها ، وجعلوا منها إمارات بلغت عدتها تسعاً وهي : القرمان وكرميان وقره سي وصاروخان وايدين وقسطموني والحميد ومننشا وتكه ، واستقل عثمان بما كان تحت يده واتخذ « يني شهر » « المدينة الجديدة » عاصمة له ودعا نفسه « بادشاه آل عثمان » أي (سلطان العثمانيين) وكان ذلك بداية الدولة العثمانية التي شغلت حيزاً كبيراً في تاريخ العالم .

وكانت الروح الصليبية لا تزال مشبوبة متقدة إلى ذلك الحين وكانت هي التي تهيمن على العلاقات بين الشرق والغرب ولم يمض بعد على فتح المسلمين لعكا آخر حصون الصليبيين في فلسطين غير بضع سنين ، وكانت العاطفة الدينية على عنفوانها وشدتها لدى العثمانيين فكان طبيعياً أن يبدأ عثمان في غزواته وفتوحاته بجيرانه الروم في غربي آسيا الصغرى ومما أغراه بذلك ما كان عليه هؤلاء الروم من الضعف والخور ، وما كانت عليه أراضيهم من الخصوبة والثروة واستولى منهم عثمان على أماكن عديدة منها بروسه التي كانت تعد أهم حصن في آسيا الصغرى كلها .

أورخان :

وخلفه على السلطنة سنة (726 هـ ـ 1336 م) ابنه أورخان وقد شب وترعرع تحت كنف أبيه في ساحات الحرب وميادين القتال وقاد الجند وفتح المدن ، استولى في السنة الأولى من حكمه على أزميد « نيقوميديا » ثم استولى سنة (731 هـ ـ 1330 م) على أزنيق « نيقيا » ثانية المدن الرومية بعد القسطنطينية وبذلك سيطر على ساحل بحر مرمرة ولم يعد يفصله عن أوروبا غير هذه القناة البحرية الصغيرة وأثار ذلك شيئاً غير قليل من الفزع والقلق في أوروبا وبدأت البابوية تشعر بالخوف من تقدم العثمانيين

وخشيت أن يعبروا البحر إلى أوروبا فيعظم خطرهم بعد ذلك على إيطاليا وعلى البابوية فيها [1] كما أدركت الدول التجارية وفى مقدمتها البندقية الخطر الكامن فى هذه الدولة الإسلامية الجديدة إذا ما ترعرعت ونمت فإنها لن تلبث حتى تنازعها سلطانها ومكانتها فى الشرق وتغالبها على أملاكها ومستعمراتها فيه ، وسعت البندقية إلى تأليب الدول النصرانية على العثمانيين قبل أن يستحفل أمرهم ويعظم خطرهم وعقد حلف صليبى اشترك فيه البابا وملك فرنسا والبندقية وفرسان رودس وامبراطور القسطنطينية وفى 11 نوفمبر سنة 1333 أعلن البابا يوحنا الثانى والعشرون « Jean XXII أن ملك فرنسا فيليب السادس هو الذى سيقود الحملة الصليبية ولكن موت البابا فى ديسمبر من ذلك العام عاق تنفيذ هذه الحملة . وظلت الاستعدادات فى فرنسا مع ذلك مستمرة نشطة واحتشدت فى الموانى سفن كثيرة تكفى لنقل عشرات الألوف من المقاتلين وتوافد الصليبون من كل جانب حتى بلغت عدتهم ثلاثمائة ألف رجل ولكن جدَّ أمر قضى على جميع هذه الاستعدادات وهو نشوب الحرب بين فرنسا وإنجلترا .

كانت غزوات العثمانيين إلى ذلك الحين موجهة إلى الروم ، ولكن حدث فى سنة (736 هـ ـ 1336 م) أن توفى أمير قره سى ـ وهى إحدى الإمارات التى قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم واختلف ولداه من بعده وتنازعا الإمارة ، واهتبل أورخان هذه الفرصة فتدخل فى النزاع وانتهى بالاستيلاء على الإمارة .

وقد كان مما تهدف إليه الدولة العثمانية الناشئة أن تخلف دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وترث ما كانت تملكه واستمر الصراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتى أيام الفاتح حيث تم إخضاع آسيا الصغرى برمتها لسطانه .

وانصرف أورخان بعد ذلك إلى توطيد أركان دولته وإلى الأعمال الإصلاحية والعمرانية فنظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية وأمضى فى كل ذلك نحو عشرين عاماً ، ثم دعته الأحداث والظروف إلى القيام بعمل يعتبر بداية مرحلة جديدة وتطور هام فى مجرى تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ أوروبا كلها ذلك هو نزول العثمانيين فى أوروبا وما تلاه بعد ذلك من الفتوحات الواسعة فيها .

Biliotti et l'abbe' Cottert . L'Ile de Rhodes . (1)

كان على عرش بيزنطة فى ذلك الوقت إمبراطور صبى عهد بالوصاية عليه إلى والدته أنا Anna وإلى رجل يدعى يوحنا كانتاكوزين John Contacuzene ، ولكن هذا الرجل الطموح لم يقنع بهذه الشركة فى الوصاية وطمع فى أن يكون له شىء من الملك والسلطان وعارضته الإمبراطورة وقاومته فاحتربا واستنصر كل منهما السلطان أورخان . ولعل كانتاكوزين كان أسخى فى البذل والمكافأة فآثره أورخان بالمعونة والنصر وانتهى الأمر بأن جعل عرش القسطنطينية قسمة بين كانتا كوزين وزوجته ، وأنَّا وابنها يوحنا الذى تزوج ابنة كانتاكوزين توثيقاً لهذه الرابطة ، وتزوج أورخان ابنة أخرى له تدعى تيودورا سنة (747 هـ - 1346 م) وعاد الجنود العثمانيون إلى آسيا الصغرى .

حدث بعد ذلك أمر آخر استدعى مجىء العثمانيين مرة أخرى إلى أوروبا ، وذلك عندما زحف إمبراطور الصرب دوشان على سالونيك سنة (1349 م) وكاد يستولى عليها فاستنجد كانتا كوزين السلطان أورخان فبعث إليه بعشرين ألف مقاتل ونجت المدينة من الغزو الصربى ثم عاد العثمانيون أدراجهم إلى آسيا الصغرى ، على أن كانتاكوزين لم يقنع طويلاً بهذه الشركة فى الحكم وطمحت به نفسه إلى التفرد بالسلطان وأن تخلص الإمبراطورية له وحده يتوارثها أعقابه من بعده فثار عليه ختنه يوحنا باليولوج والإمبراطورة أنأ والدته ونشبت بذلك حرب أهلية ، وللمرة الثالثة استنجد كانتا كوزين السلطان أورخان فأعانه بعشرين ألف جندى بقيادة ابنه سليمان على أن يسلم كانتاكوزين للعثمانيين بعد انتصاره قلعة صغيرة على الشاطىء الأوروبى من الدردنيل وهى قلعة تزيمب Tzympe على مسافة غير بعيدة من كليبولى وكانت أول بقعةاحتلها العثمانيون فى أوروبا .

ولم يمض وقت طويل على استقرارهم فى هذه القلعة حتى حدثت زلزلة عنيفة - وهو أمر غير نادر الوقوع فى تلك الأنحاء - فدمرت كثيراً من المدن ودكت بعض أسوار كليبولى التى تعد أهم حصن على الدردنيل واعتقد الروم والأتراك على السواء أنها حدث إلهى يشير إلى شىء ولكنهم اختلفوا فى فهمه وإدراك مغزاه ، أما الروم فقد اعتقدوا أنها غضبة إلهية حاقت بهم فخرجوا من كليبولى وولوا عنها هاربين وتركوا المدينة خواء ، أما الأتراك فقد استبشروا واعتقدوا أن الله قد أراد بهم خيراً فمهد لهم السبيل للاستيلاء على هذا الحصن وما هذا الحدث الذى زلزل قلوب الروم إلا آية من آيات النصر ينزلها الله على عباده المؤمنين فتثبت قلوبهم وتزيدهم إيماناً ، وزحف سليمان بجنوده على كليبولى

ودخلها بغير حرب ولا قتال ، وشرع فى إصلاح أسوارها وغدت كليبولى قلعة عثمانية وقاعدة لغزوات العثمانيين وفتوحاتهم فى أوروبا ، وأصبحت طلائعهم على بعد أميال فقط من القسطنطينية .

وتجسم لكانتا كوزين الخطر العثمانى وأدرك عظم خطئه فى استدعائه للعثمانيين إلى أوروبا ، وتشكى إلى أورخان وطلب منه إعادة كليبولى ، كما عرض أن يدفع له مالاً عظيماً على أن يخلى تزيمب ولكن أورخان لم يكترث له وبعث كانتا كوزين إلى الصرب والبلغار يستحثهم على عقد حلف من نصارى البلقان لإخراج الأتراك من أوروبا ولكنه لم يلق من هؤلاء غير السخرية والشماتة .

وهاج الروم فى القسطنطينية على كانتا كوزين وبلغ غضبهم عليه أشده فى أواخر عام 1354 بعد أن بهظتهم الضرائب والمكوس واتهموه بأنه يريد تسليم القسطنطينية للعثمانيين وخلعوه عن العرش .

وقضى كانتا كوزين بقية حياته فى الرهبنة ثم خلع ابنه وعاد يوحنا باليولوج إلى عرش بيزنطة وتفرد به ، غير أنه كان أضعف من أن ينازل العثمانيين بعد أن ثبتوا أقدامهم فى المناطق التى احتلوها وأخذوا بعد ذلك يتوغلون فى تراقيا حيث استولوا على مدن أخرى ، واضطر يوحنا باليولوج آخر الأمر أن يترف بهذه الفتوحات العثمانية وأصبح بمنزلة التابع .

ومات سليمان سنة (759 هـ ـ 1358 م) إذ سقط من ظهر جواده فى أثناء ، رحلة للصيد وحزن أورخان لذلك أشد الحزن ولحق به فى السنة التالية بعد أن قضى على شوكة الروم فى آسيا الصغرى وفتح أبوابُ أوربا لمن بعده .

مراد الأول :

ترك أورخان لابنه مراد الأول جيشاً قوياً تمكن به من مد فتوحاته فى أوروبا وآسياً معا

وكانت رقعة الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ضيقة النطاق تنحصر فى شاطىء الدردنيل الأسيوى والأوربى والشاطىء الأسيوى من البرسفور . وقد زاد مراد سعة هذه الدولة بخمسة أضعافها . استولى سنة (763 هـ ـ 1361) على أدرنة دون أن يلقى مقاومة تذكر من حاميتها وهى أهم مدينة بعد القسطنطينية ، وقد أدرك مراد أهمية موقعها وخطورة مركزها فاتخذها عاصمة ملكه . واستولى بعد ذلك على

فليبوبولى philippoplis وأصبح العثمانيون بذلك يتوسطون البيزنطيين والصرب والبلغار ولم يجد امبراطور القسطنطينية بدا من الإذعان للأمر الواقع فاعترف بفتوحات العثمانيين وتعهد فوق ذلك بأن لا يعاون الصرب والبلغار بل يساعد السلطان مراد فى حروبه ضد أمراء آسيا

كانت انتصارات العثمانيين إلى ذلك الحين تقع على الروم وهم قوم ضعاف رعاديد ولكنهم بعد توغلهم فى البلقان وجدوا أنفسهم تجاه شعوب أخر أشد بأساً وشكيمة وأكثر مراساً ودراية بالحرب والقتال كالصرب والبلغار والمجر الذين هالهم تقدم العثمانيين .

وكانت البابوية إلى ذلك الحين لاتكترث كثيراً لما كان ينزل على الروم من الهزائم والنكبات فقد كانوا فى نظرها زنادقة أنجاساً ولم تبال باستغاثاتهم بها ، أما الآن وقد استهدفت ممالك نصرانية كاثوليكية كالمجر للخطر الإسلامى فقد دعا البابا أوربان الخامس Urbain إلى حملة صليبية على العثمانيين ، وأهاب بالمجر والصرب والأفلاق أن يتحدوا ويكونوا إلباً واحداً عليهم ويخرجوهم من أوربا .

واحتشد من جميع هؤلاء جيش عرمرم التقى بهم العثمانيون على ضفاف نهر مارتزا وهزموهم هزيمة ساحقة سنة (765 هـ 1363 م) وضم مراد إلى ملكه المناطق الواقعة فى جنوبى جبال البلقان ، أما البابا فقد انتابه غم شديد من جراء هذه الهزيمة وغلبه البكاء والنحيب وأيقن أن الأتراك لن يقف فى سبيل تقدمهم شىء [1] .

والحق أن معركة مارتزا تعد من المعارك الفاصلة فى تاريخ الدولة العثمانية بل فى تاريخ الإسلام .

فلو أن النصارى انتصروا فى هذه الموقعة وأخرجوا الأتراك من أوروبا لواصلوا زحفهم إلى آسيا الصغرى حتى بيت المقدس ، وربما تكررت مأساة الحملة الصليبية الأولى فإن فكرة تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين كانت لاتزال حية حاضرة فى أذهان النصارى فى ذلك الحين وإلى ما بعد ذلك الحين .

وتقدمت جمهورية راجوزا من تلقاء نفسها إلى السلطان مراد لما رأت شدة بأسه

---

(1) Miller. The Balkans

وعدالة حكمه وعقدت معه فى سنة (767 هـ ـ 1365 م) معاهدة تجارية منح بها مراد أهل راجوزا الامتياز بالإتجار فى أملاكه على أن تدفع له الجمهورية جزية سنوية قدرها خمسمائة دوقة ذهباً ، وهى أول معاهدة عقدها العثمانيون مع دولة نصرانية وذهب إمبراطور القسطنطينية إليه مدى أبعد فى الخضوع للعثمانيين فقبل أن يدفع جزية سنوية للسلطان وأن يقدم إليه جنوداً فى حروبه المقبلة .

وما لبث الإمبراطور أن ضاق ذرعاً بما وصل إليه حاله من الضعف والذلة والهوان فرحل عام 1369 إلى روما على أمل أن ينجح فى حمل البابا على دعوة الدول النصرانية إلى شن حملة صليبية جديدة على العثمانيين وقام الإمبراطور فى سبيل ذلك بطقوس المذهب الكاثوليكى وركع أمام البابا وقبَّل يديه ورجليه ولكنه برغم ذلك لم يصل إلى شىء مما كان يريد وعاد أدراجه إلى القسطنطينية وقد جلب على نفسه سخط الروم وغضب السلطان ، ولم يجد بداً من الإذعان للأمر الواقع على مرارته ، وعقد مع السلطان مراد معاهدة اعترف فيها بالتبعية الصريحة له وتعهد بأن يخدم بنفسه فى الجيش العثمانى وقدم ابنه مانويل ليكون رهينة فى يد السلطان .

واصل مراد وقواده فتوحاتهم فى أوروبا واستولوا على كثير من المدن أهمها : ساماكوف وصوفيا ومو ناستير ونيس وسريس وسالونيك ، وأصبح ملكا بلغاريا وصربية يدفعان الجزية للدولة العثمانية ، كذلك وسع السلطان مراد حدود دولته فى آسيا الصغرى فيما بين سنتى (778 ـ 782 هـ ، 1380 ـ 1380 م) فقد زوج ابنه بايزيد بابنة أمير كرميان على أن يسلم للسلطان قلعة كوتاهية وعدة مدن أخرى من إمارته و أرغم السلطان مراد أمير الحميد على أن يبيع له جزءاً من إماراته .

كذلك استولى على جزء من إمارة تكة ، وكان أشد هذه الإمارات بأساً 4 4 وأعظمها شوكة إمارة القرمان ، وقد ظلت تصاول العثمانيين وتراوغهم حتى أيام الفاتح ، وقد انتهز علاء الدين أمير هذه الإمارة انهماك السلطان مراد فى الحرب هنا وهناك فزحف على حدود دولته غير أن السلطان مراد عاجله وهزمه فى سهل أنقرة سنة (879 هـ ـ 1387 م) ووقف عند ذلك ولم يأخذ شيئاً من إمارته .

ولم تكد تنتهى الحرب فى آسيا حتى اندلعت حرب أخرى فى أوروبا كانت كلمة

الفصل بين العثمانيين ونصارى البلقان ، فقد تحالف سسمان ملك بلغاريا ولازار ملك صربية على قتال العثمانيين واستطاع مراد أن يهزم سسمان على حدة واخضع معظم بلغاريا ، أما لازار فقد انضم إليه أمراء البوسنة والأفلاق وألبانيا والهرسك وجاءته جنود من المجر وبولندا واجتمع من جميع هؤلاء جيش لهّام يكثر جيش المسلمين أضعافاً مضاعفة وكانوا على ثقة ويقين من النصر وقد وطدوا عزمهم على استئصال شأفة العثمانيين من أوربا قبل أن ترسخ أقدامهم فيها واتجهوا إلى قوصوة وعسكروا بها .

ونهض إليهم السلطان مراد برغم كبر سنه وكان وزيره يحمل معه مصحفاً ففتحه على غير قصد فوقع نظره على هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنفال : 65) فاستبشر بالنصر واستبشر معه المسلمون ولم يلبث أن نشب القتال بين الجمعين وحمي وطيسه واستعرت الملحمة واستماتت الفريقان فى القتال ، ولا غرو فكلاهما كان يعلم أنها المعركة التى تحسم النزاع وتقرر المصير وانجلت الحرب آخر الأمر عن انتصار المسلمين انتصاراً باهراً حاسماً ، وقد اغتيل السلطان مراد قبيل نهاية المعركة على يد رجل صربى ، وكان ذلك فى سنة (791 هـ ـ 1389 م) .

بايزيد :

وخلفه على السلطنة ابنه بايزيد فبدأ بقتل أخيه يعقوب خشية أن ينازعه الملك فتقوم الفتنة إذ لم يكن هناك نظام ثابت واضح لوراثة العرش وهو مقبل على أعمال خطيرة تستدعى الأمن والطمأنينة فى الداخل .

واصل بايزيد فتوحات والده فى أوروبا وآسيا وكان أشد منه اندفاعاً واقتحاماً وقد صرح لوفد قدم إليه من إيطاليا لبعض الشؤون التجارية أنه بعد أن يفتح المجر سيزحف إلى رومة ويطعم حصانه العشب فى مذبح القديس بطرس [1] ، واعترف استيفان ملك صربية بالسيادة العثمانية وأخذ على نفسه أن يدفع جزية سنوية للسطان ويقدم إليه فرقة من الجند ، وقد وفى استيفان بعهده فقاتل جنوده الصرب مع بايزيد فى معركتى نيكوبولى وأنقرة

(1) Lord Eversly The Turkish Empire. Daru, Histoire de la repubique de venise .

بشجاعة وإخلاص ونزلت بيزنطة دركة أخرى فى الخضوع للدولة العثمانية ، فإنه لما أبى قائد آلاشهر « فلادلفيا » وهى آخر قلعة لبيزنطة فى آسيا الصغرى ـ تسليمها للسلطان بايزيد زحف عليها الإمبراطور يوحنا وابنه مانويل بأمر السلطان وسلماها له !

واستولى بايزيد أيضاً فى آسيا الصغرى على إمارات أيدين وصاروخان ومنتشا وفر أمراؤها ولجئوا إلى إمارة قسطمونى فى الشمال ، وضم البقية الباقية من إمارتى تكة وكرميان ثم فتح إمارة القرمان سنة 1394 ، وفتح فيما بين سنتى 795 ـ 796 هـ (1393 ـ 1394 م) مدن سامسون وقيساريه وسيواس وتوقات واستولى أخيراً على قسطمونى .

وبذلك قضى على آخر إمارة من الإمارات التسع التى قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم وفر أميرها مع من لجأ إليه من الأمراء الآخرين إلى تيمورلنك ، وخلصت آسيا الصغرى برمتها لسلطان بايزيد لم يند عنه منها غير إمبراطورية طرابزون فى الشمال وأزمير فى الجنوب الغربى ، فقد كانت هذه فى يد فرسان رودس (1) .

وفى أوروبا ضم بايزيد إلى الدولة العثمانية الجزء الشمالى من بلغاريا كما استولى على نيكوبولى ويدين وسلتر يائم عبر نهر الطونة وأرغم أمير الأفلاق على الخضوع ودفع الجزية ، واقترب بايزيد بذلك من حدود المجر وذعر ملكها سجسمون فبعث إلى أوربا يستغيث ويستصرخ (1395 م) وسارع البابا بونيفاس التاسع Boniface إلى تلبية استغاثته ودعا جميع النصارى إلى حملة صليبية قوية على العثمانيين ووعد بالغفران التام كل من يشترك فى هذه الحملة (2) وتوافد الجنود والفرسان إلى المجر وتهاطلوا من جميع أنحاء أوروبا : من فرنسا وانجلترا وسكوتلاندة وألمانيا والفلاندر ولومبارديا وسافوى وجنوا وترانسلفانيا ومولدافيا والبوسنة ورودس والأفلاق التى رفض أميرها دفع الجزية للسلطان وجهزت البندقية وبعض جزر الأرخبيل أسطولاً كبيراً لهذه الحملة .

وكانت الخطة المرسومة أن يقوم هذا الأسطول بالهجوم على العثمانيين من ناحية البحر فى الوقت الذى يهجم فيه الجيش البرى المتحالف عليهم من ناحية البر ويقع المسلمون

---

(1) Flandin. Historie des Chevaliers de Rhodes.

(2) Sir Edward Creasy. History of the Ottoman Turks

بذلك بين شقى الرحى فيطحنون طحناً لا ينجو منهم أحد واحتشد هذا الجيش العرمرم الكبير فى بودا بالمجر سنة 1396 ، ثم انحدروا مع نهر الطونة وعسكروا أمام نيكوبولى وكانوا على أعظم ثقة بالنصر ينظرون إلى هذه الحملة على أنها نزهة عسكرية ووطدوا عزمهم بعد هزيمة بايزيد أن يواصلوا الزحف إلى القسطنطينية فآسيا فالشام ففلسطين وينقذوا بيت المقدس من أيدى (الكفار) (1) وخرج السلطان بايزيد فى جيشه والتحم بهؤلاء الصليبيين فى نيكوبولى فى قتال مرير عنيف انتهى بانتصار المسلمين انتصاراً باهراً كاملاً ووقع فى أسرهم كثير من عظماء جيش النصارى (ذو الحجة 798 هـ سبتمبر 1396 م) .

وفى نشوة النصر والظفر قال السلطان بايزيد فى زهو وكبرياء أنه سيفتح إيطاليا ويطعم حصانه الشعير فى مذبح القديس بطرس بروما (2) .

أما سجسموند ملك المجر الذى كان قد بلغ به الغرور والاعتداد بجيشه وقوته أن قال : لو انقضت السماء من عليائها لأمسكناها بحرابنا ـ فقد ولى هارباً ومعه رئيس فرسان رودس ولما بلغا فى فرارهما شاطىء البحر الأسود وجد هناك الأسطول النصرانى فوثبا على إحدى السفن وفرت بهما مسرعة لا تلوى على شىء وتضاءلت مكانة المجر فى عيون الناس بعد موقعة نيكوبولى وذهب ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة .

عاد بايزيد إلى أدرنة وكان قد ترك كتيبة من جنده تحاصر القسطنطينية فقد كان يرى أن لامندوحة له من الاستيلاء عليها لتأمين كيان دولته ، وطلب من الإمبراطور أن يسلمها له ووعده بالأمان لنفسه ولجميع أهل المدينة قبل أن يفتحها عنوة وتزهق الأرواح وتراق الدماء ولكن الإمبراطور على ضعفه كان يدرك أهمية القسطنطينية وخطورة مكانتها وموقعها وكان على يقين بأن الدول النصرانية لن تدعها تقع فى يد العثمانيين بل ستسرع إلى نجدته ومناصرته فبعث إلى السلطان بايزيد يأبى عليه ما طلب وليفعل ما شاء .

وتأهب بايزيد وهَّم بالهجوم على القسطنطينية ولكن حدثاً هاماً صرفه عن المضى فى

---

(1) Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire Sir Edward Creasy, op cit, Sir James porter, Turkey,its history and progress.

(2) Gibbon, op cit. Allen, The Turks in Europe .

أمره وحمله على رفع الحصار عن المدينة وأسرع بجيشه إلى آسيا الصغرى ، ذلك أن الفاتح التترى تيمورلنك كان قد وصل فى زحفه من الشرق إلى حدود الدولة العثمانية وشرع يتوغل فيها .

وكانت الدولة العثمانية كما قد رأينا تزداد كل يوم قوة وأيداً وتزداد كل يوم امتداداً واتساعاً واستحوذ الرعب والفزع على قلوب أهل أوروبا فلما تسامعوا بالفاتح التترى بعثوا إليه يحرضونه على قتال العثمانيين ويغرونه بهم وكتب إليه ملك فرنسا شارل السادس الرسالة تلو الرسالة يستعجله ويستحثه على هذا الأمر .

وكان تيمورلنك من جهته قد اتسع ملكه وقويت شوكته وعظمت مهابته وتشوفت نفسه إلى الخلافة ونظر فلم يجد نداً يكافئه وينافسه غير سلطان العثمانيين ، فكان طبيعياً أن يسارع إلى تلبية دعوة أهل أوروبا له إذ كان يعلم أنه مقبل على منازلة رجل شديد البأس قوى الشكيمة مسعر حرب فلم يكن أحب إلى نفسه من أن يجد حلفاء يعينونه على قتاله وطلب من دول أوروبا البحرية وفى مقدمتها جنوا والبندقية أن تأتى بسفنها لمقاتلة العثمانيين من البحر بينما يقوم هو بقتالهم فى البر وتستطيع هذه السفن فوق ذلك أن تسد الطريق على الجنود العثمانية ، القادمة من أوروبا إلى آسيا .

وهكذا أصبح السلطان بايزيد بين فاتح طموح فى الشرق يسعى إلى إزالته والقضاء عليه ليتفرد بالخلافة والأمر بين المسلمين وبين عدو مكلوم موتور فى الغرب يريد هلاكه وموته .

وكان بعض الأمراء الذين قهرهم تيمورلنك قد لجأوا إلى بايزيد وأخذوا يحرضونه على قتال ملك التتار أملاً فى استعادة أملاكهم كما أن بعض الأمراء الذين غلبهم بايزيد فى آسيا الصغرى قد لجؤوا إلى تيمورلنك وأخذوا يحرضونه على قتال السلطان العثمانى طمعاً فى استعادة أملاكهم أيضاً ، وكان ذلك كافياً لإشعال نار الحرب بين رجلين كان كل منهما عظيم الكبرياء شديد الاعتداد بنفسه فكتب كل منهما إلى الآخر - فى لهجة عنيفة شديدة - يتهمه بممالأة أعدائه والخارجين عليه ، وخرج بايزيد وهو يتوقد غيظاً وحنقاً لملاقاة تيمورلنك وقد دفعه هذا الغضب الجامح إلى التهور والاندفاع وأعجله عن التبصر والحذر فلم يحسن اختيار المكان الذى نزل فيه بجيشه الذى لم يكن يُزيد عن مائة وعشرين

ألف مقاتل بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمائة ألف .

ومات كثير من جنود بايزيد عطشاً لقلة الماء وكان الوقت صيفاً شديد القيظ ، ولم يكد يلتقى الجيشان فى أنقرة حتى فر الجنود التتار الذين كانوا فى جيش بايزيد وجنود الإمارات الأسيوية التى فتحها منذ عهد قريب وانضموا جميعاً إلى جيش تيمورلنك ولم يجد السلطان العثمانى بعد ذلك مـا أظهره هـو وبقية جيشه مـن الشجاعة والاستماتة فى القتال فقد أحدق بهم التتار مـن كل جانب وتكاثروا عليهم بجموعهم الزاخرة وهزموهم هزيمة ساحقة ووقع بايزيد وابنه موسى وبعض كبار رجال جيشه فى أسر التتار (804 هـ ـ 1402 م) ، ولم يصادف تيمورلنك بعد ذلك أية مقاومة تعترض سبيله فاستولى على أزنيق وبروسة وغيرهما من المدن والحصون ثم دك أسوار أزمير واستولى عليها من يد فرسان رودس وأعاد تيمور لنك كثيراً من الإمارات الأسيوية إلى أمراءها السابقين ودانوا له بالطاعة والولاء ، وفى أوروبا استعادت الإمبراطورية البيزنطية كثيراً من أملاكها السابقة كما استعادت الدول المغلوبة كبلغاريا وصربية والأفلاق والمورة سيادتها واستقلالها .

وزاد الطينة بلة الحرب الأهلية الطاحنة التى أعقبت هذه النكبة الفاجعة ودامت عشر سنين ، فقد كان لبايزيد خمسة أبناء اشتركوا معه فى القتال ، أما مصطفى فقد ظن أنه قتل فى المعركة ، وأما موسى فقد أسر مع والده ونجح الثلاثة الآخرون فى الفرار .

أما أكبرهم سليمان فقد ذهب إلى أدرنة وأعلن نفسه سلطاناً هناك ، وذهب أخوه عيسى إلى بروسة وأعلن للناس أنه خليفة أبيه ، أما محمد وهو أصغرهم فقد انسحب مع بعض الجند إلى أماسيا فى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى ، ونشبت الحرب بين هؤلاء الإخوة الثلاثة يتنازعون بينهم أشلاء الدولة الممزقة والأعداء يتربصون بهم من كل جانب ، ثم أطلق تيمورلنك الأمير الأسير موسى ليؤجج به نار الفتنة ويزيدها ضراماً وشدة وأخذ يحرضهم على القتال ويغرى بعضهم ببعض ، وبعد عام ارتحل تيمورلنك بجيشه العرمرم عن آسيا الصغرى كما يرتحل الجراد المنتشر بعد أن يقضى على الأخضر واليابس وترك وراءه البلاد على أسوأ حال من الدمار والخراب والفوضى .

أما الدول النصرانية فى الغرب فقد هزها الفرح والطرب لمصرع بايزيد وماآلت إليه

دولته من التفكك والانحلال وبعث ملوك إنجلترا وفرنسا وقشتاله وإمبراطور القسطنطينية إلى تيمورلنك يهنئونه على ما أحرزه من النصر العظيم والظفر المجيد ـ واعتقدت أوروبا أنها قد تخلصت إلى الأبد من الخطر العثماني الذى طالما روعها وهددها .

ولكن الدولة العثمانية أظهرت فى هذه المحنة القاسية مناعة عجيبة وحيوية فذة أثارت دهشة كثيرمن مؤرخى الغرب [1] .

نعم كان انتصار تيمور انتصاراً عظيماً ولكنه على عظمه كان تافه الأثر فى مصير المغلوبين ، لقد قضى تيمور على القوة العسكرية للدولة العثمانية ولكنه لم يستطع التغلب على القوة الحيوية الكامنة فيها ، فما لبثت هذه الدولة أن انبعثت من بين الأنقاض والأطلال وانتعشت وسرى فى عروقها ماء الحياة والفتوة واستأنفت سيرها إلى الأمام فى ثبات وقوة كعهدها من قبل ! .

---

(1) Voltaire, Les Mours des Nalions Finlay, A History of Greece . Lane Poole, Turkey. Lord Eversly, The Turkish Empire. Jarman, Turkey .

ترجع هذه الحيوية فى جوهرها إلى القواعد المحكمة الراسخة التى قامت عليها الدولة العثمانية والتى تتركز فى حسن الإدارة المدنية والسياسية والعسكرية والتفوق الأدبى والخلقى للعثمانيين على سائر المجتمعات الأخرى القائمة آنذاك والتى نخر فيها الفساد والانحلال ، ثم الحرص الشديد على إجراء العدالة الصارمة بين الناس لا فرق فى ذلك بين مسلم ونصرانى وقد ذكر لنا التاريخ لذلك أمثلة رائعة فذة ، وقد وجد الروم وغيرهم من الشعوب التى استظلت بالحكم العثمانى من السماحة والحرية الدينية وحسن المعاملة مالم يجدوا مثلها تحت أى حكم آخر ، ويبدى المؤرخ الإنجليزى الكبير جورج فنلى أعظم تقدير وإعجاب بالسلطان أورخان أول من وضع ـ بمعونة أخيه ووزيره علاء الدين ـ للدولة العثمانية النظم الإدارية والعسكرية ويعده أعظم مشترع فى العصور الحديثة .

لقد قامت إلى جانب إمارة عثمان بعد انهيار الدولة السلجوقية تسع إمارات أخرى فكيف تيسر لإمارة عثمان من النمو والتقدم والازدهار مالم يتيسر لغيرها من الإمارات الأخرى وقد كان بعضها كإمارة القرمان أوسع وأقوى منها ؟ إنها لمعجزة من أروع وأندر المعجزات التى تفتقت عنها العبقرية البشرية إذا استطاع عدة مئات من قبيلة نازحة أن يؤسسوا فى وقت قصير امبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التى شهدها العالم ، ولم يكن لقوة السلاح فى ذلك من أثر ما كان للقوانين والنظم المحكمة القوية .

راجع : Finlay, Ibid Lane Poole, Ibid

محمد الأول :

دامت الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد عشر سنين وقد استطاع محمد وهو أصغر الأربعة بما أوتى من الحزم والكياسة وبُعد النظر أن يتغلب على إخوته واحداً واحد حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سنى حكمه الثمان فى إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها فسالم إمبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الأسود وفى تساليا ، وصالح البندقية بعد هزيمة أسطوله أمام كليبولى وقمع الفتن والثورات فى آسيا وأوروبا وأخضع بعض الإمارات الأسيوية التى أحياها تيمورلنك ودانت له بالولاء والطاعة .

وظهر بعد ذلك رجل زعم أنه مصطفى بن بايزيد وطالب بالملك لنفسه زاعماً أنه أولى به من أخيه الأصغر محمد فقاتله السلطان وهزمه بالقرب من سالونيك ففر إلى إمبراطور القسطنطينية ولاذ به وأبى هذا أن يسلمه واحتبسه عنده وتوفى السلطان محمد سنة824 هـ (1421 م) بعد أن ثبت قواعد الدولة العثمانية واسترجع بعض أملاكها المفقودة وأعاد إليها كثيراً مما كان لها من الهيبة والسطوة .

مراد الثانى :

وخلفه على السلطنة ابنه مراد وسنفصل القول بعض الشىء فى الحوادث التى وقعت فى عهده فقد شهد ابنه محمد (الفاتح) طرفاً من هذه الحوادث واشترك فى بعضها ، وكان لذلك أثره الكبير فى نفسه وفى السياسة التى انتهجها فيما بعد .

كان مراد فى الثامنة عشرة من عمره حينما ولى السلطنة سنة (824 هـ ـ 1421 م) وواصل سياسة والده السلمية فعقد الصلح مع أمير القرمان وعقد هدنة لخمس سنوات مع ملك المجر .

غير أن هذه السياسة السلمية قد أغرت إمبراطور القسطنيطينية وكان كغيره من الروم شديد الغرور كبير الاعتداد بنفسه وبتفوقه على العثمانيين فى الشطارة والمهارة السياسية ومعرفة خططها وأساليبها وزاده غروراً واستكباراً صغر سن السلطان مراد فاستخف به واستضعفه وبعث إليه يطلب منه أن يسلم إليه أخويه الصغيرين لتنشئتهما وتربيتهما فى قصره ، وأبى السلطان ذلك عليه بطبيعة الحال لأنه يأباه دينه .

فما كان من الإمبراطور إلا أن أطلق سراح مصطفى الأسير عنده بعد أن كتب على نفسه أن يرد إلى الإمبراطورية البيزنطية جميع ما كان لها من المدن التى استولى عليها العثمانيون إذا ما نجحت ثورته وأعانه الإمبراطور مانويل ببعض الجند والسفن واشتدت شوكة هذا الخارج الدعى واستفحل أمره وكثر أتباعه وهزم جنود السلطان مراد فى أوروبا .

وبعد أن تمت لمصطفى الغلبة والسيطرة على المناطق الأوروبية عبر الدردنيل ليقاتل السلطان مراد نفسه فى آسيا ، غير أن هذا السلطان استطاع بدهائه أن يخذل عنه جنوده ثم انقض عليه فهزمه وفر مصطفى إلى أوروبا وطورد من مكان إلى مكان حتى قبض عليه وقتل ، وأدرك إمبراطور القسطنطينية سوء عمله والخطر الذى يهدده ، وأراد أن يخفف من غضب السلطان مراد فبعث إليه يهنئه بانتصاره ويعتذر له عما فرط منه ، ولكن السلطان مراد لم يكترث له وزحف توا فى عشرين ألف مقاتل إلى القسطنطينية وحاصرها ، غير أن ثورة جديدة فى آسيا الصغرى اضطرته إلى رفع الحصار فقد نجح إمبراطور القسطنطينية فى إغراء أخ أصغر لمراد يدعى مصطفى أيضاً ، وحمله على الخروج على أخيه ليخفف بذلك عن نفسه وطأة الحصار المضروب على مدينته ولقى مصطفى عوناً وعضداً من بعض أهل القرمان وكرميان ، وقويت بذلك شوكته وهزم جيشاً للسطان مراد فى آسيا الصغرى فلم يجد السلطان بداً من رفع الحصار عن القسطنطينية والإسراع بجيشه إلى آسيا الصغرى حيث قمع الثورة وقضى على الثائر . وأتبع السلطان مراد ذلك بفتوحات أخرى فى آسيا الصغرى ففتح إمارات ايدين ومنتشاوتكة وجزءاً عظيماً من إمارة قسطمونى وجاءه أمير كرميان فأوصى له بإمارته وقد ورثها عنه السلطان مراد فى السنة التالية : وبذلك قضى على الإمارات التى بعثها تيمورلنك بعد موقعة أنقرة ولم يبق فى آسيا الصغرى إلى جانب إمبراطورية طرابزون غير إمارتى القرمان وقسطمونى بعد أن تقلصت رقعتهما كثيراً وصغر حجمهما .

وتفرغ السلطان مراد بعد ذلك لشئون أوروبا ، وكان إمبراطور القسطنطينية مانويل الذى أثار عليه الفتن والثورات قد مات وخلفه على العرش يوحنا باليولوج فعقد معه السلطان مراد معاهدة فرض عليه فيها جزية ثقيلة واستولى على أكثر أملاكه الواقعة خارج القسطنطينية وتركه محصوراً بين أسوار هذه المدينة .

واستولى السلطان مـراد بعد ذلك على سالونيك وكانت قـد فتحها السلطان مراد الأول سنة 1386 م واستردها الروم ففتحها السلطان بايـزيدسنة 1394 واستردها الـروم كذلك ثـم فتحها السلطان محمـد الأول سنة 1413 م فما كان من إمبراطور الروم إلا أن باعها للبنادقة ولكن السلطان مراد لم يعترف بهذا البيع وفى سنة (833 هـ ـ 1430 م) هجم عليها بجيشه واستولى عليها برغم مقاومة البنادقة العنيفة وأصبحت جزءاً من الدولة العثمانية .

وتوجه السلطان مراد بجيشه بعد ذلك إلى ألبانيا وكانت منقسمة إلى قسمين : جنوبى وشمالى .

أما الأول : فكان يحكمه رجل فلورنسى وقـد تنازع أولاده بعد وفـاته فلما دخل الجيش العثمانى سهل عليه إخضاع يانينا وغيرها من الأماكن والقلاع فيها .

أما القسم الثانى : فكان يحكمه جان كاستريوتا Jean Castriota الألبانى وقد استسلم أيضاً للجيش العثمانى ورضى بدفع جزية سنوية للسلطان مراد وسلم إليه أبناءه الأربعة ليكونوا رهائن لديه .

وسار السلطان مراد إلى الأفلاق وكان عـرش هـذه البلدة قد اغتصبه رجل يدعى ولاد دراكول Wlad Drakul وطمعاً فى الاحتفاظ بهذا العرش المغتصب رضى أن يدفع للسطان مراد جزية سنوية ويقدم له جنوداً يحاربون معه تحت لوائه .

لقد علا شأن الدولة العثمانية مرة أخرى وعظم أمرها وأصبحت مصدر فزع ورعب لأوروبا فأخذت الدسائس والمؤامرات والمحالفات تحاك من جديد ضد هذه الدولة .

وأوعز سجسموند ملك المجر إلى أمير القرمان بمحاربة الدولة العثمانية ولم يكد السلطان مراد يلوى عنان فرسه إلى آسيا حتى ثار عليه من خلفه أمير الأفلاق وأمير صربية فما أن انتهى السلطان مراد من إخضاع أمير القرمان حتى عجل فى العودة إلى أوروبا فأخضع دراكول أمير الأفلاق ، أما أمير صربية جورج برنكوفيتش فقد استسلم من تلقاء نفسه وإظهاراً لخضوعه قدم ابنته إلى السلطان لتكون زوجة له ، وانتقاماً من ملك المجر أمر السلطان مراد جنوده بغزو بلاده وعادوا منها بسبعين ألف أسير (854 هـ ـ 1438 م) ولم يكد السلطان مراد يبتعد بجيشه حتى عاد جورج برنكوفيتش إلى الثورة فعاد السلطان مراد واستولى على سمندرة بعد حصار ثلاثة أشهر وفرّ برنكوفيتش ولجأ إلى ملك المجر البير

الذى خلف سجسموند وقد أراد إنجاد الصرب ونصرتهم ، غير أن جنوده لم تكد تقع أبصارهم على العثمانيين حتى ولوا هاربين .

وحاصر السلطان مراد بعد ذلك بلغراد وأمضى ستة أشهر فى حصارها ولكنه عجز عن فتحها فرحل عنها (843 هـ ـ 1439 م) .

لقد حالف التوفيق والنصر السلطان مراد فى جميع أعماله وحروبه فى آسيا وأوروبا منذ بداية حكمه ولكنه بعد ارتداده عن بلغراد توالت عليهم الهزائم والمحن وتلقاها بصبر وثبات عجيب .

فقد ظهر فى ذلك الوقت القائد المجرى المشهور جان هوينادJean Hunyade فهزم جيشاً عثمانياً كبيراً فى هرمنستاد Hermanstade وجيشاً كبيراً آخر فى وساج Vassag سنة 846 هـ ، وكان البابا أوجين الرابع Eugene قد دعا عقب مجمع فلورنسة الذى عقد سنة 1439 م إلى حملة صليبية لقذف الأتراك من أوروبا ، وقد أثارت انتصارات هوينياد حماساً كبيراً بين الأوروبيين وقوت العزم على القيام بهذه الحملة ونشط البابا فى ذلك نشاطاً عظيماً فأرسل جيشاً بقيادة الكاردينال جوليان سيزارينى Julian Ceasrini كما بعث رجاله ومندوبيه إلى جميع أنحاء أوروبا لبيع صكوك الغفران Indulgences [1] وجمع من ذلك مالاً عظيماً ، وكانت حملة صليبية شنتها النصرانية على الإسلام [2] .

واشتركت فى هذه الحملة الصليبية الكبيرة المجر وبولندا وفرنسا وألمانيا والبندقية وجنوا والأفلاق والبوسنة وصربية ، وكان على رأسها قواد ثلاثة : الفارس المجرى هوينياد وملك المجر لادسلاس ومندوب البابا الكار دينال سيزارينى .

وكان السلطان مراد إذ ذاك فى آسيا الصغرى يقاتل أمير القرمان الذى تواطأ مع الفرنج وشن على الدولة العثمانية حرباً شديدة مستعرة . وأراد الصليبيون أن يقطعوا على السلطان مراد خط الرجعة إلى أوربا ، وذلك بالسيطرة على الدردنيل بسفنهم والحيلولة بينه وبين عبوره ، ولم تكن للدولة العثمانية فى ذلك الحين قوة بحرية تستطيع منازلة السفن النصرانية الكثيرة القوية غير أن السلطان مراد عجل فى العودة إلى أوروبا وتفادى من هذا

---

(1) Gibbon, op. cit

(2) Lord Eversly, op. cit.

الحصار البحرى والتقى بالصلبيين فى نيش فهزمه هوينادا (رجب 478 هـ ـ نوفمبر 1443 م) واستولى على صوفية وواصل زحفه فعبر جبال البلقان برغم الشتاء القارس وهزم العثمانيين مرة أخرى فى يالوفاز Yalovaz .

وكان المنتظر أن يزحف هوينادا بعد ذلك إلى أدرنة عاصمة الدولة العثمانية ويقذف بالبقية الباقية من المسلمين إلى البحر ولكنه لم يفعل وتوقف عن الزحف كأن قوة خفية قد أمسكت به عن السير أو لعله كان يخشى أن المسلمين قد كمنوا له فى موضع وتربصوا به ، ومهما يكن الأمر فى ذلك فإن هوينادا قد توقف عن الزحف بل عاد أدراجه بجيشه يغذ فى السير كأنما كان يفر من شىء .

وفرح المسلمون لذهاب الخطر وانكشاف الغمة عنهم ، ولم ير السلطان مراد أن يطارد هوينادا فى رجوعه ، وهو نفسه أحوج ما يكون إلى الاستجمام واستجماع القوى وعرض الصلح على هوينادا فقبله واتفق على أن يعيد السلطان مراد صربية بجميع مدنها وقلاعها إلى جورج برنكوفيتش ويعيد الأفلاق إلى دراكول على أن تكون هذه تحت سيادة المجر ويتهادن الفريقان عشر سنين ، وتوكيداً لهذا الاتفاق عقدت فى سزجدين Szoegeddin فى ربيع الثانى (848 هـ ـ يوليو 1444 م) معاهدة أقسم عليها لادسلاس ملك المجر بالإنجيل والسلطان مراد بالقرآن .

ولم يكد السلطان مراد يمضى هذه المعاهدة حتى فجع فى ابنه علاء الدين واشتد حزنه عليه وزهد فى الدنيا والملك ،ونزل عن السلطنة لابنه محمد وكان إذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره ،ولصغر سنه أحاطه والده ببعض أهل الرأى والنظر من رجال دولته ثم ذهب إلى مغنيسيا فى آسيا الصغرى ليقضى بقية حياته فى عزلة وطمأنينة ويتفرغ فى هذه الخلوة إلى عبادة الله والتأمل فى ملكوته بعد أن اطمأن إلى استتباب الأمن والسلام فى أرجاء دولته .

وقد كان السلطان مراد إلى جانب كونه من رجال الحرب والسياسة يعد أيضاً من أهل الحكمة والفلسفة [1] ، ولكنه لم يستمتع طويلاً بهذه الخلوة والعبادة فقد خطرت ببال الكاردينال سيزارينى وبعض أعوانه فكرة جهنمية ولوح لهم الشيطان أن الفرصة قد سنحت لطرد الأتراك من أوروبا فإن السلطان مراد قد اطمأن إلى خلوته وعزلته فى مغنيسيا وترك

---

(1) Voltaire op. cit

الدنيا وراء ظهره ، وليس على عرش السلطنة غير فتى غر لاخبرة لـه ولا خطـر والناس قـد اطمأنت نفوسهم إلى السلام والموادعة فلماذا لاننكر عليهم على غرة كرة قوية ونقذف بهم إلى البحر ؟

ولقيت هذه الفكرة استحسـاناً وقبـولاً وتشجيعـاً لدى البـابا أوجين الرابع فأشـار الكاردينال سيزارينى على الملك لادسلاس أن يبادر إلى تنفيذها قبل فوات الأوان لا سيما وقد بلغهم نشوب حرب جديدة فى الفرمان ، ولكن لادسلاس ثقل عن نفسه أن ينقض عـهداً أقسم غليـه بالإنجيل ولم يجف بعـد المداد الذى كـتب به هذا العـهـد . فهـون عليـه الكاردينال سيزارينى الأمر وأقسم له بالثالوث المقـدس أن لا حـرج فى نقض عهد الكفار (المسلمين) بل هو « قـربى إلى الله [1] وكتب البابا نفسه إلى لادسلاس يأمره بنقض هذا العـهد ولا إثم عليـه فى ذلك ولا تثريب لأن العـهد عـقـد بغير علمـه » [2] ومـازال البـابا والكاردينال يلحان على الملك لادسلاس حتى أصاخ لهما وأطاع .

كذلك عارض هوينـاد فى أول الأمر هذا النقض الآثم والغدر الفاضح ولكنه لما وعد بملك بلغاريا هـان عليه الـغدر والإثم وأشـار عليـهم أن يتـريثـوا قليـلاً حتى يـخلى الأتراك القلاع التى فى صربية ويجلوا عنها كما اتفق على ذلك فى المعاهدة .

وانضم أمير صربية أيضاً إلى المتآمرين بعد أن وعد بأن يزاد فى ملكه وكان الكاردينال سيزارينى عظيم النشـاط دائم الحركة لايكل عن العمل يجد ويسعى لإنجاح خطته وكان لا يشغل باله بالليل [illegible] غير شىء واحد هو القضاء على الأتراك [3] وذهب سيزارينى إلى دار ندوة المجر (الديـ [illegible] ـ المجتمعين فحرضهم على القتال وأهاب بهم أن يغتنموا هذه الفرصة الغالية قبل أن تفوت وأن المعاهدة التى عقدت مع المسلمين باطلة لأنها عقدت بدون إذن البـابا وكيل المسيح فى الأرض وأنه باسم البـابا يبـرئ ذمتـهم من نكثهـا ويبارك جنودهم وأسلحتهم وعليهم أن يتبعوا طريقه فإنه طريق المجد والخلاص ومن نازعه ضميره بعد ذلك وخشى الإثم فإنه يحمل عنه وزره وإثمه [4] .

L'abbe Mignot cite par Lamartine, Histoire de la Turquie. (1)

Voltaire. op. cit. (2)

Seton - Waston. A. History of the Roumanians .(3)

Gibbon op cit. Eversly op cit. (4)

وكتب إمبراطور القسطنطينية يوحنا باليولوج والكاردينال فرانسكو جونلدميرى Francesco Gonloldmieri قائد الأسطول البابوى إلى الملك لادسلاس يستحثانه ويحرضانه أيضاً على انتهاز هذه الفرصة للقضاء على العثمانيين فى أوروبا .

ولم يلبث أن اتسع نطاق هذه المؤامرة الصليبية فدخلت فيها انجلترا وفرنسا وبورغنديا وميلان وفلورنسه والبندقية وجنوا [1] ووعدت هذه الدول أن تشترك فى الحملة الصليبية التى ستشن على العثمانيين ، وكانت الخطة المرسومة هى أن تدلف سفن البابا والبندقية وجنوا وتدخل سراً إلى الدردنيل لتحول بين السلطان مراد وبين العبور إلى أوروبا يعاونها فى ذلك امبراطور القسطنطينية ويقوم أمير القرمان عند بدء الزحف الصليبى فى أوروبا فيشن حرباً مباغتة عنيفة على السلطان مراد ليشغله ويشل حركته .

وبعد أن حشد الصليبيون كل ما استطاعوا من جند وأعدوا كل ما استطاعوا من عدة بدءوا زحفهم إلى الشرق ولم يخالجهم أى شك فى أنهم سيأخذون الأتراك على غرة ويقضون عليهم وانضم إليهم بعد ذلك أمير الأفلاق وأفواج كثيرة من أمم شتى بين متحمس للدين يبتغى الثواب والأجر ومرتزق مغامر يطمع فى السلب والغنيمة ولم يجد أحد منهم حرجاً فى النفس أو وخزاً فى الضمير على ما هم مقبلون عليه من عمل ، وكأن الطبيعة نفسها قد استنكرت هذا الغدر الشائن والنقض الآثم لعهد عقد على اسم الله فاهتزت أرض المجر وزلزلت كأنما تحاول أن توقظ الضمائر الهامدة التى ران عليها الهوى والجشع .

اجتاز الصليبيون سهول البلغار فأمعنوا فى القتل والسلب والنهب واعتدوا على الكنائس الرومية والبلغارية وأحرقوا مدن المسلمين وقراهم وأخذوا يقذفون بالأسرى من أعالى الجبال إلى المهاوى السحيقة ، وقد كان قائدهم هونياد سفاكاً غليظ القلب وكان يلذه أن يقتل الأسرى بين يديه وهو يتناول طعامه فيطرب لسماع حشرجتهم وأنينهم .

وفى 9 نوفمبر وصلوا وارنة وأقاموا معسكرهم هناك وكان هونياد يأمل أن يواصل سيره بعد ذلك إلى أدرنة عاصمة العثمانيين فيمحوها من أوروبا ويكتسح الأتراك من كليبولى وسالونيك وابيروس ثم يعود إلى بلغاريا فيتوج ملكاً عليها وكان الصليبيون يعتقدون أن السلطان مراد لايزال فى آسيا الصغرى بين الفتن والاضطرابات والحروب .

---

(1) Lamouche. Histoire de la Turquie

وسمع المسلمون فى أدرنة بحركة الصليبين وزحفهم نحوهم فانتابهم الفزع والرعب ويعث رجال الدولة إلى السلطان مراد يستعجلون قدومه لمواجهة هذا الخطر ، واستطاع السلطان مراد أن يرشو الجنويين ـ وهم أهل تجارة وتكسب قبل كل شيء ـ فنقلوا أربعين ألفاً من الجيش العثمانى من آسيا إلى أوروبا تحت سمع الأسطول الصليبى وبصره فى مقابل دينار لكل جندى .

وأسرع السلطان فى السير فوصل وارنة فى نفس اليوم الذى وصلها فيه الصليبيون وفى اليوم التالى نشبت بين الفريقين معركة عنيفة حامية وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التى نقضها أعداؤه على رأس رمح ليشهدهم ويشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان وليزيد حماس جنده وهجم هوينياد على المسلمين هجمة كادت تزلزل أقدامهم ، وكاد السلطان مراد نفسه يرتد على عقبه لولا أن أمسك به بعض رجاله واستعاد رباطة جأشه واندفع الملك لادسلاس يريد السلطان مراد ليقتله بيده ويحوز بذلك فخراً أبدياً خالداً لا يمحى ، ولكن السلطان عاجله بضربة قوية من رمحه أسقطته من ظهرجواده فأسرع إليه بعض الإنكشاريه وجز رأسه ورفعه على رمح وصاح فى العدو « أيها الكفار هذا رأس ملككم ! » .

وشُده الصليبيون لرؤية رأس ملكهم والدم يتقاطر منه واستحوذ عليهم الفزع والهلع ، فحمل المسلمون عليهم حملة قوية وهزموهم شر هزيمة وولى النصارى مدبرين يدفع بعضهم بعضاً وقد نجا هوينياد فيمن نجا من الفارين ، أما الكاردينال سيزارينى مشعل هذه الحرب الغادرة فقد ركب سفينة ليعبر بها نهر الطونة ولكن ربانها الأفلاقى غافله وقتله واستولى على ما كان معه من الذهب ، على أن السلطان مراد لم يطارد عدوه ووقف من النصر عند هذا الحد ، وإنه لنصر عظيم وكتب إلى ملوك المسلمين يبشرهم بما أتاه الله من فضله والنصر المبين على المشركين ، وأما إمبراطور القسطنطينية يوحنا فإنه عندما سمع بنهاية معركة وارنة بعث إلى السلطان مراد وفد يهنئه بانتصاره ويطلب إليه تجديد التحالف وقد أجابه السلطان إلى طلبه وقضى الإمبراطور بقية عمره فى سلام حتى توفى سنه 1448 م ، ولم تفارق السلطان مراد زهادته فى الدنيا والملك فنزل عن العرش مرة أخرى لابنه محمد وعاد إلى عزلته فى مغنيسيا كما يعود الليث الظافر إلى عرينه .

ولقد ذكر لنا التاريخ كثيراً من الملوك نزلوا عن عروشهم وانقطعوا عن الناس وأبهة الدولة إلى العزلة وأن بعض هؤلاء الملوك قد عادوا إلى العرش ، ولكن لم يذكر لنا أن أحداً منهم نزل عن العرش مرتين وعاد إليه مرتين غير السلطان مراد .

فإنه لم يكد يذهب إلى معتزله بآسيا الصغرى حتى ثار الانكشارية فى أدرنة وشغبوا وهاجوا ، فإن هؤلاء الجنود العتاة لا يخضعون ولا يسلس لهم قياد إلا لرجل قوى صارم والسلطان محمد كان لا يزال فتى يافعاً حديث السن وخشى بعض رجال الدولة أن يستفحل الشر ويعظم الخطر وتسوء العاقبة ، فبعثوا إلى السلطان مراد يستقدمونه لتولى الأمر بنفسه ، على أنه لم يكن من السهل إنزال السلطان الشاب محمد عن عرش السلطنة فقد كان على صغر سنه شموساً صعب المراس فاحتالوا عليه بأن خرج به الوزير خليل باشا إلى رحلة للصيد ـ وهو أحب رياضة إليه ـ استغرقت عدة أيام جاء فى خلالها السلطان مراد إلى أدرنة وقبض على زمام الأمر وخضع له الإنكشارية ، ولما عاد محمد من رحلته أدرك مادبر له ولم يجد بداً من الإذعان للأمر الواقع وأرسله والده ليكون حاكماً على مغنيسيا وبقى مراد على عرش السلطنة إلى آخر حياته وقد قضاها فى الغزو والفتح .

بدأ مراد ببلاد اليونان وقد كانت أثينا يحكمها دوق فلورنسى يدعى نيريوا كسييفولى Nerio Acciaivoli وكان يدفع الجزية للدولة العثمانية ، فلما شغل السلطان مراد بحروبه مع الصليبين انتهز قسطنطين حاكم المورة وأخو إمبراطور القسطنطينية هذه الفرصة فعدا على هذا الدوق وطرده من إمارته وشيد سوراً على برزخ كورنثه بمعونة أخيه توماس ثم استقر فى المورة .

جدد السلطان مراد علاقته مع دوق أثينا المخلوع ثم زحف إلى الجنوب وحاصر السور الذى أقامه قسطنطين فاستولى عليه وخضعت له المورة وقبل قسطنطين أن يدفع جزية سنوية للسلطان (850 هـ ـ 1446 م) .

وجه السلطان مراد جهوده بعد ذلك إلى ألبانيا حيث لقى عدواً لدوداً قوى الشكيمة صلب القناة وهو إسكندربك ، وقد ذكرنا من قبل أن السلطان مراد عند دخوله ألبانيا الشمالية خضع له أميرها جان كستريوتا وسلم إليه أبناءه الأربعة ليكونوا رهائن عنده وقد مات ثلاثة من هؤلاء الأطفال وبقى أصغرهم وهو جورج كاستريوتا George Castriota

وقد أحبه السلطان مراد حباً عظيماً لقوة بدنه وحدة ذكائه ووسامة طلعته ، وكان يحنو عليه حنو الأب الشفيق على فلذة كبده [1] ونشأ جوزرج كاستريوتا فى القصر العثمانى نشأة إسلامية وعنى مراد بتربيته عقلياً وجسمياً حتى بلغ درجة كبيرة من الثقافة والمعرفة ومهر فى ركوب الخيل وأجاد الضرب بالسيف وأساليب القتال وأظهر فى الحروب بسالة نادرة ومقدرة عظيمة فزاد تقدير السلطان مراد له وعهد إليه بولاية من ولايات الدول العثمانية ولقبه « إسكندر بك » أى الأمير إسكندر وغلب عليه هذا اللقب واشتهر به فى التاريخ وتنوسى اسمه النصرانى القديم .

وكان إسكندر بك يؤمل أن يخلف أباه على إمارته بعد وفاته فقد كان ابنه الوحيد الذى يرثه غير أن السلطان مراد آثر أن يبقيه قريباً منه يعينه فى حروبه فعهد بهذه الإمارة إلى رجل آخر وغضب إسكندر بك لذلك وأسرها فى نفسه ، ولبث يتربص ويترقب الفرصة المواتية للفرار .

فلما انهزم العثمانيون فى نيش سنة (847 هـ ـ 1443 م) واضطرب أمرهم اهتبل إسكندر بك الفرصة فانفلت من معسكر السلطان وذهب إلى الريس أفندى حامل الختم السلطانى ومعه مرسوم مزور بتعيينه حاكماً على كرويا بألبانيا فطلب إليه أن يختمه ولم يكد الريس يختم المرسوم حتى عاجله إسكندر بك بطعنة قاتلة فى صدره وأسرع فى الفرار واتبعه ثلثمائة من مواطنيه الألبانيين الذين شايعوه على أمره وفى مقدمتهم ابن أخته حمزة

---

(1) ينكر السير توماس أرنولد إنكاراً شديداً أن إسكندر بك قد قضي طفولته في قصر السلطان مراد وأنه نشأ فيه نشأة إسلامية فيقول : « وقد أثبتت الأبحاث الحديثة عدم صحة الأفكار الخيالية التي نسجت حول قصة أيامه الأولي ـ كيف سلم في صباه رهينة إلي الأتراك وشب بينهم علي الإسلام وحظي بعطف السلطان والحقيقة أنه قضي أيام شبابه في بلاده الجبلية وبدأ نضاله مع الأتراك منذ اليوم الذي أحرز فيه النصر عليهم في سنة 1444 وظل أكثر من عشرين عاماً يقاوم قوائهم الغازية مقاومة عنيفة » . الدعوة إلي الإسلام ص 156 .

والواقع أن مسألة تسليم إسكندر بك ـ واسمه الأصلي النصراني جورج كاستريوتا ـ في طفولته إلي السلطان مراد الثاني ونشأته في قصره نشأة إسلامية تكاد تكون أمراً مجمعاً عليه من المؤرخين المحدثين الغربيين والشرقيين علي السواء ، والعجيب أن الأستاذ أرنولد نفسه قد اعترف بأن جورج كاستريوتا قد « اشتهر باسمه الإسلامي إسكندربك أو سكندر بك » (الكتاب السابق ص 156) فمن أين جاء له هذا الإسم الإسلامي إلا من نشأته الإسلامية في قصر السلطان العثماني ؟

ووصل اسكندر بك كرويا فرحب به الناس على أنه الوالى الجديد من قبل السلطان وسلم إليه الوالى السابق مقاليد الحكم ومفاتيح المدينة دون أن يخالجه شك فى أمره ، ولما جن الليل انقض إسكندر بك على هذا الوالى العثمانى ورجال حاميته واغتالهم جميعاً وهم نيام ودَهَم العثمانيين الذين فى المدن والقرى المجاورة وأبادهم ثم دعا الشعب الألبانى وزعماءه إلى حمل السلاح للدفاع عن حرية وطنهم فلبوا نداءه وأجمعوا على اختياره زعيماً وقائداً لهم وانضم إلى إسكندر بك أمير الجبل الأسود والحكام البنادقة فى السيو وشقودرة ودرازو ؛قد كانت للبندقية فى ذلك الوقت أملاك كثيرة فى ألبانيا لاسيما على الشاطىء وأصبح إسكندر بك السيد المطاع فى ألبانيا وارتد هو وحمزة عن الإسلام إلى النصرانية « وأعلن حرباً صليبية جديدة على الأتراك »[1] .

ولم يعجل السلطان مراد فى القضاء على إسكندر بك قبل أن يستفحل أمره وتعظم قوته ، أهمله وتوانى فى قتاله فأتاح له بذلك مجالاً واسعاً لاتخاذ أسباب القوة والحيطة وتجنيد الجنود وتخير الأمكنة والمواقع التى تلائمه وتعينه على القتال والكر والفر وبلغ جيش إسكندر بك اثنين وعشرين ألف رجل ، واتخذ كرويا قاعدة لأعماله الحربية وهى مدينة قد حبتها الطبيعة موقعاً جغرافياً منيعاً إذ تقع على أرض مرتفعة تحيط بها الجبال والوديان من كل جانب فلما سير إليه السلطان مراد جيشه بعد ذلك بقيادة على باشا هزمه إسكندر بك شر هزيمة وحاول السلطان مراد بعد انتصاره فى وارنة أن يستميل إسكندر بك بالحسنى فكتب إليه يدعوه إلى الطاعة ويعده بالعفو فلم يزده ذلك إلا تمنعاً واستكباراً وإصراراً على النصرانية والصليبية وكتب إلى مراد يرد دعوته ولقب نفسه « جندى المسيح وأمير الألبانيين والأبيروسيين »[2] .

وأرسل السلطان مراد بعد ذلك ثلاثة جيوش إلى ألبانيا لقتال إسكندر بك ولكنه هزمها جميعها ، ووقع نزاع بين إسكندر بك والبنادقة ونشبت بينهما الحرب ولكنها لم تدم طويلاً فإن العداوة المشتركة ضد العثمانيين ما لبثت أن أصلحت بينهما ووحدت جهودهما لقتال العدو المشترك وارتفعت شهرة إسكندر بك فى العالم النصرانى بانتصاراته الباهرة على العثمانيين وطار صيته كل مطار .

Cambridge Medieval History . (1)

Chica . L'Albani (2)

على أن هذه الانتصارات الضخمة التى أحرزها لم تكن بغير ثمن ، بل أنها استنزفت قدرا كبيراً من قوته وقد لمس ذلك إسكندر بك نفسه وكان يعلم أنه يقاتل دولة كبيرة واسعة الموارد فى المال والرجال وأنها لن تكف عن قتاله حتى تقهره ، فبعث إلى البابا والدول النصرانية يطلب المدد والمعونة لمواصلة قتال العثمانيين ، وقد لقيت دعوته هذه إستجابة حسنة لا سيما بين أهل الحرب عشاق المغامرة والبطولة فتوافدوا إليه من ألمانيا وفرنسا وأسبانيا وغيرها وقاتلوا تحت لوائه .

وفى سنة (851 هـ ـ 1447 م) خرج السلطان مراد بنفسه إلى ألبانيا وأمضى فيها نحو ثمانية عشر شهراً واستطاع برغم ما أظهره إسكندر بك ورجاله من البسالة والاستماتة فى القتال أن يستولى على سفيتجراد Sfetigrad ودبرا Dibra .

وكان هوينياد المجرى منذ هزيمته فى وارنة لا ينى عن التأهب والاستعداد لينتقم لنفسه من تلك الهزيمة وليثأر لابن الملك المقتول لادسلاس ، وكان الملك الجديد ـ ويدعى لادسلاس أيضاً ـ لا يزال غلاماً صغير السن ـ فاختار أهل المجر القائد هوينياد ليكون وصيه ووليه والآخذ بثأره ! وانتهز هوينياد المتاعب والمصاعب التى يلاقيها السلطان مراد فى حربه مع إسكندر بك ووجدها فرصة مواتية لإنفاذ عزمه فحشد جيشاً عظيماً لقتاله فلما بلغ ذلك السلطان مراد غادر ألبانيا من فوره وأسرع للقاءه وتلاقيا فى سهل قوصوه وقبل أن ينشب القتال بين الجيشين بعث إليه السلطان وفداً ليفاوضه ويقنعه بالعدول عن الحرب وسفك الدماء ولكن هوينياد أخذته العزة والصلف وظن أنه ما بعث السلطان على المسالمة والمهادنةإلا الضعف والعجز ولجَّ فى العتو والاستكبار ، فأبى مقابلة رسله وأمر بصرفهم عنه ، وعظم أمله وثقته فى النصر فلم يشأ أن ينتظر حتى تأتيه المعونة التى كان إسكندر بك قد وعده بها ، ولعله استنكف من تلقى المعونة من رجل كان ينافسه ويغالبه على الشهرة فى قتال العثمانيين ، وانسحب جنود الأفلاق من جيش هوينياد وتخلوا عنه فقد تخوفوا من عاقبة هذا التهور الذى يندفع فيه القائد المجرى وما لبث أن نشبت المعركة بين الجيشين المجرى والعثمانى فكانت حامية دامية تلظى وطيسها طيلة ثلاثة أيام كاملة (شعبان 852 هـ ـ أكتوبر 1448 م) وللمرة الثانية شهد سهل قوصوه إنتصاراً عظيماً ساحقاً للعثمانيين وكانت المرة الأولى فى عهد السلطان مراد الأول سنة(791 هـ ـ 1389 م) أما هوينياد فإنه عندما لمح بوادر الهزيمة على جيشه انفلت من بين عساكره ولاذ بالفرار وهام

على وجهه أياماً عدة وهو كسير ذليل وقد خبا ذلك الضياء اللامع الذى كان يجلل هامته ويقترن باسمه عقب انتصاراته الكبيرة السابقة على العثمانيين .

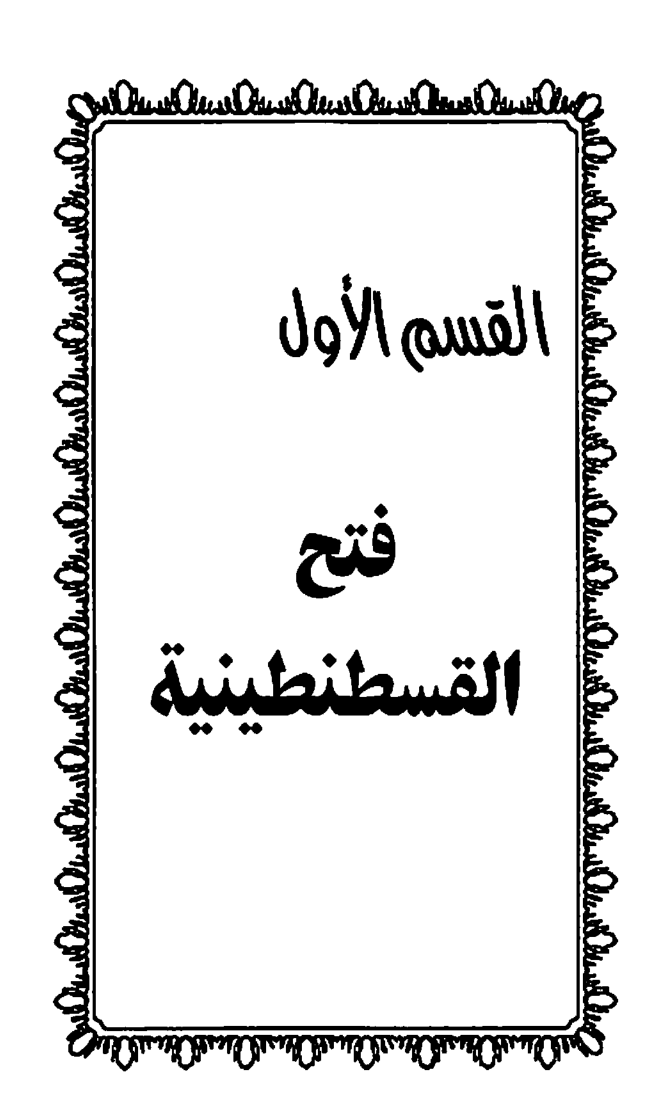
وقدم إسكندر بك فى جيشه بعد انتهاء المعركة بقليل فلما أشرف على سهل قوصوه وقد امتلأ بجثث المجر وجرى النهر قانياً بدمائهم عاد أدراجه إلى جباله بألبانيا وربض هناك يترقب ويتربص ، وقد اشترك محمد الفاتح مع والده مراد فى وقعة قوصوه وكانت أول معركة شهدها بنفسه وعاد إلى أدرنة وهو مغتبط جذلان بأول نصر فى أول معركة .

وفى أواخر السنة التالية (853 هـ ـ 1449 م) قصد السلطان مراد ألبانيا وحاصر كرويا وقد صحبه فى هذه الحملة ابنه محمد فأظهر من الهمة والنشاط والجلد ما أكسبه إعجاب الجند وكان دائب الحركة ينتقل من موضع إلى موضع ، فتارة إلى جانب والده يرقب معه سير القتال ، وتارة يدخل صفوف الجنود يلهب حماسهم بخطبه ويتفقد مواقع الهجوم ويضرب لهم المثل بنفسه فى الشجاعة والإقدام ، على أنه برغم ذلك كله ورغم الجهود العظيمة الجبارة التى بذلها مراد فقد امتنعت عليه مدينة كرويا وأخذ إسكندر بك كلما جن الليل يرهق الجيش العثمانى بهجمات عنيفة متواصلة ، فعرض عليه السلطان مراد أن ينصبه حاكماً على البلاد على أن يعترف بالسيادة العثمانية ولكن إسكندر بك أبى واضطر السلطان مراد آخر الأمر أن ينسحب بجنوده بعد أن فقد منهم عدداً غير قليل ، وبعث إسكندر بك إلى البابا نيقولا الخامس وإلى ملك المجر وملك نابولى ودوق برغنديا يبشرهم بانتصاراته على العثمانيين ، ونظرت النصرانية فى دهشة وإعجاب إلى هذا الزعيم الألبانى الذى عجزت الجيوش العثمانية عن قهره والنيل منه وصدَّ عن كرويا السلطان مراد بطل وارنة وقوصوه وكتب إليه البابا وهؤلاء الملوك يهنئونه ويثنون على شجاعته وبطولته ويستحثونه على المضى فى القتال والدفاع عن النصرانية وأمدوه بالمال والعتاد .

أمـا السلطان مـراد فإنه بعـد وصـوله إلى أدرنة احتفل بزواج ابنه محمـد الفاتح بابنة سليمـان بك أمير «ذى القـدر» وكان احتفـالاً كلـه الروعـة والأبهة والبهاء وكـان ذلك فى أواخـر سنة (854 هـ ـ 1450 م) ثـم ذهـب محـمـد الفـاتح مـع عـروسه إلى مغنيسيا بآسيا الصغرى ولم يطل به المقام هناك فقد وصله بعـد قليل نعى والـده (3 محرم 855 هـ ـ 5 فبراير 1451 م) فصـاح فى أصحـابه : «من كـان يحبنى فليتبعنى» ، ووثب على ظهر جواد عربى وأخذ يعدو به عدواً لا يلوى على شىء فوصل

يومين آخرين ينتظر من تأخر من رجاله وليؤذن أهل أدرنة بمقدمه ، واستقبله كبار رجال الدولة والعلماء فعزوه فى وفاة والده كما قدموا إليه تهانئهم بالسلطنة ثم توجه الركب إلى السراى بأدرنة ، وفى اليوم (السادس عشر من محرم 885 هـ فبراير 1451 م) تولى محمد الفاتح عرش آبائه وهو فى الثانية والعشرين من عمره .





القسم الأول

فتح القسطنطينية

الفصل الأول

أهمية موقع القسطنطينية ـ محاولات المسلمين وغيرهم من الغزاة فتحها ـ الإمبراطورية البيزنطية وعوامل الضعف التى أثرت فيها ـ استعادة ميخائيل الثامن القسطنطينية من اللاتين ومناهضة الغرب له ـ الروح الصليبية فى الغرب ـ إحداق العثمانيين بالقسطنطينية ـ محاولات بيزنطة الاتفاق مع اللاتين وفشلها ـ مجمعا فراره وفلورانسة ـ عدم إخلاص أباطرة الروم فى اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ـ قسطنطين آخر الأباطرة وجهود لنيل مساعدة الغرب .

تحتل مدينة القسطنطينية موقعاً فريداً بين مدن العالم ، وحسبك أن تلقى نظرة عليها فى الخريطة فتدرك ذلك ، فهى تقع عند ملتقى القارتين آسيا وأوروبا ، تحيط بها البحار من ثلاث جهات وقد حبتها الطبيعة بخصوبة الأرض وجودة الطقس ، كما حبتها بأسباب القوة والمنعة ، وللقسطنطينية ميناء القرن الذهبى الذى يعد أوسع وآمن ميناء فى العالم . وكانت هذه المدينة فوق ذلك كله مركزاً عظيماً للتجارة ، تأتى إليها المتاجر من كل صوب من البر والبحر [1] وقد نوه نابليون بوجه خاص فى العصور الحديثة بأهميتها وخطورتها فقال فى شأنها : « لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها » وذكر نابليون فى مذكراته التى كتبها فى منفاه بسانت هيلين أنه حاول عدة مرات الاتفاق مع روسيا على اقتسام الإمبراطورية التركية ولكن وقفت القسطنطينية فى كل مرة العقبة الكؤود دون الاتفاق فقد كانت روسيا تلح فى امتلاكها ونابليون يصر على عدم تسليمها إذ أن هذه المدينة وحدها كانت فى نظره تساوى إمبراطورية ، وهى تعد بمثابة مفتاح العالم ، من استولى عليها استطاع أن يسيطر على العالم بأجمعه [2] وقد كان نابليون فى أشد الحاجة إلى صداقة روسيا لمواجهة عدوته اللدود انجلترا ، ولكنه برغم ذلك لم يستطع أن يضحى بالقسطنطينية ولو كان الاتفاق بين نابليون وروسيا على مصير هذه المدينة لتغير

---

(1) Gibbon op eit Sismondi, Histoire des Republiques Italiennes du Moyen Age .

(2) Djuvara, Cent projets du partage de la Turquie .

مجرى تاريخ أوروبا وتغير تبعاً لذلك مجرى تاريخ العالم كله .

وقد أدرك الغزاة والفاتحون منذ القدم أهمية القسطنطينية وخطورة موقعها فحاولوا الاستيلاء عليها وحاصروها مرات كثيرة ، غير أن هذه المدينة استطاعت بمناعة موقعها وقوة حصونها أن تصد عن نفسها معظم الغزاة والفاتحين .

وكان للمسلمين نصيب كبير من هذه المحاولات ، وقد وردت أحاديث كثيرة تبشرهم بفتح القسطنطينية ، الأمر الذى زادهم تعلقاً وأملاً فى فتح هذه المدينة ، وأعظم محاولاتهم ما كان فى عهد معاوية بن أبى سفيان وسليمان بن عبد الملك فى القرن الأول الهجرى (السابع والثامن الميلادى) ، وبالرغم مما أعده المسلمون من كثرة الجند وعظم العدة فى البر والبحر وما أظهروه من قوة العزم والبسالة في الحصار والقتال فقد ردتهم القسطنطينية بأسوارها المنيعة ونيرانها الإغريقية الفتاكة .

ظلت القسطنطينية على مدى عشرة قرون معقلاً للنصرانية يحميها من غزوات الغزاة من الشرق ، وكان من الطبيعى بعد أن استقر العثمانيون فى آسيا الصغرى وأقاموا بها دولتهم ولاصقوا الدولة الرومية أن يرنوا بأبصارهم إلى هذه العاصمة العتيدة ، وقد أدرك عثمان أول سلاطين الدولة العثمانية « كغيره من الفاتحين قبله وبعده » قيمة هذه المدينة وعظم قدرها ، ولكنه لم يكن إذ ذاك قد بلغ من القوة ما يقدر به على فتحهافأوصى بذلك إلى من يأتى بعده[1] .

وقد حاصرها السلطان بايزيد الأول والسلطان مراد الثانى ولكنهما لم يصلا إلى فتحها حتى جاء السلطان **محمد الفاتح** فاستطاع بما أظهره من إحكام القيادة وحسن التنظيم وسرعة الخاطر وقوة العزيمة والمصابرة والجلد فى الحصار والقتال أن يصل إلى فتح هذه المدينة ، وحقق بذلك حلم الفاتحين منذ ألف عام كما حقق البشارة النبوية الكريمة : « **لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش** »[2] .

---

(1) أحمد مختار باشا «فتح جليل قسطنطينية» . . Zia Sakir Fatih Istambulu nasil aldu

(2) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لابن الأثير ، الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة لابن حجر العسقلانى الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر النمرى ، مسند الإمام أحمد بن حنبل . الجامع الصغير للسيوطى .

ويجمل بنا قبل المضى فى حديث الفتح وكيف تم أن نعرض ـ ولو فى إيجاز ـ للإمبراطورية الرومية والعوامل والأسباب التى أثرت فيها وأضعفتها ثم أدت إلى سقوط عاصمتها القسطنطينية ، فإن سقوط هذه المدينة فى يد العثمانيين يعد من الأحداث الهامة الفاصلة فى التاريخ وكان له أثر واضح فى اتجاه التطور البشرى ، وذلك ما حدا المؤرخين على اتخاذ سقوط القسطنطينية بداية للعصور الحديثة .

قسم الإمبراطور تيودور عند وفاته سنة 375 م الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين : إمبراطورية غربية وعاصمتها روما ، وأخرى شرقية وعاصمتها القسطنطينية ليتفرغ إمبراطور كل قسم للدفاع عنه ، لم تعش الإمبراطورية الغربية طويلاً بعد هذه التقسيم فقد توالت عليها هجمات البرابرة حتى سقطت روما فى أيديهم سنة 476 م ، أما الإمبراطورية الشرقية التى عرفت أيضاً بالإمبراطورية البيزنطية والامبراطورية الرومية أول الإغريقية فقد ظلت قائمة بعد ذلك التقسيم أكثر من عشرة قرون بفضل مناعة عاصمتها القسطنطينية .

وقد بلغت الإمبراطورية البيزنطية ذروة مجدها وعظمتها فى عهد الإمبراطور جستنيان الذى نظم القوانين الرومانية وجمع فى يده السلطتين الزمنية والدينية ، وطمحت نفسه إلى السيادة على العالم ، غير أن حروبه المتواصلة ضد الفرس فى آسيا وضد المتبربرين فى أوروبا وفتوحاته فى أفريقية وإيطاليا وأسبانيا وكلفه بإقامة المبانى الضخمة الفخمة كالقصور والكنائس كل ذلك قد استنزف كثيراً من قوى الدولة وتركها من بعده منهوكة خائرة وذهب كثير من فتوحاتها وأملاكها وتكاثر عليها الأعداء من كل جانب حتى اجترءوا على الهجوم على القسطنطينية نفسها ، وظلت الدولة البيزنطية بعد ذلك غارقة فى الفوضى والاضطرابات حتى قيض لها رجل قوى حازم هو هرقل (610 ـ 641 م) فأنقذها مما كانت فيه واسترد من الفرس البلاد التى كانوا قد احتلوها « مصر والشام وآسيا الصغرى » واستعادت بيزنطة ما كان لها من قبل من هيبة وصيت فى العالم .

على أن أمر ذلك لم يطل فقد ظهرت فى ذلك الوقت قوة جديدة قدر لها أن تقوم بدور عظيم فى تاريخ العالم وكانت من العوامل التى أدت إلى اضمحلال الدولة البيزنطية وانهيارها ، تلك هى قوة العرب الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى وأخذوا يغزون أملاك الفرس والروم فى آن واحد واستولوا من الدولة البيزنطية

على فلسطين والشام ومصر وأفريقية وحرمت هذه الدولة بذلك من مناطق واسعة كانت تمدها بالمال والزاد والرجال وأخذت بمضى الزمن تزداد ضعفاً وتقلصاً فى حدودها .

وكان السلاف والبلغار قد تمكنوا بالبلقان ، ورسخت أقدامهم فيها وشرعوا يغزون الدولة البيزنطية حتى بلغت هجماتهم أطراف القسطنطينية نفسها ، وازداد الخطر تفاقماً فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) عندما توغل السلاجقة فى آسيا الصغرى واستولوا على معظمها وشيَّدوا فيها فيما بعد دولتهم التى عرفت بدولة سلاجقة الروم ، وقد كانت هذه البقاع تمد الدولة البيزنطية بخيرة جنودها [1] واضطرت بعد ذلك إلى الإستعانة بالجنود المرتزقة من مختلف الأمم ، ومن طبيعة مثل هؤلاء الجنود أن لا يقوموا بعمل ولا ينهضوا إلى قتال إلا إذا أخذوا أجراً كبيراً ولا يترددون فى التخلى عن الإمبراطور إلى عدوه إذا نقدهم هذا العدو أجراً أكبر ، وكثيراً ما شغب هؤلاء الجند فى القسطنطينية وتمردوا ونهبوا المدينة وأصبح خطرهم على بيزنطية أكبر من خطرهم على الأعداء فضلاً عما كان هناك من تنافس وتضاغن بين أولئك الجنود المختلفة الأجناس والعناصر وطالما نشب بينهم النزاع والقتال المستحر والإمبراطور لا يملك من أمرهم شيئاً .

وكانت المدن التجارية الإيطالية ـ وفى مقدمتها البندقية وجنوا ـ قد قامت بتجارة واسعة النطاق فى الإمبراطورية البيزنطية فأمرعت فيها وأخصبت وأصبحت لها أملاك ومستعمرات كثيرة فى الأرخبيل والبحر الأسود واليونان وشرقى البحر الأدرياتيكى [2] وأخذ يتكاثر عدد البنادقة والجنويين فى القسطنطينية وصار لهم فيها نفوذ وجاه واستأثروا لأنفسهم بالمكاسب والخيرات وأصبحوا يتسلطون على الأباطرة أنفسهم ، الأمر الذى أحنق الروم وأثار سخطهم وزاد كراهيتهم وحقدهم على اللاتين ، وكانت هذه السياسة التى جرى عليها التجار الإيطاليون والقائمة على الجشع والأثرة واستنزاف القوى الاقتصادية من العوامل التى عاونت على انهيار الدولة البيزنطية .

ومن الأدواء التى ابتليت بها بيزنطة ولعها وتعلقها بمظاهر الأبهة والعظمة وظلت حريصة على ذلك حتى فى أيام ضعفها وإفلاسها ولجأت لإرضاء هذه النزعة إلى وسائل

---

(1) Diehl Byzance, grandeur et decadence .

(2) Sismondi ob cit. Heyd, Histoire du Commerce du Levant .

سخيفة شاذة فأهملت الأسطول منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى بحجة أنه يتكلف أموالاً فى غير جدوى وقللت عدد الجيش ونقصت ميزانيته ، واستطاعت بيزنطة بهذه الوسائل الرعناء التى أضعفتها وجعلتها هدفاً للطامعين أن توفر لنفسها بعض المال وتحتفظ بمظاهر العظمة والأبهة القديمة فى البلاط البيزنطى وتبهر العالم حيناً من الزمن بهذا اللألاء الأجوف الزائف ! .

ولكن الإفلاس كان يلح على الدولة البيزنطية فما لبث أن ظهر واستعلن وتكشف لأعين الناس فى أزرى صورة وأفضحها ، فعندما احتفل بزواج الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس سنة 1347 لم يكن بين الأوانى شيء من الذهب والفضة بل كانت كلها من الفخار والقصدير ، أما الملابس والتيجان الإمبراطورية فلم تزين باللآلىء والجواهر الأصيلة البراقة كما كانت من قبل بل زخرفت وبرقشت بحبات من الخرز واللآلىء الصناعية واضطر أواخر الأباطرة من آل باليولوج ـ أمام الفقر الملح ـ بعد أن باعوا كل ما يملكون من متاع وجواهر ـ أن يبيعوا قطعاً من أرض دولتهم فى مقابل بضعة آلاف من الدوقة وأصبح الأباطرة أنفسهم فريسة للمرابين الجشعين [1] وقد حدث للإمبراطور يوحنا الخامس حادث فريد يستثير الدهش والرثاء معاً ، ذلك أنه عندما رحل إلى الغرب سنة 1369 م ليلتمس من ملوكه وأمرائه المعونة والنصرة على العثمانيين الذين اشتد خطرهم ويعمل للتوفيق بين الكنيستين الشرقية والغربية اضطر أن يستدين من بعض المرابين فى البندقية فلما آن أجل الدفع وعجز الإمبراطور عن قضاء دينه قبض عليه دائنوه وزجوا به فى السجن ولبث فيه حتى وفى عنه دينه ابنه مانويل ، لذلك عندما رحل سميه الإمبراطور يوحنا الثامن فيما بعد فى أواخر عام 1437 إلى إيطاليا لنفس الغرض خشى أن يقع فى مثل هذه الفضيحة « فاشترط لضيق ذات اليد حينئذ أن جميع نفقات المجمع يتحملها اللاتين بحيث أن جميع الروم الذين يحضرون المجمع ويبلغ عددهم سبعمائة نفس من ساعة خروجهم من مواطنهم إلى حين عودهم إليها لا ينفقون شيئاً إلا من مال اللاتين [2] .

وانحدرت الدولة البيزنطية دركة أخرى فى الانحلال والعوز فصارت تبيع للتجار

---

(1) Diehl Byzance .

(2) الأب دي كوبيه اليسوعي كشف المكتوم في تاريخ آخري سلاطين الروم .

مدناً برمتها ، ففى سنة 1423 م باعت سالونيك ـ وهى ثانية المدن فى الدولة ـ للبنادقة بخمسين ألف دوقة [1] .

وكان البلاط البيزنطى منذ أول قيامه مباءة للمكائد والدسائس والمؤامرات ، وذلك شيء من طبيعة كل دولة يتولى أمرها حاكم مستبد مطلق إذ يشتد التنافس والتزاحم حوله بين الطامحين والطامعين ويتسابقون فى التزلف إليه ونيل الحظوة عنده ، وظلت بيزنطة فى أيام ضعفها واضمحلالها فريسة للمؤامرات ومحاولات الاغتصاب والنزاع بين الطامعين فى السلطان من أمراء الأسرة الإمبراطورية وغيرهم وتعددت الثورات والحروب الأهلية وكان المتنازعون يستعينون فى سبيل أغراضهم بالخصيان والنساء ولا يتورعون عن الاغتيال واستعمال أحط الوسائل وأخبثها ، بل لم يكونوا يتورعون عن الاستعانة بالأعداء كالبلغار والصرب والأتراك ، وقد كان سبب نزول الأتراك فى أوروبا ـ كما رأينا فيما تقدم ـ هو استنجاد الفريقين المتنازعين بهم ، ولما مات الإمبراطور يوحنا الثامن سنة 1448 م احتدم النزاع والتنافس بين أخوته واستنجد أخوه قسطنطين آخر أباطرة بيزنطة بالسلطان مراد الثانى فأنجده وأعانه على ارتقاء العرش .

وقد كان من جراء الاضطراب الذى ساد الدولة البيزنطية وفساد الحكم والإدارة فيها وانتشار الفوضى والإهمال أن توالت عليها الأوبئة والطواعين فهدت كيانها وقضت على الألوف من سكانها ، وكان أشد الأوبئة وأشراها ذلك الذى اجتاح أوروبا الشرقية سنة 1347 وعرف بالموت الأسود ، ثم الوباء الذى اجتاح القسطنطينية سنة 1431 .

على أن الطامة الكبرى التى نزلت ببيزنطة وقضت عليها هى المسألة الدينية والخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية ، فقد كان لذلك أعظم الأثر فى إثارة العداوة والخصام بين بيزنطة والغرب وفى تثاقل الغربيين عن نصرة القسطنطينية عندما أحدق بها الخطر ، ويرجع هذا الخلاف بين الكنيستين إلى عدة مسائل فقهية تتعلق بالعقيدة وبعض الطقوس ، غير أن

---

(1) Diehl Byzance .

ويظهر لنا أن في تصوير المؤرخين الأوربيين لحالة الإفلاس والأوقاع التي كانت عليها القسطنطينية شيئاً غير قليل من الغلو والإسراف ، فقد ذكر هؤلاء المؤرخون أنفسهم أن الأتراك عند دخولهم القسطنطينية عملوا النهب والسلب فيها وغنموا غنائم لا تحصي من الذهب والفضة والأمتعة الثمينة .

أهم أسباب الخلاف يرجع إلى النزاع بين بابا روما وبطريرك القسطنطينية على الرياسة والصدارة فقد كان البطريرك يعد نفسه نداً وكفؤاً للبابا لاتابعاً له بينما البابا كان يعتبره دونه فى المنزلة والدرجة ، وقد احتج البابا ليون الأكبر Leon le Grand على مجمع خلقدونية لأنه جعل لأسقف القسطنطينية نفس المنزلة والمكانة التى لأسقف روما ، وعندما أصدر البابا نيقولا الأول فى القرن التاسع قرار الحرمان على بطريرك القسطنطينية قابله هذا بالمثل وأصدر عليه كذلك قراراً بالحرمان [1] .

وكان أهل بيزنطة شديدى التعلق بالدين ، شديدى الإيمان بالخرافات والأساطير وكانوا بجميع طبقاتهم من الإمبراطور إلى أصغر صعلوك مولعين بالجدل والنقاش فى المسائل الدينية وأصبح ذلك فيهم غريزة وسليقة لا تكاد تفارقهم وقد وجدوا فى مسائل الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية مجالاً واسعاً ومادة دسمة لإشباع هذا النهم الفريد وبلغوا فى هذا الولع بالجدل حداً عجيباً حتى أنك لو قصدت إلى رجل ما ليغير لك بعض النقود لبادرك من فوره وباحثك فى الفرق بين الأب والابن ، ولو ذهبت إلى خباز ليبيعك شيئاً من خبزه لأسرع إليك وقال لك : يا صاح إن الأب أكبر من الابن ، ولو ذهبت إلى الحمام لتغتسل وتنفض نفسك الغبار لزعق فيك صاحبه : يا هذا ، إن الابن قد ولد من لاشىء !

وكان الروم يحرصون كل الحرص على حضور المجالس التى يعقدها رجال الدين للمناظرة والمجادلة ويجدون فى ذلك متعة وسلوى وانصرف الناس إلى هذا الجدل الدينى العقيم لا يكاد يصرفهم عنه شىء وألهاهم عن النظر فى شئون بلادهم وما كان يحيط بها من أخطار بعيدة أو قريبة ، وقد كان الجدل بين الروم محتدماً على أشده بينما « كان الأتراك على الأبواب » [2] .

وكان ميتوشيت Metochite ذلك الفيلسوف والسياسى الحصيف فى عهد الإمبراطور أندرونيك الثانى قد راعه أمر هذه المجادلات الدينية ولمح ما يستكن فيها من خطر على كيان الدولة وكثيراً ما لفت نظر الإمبراطور أندرونيك إليه وبخاصة بعد اشتداد خطر الأتراك .

---

(1) Gibbon op cit. Diehl. Byzance .

(2) Voltaire op cit .

وكان البيزنطيون بطبيعة مزاجهم الدينى يُجلون رجال الدين فيهم ويوقرونهم وكانوا أكثر ما يكونون ميلاً إلى البطاركة المتعصبين الذين يتصلبون فى موقفهم تجاه بابوات روما وتطورت العلاقات بعد ذلك بين الكنيستين الشرقية والغربية وزادت سوءاً حتى أصبح الغربيون يعتبرون الروم خوارج مارقين يجب قتالهم كالمسلمين ، أما فى بيزنطة فقد انقلب الشعور الدينى فيها إلى شعور وطنى وأصبح فى نظرهم مجرد الميل إلى أهل الغرب أو اللاتين خيانة وطنية وكان الروم فوق ذلك يعتقدون فى أنفسهم أنهم أهل علم وحضارة فكانوا ينظرون إلى الغربيين على أنهم برابرة أجلاف .

ولما قامت الحروب الصليبية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر أدت إلى الاحتكاك والاصطدام بين الصليبيين والروم وسعرت نيران العداوة والبغضاء بينهما حتى لقد دعا بـ همند وبعض زعماء الحملة الصليبية الأولى والإمبراطور فردريك بربروسة فى الحملة الثالثة إلى شن حملة صليبية على إغريق بيزنطة .

نعم استردت الإمبراطورية البيزنطية فى أثناء الحملة الأولى بعض أملاكها فى آسيا الصغرى ، ولكن ذلك لم يدم لها طويلاً ، ثم جاءت الحملة الصليبية الرابعة فى بداية القرن الثالث عشر فقضت على الإمبراطورية البيزنطية ، وفيها انتقم الغربيون من الروم شر انتقام وارتكب الصليبيون فى القسطنطينية التى أحرقوها أبشع وأقسى ضروب الوحشية والقسوة فامعنوا فى التقتيل والتنكيل وأعملوا السلب والنهب وانتهكوا الحرمات ودنسوا الكنائس واقتحموها بخيولهم وارتكبوا فيها أحط الفواحش والمنكرات ، وتفككت من بعد ذلك البقية الباقية من الإمبراطورية البيزنطية وقامت على أنقاضها دويلات وإمارات ومستعمرات مختلفة تبلغ العشرين عداً وانتخب الصليبيون لعرش القسطنطينية الكونت بوردوان دى فلاندر le comte Baudouin de Flandre [1] واغتبط نصارى الغرب لهذه الضربة القاضية التى نزلت بيزنطة وعظم ابتهاج البابا وقد كانت له يد فى هذه الحملة وبعث رجاله إلى القسطنطينية للقيام بتوحيد الكنيستين الغربية والشرقية حتى لا يكون هناك غير حظيرة واحدة تحت راع واحد وقد أقام الصليبيون بطريركية لاتينية فى القسطنطينية ظلت قائمة طوال المدة التى بقيت الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وعودة السلطة فيها إلى الروم وكان هؤلاء البطاركة يقيمون فى روما .

---

(1) Ville - Hardouin Conquete de Constantinople.

وقد أثارت هذه الحملة الصليبية أشد الكراهية والحقد فى نفوس الروم على اللاتين وكان ذلك من أهم بواعث الفشل فى المحاولات التى بذلت بعد ذلك للتوفيق بين كنيستى الشرق والغرب .

وعندما استرد الروم بقيادة ميخائيل الثامن القسطنطينية من يد اللاتين سنة 1261 كانت هذه المدينة على أسوأ حال من الضعف والانحلال والتعاسة واصطدم الإمبراطور ميخائيل بعداوة الغرب وأخذ أمراؤه يسعون إلى إعادة الإمبراطورية اللاتينية المنهارة وعاضدتهم فى ذلك البابوية التى كانت تناصر كل أمير كاثوليكى يريد فتح القسطنطينية إذ كانت تطمح إلى إعادة توحيد الكنيستين وبسط سيطرتها الدينية على الغرب والشرق ، ولكى يتفادى ميخائيل الثامن الذى كان إذ ذاك يواجه أزمة داخلية فى القسطنطينية من خطر الغزو من الغرب تقرب إلى البابا وعرض عليه توحيد الكنيستين الرومية واللاتينية تحت سلطته ، وتم تحقيق ذلك فى مجمع ليون سنة 1274 م على يد البابا جريجوار العاشر ، وأكره ميخائيل الثامن الروم وحملهم حملا على قبول هذا الاتحاد واشتد فى اضطهاد المخالفين وتعذيبهم فهاجر كثير منهم إلى طرابزون وغيرها فرارا بعقيدتهم . وعزل البطريرك يوسف من منصبه لمعارضته هذا الاتحاد غير أن البابا نيقولا الثالث أعماه التعصب فطلب أشياء أخرى أثارت سخط من كان قد رضى الاتحاد بين الكنيستين ، واجتمع المجلس الدينى بالقسطنطينية سنة 1277 م وأصدر قرار الحرمان على ميخائيل الثامن لمحاولته الاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية .

وبعد وفاة البابا نيقولا الثالث فى سنة 1280م خلفه البابا مارتن وهو فرنسى وكان شديد الكراهية والبغض للروم واتهم ميخائيل الثامن بالنفاق والمداهنة والهرطقة وأصدر عليه قرار الحرمان وهكذا مات الإمبراطور ميخائيل الثامن الذى حاول التوفيق بين الكنيستين الشرقية والغربية محروماً من بطريرك القسطنطينية ومحروماً من بابا روما مغضوباً عليه من الروم واللاتين جميعاً .

وخلفه ابنه أرندرونيك الثانى وكان شديد التعصب للأرثوذكسية فكان أول شىء فعله أنه ألغى اتحاد الكنيستين وأطلق سراح المضطهدين الذين اعتقلوا فى حياة والده وطهر كنيسة أيا صوفيا وأعاد البطريرك المخلوع واشتد فى معاقبة الذين شايعوا الاتحاد وكبلت أيديهم وأرجلهم وقذف بهم إلى جماهير الشعب ، وعظم بذلك الخلاف واستعرت نيران البغضاء بين الروم واللاتين وبين أنصار الاتحاد وأعدائه فى بيزنطة ذاتها واشتد شعور

الكراهية فيها للاتين حتى أصبح أى ميل إلى الأفكار اللاتينية يعتبر خيانة للوطن .

وكان شارل دى فالوا Charles de Valois أخو ملك فرنسا فيليب لى بل Philippe le Bel قد تزوج سنة 1301م بكاترين ابنة أخى بودوان الثانى آخر أباطرة اللاتين على القسطنطينية فاتخذ هذه الزيجة والمصاهرة ذريعة للمطالبة بوراثة الإمبراطورية الشرقية ، وظاهرته على ذلك البابوية وبعض الدول النصرانية وفى مقدمتها البندقية ، غير أنه لم تتوافر له العدة الكافية لتحقيق مطمحه ، ولم تقف البابوية فى كراهيتها وحقدها على الروم الأرثوذكس أنها تخلت عنهم فى حربهم مع الأتراك بل هددت كل من حاول معاونتهم ومناصرتهم إلا إذا اعتنق هؤلاء الروم الكاثوليكية واتحدوا مع روما .

وفى القرن الرابع عشر أحدق بالإمبراطورية البيزنطية خطران عظيمان من الشرق والغرب .

فإن الدولة العثمانية بعد أن توطدت أركانها فى آسيا الصغرى فى عهد السلطان أورخان أخذت تغزو المناطق الرومية فيها حتى بلغت شواطىء بحر مرمرة وفى أوروبا الشرقية كان ستيفان دوشان Stephane Douchan (1331 ـ 1356) يجدّ فى توسيع مملكته الصربية حتى بسط سلطانه على معظم البلقان وامتدت دولته من نهر الطونة إلى بحر إيجية ومن الإدرياتيك إلى نهر المارتزا [1] وأصبح يهدد القسطنطينية نفسها ، فبعث الإمبراطور أندرونيك الثالث الأسقف برلام Barlaam سنة 1339 م إلى البابا بنوا الثانى عشر Benoit XII وعرض عليه توحيد الكنيستين تحت سلطته ، ولكن البابا لم يطمئن إلى أمره فلم يكترث له .

ولما تولى يوحنا الخامس عرش القسطنطينية كان العثمانيون قد رسخت أقدامهم فى أوروبا خصوصاً بعد انتصارهم العظيم على جموع الصليبيين فى مارتزا سنة 1363 واضطر الإمبراطور يوحنا نفسه أن يدفع الجزية للسلطان مراد ، ولم ير هذا الإمبراطور أحداً يقدر على إعانته ونصرته غير أوروبا اللاتينية ، ولكن أوروبا هذه كانت فى القرن الرابع عشر منهمكة فى حروبها الخاصة والشجار بين البابوات فى روما وفى أفنيون والنزاع بين المجامع المختلفة .

---

(1) Miller the Balkans. Forbes the Balkans.

على أن الروح الصليبية ظلت حية مشتعلة فى نفوس الأوروبيين فى الغرب ؛ فمنذ أن استولى السلطان خليل قلاوون على عكا آخر معاقل الصليبيين فى الشرق سنة 1291 وجهت حملات صليبية كثيرة إلى مصر وآسيا الصغرى وأفريقية ، غير أن هذه الحملات جاءت مبعثرة متفرقة تنقصها وحدة الرأى ووحدة القيادة ، وكان كثير من هذه الحملات قد أضمرت سوء النية للإمبراطورية البيزنطية ، وقد اقترح على البابوات وملوك الغرب أنه يجب البدء بفتح بيزنطة على البدعة الأرثوذكسية قبل القيام بتخليص الأرض المقدسة [1] .

وكان يوحنا الخامس مع ذلك كبير الأمل فى أن يطفىء نار العداوة المتأججة فى صدور اللاتين ضد الروم وأن يؤلب جموع الغرب على العدوُ المشترك و هم العثمانيون الذين توغلوا فى أوروبا الشرقية وأصبحوا يتوفزون للوثوب على إيطاليا ، وكان الإمبراطور يوحنا أكثر استعداداً أو ميلاً ممن سبقه من الأباطرة للخضوع لبابا روما واعتناق مذهب اللاتين ، ولا غرو فقد كانت والدته لاتينية الأصل وظلت حريصة مخلصة للاتينيتها بعد زواجها من إمبراطور القسطنطينية وتغيير اسمها ومذهبها وأشربت ابنها يوحنا منذ حداثته حُب اللاتين والميل إلى مذهبهم .

ولما تولى يوحنا عرش القسطنطينية وتفرد به وأحدق به العدو من كل جانب نصحت له أمه أن يتقرب إلى البابا ويظهر له الطاعة والولاء عسى أن يعينه ذلك على دفع البلاء عن نفسه ووطنه ، ولم يكتف الإمبراطور يوحنا بأن عرض على البابا توحيد الكنيستين تحت إمرته وإقامة الشعائر اللاتينية فى القسطنطينية وإكراه الإكليروس والشعب الرومى على ذلك ، بل عرض عليه أيضاً بناء ثلاث مدارس فى القسطنطينية لتعليم شباب الروم لغة اللاتين ومذهبهم ، ووقف مشروع الإمبراطور يوحنا عند ذلك ، فلا الروم خضعوا للبابا ولا البابا بعث إلى يوحنا المعونة التى طلبها منه ، وقد قام الإمبراطور بما قام به سراً وبذلك نجا مما كان سيلحق به من السخط والخزى .

وتزايد الخطر العثمانى على القسطنطينية واستفحل فلم يجد الإمبراطور يوحنا مناصاً من اللجوء إلى روما مرة أخرى إذ لا ملجأ له سواها فشخص إليها بنفسه سنة 1369 م وكان

Djuvara. op cit. Lavisse et Rambaud. (1)

بذلك أول إمبراطور بيزنطي زار الغرب وأعلن للبابا أوربان الخامس Urbain V جهاراً فى كنيسة القديس بطرس اعتناقه لمذهب اللاتين وإيمانه به ثم سجد بين يديه وأخذ يقبله من أخمص قدمه إلى فرع رأسه ، واحتفى البابا به وأكرم وفادته وحاول أن يستثير الحمية والحماس فى ملك فرنسا وغيره من ملوك الغرب واستنفرهم لنصرة يوحنا ولكنهم تثاقلوا عن تلبية ندائه فى هذه القضية العامة وانصرفوا إلى منازعاتهم الخاصة ، وأمد البابا الإمبراطور يوحنا بسفينتين اثنتين وثلاث مئة جندى وبضع مئة ذو ة وهى مـ اعدة ليست بذات غناة ؛ كما أن الشعب الرومى والإكليروس لم يكترثوا للإم اطور فى مسعاه ولم يأبهوا به . وعندما اشتد تهديد السلطان بايزيد الأول للقسطنطينية بعـ ـ الإمبراطور مانويل الثانى يستنجد الدول الغربية فأمده ملك فرنسا شارل السادس بفرقة مر الجند فى أربع سفن حربية بقيادة المارشال بوسيكو Boucicault الذى كان يلتهب حماساً لقتال العثمانيين الذين أسروه قبل ثلاث سنوات فى نيكوبولي ويتشوق إلى أخذ ثأره منهم ، وانضمت إلى هذه السفن الأربع فى الطريق سفن وأمداد أخرى من جنوا والبندقية ورودس ولسبوس وتمكن بذلك من تخفيف ضغط العثمانيين على القسطنطينية وأن يستولى منهم على بعض القلاع فى أسيا وأوروبا ، بيد أنه قرر العودة إلى فرنسا بعد سنة من الكفاح لعجز بيزنطة عن تموين جنوده ودفع أجورهم ونصح للإمبراطور مانويل أن يرحل بنفسه إلى الغـ ب لعله بمكانته ونفوذه الشخصى يبلغ ما يريد من معونة الغرب له لاسيما وقد عاد الأ راك لمحاصرة القسطنطينية بجموع أكبر ، وترك بوسيكو للدفاع عن القسطنطينية فرقة صـ نيرة من الجند بقيادة أحد رجاله وهو شلتوموران Chataumoraut .

غادر الإمبراطور مانويل القسطنطينية فى ديسمبر من عام 1399 م وعهد بأمور الدولة إلى ابن أخيه يوحنا ووضع كل من البندقية وجنوا أربع سفن لحماية القسطنطينـ ة وغلطه . وصحبه فى سفره المارشال بوسيكو ليشد أزره فى طلب المعونة من ملوك أورو ، وعندما وصل مانويل إلى فرنسا احتفى به ملكها شارل السادس ونبلاؤها احتفاءاً عظيـ وتتابعت له المآدب والحفلات التكريمية الفخمة نسى خلالها الإمبراطور شيئاً من آلامه و ـجانه ، ولكن مالبث أن تبين له أن هذه الحفلات ما هى إلا مظاهر جوفاء براقة لا يجى من ورائها شىء يجديه فى أمره الذى جاء من أجله فشد رحاله إلى انجلترا فوجدها أقل اسـتعداداً وقدرة على معونته فعاد إلى فرنسا ، وظل مانويل أكثر من سنتين يطوف ببلداد أوروبا

المختلفة دون أن ينال شيئاً ذابال فعاد أدراجه إلى بلاده ، وكان منذ أن خرج منها يتوقع فى كل لحظة أن يباغته الخبر بسقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين ، وما كان أشد دهشته وفرحته عندما علم قبل وصوله إلى القسطنطينية بهزيمة بايزيد وموته فى أسر تيمورلنك .

وفى خلال السنوات العشر التى عقبت هزيمة بايزيد ووقعت فيها الدولة العثمانية فى أشد الفوضى والاضطراب واحتدمت الحرب الأهلية بين أبنائه الأربعة لم تحاول بيزنطة الإستفادة من هذه الظروف المواتية والعمل على التخلص من هذه الدولة الإسلامية المجاورة التى طالما هددتها وكل ما استفادته أنها أمضت فترة من الزمن لم يساورها فيها القلق والخوف ، ثم استيقظ الإمبراطور مانويل فجأة من غفلته فهاله أن رأى الدولة العثمانية وقد انبعثت واستقامت شامخة البنيان وطيدة الأركان وشرع السلطان مراد الثانى يواصل ما انقطع من الفتوحات فى آسيا وأوروبا كأن لم يكن شىء من الهزيمة والبلاء قد أصابها .

وبعث مانويل الثانى إلى البابا مارتن الخامس يستصرخه ويستغيثه ، وذكر له رغبته فى تزويج أبنائه الستة بأميرات إيطاليات لعله يستقوى بوشائج الدم والمصاهرة ويجعل لنفسه عصبية تغضب له وتنصره وقد لبى البابا استغاثة الإمبراطور هذه المرة فبعث إليه بفتيات إيطاليات جمعن إلى شرف المحتد وكرم الأرومة الحسن الفائق والجمال الباهر . ومن يدرى ، فلعلهن بذلك يبلغن من أمر الروم المارقين الخوارج وكسر حدتهم ولجاجهم مالم تبلغه حجج أهل الدين وبراهين أهل المنطق ويحرز البابا مارتن بذلك من أيسر الطرق مجداً ألح فى نواله من سبقه من البابوات ولكن استغاثة مانويل ذهبت كما ذهبت استغاثات من قبله .

وتعاظم الخطر العثمانى على القسطنطينية حتى شعرت بالضيق والاختناق فصرخت ، وكان يبدو أول الأمر أن هذه الصرخة ستكون أبعد دوياً وأشد تأثيراً فى الغرب ، وكان الإمبراطور يوحنا الثامن على استعداد لتقديم كل شىء على أن تقدم إليه النجدة والمعونة وقد شخص بنفسه سنة1437م إلى إيطاليا يصحبه سبع مئة من الروم واستقبل فى البندقية أعظم استقبال وأروعه وقد أعجب الروم لأول وهلة بمبانى البندقية وآثارها الفخمة ولكنهم مالبثوا أن تصاعدت من صدورهم الزفرات الحرى عندما تبينوا أن هذه الآثار التى تزين البندقية ما هى إلا من الأسلاب التى نهبت من القسطنطينية بعد أن

فتحها اللاتين سنة 1204 ، ثم واصل الإمبراطور سفره إلى فراره حيث عقد فيها الاجتماع ، وإذا استثنينا دوق بورغنديا فإن سائر ملوك أوروبا قد استنكفوا من حضوره أو إرسال مندوبين إليه ، وأحس الروم فى هذه المدينة كثيراً من الضيق والكرب .

وانقضت الجلسات الأولى بفراره فى مباحثات ومجادلات عقيمة ، وفجأة دهم هذه المدينة طاعون فتاك فنقلوا المجمع إلى فلورنسة [1] . وبعد تسعة أشهر من المباحثات والمناقشات الحامية توصل الروم واللاتين إلى اتفاق لتوحيد الكنيستين وكتبوا لذلك صكاً قرئ على المجتمعين باللغتين اللاتينية والرومية فى 6 يوليو سنة 1439 وأقيمت صلاة عامة للشكر رأسها البابا فى كنيسة مريم العذراء ثم نهض المصلون بعضهم إلى بعض وتعانق الأساقفة الشرقيون والغربيون يتبادلون التهانى على هذا النجاح والتوفيق .

على أن هذا الاتفاق برغم ما أحيط به من مظاهر الفرح والابتهاج وما أقيم له من صلوات شكر لم يكن فى الواقع إلا اتحاداً صورياً مزيفاً لم يستأصل الأسباب الحقيقية للخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية وكان أشبه بملهاة أو كوميديا قام الإمبراطور يوحنا بتمثيلها [2] فلم يلبث أن تبدد وتلاشى كما يتبدد الحلم الجميل بعد المنام ويتلاشى ، إذ لم يكد الإمبراطور يوحنا وأصحابه يضعون أقدامهم على شواطىء بيزنطة حتى هاج الروم وثاروا وقابلوهم بالسباب والشتائم وصاحوا فى وجوههم صيحات السخرية والاستهزاء واتهموهم بأنهم « قد باعوا كنيستهم ووطنهم بقليل من الذهب » [3] .

وتزعم حركة الثوار الأمير ديمتريوس ، وكان قد صحب أخاه الإمبراطور إلى فلورنسة ووقع معه الاتفاق على توحيد الكنيستين ، غير أنه لما عاد إلى بلاده استغل سخط الروم وحنقهم فأنكر الاتحاد وتولى قيادتهم طمعاً فى عرش القسطنطينية وحاصر هذه المدينة ببعض الجنود الأتراك المرتزقة ولكنه فشل فى اقتحامها .

وكان فيمن صحب الإمبراطور يوحنا إلى إيطاليا عالم فيلسوف رومى متضلع فى

---

(1) يجد القارىء فى كتاب كشف الكتوم لأب دى كوبيه اليسوعى تفصيلاً وافياً للمسائل المختلف عليها بين الكنيستين الشرقية والغربية ومادار من المناقشات فى الجلسات التى عقدت بفراره وفلورنسة .

(2) Voltaire. op. cit.

(3) Diehl, Byzance.

الدين والفلسفة يدعى جورج أمير تزوس وقد جهر بمعارضته لاتحاد الكنيستين فلما عاد إلى القسطنطينية ووجد الناس فيها قد شملهم السخط والتذمر خرج مغاضباً إلى طرابزون ومن هناك شن حرباً شعواء على أشياع الاتحاد وكتب يفند قرارات مجمع فلورنسة وصفق الروم وهتفوا له هتاف الإعجاب .

ومما زاد حنق الروم وغيظهم أن الإمبراطور يوحنا قبل سفره إلى إيطاليا كان قد وعدهم بأنه سيعود إليهم وشيكاً بنجدة قوية من الغرب كما أظهر الأساقفة ـ قبل سفرهم ـ للروم رسوخهم فى العلم وتضلعهم فيه وأنهم سيحاجون أساقفة الغرب ويفحمونهم بسهولة . وبعد رحلة استغرقت سنتين عاد الإمبراطور وأساقفته كأسو أما يعود الرائد إلى أهله ، فلا الإمبراطور جاء بشيء مما كان قد وعد به ولا الأساقفة أفلحوا فى محاجاة اللاتين وإفحامهم ، واستشاط الروم غضباً وصاحوا بأعلى صوتهم وقلوبهم تغلى كالمرجل من الغيظ والحقد على اللاتين « لأن نرى فى القسطنطينية عمامة الأتراك خير لنا من أن نرى فيها قبعة اللاتين »[1] .

ولم يجد الأساقفة بداً إزاء هذه الثورة الجامحة وهيجان الرأى العام من أن يعترفوا بذنبهم وفاضت أعينهم من الدمع وأعلنوا توبتهم وندمهم على ما كان منهم وانقلبوا أشد تحمساً وتعصباً للأرثوذكسية من ذى قبل واشتد الحماس والتعصب بين الناس وأجمعوا أمرهم على أن ينتخبوا للبطريركية الأسقف مارك أفيوسس الذى رافق الإمبراطور يوحنا إلى مجمع فلورنسة وحضر جلساته وعارض توحيد الكنيستين وأنكر علانية كل اتفاق مع اللاتين المارقين الهراطقة وتحدى المجتمعين وأعلن نفسه حامياً للعقيدة الأرثوذكسية .

كان ذلك فى سنة 1440 م ، وبعد أربع سنوات حدثت معركة وارنة المشهورة بقيادة هونياد والكاردينال سيزارينى وكان الإمبراطور يوحنا ممن أثارها وحرض عليها وفيها انهزم الصليبيون انهزاما شنعيا فقوى ذلك موقف المعارضين للاتحاد فى القسطنطينية . وبعد أربع سنوات أخرى أصيب هونياد بهزيمة أخرى أشنع كانت شديدة الوقع على نفس الإمبراطور يوحنا فمات كمدا بعد بضعة أيام وقد رجع عن عقيدة الاتحاد وأنكرها . وقد كان لموقف الروم هذا رد فعل شديد فى نفوس اللاتين وأثار حنقهم وسخطهم وقوى اعتقادهم أن

Diehl. Byzance. Voltaire op. cit. (1)

الروم قوم أهل مكر وخبث وخديعة لا يتورعون عن نكث الأيمان والعهود .

لقد كان الباعث لأباطرة بيزنطة على التقرب إلى كنيسة روما والاتحاد بها باعثاً سياسياً محضاً يرمى إلى الاستعانة بسلطة البابا وقوات ملوك الغرب على دفع خطر العدو المحدق ببلادهم ، ولم يكن الباعث قط إيماناً بالمذهب اللاتينى أو ميلاً إليه ، ولم يكن هؤلاء الأباطرة فى قرارة أنفسهم أقل تمسكاً وتعصباً للأرثوذكسية من الأكليروس والشعب الرومى ولم يكن تزلفهم إلى البابوية وارتماؤهم تحت قدميها إلا رياء ومداهنة ، وكل اتفاق يقوم على مثل هذا الأساس فهو اتفاق كاذب مزيف لا يلبث أن يتصدع وينهار .

وليس أدل على نفاق هؤلاء الأباطرة من أن الإمبراطور مانويل الثانى الذى زار فرنسا وإنجلترا وغيرهما من بلدان أوروبا يستجدى المعونة والنصرة بعد أن عاد إلى القسطنطينية وحكم بضعة عشر عاماً فى أمن وسلام عقب إنهيار الدولة العثمانية وقيام الحرب الأهلية فيها أمضى هذه الفترة من الحكم فى التأليف والكتابة فى المذهب الأرثوذكسى والدفاع عنه ، وعندما أحس بدنو أجله دعا إليه ابنه يوحنا فكان مما أوصاه به : إن آخر ما نملك ضد الأتراك هو خوفهم من اتحادنا من اللاتين وخوفهم من أمم الغرب ذات البأس والقوة والتى قد تأتى لنصرتنا عليهم ، فكلما تهددك الأتراك أبرز هذا الخطر أمام أعينهم يكفوا عنك ، اقترح عقد مجمع واجهر به واتخذ الأسباب لذلك وهول الأمر وهرّم ولكن إياك أن ينعقد مثل هذا المجمع فإنك لن تصيب منه أى جدوى لدنياك أو لدينك فإن اللاتين أهل عجب وغطرسة والروم أهل عناد ولجاج ولا يجتمع هؤلاء وهؤلاء على أمر ، ولا تحاول توحيد الكنيستين فإن ذلك سيزيد الخلاف والفرقة ضراماً وشدة ويقضى على كنائسنا ويجعلنا تحت رحمة البرابرة دون أن يكون لنا أمل فى الدفع عن أنفسنا [1] .

والحق أن العداوة بين أهل بيزنطة وأهل الغرب كانت أعصى من أن تحل فأهل الغرب ينظرون إلى الروم أنهم خوارج مارقون تجب محاربتهم كالمسلمين وأنهم أهل بغى ومكر ، وينظر الروم إلى الغربيين أو اللاتين أنهم ضالون مارقون ، برابرة أجلاف ، وأنهم لا يريدون غير اقتسام الإمبراطورية البيزنطية ونهبها واستغلالها لأنفسهم ، وكان أكثر الغربيين اتصالاً بالروم البنادقة والجنويين وهؤلاء قوم قد فرغوا أنفسهم للتجارة

---

(1) Gibbon op. cit. Sir Charles Eliot Turkey in Europe.

والكسب ، لا يعنيهم من أمر الدنيا غير الذهب سواء عندهم أن تتحد الكنيستان أوأن تفترقا وأن يذهب اللاتين بالروم أو الروم باللاتين ما بقيت تجارتهم آمنة رائجة تدر عليهم الذهب والمال ، أما البابا فلم يكن يروم غير توحيد الكنيستين تحت زعامته ورياسته لا يهمه بعد ذلك أن تكون القسطنطينية فى يد اللاتين أو فى يد الروم .

ومهما يكن من حقد الروم وكراهيتهم بعد ذلك على اللاتين فقد كانوا فى ذلك على شيء غير قليل من الحق ، فبالرغم من تهديد العثمانيين البالغ للقسطنطينية فإن ذلك لم يحمل الغرب على تغيير سياسته المعادية إزاء بيزنطة ، وفى الوقت الذى كانت فيه هذه المدينة تدنو من نهايتها كان الغرب أقل تفكيراً فى نجدتها منه فى استغلال مصابها ورزئها ، وأبى أهل الغرب إلا أن ينظروا إلى أن الكنيسة الشرقية قد رفضت الاعتراف بزعامة البابا ونسوا أن بيزنطة قد صدت طوال عدة قرون غزوات المسلمين من الشرق ، فلمساعدة بيزنطة مساعدة ناجعة كان على الغرب أن يقدم إليها جهداً خالصاً لا يشوبه غرض وكان عليه أن يدرك أن مصلحة النصرانية ذاتها تقضى بوقف الأتراك وإنقاذ القسطنطينية بأى ثمن .

وقد أدرك الغرب ذلك فيما بعد ، بعد فوات الأوان !

ولما تولى قسطنطين آخر الأباطرة عرش بيزنطة سلك طريقاً جديداً لنيل النجدة والمعونة وإنقاذ القسطنطينية من الهاوية التى أوشكت أن تتردى فيها ، فحاول أولاً ـ بإشارة صديقه المخلص المؤرخ جورج فرانتزس George Phrantzes ـ الزواج بماريا الصربية أرملة السلطان مراد الثانى ، وذلك عقب عودتها إلى وطنها بعد وفاة زوجها برغم أنها كانت فى الخمسين من عمرها ، وكان قسطنطين يؤمل بهذا الزواج أن يكتسب قوة والدها الحاكم جورج برونكوفتش ، ثم إن هذه الأرملة كانت بمثابة الوالدة للسلطان محمد الفاتح وكان يجلها ويحترمها فلعلها بذلك تستطيع أن تحسن العلاقة بينه وبين قسطنطين وتصرفه عن حصار القسطنطينية وتدفع خطره عنها ، بيد أن ماريا ـ التى ظلت على نصرانيتها طيلة حياتها فى قصر السلطان مراد ـ كانت قد نذرت نفسها لله فاعتزلت الناس وقبعت فى أحد الأديار .

وكان فرانتزس إذ ذاك فى طرابزون فى بلاط الإمبراطور داود كومنين فى مهمة لسيده

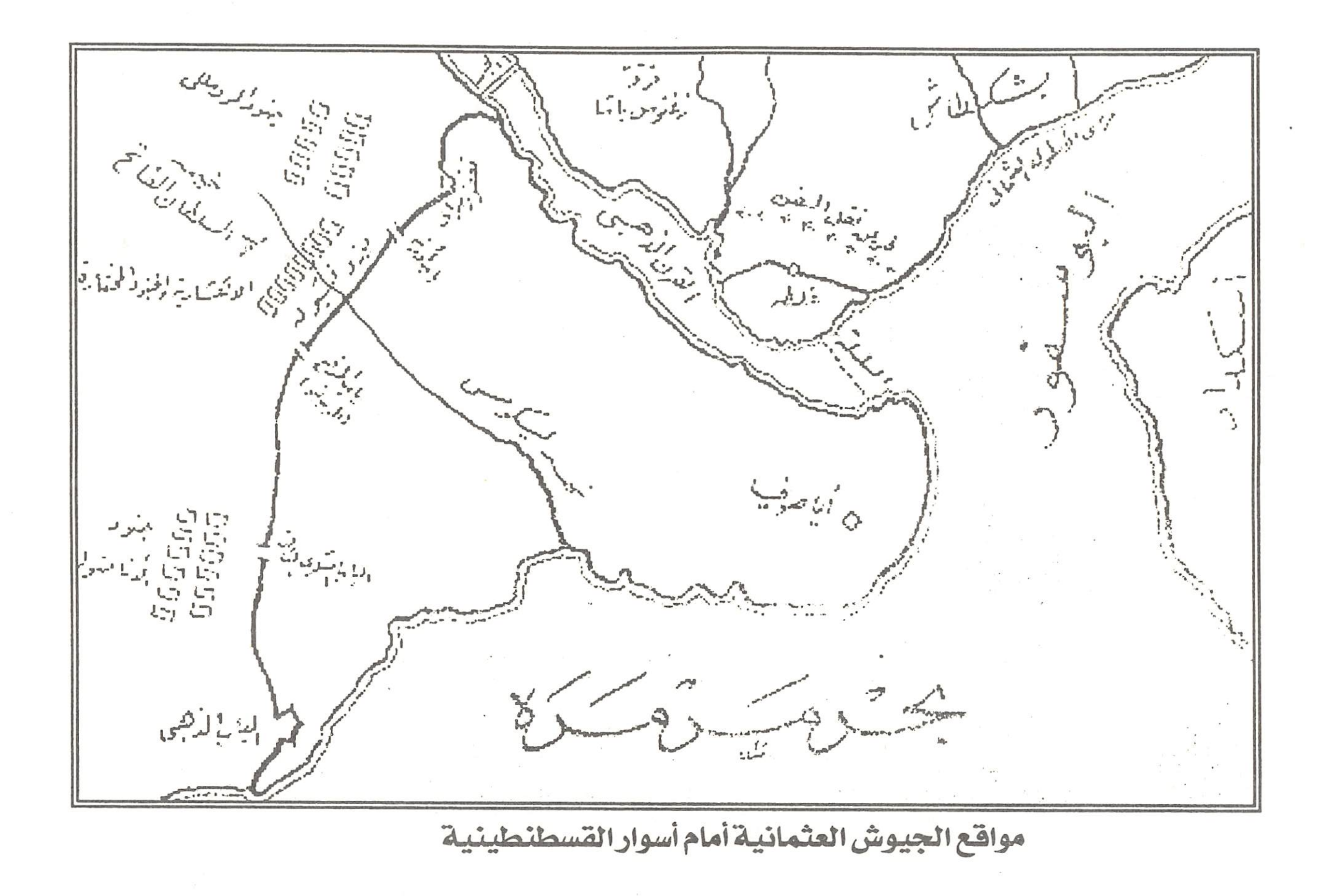
قسطنطين وهى أن يبحث له عن زوجة فى هذا البلاط أو فى بلاط ملك الكرج (جورجيا) وهناك بلغه نبأ وفاة السلطان مراد وعودة أرملته إلى وطنها فكتب من فوره إلى قسطنطين يشير عليه بزواجها ، فلما علم باعتزالها وانقطاعها فى الدير أصبحت هناك أميرتان مرشحتان لقسطنطين ، وأشار عليه بعض رجال بلاطه بأن يتزوج ابنة إمبراطور طرابزون . أما فرانتزس فقد اختار له ابنة ملك الكرج ، ولعل الذى حدا هذا المؤرخ السياسى على ذلك أن أهل الكرج قوم أهل بداوة وعصبية فهم أسرع إلى النجدة وأصدق فى القتال حين يلم الخطب ، واغتبط ملك الكرج بهذه المصاهرة ووعد أن يقدم عن ابنته مهراً كبيراً . وعاد فرانتزس إلى القسطنطينية وأيده قسطنطين فيما اختار ، على أن الزواج لم يتم فقد قامت الحرب بعد ذلك بينه وبين السلطان الفاتح ودفن هذا المشروع وما علق عليه من آمال تحت أنقاض القسطنطينية .

ويقال إن الإمبراطور قسطنطين كان قد اتعد بالزواج بابنة رئيس جمهورية البندقية ولكنه مالبث أن عدل عنه خوفاً من الرأى العام الذى كان يتهمه بالميل إلى اللاتين ، بيد أن هذا العدول عن الزواج قد اعتبرته البندقية إهانة لها فكان ذلك من أسباب تثاقلها عن نصرة قسطنطين حينما أحاطت به الأخطار واشتد الحصار على القسطنطينية .

ومن جهة أخرى لم ييأس قسطنطين من معونة الغرب واعتقد أن اشتداد الخطر على القسطنطينية وإحداق المسلمين بها سيحمله على المبادرة إلى نجدته ونصرته فبعث إلى جميع ملوك الغرب وأمرائه القريب منهم والبعيد يستصرخهم ويستغيثهم كما بعث إلى البابا نيقولا الخامس يستنصره وينذره بأنه إذا سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك فإنهم سيهجمون بعد ذلك على إيطاليا نفسها [1] ، وذكر له قسطنطين قبوله لما اتفق عليه فى مجمع فلورنسة من أمر توحيد الكنيستين واعتذر عما كان من مسلك الروم تجاهه ، وكان قسطنطين فى ذلك مثل من سبقه من الأباطرة ، لم يقبل هذا الاتحاد إلا طمعاً فى نيل المعونة ، أما فى قرارة نفسه فلم يكن أقل عداء من الإكليروس ومن الشعب الرومى للاتين وكل ما جاء من روما .

---

(1) Schlumberger. Le siege, la prise et le sac de Constantinople par les Turcs.



مواقع الجيوش العثمانية أمام أسوار القسطنطينية

الفصل الثانى

العثمانيون والقسطنطينية ـ بواعث فتح القسطنطينية ـ قسطنطين ينقض العهد ـ عزم السلطان الفاتح على فتح القسطنطينية وبناء روملى حصار ـ ظواهر غريبة فى القسطنطينية ـ قسطنطين يستغيث الغرب ـ موقف البندقية وجنوة والبابا ـ مندوب البابا يقوم بتوحيد الكنيستين فى أياصوفيا وغضب الروم على ذلك ـ صيحة نوتاراس : عمامة الأتراك خير من قبعة الكاردينال ـ قسطنطين يستنجد أمراء الشرق ـ المهندس أوربان يصنع المدافع للسلطان الفاتح ـ الفاتح يتخذ الاستعدادات الحربية الأخيرة ـ بدء الحصار ـ مواقع الجيش العثمانى أمام سور القسطنطينية ـ تأهب قسطنطين للدفاع ـ المدد الوحيد الذى وصل القسطنطينية ـ نقل سفن عثمانية إلى القرن الذهبى بطريق البر وأثره فى تشديد الحصار ـ فشل محاولة إحراق هذه السفن .

كان فتح القسطنطينية هدف العثمانيين منذ أقاموا دولتهم فى آسيا الصغرى ، وبعد أن عبروا بحر مرمرة وأقاموا لهم ملكاً فى شرقى أوروبا أصبح هذا الفتح ضرورة سياسية ملحة لهم ، ولم تعد أية واحدة من العواصم الأولى . ينى شهر وبروسه فى آسيا الصغرى وأدرنة فى أوروبا صالحة لأن تكون عاصمة للدولة العثمانية بعد امتدادها إلى أوروبا وتوسعها فيها فضلاً عما فى فتح القسطنطينية التى حاول المسلمون الاستيلاء عليها منذ الصدر الأول من الإسلام من مغزى دينى كبير ، وقد كان العثمانيون فى ذلك العهد أشد الناس حماساً للإسلام وأصدقهم جهاداً فى سبيله .

توغل العثمانيون فى فتوحاتهم بشرقى أوروبا حتى أحاطوا بالقسطنطينية من كل جانب ، ولما عجزت بيزنطة عن منازلتهم فى ميادين القتال عمدت إلى منازلتهم بالدس والمكيدة والفتنة ، فتارة تثير عليهم أمراء آسيا فى الشرق وتارة تؤلب عليهم أمراء الغرب وتارة تحرض هؤلاء وتغريهم بقتال العثمانيين ، وبيزنطة هى التى حرضت تيمورلنك على

قتالهم وسببت مانزل بالدولة العثمانية من نكبة وبلاء [1] ، وكانت القسطنطينية تفتح أبوابها لكل خارج على الدولة العثمانية كما كانت تعتقل الأمراء العثمانيين وتحبسهم لديها ثم تهدد بهم السلاطين العثمانيين وتطلقهم فى اللحظة المواتية وتجر على الدولة العثمانية بذلك حرباً أهلية دامية ، وكان طريق الاتصال بين الجزء الأسيوى من الدولة العثمانية والجزء الأوروبى منها تسيطر عليه القسطنطينية ، وفى وسعها قطعه أو عرقلته .

ولم يكن للعثمانيين أسطول يؤمن لهم السيادة فى بحر مرمره ، وطالما هددت القسطنطينية الجزء الأوروبى من الدولة العثمانية بالخطر الداهم فكانت هذه المدينة شوكة فى جسم الدولة العثمانية ، فأينما ذهب السلطان وقفت القسطنطينية من ورائه تشهر الخنجر لطعنه فى ظهره ، وعندما مالأت بيزنطة الصليبين قبيل معركة وارنه كان من الخطة المرسومة أن تدلف السفن النصرانية إلى بحر مرمره وتحول بين السلطان مراد وجيشه فى آسيا وبين العبور إلى أوروبا وكادت الخطة تنجح لولا أن السلطان مراد استطاع أن يرشو الجنوبين بمال كبير ونقلوا الجيش العثمانى إلى أوروبا على سفنهم ، وكان محمد الفاتح ، إذ ذاك فى أدرنه وقد شهد بنفسه الهلع الذى انتاب المسلمين عندما سمعوا بأن جموع الصليبيين قد أحاطت بهم من البر والبحر وسمع والده السلطان مراد قبل معركة وارنه يقسم لئن كشف الله عنى هذا البلاء لأزحفن لساعتى إلى القسطنطينية ، وقد بر بيمينه فزحف إليها وحاصرها ، ولكن وسائله لم تعنه على فتحها ولم يكن للسلطان مراد الشيخ من العزم والقوة والمصابرة مالابنه محمد فكرر له قبل وفاته وصاة جده عثمان بفتح القسطنطينية [2] وأدرك السلطان الفاتح نفسه أنه لن يستقر له أمن ولا طمأنينة ما بقيت القسطنطينية العاصمة الطبيعية لامبراطوريته فى يد غيره .

وقد كان تصرف قسطنطين إزاءه مما استحثه على المبادرة إلى القيام بهذا الفتح .

ذلك أن الفاتح عقب توليه السلطنة عقد السلام مع قسطنطين وغيره من الأمراء والحكام ورضى أن يخصص راتباً كبيراً للأمير العثمانى أورخان الذى كان معتقلاً فى القسطنطينية . ويظهر أن قسطنطين قد أغراه هذا التسامح والتساهل من جانب الفاتح فانتهز

---

(1) قريتو وولوس تاريخ سلطان محمد خان الثانى Pears, The Destruction of the Greek Emp

(2) صولاق زاده تاريخى . سعد الدين تاج التواريخ . منجم باشى .

أول فرصة للغدر به ، فإن محمد الفاتح لم يكد يجلس على عرش السلطنة حتى قام ضده إبراهيم أمير القرمان وأثار معه عدة أشخاص ، زعم أنهم أبناء الأمراء القدماء لكرميان وإيدين ومنتشا ودفعهم إلى هذه الأقاليم ليستولوا على ميراثهم فبعث السلطان الفاتح لقتاله إسحق باشا أمير أمراء الأناطول وسار هو فى أثره ، وفوجىء إبراهيم بهذا الزحف السريع ووجد أنه أضعف من أن يناجز الجيش العثمانى فكف عن القتال وتقدم إلى السلطان الفاتح بنفسه باكياً مستعطفاً وقدم إليه ابنته توكيداً لخضوعه ، وتعهد أن يخرج معه فى حملاته المقبلة على أن يحتفظ بإمارته ، ورق الفاتح لبكائه وقبل منه ما طلب وعفا عما كان منه [1]

انتهز قسطنطين زحف السلطان الفاتح إلى آسيا الصغرى لقمع إبراهيم أمير القرمان فبعث إليه وفداً يطلب منه أن يدفع من فوره مصاريف الأمير أورخان ، ويدفعها مضاعفة وإلا فإنه سيطلق سراح هذا الأمير ويثيره عليه ويمده بجيش من عنده ويجلسه على عرش السلطنة .

ولا يبعد أن يكون ثمة تواطؤ وتآمر بين هذين الرجلين ـ إبراهيم فى آسيا وقسطنطين فى أوروبا ـ على الإيقاع بالفاتح والقضاء على دولته وغرتهما حداثة سنه .

وعلى أية حال فقد فشلت هذه المؤامرة أو هذه الحركة المزدوجة ، أما أمير القرمان فقد رأينا ما انتهى إليه أمره ، أما قسطنطين فقد انتهى إلى مصير أفجع وأنكى كما سنرى فيما بعد .

ذهب رسل قسطنطين إلى السلطان الفاتح بآسيا الصغرى يحملون الإنذار والوعيد . وقد لقيهم الصدر الأعظم خليل باشا ولم يملك نفسه ـ برغم ما كان بينه وبين الروم من صلات ودية واتهامه بالرشوة منهم ـ أن صاح فى وجوههم غاضباً : « أيها الروم الحمقى ، لقد عرفنا فيكم الغدر والخيانة وأنكم لتجهلون الخطر الذى يحدق بكم ، لقد ذهب السلطان مراد بحلمه وسعة صدره وخلفه على العرش سلطان جديد فتى لا يفل عزمه شىء ، لئن نجت القسطنطينية هذه المرة من يده إن الله إذن قد غفر لكم جرمكم ومكركم ، أيها الروم الحمقى إن العهد بيننا قريب ، والآن تأتون إلينا تهددون وتوعدون كعادتكم ،

---

(1) عاشق زاده تاريخ . صولاق زاده تاريخى . سعد الدين تاج التواريخ . منجم باشيى .

ولكنا لسنا بصبيان أغرار ، أطلقوا أسيركم أورخان ، اجعلوه سلطان فى تراقيا ، استنفروا المجريين وادعوا أمم الغرب لنصرتكم وازحفوا علينا بجحافلكم فإنكم لن تنالوا من وراء ذلك شيئاً بل ستعجلون القضاء على أنفسكم . سأذكر لسيدى كل هذا ، وأن ما يريده لن يقف شيء دون بلوغه [1] .

ولم ير السلطان الفاتح أن يقابل هذا العدوان بمثله قبل الانتهاء من أمر أمير القرمان ، وكان فوق ذلك بعيداً عن مقر دولته بأدرنه فى أوروبا ، فلو بادى عداوة قسطنطين بمثلها لعمد هذا إلى قطع خط الرجعة عليه أو عرقلته وسد المسالك البحرية فى سبيله ، لذلك أحسن مقابلة رسل الإمبراطور ولاينهم فى القول ووعدهم بالنظر فى طلبهم فيما بعد . وما إن عاد السلطان الفاتح إلى أدرنه حتى أمر بإلغاء الراتب الذى خصص لأورخان وأخذ يعد العدة لحصار القسطنطينية والقضاء على هذه المدينة التى مافتئت تهدد الدولة العثمانية من حين إلى حين ، وشعر الإمبراطور قسطنطين بما يعده السلطان الفاتح فتملكه الفزع واستخذت قواه وكف عن تهديداته الحمقاء وأدرك أى رجل قد أثاره على نفسه وندم على ما كان منه .

من خطط السلطان الفاتح فى حروبه أنه قبل أن يهجم على مدينة أو قلعة يعمل على حصرها وعزلها وقطع الاتصال بينها وبين البلاد التى قد تأتى إلى نجدتها ، والقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية التى ظلت مدى عشرة قرون معقل النصرانية فى الشرق لن يسع أوروبا النصرانية أن تظل مكتوفة اليدين تنظر إلى مصرعها فى يد المسلمين بغير اكتراث ولا مبالاة فكان أول ماقام به الفاتح من الاستعدادات أنه عقد الاتفاقات السلمية مع البندقية والمجر والأفلاق والبوسنة وغيرها من الدول والإمارات ، وعقد هدنة لثلاث سنوات مع هونياد المجرى . ثم شرع فى بناء قلعة منيعة على الشاطىء الأوروبى من البوسفور بإزاء القلعة التى بناها السلطان بايزيد الأول على الشاطىء الأسيوى عند أضيق موضع من القناة ويحكم بذلك إغلاق هذا الممر ويحول دون وصول أى مساعدة قد تأتى من البحر الأسود .

---

(1) Gibbon op. cit. Hammer Histoire de l'Empire Ottoman.

وجلب الفاتح مواد البناء وآلاف الفعلة والبنائين من جميع أنحاء إمبراطوريته واشترك بنفسه مع كبار رجال دولته والقضاة والفقهاء فى أعمال البناء فخلعوا ملابسهم الزاهية والثمينة وانتشروا بين العمال والفعلة وزاحموهم بمناكبهم فى نقل الأتربة والأحجار .

وقسم السلطان الفاتح العمال إلى فرق وعين لكل فرقة قسماً خاصاً من العمل تقوم بإنجازه وأظهر الجميع همة جبارة ونشاطاً عجيباً فى العمل الذى لم ينقطع ليلاً أو نهاراً .

وازدادت مخاوف قسطنطين واشتد هلعه وذهب الغرور الذى كان به فلم يعد يطالب بمصاريف الأمير أورخان بل بعث إلى السلطان الفاتح يتضرع ويلتمس منه أن يكف عن أعماله لأنها نقض لما بينهما من العهد ! وأجاب الفاتح على رسل قسطنطين :

« ليس فيما أقوم به ما يهدد مدينتكم ، إنما هى أسباب الحيطة أتخذها لدولتى وليس فى ذلك أى نقض للعهد . إن لكم القسطنطينية بأسوارها وليس لكم وراء ذلك من شيء ، وهل نسيتم ماانتاب والدى من الفزع عندما تحالف إمبراطوركم مع المجر وأراد منعه من عبور البحر إلى أوربا وسدت سفنه المضيق واضطر السلطان مراد أن يستعين الجنوبين ؟ لقد كنت حينذاك فى أدرنه وكنت لأزال فتى يافعا ، وقد ارتعد المسلمون من الخوف والفزع وكنتم تسخرون منهم وتشمتون لقد أقسم والدى فى موقعة وارنه ليقيمن قلعة ههنا على الشاطيء الأوروبى ، وها أنذر أبر بيمينه وليس لكم الحق أو القوة فى منع ما أقوم به الآن فى أرضى فإن كلا الشاطئين لى ، أما الشاطيء الأسيوى فلأنه يسكنه المسلمون ، أما الشاطيء الأوروبى فلأن الروم قد هجروه وأنتم لا تقدرون على الدفاع عنه ، اذهبوا إلى سيدكم وأخبروه أن السلطان العثمانى الآن يختلف عن أجداده فإن لى عزما فوق عزمهم وقوة فوق قوتهم ، انصرفوا الآن إلى دياركم بسلام ووالله ما جاءنى أحد منكم بعد ذلك بمثل هذه الرسالة إلا قتلته » [1] .

وأخذ قسطنطين ينظر ملتاع النفس إلى القلعة الجديدة وهى تنمو كل يوم وترتفع وسفن النقل تغدو وتروح تحمل الرجال ومواد البناء من آسيا إلى أوروبا وهو لا يستطيع منعها أو عرقلتها ، واسترسل قسطنطين فى الاستخذاء والتزلف فأخذ يبعث كل يوم بمائدة إلى السلطان الفاتح وعماله الذين يقومون ببناء القلعة بأجود الطعام والشراب كأنما كان السلطان الفاتح يسعى من وراء استعداداته إلى ملء بطنه ، وكان خيراً لقسطنطين لو أبقى

---

(1) فريتوورلوس ، تاريخ سلطان محمد خان ثاني . أحمد مختار ، فتح جليل قسطنطينية .

كل هذه الأطعمة والأشربة لقومه المحصورين الذين أغلقت عليهم السبل .

وذكر قسطنطين صديقه القديم الوزير المرتشى خليل باشا فجمع رجال دولته وشاورهم فى أمره فقالوا له أن هدايانا السابقة إلى خليل باشا إنما كانت لمثل هذا اليوم وإذا كان لهذا البلاء المحدق من دافع فلن يأتينا إلا من قبله ، وأخذ قسطنطين يبعث إليه من جديد بالهدايا من الأسماك المحشوة بالذهب عله يثنى عزم السلطان محمد الفاتح ويصرفه عما هو بسبيله من إلا ستعداد والتأهب لحصار القسطنطينية ولكن الفاتح لم يحفل بشفاعة خليل باشا ووساطته وتجهم له تجهماً ارتعدت له فرائص الوزير الخائن [1] .

ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تم بناء هذه القلعة الضخمة الجبارة (أواخر أغسطس 1452 م ـ شعبان 856 هـ) فى شكل مثلث ، سمك جدارها عشرون قدماً ، فى كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص سمكه اثنتان وثلاثون قدماً ، ونصبت على الشاطىء مجانيق ومدافع ضخمة جثمت كالغيلان وقد صوبت أفواهها إلى القناة تمنع السفن من المرور ، ومن ثم سميت هذه القلعة الجديدة « بوغازكسن » أى قاطع البوغاز ، وعرفت فيما بعد بروملى حصار أوقلعة الروملى ووقفت تجاه أختها القلعة التى بناها بايزيد على الشاطىء الأسيوى والتى تدعى « كوزل حصار » أى القلعة الجميلة أو « أناطولى حصار » أى قلعة الأناطول ، وقد أمر الفاتح أيضاً بترميمها وتقويتها .

وقد أراد الفاتح من هذه القلعة الجديدة إلى جانب سيطرتها على مجاز البوسفور أن تكون قاعدة لأعماله الحربية فى أوروبا ومستودعاً للزاد والعتاد ، ولا تزال بقايا هذه القلعة قائمة إلى اليوم تستثير إعجاب الناظرين ، وعهد السلطان الفاتح فى قيادة القلعة الجديدة إلى فيروز أغا ومعه أربع مئة من الإنكشارية وأمره بأن لا يسمح لأى سفينة بالمرور من مجاز البوسفور إلا بعد أن تفتش وتؤدى ضريبة المرور ، فإن أبت أن تطيع أطلقت عليها القذائف وأغرقت .

وفى (12 شعبان 856 هـ ـ 28 أغسطس 1452 م) قصد الفاتح فى بعض جيشه إلى القسطنطينية ليتعرف أسوارها ويخبر مدى قوتها وعاد بعد ثلاثة أيام إلى أدرنه حيث تلقاه الناس بحفاوة وحماس بالغين ، ومضى يكمل معداته للحصار وقد أدرك أن سيكون

---

(1) صولاق زاده تاريخى . سعد الدين ، تاج التواريخ .

حصاراً شاقاً مريراً وانتظر حتى يحل موسم الربيع ، ولكى يتم الفاتح عزل القسطنطينية ويحكم تطويقها بعث قائده طرخان فى بداية شهر أكتوبر إلى الموره لمناجزة حاكميها توماس وديمتريوس ومنعهما من مساعدة أخيهما قسطنطين إمبراطور القسطنطينية كما أرسل فريقاً من جنده لتطهير المناطق المجاورة لهذه المدينة .

وأقبل الشتاء ودلت بوادره على أنه سيكون قارساً شديد البرودة واغتبط قسطنطين بذلك وظن أن البرد سيعوق الأعمال الحربية وبعث إلى الفاتح يحاول صرفه عما هو بسبيله من الاستعداد للحرب فقال الفاتح للرسل :

إذا كان امبراطوركم يخشى الحرب فليسلم لى القسطنطينية وأقسم أن جيشى لن يتعرض لأحد فى نفسه أو ماله ، ومن شاء بقى فى المدينة وعاش فيها فى أمن وسلام ومن شاء رحل عنها وذهب حيث أراد فى أمن وسلام أيضاً (1) .

وأيقن قسطنطين أن لامناص من الحرب فحاول تخريب القلعة ولكن الأتراك تصدوا للروم الذين قاموا بهذه المحاولة وردوهم على أعقابهم ، وحدثت بعد ذلك مناوشات ومناجزات بين الأتراك والروم كما اقتتل جماعة منهم فى بعض القرى المجاورة للقسطنطينية هلك فيه كثير من الروم ، وكان ذلك بداية صراع طويل بين الفريقين ، واشتد الذعر بالإمبراطور فأمر بإغلاق أبواب المدينة وقبض على جميع من فيها من الأتراك وكان فيهم بعض غلمان السلطان الفاتح فأطلق قسطنطين سراحهم وردهم إلى سيدهم وبعث معهم هذه الرسالة : **إذا كانت المدينة يهددها الخطر فان الإمبراطور يلوذ بالله . ولم تغلق أبواب المدينة إلا بعد أن نقضت الهدنة علانية وأن أهل القسطنطينية سيدافعون عن أنفسهم بكل ماملكوا من قوة ، ولعل الله أن يغير عزم السلطان ويجنح به إلى السلام** .

وجد قسطنطين فى إصلاح أسوار المدينة وأبوابها وتخزين القوت وتعبئة الجند للقتال .

وفى العاشر من نوفمبر 1452 م قدمت سفينتان كبيرتان للبندقية من البحر الأسود وحاولتا اقتحام مضيق البوسفور فأطلقت عليهما النار وأسرتا ، وبعد أسبوعين قدمت سفينة أخرى للبندقية وأسرت أيضاً ، وفى أواخر نوفمبر قدمت سفينة بندقية أيضاً تحمل بعض المؤنةللقسطنطينية وأراد قائدها انتونيو رزو Antonio Rizzo أن يقتحم القناة

(1) Zia Sakir, Fatih Istambulu nasil aldi .

فأطلقت عليها قذائف المدافع الرابضة على الشاطىء فحطمتها فى الحال وابتلعها اليم ، وقبض على قائدها رزو وثلاثين من بحارته وأمر الفاتح بقتلهم ، ثم أرسل السلطان فرقة من الجند بقيادة قره جه بك واستولت على بقية المدن والقلاع التى كانت لاتزال للروم فى تراقيا .

وانتشر الفزع والرعب بين أهل القسطنطينية حينما تسامعوا بالاستعداد ات الضخمة التى يعدها السلطان الفاتح لحصار مدينتهم ، وزاد فى مخاوفهم ، وقد كان الروم أهل إيمان بالخرافة والطيرة ـ ما شاهدوه من الظواهر الغريبة الشاذة التى ظهرت فى تلك الأثناء ، فقد اهتزت الأرض وزلزلت وبرقت السماء ورعدت وأخذت تقذف بالشهب النارية والصواعق الهائلة وهطل المطر غزيراً مدراراً وهبت الريح عاصفة هوجاء ، وظهرت فى السماء كواكب غريبة تلمع وتختفى وأخرى ثابتة كأنها تنفث الدخان وتبللت التماثيل والآثار الدينية فى الكنائس كأنها تنضح عرقاً ، وبدت ظواهر أخرى عديدة من هذا النوع الشاذ كأنها إنذار إلهى بأن أحداثاً جساماً ستقع . وانتشر المشعوذون والعرافون من الرجال والنساء فى كل مكان يتنبؤون للناس بالمصائب والويلات مستشهدين بالنبوءات القديمة .

ودعى الأساقفة إلى قصر الإمبراطور ولما سئلوا عن سر هذه الظواهر أجابوا بأنها إنذار إلهى بالعقاب ويجب على الناس أن يذهبوا إلى الكنائس للصلاة والاستغفار ، فهرول الناس إلى الكنائس وقد حملوا معهم أموالهم وأخذوا يصلون هناك ويستغفرون ، على أن الإمبراطور قسطنطين ومن حوله من أهل العزم والجلد قد واجهوا هذه الأمور بشجاعة ورباطة جأش لم تضعف عزيمتهم ولم تفتر ، بل ضاعفوا جهودهم فى تنظيم وسائل الدفاع ، وأمر قسطنطين بأخذ مافى الكنائس من الأموال والكنوز لتنفق فى هذا السبيل وفى تحصين أسوار المدينة ، هذه الأسوار التى طالما ردت الغزاة عنها وعسى أن تردهم هذه المرة أيضاً .

وعندما رأى الإمبراطور ضخامة القوة التى أعدها الفاتح لفتح القسطنطينية بعث إلى الغرب مرة أخرى يستغيثه ويستنجده وأعلن فى رسالته للبابا أنه قد قبل ماقرره مجمع فلورنسة فى توحيد الكنيستين وطلب إليه أن يرسل من ينفذ ذلك ، واستعجله فى إرسال المعونة والنجدة ، ولم يكن موقف ملوك الغرب تجاه القسطنطينية هذه المرة خيراً

من موقفهم من قبل فقد شغلتهم منازعاتهم ومشاكلهم الخاصة عن الإصاخة إلى هذه الاستغاثة .

وكان أكثر أهل الغرب اهتماماً بأمر القسطنطينية هى البندقية وجنوا والبابوية لدوافع خاصة بها ، أما الدولتان التجاريتان البندقية وجنوا ـ وقد كانت لهما جالية كبيرة وأملاك ومستعمرات واسعة فى الشرق ـ فقد أدركت كلتاهما أن مصلحتهما فى أن تبقى القسطنطينية فى يد دولة ضعيفة عاجزة تمارسان فى ظلها تجارتهما الواسعة فى حرية وسلام ، وتأمنان جانبها على أملاكهما الكثيرة المنتشرة فى الشرق ، ولم تكن هاتان الدولتان تحفلان بالدولة العثمانية فى أول نشأتها عندما لم تكن سوى إمارة صغيرة كغيرها من الإمارات التسع الأخرى التى قامت على أنقاض الدولة السلجوقية ، ولكن لما ترعرعت هذه الدولة وعظمت لم يكن ثمة بد من الاحتكاك والصدام معها .

كانت البندقية أكثر نجاحاً فى سياستها الاستعمارية فى الشرق وأشد بأساً من غريمتها جنوا ، وقد جعلت هدفها الأول من سياستها الشرقية محاربة الدولة العثمانية وما من حملة من الحملات التى وجهت لقتالها إلا كان للبندقية فيها نصيب .

وقد رأى فيها السلطان محمد الأول العدو الوحيد الذى يستطيع الوقوف فى وجه نمو الدولة العثمانية وينازعها السيادة والعظمة وأنه يجب قهرها بأى ثمن ، وظلت العلاقة بين الدولتين على هذه الصورة من التوتر والتحفز إلى أن هجم أمير البحر البندقى بييترو لوريدانو Pietro Loredano فى 29 مايو 1416 على السفن العثمانية فى كليبولى فمزقهم تمزيقاً وكان ذلك أول قتال علنى صريح بين الدولتين ، وكان للبندقية فى ذلك العهد التفوق فى البحر فكان لها النصر ونزلت لها الدولة العثمانية عن أشياء ، فكان من الطبيعى إذن أن تؤيد البندقية جميع الجهود التى بذلت للتوفيق بين الكنيستين ، وقد عاضدت البابا يوجين الرابع فى سعيه فى هذا السبيل لا حباً فى سيادة البابا ورياسته على الكنيستين ولا إيماناً بأحقية المذهب الكاثوليكى ولكن إبقاء على الدولة البيزنطية المتداعية أن تنهار وتحل محلها الدولة العثمانية الفتية فتنازعها مستعمراتها وموارد ثروتها وذهبها فى الشرق .

ولما بدأ السلطان محمد الفاتح استعداداته الحربية وأوشك أن يطوق القسطنطينية بجيشه

اللهام ومدافعه الضخمة وصرخ قسطنطين صرخة الاستغاثة وبعث رسله إلى الغرب ، ناصرته البندقية وجنوا فى أمر ولم تألو جهداً فى إستشارة ملوك الغرب واستنفارهم لنصرة القسطنطينية ، ولكن أوروبا آنذاك كانت منهمكة فى منازعاتها وحروبها الخاصة فلم تتبين الصرخة التى انبعثت من بيزنطة وكانت البندقية نفسها فى ذلك الوقت مشتبكة فى حرب مع دوق ميلان ومع ذلك فإنها أعدت عشر سفن بقيادة جاكوبو لوريدانو Jacopo Loredano وانتظرت حتى تأتيها السفن التى وعد بها البابا والفونس ملك نابولى ويتكون من كل ذلك أسطول قوى يستطيع تقديم معونة قوية ناجعة إلى القسطنطينية ، وذهب وقت طويل فى الإنتظار ، ثم بعث البابا بثلاثين سفينة ، وأبحرت هذه السفن معاً وكانت تحمل الزاد والعتاد والجند فلما وصلت جزيرة خيوس Chios هبت عليها ريح عاصف عاقها عن السير ، فلما سكنت عنها الريح استأنفت سيرها ولكنها ما كادت تمضى قليلاً حتى التقت بها بعض السفن الفارة من القرن الذهبى تنبئها بسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك ، أما السفن البندقية التى كانت راسية فى القرن الذهبى من قبل ضرب الحصار فقد اشتركت كلها فى الدفاع عن القسطنطينية كما اشترك جميع البنادقة فيها فى القتال وعلى رأسهم القنصل البندقى وقد قاتلوا جميعاً ببسالة وشجاعة .

أما جنوا فقد كان من مصلحتها أيضاً أن تبقى القسطنطينية فى يد دولة ضعيفة كما ذكرنا ، ولكن الجنويين المقيمين فى غلطة المصاقبة للقسطنطينية حينما رأوا الحرب على وشك أن تندلع بين الفاتح وقسطنطين تغلب عليهم طبع التاجر الجشع الذى لا يبالى أن يصطاد فى الماء العكر ويأخذ بالشمال واليمين وأعماهم النهم إلى المال والكسب العاجل فلم يجاهروا أياً من المعسكرين بالعداء وأخذوا يتزلفون إليهما كليهما فكانوا يفشون إلى الأتراك ما يحصلون عليه من أسرار الروم ويفشون إلى الروم ما يحصلون عليه من أسرار الأتراك . ويتظاهرون بالحياد والإخلاص للأتراك وفى نفس الوقت يبعثون بجنودهم سراً إلى القسطنطينية للدفاع عنها [1] ويأخذون أجراً من هؤلاء وأولئك .

وفى (29 يناير 1453 ـ 18 محرم 857 هـ) وصل فجأة إلى القسطنطينية المغامر الجنوى چان چستنيان Jean Justinian فى أربع مئة من أصحابه المغامرين الجنويين الأشداء ، وانضم إليهم فى طريقهم إلى القسطنطينية ثلاث مئة آخرون من المغامرين من جزيرتى

(1) فريدون بك ، منشآت السلاطين .

خيوس ورودس ، وكان جستنيان مقاتلاً مغواراً ذائع الصيت فى الشجاعة والمهارة فى فنون القتال ، وقد جاء من تلقاء نفسه للدفاع عن القسطنطينية عندما علم بما أحاط بها من خطر وقد سر قسطنطين لمقدمه واحتفى به ووعد بأن يكافئه بجزيرة من جزر الأرخبيل إذا ما صد الأتراك ورفعوا الحصار عن القسطنطنية وعهد إليه قسطنطين بالقيادة العامة للدفاع .

أما البابا نيقولا الخامس فإنه لما اطمأن إلى أن قسطنطين سينفذ قرار مجمع فلورنسة بشأن توحيد الكنيستين بعث رجاله إلى أنحاء إيطاليا وفرنسا وألمانيا لجمع المال واستنهاض الملوك والأمراء لنجدة القسطنطينية وأرسل الكاردينال إيسيدور Isidore فى مئتين من الجنود المختارة لتوحيد الكنيستين والدفاع عن هذه المدينة ، ورحب به قسطنطين ومن كان على رأيه فى توحيد الكنيستين من رجال الإكليروس والبلاط وهم قلة ، وفى الثانى عشر من ديسمبر سنة 1452م قام الكاردينال إيسيدور فى كنيسة أياصوفيا بإجراء مراسم الاتحاد وأدى الصلاة على الطريقة الكاثوليكية حضرها الإمبراطور ومشايعوه .

وقد أثار هذا العمل أشد السخط والغضب فى نفوس المعارضين للاتحاد وهم سواد الشعب ومعظم رجال الدين ، وهرول كثير من الناس إلى دير بانتوكراتور Pantocrator حيث كان يقيم الراهب المشهور چناديوس وسألوه رأيه فيما قام به قسطنطين لتوحيد الكنيستين فقطب وتجهم ولم ينبس ببنت شفة واكتفى بأن علق على باب الدير رقعة من الورق ندد فيها بهذا الاتحاد وصب لعناته على الذين قاموا به لأنهم تركوا الاستعانة بالله والتجأوا إلى البشر ، ومما جاء فى هذه الرقعة قوله :

لا حاجة بنا إلى اللاتين فكما أنقذنا الله والعذراء من الفرس والعرب من قبل سينقذاننا هذه المرة من محمد (الفاتح) .

وأنذر الروم بأنهم إذا تركوا عقيدتهم فإن الله سينزل بهم أشد العقاب ويفقدون مدينتهم . وجاشت الحمية والحماس فى نفوس الحاضرين وانصرفوا عن الدير وطافوا بالشوارع رجالاً ونساء ، رهباناً وراهبات وهم يتصايحون ويهتفون بالموت للاتين ومشايعيهم ويستغيثون العذراء أن تدفع عنهم الأتراك كما دفعتهم من قبل ، واشتد الهرج والمرج بين الناس وانتابهم نوع من الهوس فهجموا على الحانات وأخذوا يشربون فيها

ويسكرون « على ذكر البتول »[1] . وخرجت إحدى الراهبات إلى الملأ فى ملابس المسلمات وأعلنت أنها اعتنقت الإسلام وأخذت تأكل اللحم والناس فى الصوم الكبير .

وهجر الروم كنيسة أيا صوفيا ونبذوها ، فقد تنجست فى نظرهم وتدنست على أثر تلك الصلاة التى أداها فيها الكاردينال إيسيدور وأصبحت فى نظرهم كمعبد يهودى أو وثنى ، وخيم الظلام والسكون الموحش على هذه الكنيسة العظيمة التى طالما عجت بالصلوات وتصاعد فيها البخور وانتشرت فيها الأضواء ، وفى وسط هذا الهيجان والاضطراب العام صاح الدوق نوتاراس ـ وهو ثانى رجل فى الدولة بعد الإمبراطور من حيث المكانة والمنزلة ـ صيحته المشهورة المدوية : لأن نرى فى القسطنطينية عمامة الأتراك خير من أن نرى فيها قبعة الكاردينال[2] .

لقد بلغت كراهية الروم للاتين أقصاها حينما رأوا الكاردينال ايسيدور يؤدى الطقوس اللاتينية فى أيا صوفيا ، على أن الإمبراطور قسطنطين نفسه ومن تابعة على قبول اتحاد الكنيستين من بعض رجال الأكليروس وبعض رجال بلاطه لم يكونوا فى الواقع مخلصين لهذا الاتحاد ولا مؤمنين به ، ولم يكونوا فى قرارة أنفسهم أقل عداء وكراهية للاتين من سائر الروم ، ولم يقبلوا هذا الاتفاق والاتحاد مع اللاتين ـ أو على الأصح التظاهر بالاتفاق والاتحاد معهم ـ إلا طمعاً فى نيل المعونة والنصرة من البابا ومن دول الغرب على الأتراك ثم ينفضون يدهم منهم بعد ذلك ، وقد قالوا فى همس خافت لمن آخذهم وعنفهم : صبراً صبراً حتى ينجي الله هذه المدينة من هذا الغول الذى يريد ابتلاعنا وسترون بعدئذ إن كنا قد اتفقنا حقاً مع اللاتين أم لا .

وكتب قسطنطين أيضاً إلى ملوك الشرق وأمرائه النصارى منهم والمسلمين ، وبين لهم الخطر الذى يهددهم من استفحال الدولة العثمانية وتزايد قوتها وطلب إلى إمبراطور طرابزون وملك الكرج وفرسان رودس وأمير القرمان وملك فارس وسلطان مصر أن يمدوه بالعون ويظاهروه على دفع هذا الخطر المشترك[3] .

---

(1) كشف المكتوم .

(2) Gibbon, The Roman Empire. Hammer, L'Empire Ottoman, Pears, The Destruction of the Greck Empire, Lord Eversly. The Turkish Empire .

(3) Guillet Histoire de Mahomet II.

ولكن أحداً من هؤلاء لم يجب دعوته ، وانتشرت بين الروم فى القسطنطينية تنبؤات غيبية مختلفة بعضها يقول : إن بعض الفاتحين سيقتحمون عليهم المدينة من هذا الباب أو ذاك فيعمدون إلى تحصينه وبعضها يقول : إن الأعداء سيدخلون المدينة ثم يردون على أعقابهم ويدحرون ، وبعضها يقول : إن الأعداء سيقتلون جميع الروم ويبيدونهم وما إلى ذلك من التنبؤات الخرافية المضطربة المتناقضة التى إن دلت على شىء فعلى ما انتاب أهل القسطنطينية من القلق والفزع والاضطراب ، ولم يجد الناس بداً آخر الأمر من الاستسلام للقدر بين يائس لايرى مخلصاً من الخطر الداهم ومترج يختلج فى نفسه بصيص من نور الأمل الغامض .

أما السلطان محمد الفاتح فقد انهمك بكليته فى الاستعداد والتأهب للحصار المقبل وقد أدرك أنه سيكون حصاراً طويلاً شاقاً ، وفيما كان الفاتح يقوم باستعداداته إذ جاءه رجل مجرى يدعى أوربان الذى يعد أمهر صانع للمدرافع فى زمانه ، وكان قد طاف ببعض بلدان أوربا وعرض صناعته على بعض ملوكها فلم يصغ إليه أحد ، فذهب إلى القسطنطينية ولبث هناك زمناً يقدم خدماته للإمبراطور ويعينه على اتخاذ أسباب الدفاع عن هذه المدينة ، غير أن الإمبراطور ضن عليه بالمال ، وقد كان أوربان رجلاً جشعاً يحب المال حباً جماً فبرم بهذه الحال كما برم بالمناقشات والمنازعات الدينية التى كانت تسود القسطنطينية ففر إلى السلطان محمد الفاتح الذى بالغ فى الحفاوة به وفتح له أبواب خزائنه وغمره بالمال والعطايا ، ثم سأله الفاتح : **هل يمكنك أن تصنع مدافع أكبر من التى صنعتها حتى الآن ؟** فأجاب أوربان : **فى استطاعتى أن أصنع لك مدفعاً يدك أسوار القسطنطينية ولو كانت فى مناعة أسوار بابل ، غير أنى مهندس ولست جندياً فلا أعرف أين توضع المدافع ؟** فبادره الفاتح ضاحكاً بقوله : **أنا الجندى ما عليك إلا أن تصنع المدافع التى أريدها ، أما أين توضع وكيف تصوب فدع ذلك لى** (1) .

وشرع أوربان فى صنع المدافع يعاونه فى ذلك المهندسان التركيان صاريجه ومصلح الدين ويشرف عليهم السلطان الفاتح بنفسه وبعد ثلاثة أشهر أتم أوربان صنع المدافع التى طلبها منه الفاتح وكان من بينها مدفع ضخم عملاق لم ير مثله قط فى ضخامته وكبر حجمه ، فهو يزن سبع مئة طن واسع الفوهة ، تزن القذيفة الواحدة التى يقذفها اثنى

---

(1) Zia Sakir,op cit.

عشر ألف رطل ولايطيق جره إلا مئة ثور يساعدها مئة من الرجال الأشداء تزحف به زحف السلحفاة فى مهل وتؤدة .

وقد قطع الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية فى شهرين وهو طريق يقطع عادة فى يومين ، وكان لانطلاق القذيفة من هذا المدفع دوى هائل مرعب يصم الآذان ويسمع على بعد ثلاثة عشر ميلا .

وعندما أريد تجربته أول مرة فى أدرنة أنذر سكان المدينة لئلا يفجأهم هذا الدوى المرعب ، فتضع الحبالى من النساء ويصعق المنخوبون من الناس ، وانطلقت القذيفة الضخمة إلى مسافة ميل وغاصت فى الأرض ست أقدام ، وقد استعظم الناس هذا المدفع واستهالوه ونسبوه فى تسميته إلى السلطان ودعوه بـ « المدفع السلطانى» وقد كان بحق سلطان المدافع ، وصنع أوربان إلى جانب هذا المدفع مدافع أخرى ، وسر السلطان الفاتح لنجاح التجربة وأجزل العطاء والمكافأة للعمال وبخاصة الذين صنعوا هذا المدفع وازداد الأتراك حماساً لفتح القسطنطينية .

استحوذت على السلطان الفاتح فكرة فتح هذه المدينة وسيطرت على جميع جوانب نفسه فكان لا يتحدث إلا فى هذا الأمر ولا يأذن لأحد ممن يجالسه بالحديث فى غيره ، وكان يخرج من بعض خاصيته فى بعض الليالى يعس ويجوس طرقات المدينة يتسمع إلى أخبار الجنود وأحاديث الناس ، وأصبح أمر فتح القسطنطينية همه الذى يشغله بالليل والنهار حتى أرقه وحرمه النوم ، وأخذ يقدح زناد فكره فى أنجع الوسائل لهذا الفتح وكثيراً ما كان يجتمع بكبار رجال جيشه ويباحثهم ويشاورهم فى هذا الأمر وكثيراً ما أدهشهم بخططه وأفكاره .

وفى ليلة من هذه الليالى التى جفاه فيها النوم دعا إليه وزيره خليل باشا ، وأوجس الوزير خيفة وظن أن شراً قد أريد به ، فقد كان ممن عمل على عزل السلطان الفاتح عن العرش فى المرتين السابقتين فحمل معه صرة مملوءة ذهباً ووضعها بين قدمى السلطان الفاتح وكان جالساً على سريره وعلى وجهه آثار الإعياء والتعب فلما رآه السلطان بادره بقوله : ما هذا ؟ فأجاب خليل باشا بأنه لا ينبغى لوزير أن يدعى فى مثل هذه الساعة ويده خالية ، إن ماأقدمه إليك ليس ملكى بل هو من فضلك ، فقال له الفاتح : لست فى حاجة إلى

هذا ، إنما الذى أريده منك هو أن تعينني بكل قوتك على امتلاك القسطنطينية ، وارتعد خليل باشا من هذا القول ، فقد كان يمالىء الروم خفية واستمالوه إليهم بالذهب والهدايا واشتهر أمر ذلك بين الناس فلما ذهب عنه الخوف ، قال للفاتح :

إن الله الذى منحك جزءاً كبيراً من الإمبراطورية الرومية سيمنحك ما تبقى منها ويفتح لك أبواب عاصمتها ؛ وأن جميع رعيتك سيتسابقون فى التضحية بأموالهم وأنفسهم فى هذا السبيل . ثم قال له الفاتح : أرأيت هذا الفراش ؟ لقد تقلبت عليه طوال الليل ولم يطمئن بى مضجع ولا واتانى النوم ، ولكن حذار أن تفسدك أموال الروم ، إن القتال سيبدأ عن قريب وإننا بعون الله ورسوله سنستولى منهم على هذه المدينة .

ولم يكد خليل باشا يخرج من المجلس حتى نهض السلطان الفاتح عن فراشه وأخذ يرسم مدينة القسطنطينية وأسوارها وحصنها وأين توضع المدافع وآلات الحصار وأين يكون الهجوم ثم أخذ يتحرى المعلومات الدقيقة عن المدينة واستحكاماتها ومواردها ولا تمر عليه صغيرة ولا كبيرة دون أن يتفحصها ويدقق فيها ويعد لها عدتها .

- ورأى السلطان الفاتح أن الطريق إلى القسطنطينية من ناحية الدردنيل لا تزال مفتوحة تدخل منها السفن وتخرج فى حرية تامة فأمر بالإسراع فى بناء سفن جديدة وإصلاح القديمة ووضعها فى بحر مرمرة لمنع أى سفينة نصرانية من تموين القسطنطينية ، وبلغ عدد هذه السفن التركية على اختلاف أنواعها وأحجامها أربع مئة سفينة على تقدير المؤرخ الرومى فرانتزتس وهناك تقديرات أخرى تتراوح بين 350 ، 300 ، 250 سفينة ، على أنه لم يكن من هذه السفن غير اثنتى عشرة فقط كانت مسلحة تسليحا تاما . وخشى الروم أن تدخل هذه السفن إلى ميناء القرن الذهبى فسدوا مدخله (12 إبريل 1453) بسلسلة ضخمة واحتمت السفن النصرانية وراءاً . وعهد بحراسة الميناء إلى الجنويين .

وفى أواخر شهر مارس كان السلطان الفاتح قد أتم استعداداته ثم زحف بجيشه إلى القسطنطينية وما أن وصل إلى مشارف هذه المدينة حتى خطبهم خطبة بليغة حثهم فيها على الجهاد وصدق القتال وقرأ عليهم فى ذلك الآيات القرآنية والأحاديث المبشرة بفتح القسطنطينية وأبان لهم أى فخر يحوزون بفتح القسطنطينية الذى سيعز قدر الإسلام ويرفع مناره ، ولم يكد ينتهى السلطان الفاتح من خطبته حتى تعالت صيحات الجند مدوية

مـجلجلة تشق عنان السـمـاء : الله ، الله [1] . وكـان فى طليعـة الجيش الشيـوخ والعلمـاء والدراوشة يتـقـدمهـم الشـيـخ آق شمس الدين والشيخ آق بيق ده والمولى أحمـد الكورانى والمولى خـسرو فـدعـوا الله ـ سبحـانه وتعـالى ـ أن ينصر جـيش المسلمـين ويبيـض وجـوه الفرسان . وسرى الحماس والحمية فى نفوس الجند وغمرهم سرور عظيم فأخذوا يتواثبون من الفـرح يعـانق بعـضـهم بعـضـاً ويدقـون الطبـول والأبـواق » وأصبـح كل شـخص كـأنه الغضنفر .

وفى 26 ربيـع الأول 857 هـ ـ 5 إبريـل 1453 م بلغ الجيش الإسـلامى أمـام أسـوار القسطنطينية وكان منظراً من أروع ما روى التاريخ :

جموع زاخرة من الجند بين مشاة وركبان بأعلامها الخفاقة المزهوة تتهادى ، وقوافل من الأنعام تنوء بالزاد والعتاد ، وثار النقع وساد الصخب واللجب ، واختلطت صيحات الرجال بصهيل الخيل وامتزج التكبير الإلهى الجهير بالموسيقى العسكرية المدوية وكانت تعلو رءوس الناس فى هذا السهل الفسيح عمائم بيض يموج بعضها فى بعض كزبد البحر المتلاطم ، ولما آن الوقت لصلاة الظهر نشر السلطان الفاتح سجادته واستقبل القبلة وكبر للصلاة وكبر الجيش العرمرم فى صوت جهير رهيب وراء إمامه وقائده .

وشرع السلطان الفاتح بعد ذلك يتأهب لحصار القسطنطينية فعبأ جنده ونظمه ووزع العدد وآلات الحصار والقتال ووضع كل شىء فى موضعه ونسقه كأحسن ما كان يفعل قيصر ونابليون [2] .

وفى اليوم التالى (الجمعة 27 ربيع الأول 857 ـ 6 إبريل 1453 م) بدأ السلطان محمد الفاتح بجيشه محاصرة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية التليدة ، ومدينة القسطنطينية ـ كما هو ظاهر فى الصورة ـ مثلثة الشكل ، جانب منها على بحر مرمرة وجانب على ميناء القرن الذهبى ويمتد على طول كل منهما سور واحد ، أما الجانب الثالث الذى يقع فى الجهة الغربية ويصل القسطنطينية بأوروبا فكان هناك خطان من السور

---

(1) صولاق زاده تاريخي .

(2) كان الأتراك العثمانيون أول من عرف الموسيقي العسكرية في العالم وعنهم أخذت جميع أمم أوروبا .

Sir Edward Creasy. History of the Ottomman Turks .

طولهما أربعة أميال يمتدان من شاطئ بحر مرمرة إلى شاطىء القرن الذهبى ويبلغ ارتفاع السور الداخلى منهما نحو أربعين قدماً وقد دعم بأبراج طولها ستون قدماًوتبلغ المسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدماً ، ويبلغ ارتفاع السور الخارجى نحو خمس وعشرين قدماً وقد حصن أيضاً بأبراج شبيهة بأبراج السور الأول وإن كانت أصغر حجماً قليلاً وهذا السور الخارجى وحده كان من القوة والمناعة بحيث يكفى لحماية أى مدينة من مدن العصور الوسطى . وبين هذين السورين فضاء يبلغ متوسط عرضه نحو ستين أو خمسين قدماً ، ويقع أمام السور الخارجى سور ثالث ليس بذى خطر ، سهل اقتحامه ، يصح أن نسميه متراساً ، وقد تغاضى المؤرخون المعاصرون عن ذكر هذا السور ونظروا إلى السور الثانى على أنه السور الخارجى ، وبين هذا السور والمتراس يوجد فضاء آخر ، ثم نجد أمام هذا المتراس خندقاً واسعاً يبلغ عرضة نحو ستين قدماً ، ويعتبر هذا الخندق خط الدفاع الأول عن القسطنطينية .

وللسور الخارجى لهذه المدينة أبواب كثيرة ، حسبنا هنا أن نذكر أهمها والتى كثر ذكرها أثناء الحصار وهى :

1 ـ باب أدرنة .

2 ـ باب المدفع (بالتركية طوب قبو) وكان القدماء يسمونه باب القديس رومان .

3 ـ الباب العسكرى الثالث .

أقام السلطان الفاتح جنوده تجاه هـذا السـور وجعلهم ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الميمنة ، ويتألف من جنود الأناطول بقيادة إسحق باشا ومحمود بك ويواجه جزءاً من السور يمتد من أقصاه الجنوبى عند بحر مرمرة إلى طوب قبو .

القسم الثانى : الميسرة ويتألف مـن جنود أوروبا والمتطوعين وغير النظاميين بقيادة قره جه باشا ويواجه جزءاً من السور يمتد من أقصاه الشمالى عند ميناء القرن الذهبى إلى باب أدرنة .

القسم الثالث : القلب ويتألف من الإنكشارية والجنود المختارة بقيادة السلطان الفاتح نفسه ويواجه من السور الجزء الأوسط الذى يمتد من طوب قبو إلى باب أدرنة ؛ وهذا الجزء

من السور يعرف أيضاً باسم « ميزوتشيون » كما يعتبر أضعف جزء فيه إذ يقع فى وادى نهر ليكوس ، وقد وجه إليه أشد الهجوم . وأقام الفاتح وراء هذا القلب مركز القيادة العامة للاشراف على حركات الجند وسير الحصار والقتال ، وأقام عند كل باب مراقباً خاصاً . وقد أبدى جميع المراقبين بسالة عظيمة فى أداء عملهم وأبلوا أحسن البلاء وفى مقدمتهم شاعر أحمد باشا وحيدر باشا وسعدى باشا وهرشك باشا ، وقد استشهدوا جميعاً ودفنوا عند الأبواب التى كانوا يراقبونها وعسكر زغنوس باشا أحد قواد الفاتح مع فرقة من الجند فى المرتفعات المشرفة على غلطة لمراقبة الجنويين بها ومنعهم من إمداد القسطنطينية ومراقبة الشاطئ الشمالى من القرن الذهبى ، وأمره الفاتح أن يقيم جسراً عند نهاية الميناء لتسهيل الاتصال ونقل الجنود من إحدى الضفتين إلى الأخرى وليتمكن من الاشتراك فى الهجوم على المدينة من ناحية البر عند الحاجة .

ونصب السلطان الفاتح أمام السور البرى المدافع والمجانيق وأحكم وضعها وتنسيقها ، وكانت هناك أربع عشرة بطارية فى كل واحد منها أربعة مدافع ، نصبت الكبيرة الضخمة منها أمام باب القديس رومان ، ومنذ ذلك الحين عرف هذا الباب باسم « طوب قبو » أى باب المدفع .

وانتشرت السفن العثمانية فى بحر مرمرة لمنع ما قد يأتى من السفن النصرانية من الغرب لإنجاد القسطنطينية ومراقبة السور الواقع على بحر مرمرة ، وقد أثار منظر السفن العثمانية التى تتصاعد منها أصوات الطبول المدوية والأناشيد والتكبير الخوف والفزع فى نفوس سكان القسطنطينية .

وخشى قسطنطين أن تقتحم هذه السفن ميناء القرن الذهبى وتحاصر المدينة من هذه الناحية فقد كان السور القائم هناك أضعف الأسوار كلها ، ومن هذا الجانب دخل الصليبيون القسطنطينية سنة 1204 م ، فشدد الحراسة على هذا الميناء ، وأمر السلطان الفاتح قائد السفن العثمانية بالطه أو غلى بتطهير بحر مرمرة والاستيلاء على جزر الأمراء [1] وقد استولى عليها بالطه أوغلى وانتشل المعتقلين والمسجونين من السجون والأغوار المظلمة التى كانوا فيها ورد إليهم حريتهم وأطلق سراحهم ، ثم وضع

---

(1) تقع هذه الجزر فى وسط بحر مرمرة وكانت منفى لأباطرة الروم وأمرائهم .

فى هذه الجزر حاميات عثمانية .

أعد الإمبراطور قسطنطين كل ما استطاع إعداده من جند وعتاد لمقاومة هذا الحصار ووزع جنوده على أسوار القسطنطينية واتخذ هو مكانه تجاه قلب الجيش العثمانى ما بين باب أدرنه وطوب قبو ومعه القائد الجنوى جستنيان الذى عهد إليه قسطنطين بالقيادة العامة فى الدفاع .

وقد اختلف المؤرخون فى تقدير عدد الجيش العثمانى . أما المؤرخون البيزنطيون القدامى أمثال فرانتزتس ودوكاس وخالكونديل فيبالغون فى تقديره ويرفعونه إلى ثلاث مئة ألف وأربع مئة ألف مقاتل ، وظاهر ـ كما قال الأستاذ مازاس ـ أن هؤلاء المؤرخين يرمون من تكثير عدد الجيش العثمانى إلى تهوين شأن الهزيمة التى نزلت بالروم [1] وتهوين شأن النصر الذى أحرزه العثمانيون .

ويقدر بعض المؤرخين الغربيين الجيش العثمانى بمئة وخمسين ألفاً أو مئة وستين ألف جندى [2] ، وهو تقدير أقرب إلى الاعتدال وإليه ذهب بعض المؤرخين الأتراك أنفسهم [3]

أما المدافعون عن القسطنطينية فقد اتفق الكتاب المعاصرون من الروم على وجه يشبه الإجماع على تقديره بثمانية آلاف مقاتل ، ويكاد يجمع المؤرخون الأوروبيون المحدثون على الأخذ بهذا التقدير . ونحو نصف هؤلاء المدافعين من الروم والنصف الآخر من اللاتين .

أما مؤرخو الأتراك المحدثون كأحمد مختار باشا وضياء شاكر فيستبعدون هذا التقدير ويستقلونه ويرونه نوعاً من الاعتذار للروم عن هزيمتهم ، ويقدر الأستاذ شاكر أن عدد المدافعين لا يقل عن ستين ألفاً [4] ، وفى تقديرنا بناء على الروايات والأقوال التى ذكرها

(1) Mazas, Les Hommes Illusteres.

(2) Cibbon, op.Cit, Pears, The Destrnction of the Creek Empire.
Diehl, L' Empire Byzantin.

(3) أحمد مختار . فتح جليل قسطنطينية . Zia Sakir, Fatih Istanbulu nasil aldi.

(4) Zia Sakir Ibid .
أما الأمير كانتمير فيرى أن المدافعين كانوا أكثر عددا من المهاجمين .
Cantemir, The History of the Ottoman.

مؤرخو الغرب والترك أن عدد المدافعين يبلغ نحو أربعين ألف مقاتل ، وإلى جانب هؤلاء الأربعين ألف يقف ذلك السور الضخم المنيع العملاق الذى ارتدت عنه أكثر من مرة جحافل الغزاة من الشرق والغرب .

وهدأ النزاع والشقاق فى القسطنطينية بين الروم واللاتين ، بين أنصار الاتحاد وأعدائه ، فقد أنساهم الخطر الداهم المحدق بالمدينة كل شىء والتفوا حول الإمبراطور وعقدوا عزمهم على دفع هذا الخطر .

وأخذت مدافع العثمانيين بعد أن أحكم وضعها وتسديدها تطلق قذائفها الهائلة على السور وظلت على ذلك ليلاً ونهاراً لا تكاد تنقطع إلى آخر أيام الحصار ، وكان لاصطدام القذيفة بالسور دوى هائل يملأ قلوب أهل القسطنطينية رعباً وهلعاً وبخاصة فى ساعات الليل الهادىءوالسكون المظلم ويملأ الفضاء بسحب الدخان والتراب . ووجم الناس فى القسطنطينية وانتابهم نوع من الذهول وما ظنوا قط أن للمدافع كل هذا الأثر وأخذ القسس يجوبون الشوارع يخطبون الناس بأن لا يقطعوا الأمل فى مريم العذراء وأن يصلوا تحت صورها المقدسة ويتحدوا وينفقوا أموالهم فى سبيلها .

استبسل الفريقان المهاجمون والمدافعون فى القتال والنزاع واصطرعوا صراع الحياة والموت .

أما المدافعون وعلى رأسهم جستنيان والإمبراطور فقد كانوا لا يكاد يتلف جانب من السور حتى يسرعوا إلى إصلاحه وترميمه بينما المحاصرون لا ينقطعون عن رمى قذائفهم على السور ويندفعون بين حين وحين لاقتحامه ، وقد أبدى جنود الإنكشارية بوجه خاص بسالة نادرة وشجاعة فائقة لا يبالون الموت والخطر وقد أشاد ببطولتهم المؤرخ الإيطالى باربارو Barbaro الذى شهد أعمالهم بنفسه فقد كان فى القسطنطينية مع المحصورين .

استطاعت المدافع العثمانية بقذفاتها المتواصلة أن تهدّ جزءاً من السور الخارجى عند وادى ليكوس وقد امتلأ الخندق بأنقاض السور وشظايا القذائف فاندفع الجنود العثمانيون نحو الثغرة وكان ذلك فى أصيل اليوم الثامن عشر من إبريل وتسلقوا السور بالسلالم وقذف جستنيان بجميع جنوده المدرعين إلى هذا الموضع واشتد القتال بين الجانبين وارتفعت الصيحات من هنا وهناك ، وانتشر خبر هجوم الأتراك فى المدينة فسادها الذعر

ودقت أجراس الكنائس ، على أن الثغرة كانت من الضيق بحيث لم يكن الأتراك يملكون فيها حرية الحركة والقتال وانهمرت عليهم السهام والنبال من كل جانب ، واستمر هذا القتال العنيف إلى أن أظلم الليل فأمر الفاتح جنوده بالانسحاب بعد أن عجم قوة المدافعين .

وفى نفس ذلك اليوم حاولت بعض السفن التركية تحطيم السلسلة القائمة على مدخل ميناء القرن الذهبى واقتحامه ولكن السفن الرومية والإيطالية الحارسة الواقعة وراءها كانت أكثر ارتفاعاً فسهل عليها أن تصيب قذائفها ونيرانها على السفن العثمانية الصغيرة القصيرة وتردها عن محاولتها .

واغتبط أهل القسطنطينية بنجاحهم فى صد الأتراك فى البر والبحر وقوى أملهم فى صدهم فى المستقبل وذهب قسطنطين مع البطريرك إلى كنيسة أيا صوفيا وصلى صلاة الشكر لله على ما أولاه من نصر وقال فى دعائه :

بفضل العذراء والقديسين سنقهر الأتراك ثم عاد إلى معسكره .

أما السلطان الفاتح فلم تهن عزيمته لهذا الفشل بل ضاعف جهده ونشاطه ، وإن الهزيمة التى توهن العزيمة عادة عند الناس وتثبط الهمة وتبث اليأس والقنوط كانت على العكس تبعث الحمية والقوة فى نفس الفاتح وجنوده وتحملهم على معاودة الصراع وهذه ميزة فريدة للعثمانيين قد شهد لهم بها أعداؤهم الذين قاتلوهم مثل هونياد المجرى والمؤرخون الذين كتبوا عنهم ، سواء من عاصر منهم مثل باربارو أو من جاء بعده مثل جيبه الفرنسى وساجريدو الإيطالى .

وفى صبيحة اليوم العشرين من إبريل (1453) ظهرت فى بحر مرمرة خمس سفن نصرانية قادمة من الغرب تحمل الطعام والمعدات والرجال ، أربع منها بعث بها البابا وجنوا لمساعدة القسطنطينية والخامسة للإمبراطور ، وقد كان أهل القسطنطينية يتوقعون وصول مثل هذا المدد ويترقبونه ، وكان الأتراك من جانبهم على مثل هذا التوقع ، وما أن علم السلطان الفاتح بأمر هذه السفن حتى ترك موضعه فى مركز القيادة وأسرع على حصانه إلى شاطىء غلطة وأمر قائده بالطه أوغلى بملاقاة هذه السفن وقال له :

إما أن تستولى على هذه السفن وإما أن تغرقها وإذا لم توفق فى ذلك فلا ترجع إلينا حيا .

وكان اليوم صحواً والسماء صافية والريح تدفع السفن الخمس دفعاً نحو القسطنطينية وتحفز بالطه أوغلى فى طائفة من سفنه لملاقاتها وقتالها ، ووقف الإمبراطور وأهل القسطنطينية على شرفة السور المطل على بحر مرمرة وأخذوا يلوحون بأيديهم للسفن النصرانية يشجعونها ويبتهلون إلى السماء أن تنصرها ، ووقف السلطان مع بعض رجاله على ساحل غلطه ينتظرون المعركة وقدامتلئوا ثقة بأن النصر سيكون للسفن التركية ، ولكن هذه السفن على كثرتها فى العدد لم تقو على مجالدة السفن النصرانية الخمس وما لبثت أن تمزقت وتشتتت ، ذلك أن هذه السفن التركية قد بنيت قبيل البدء فى حصار القسطنطينية فى سرعة وعجل فجاءت غير محكمة البناء ولا متقنة الصنع ولم يكن هناك من هذه السفن العديدة غير ثمانى عشرة كانت على شيء من القوة ، أما سائر السفن فكانت لا تعدو أن تكون قوارب صغيرة مكشوفة مملوءة بالجند ولم يكن لها شيئ من المدافع ، ذلك إلى أن الأتراك فى ذلك الحين كانوا حديثى عهد بالبحر وأساليب القتال على أثباجه، فلم يكن لهم من العدة فى القتال غير الشجاعة ، وما عسى أن تجدى الشجاعة المجردة تجاه السفن الإيطالية وقد كان الطليان فى ذلك العهد سادة البحر وفرسانه بلا منازع وأمهر الناس فى ركوبه وأساليب القتال فيه ،وكانت السفن النصرانية الخمس فوق ذلك محكمة البناء عالية الطول كاملة العدة والعتاد ، قد لبس رجالها الدروع والزرود فأخذوا يطلقون قذائفهم ونيرانهم الفتاكة على القوارب العثمانية الصغيرة وهى تحاول بمجاديفها الخشبية مغالبة الريح الشديدة التى كانت تعوقها عن التقدم ، وسكنت الريح فجأة فوقفت السفن الخمس عن السير وانكمشت أشرعتها وكانت قد قاربت مدخل القرن الذهبى وتصاعدت صيحات الفرح من جانب الأتراك ، وانتهز بالطة أوغلى هذه الفرصة فانقض بسفنه على السفن الخمس واستبسل الأتراك فى الهجوم قبل أن تهب عليهم الريح من جديد وحاولوا خرق السفن النصرانية لإغراقها فلم يوفقوا وحاولوا إحراقها بالنار ولكن سرعان ما يصب عليها الماء فيطفئها وعاود بالطة أوغلى الهجوم مرة بعد أخرى حتى أصيبت إحدى عينيه واحتدم القتال وأخذ الأتراك يقفزون إلى السفن النصرانية والجنود النصارى يطلقون قذائفهم ونيرانهم الإغريقية عليهم دون أن تحمى أجسامهم دروع ولا زرود فيتساقطون إلى البحر ، ولم يبال الأتراك جميع هذه الصاعب والشدائد ولم يكن تسمع بينهم إلا كلمة واحدة : الهجوم الهجوم !! فيندفعون إلى الأمام فى حمية وجنون لتصرعهم القذائف الحجرية والنارية .

وكان السلطان الفاتح على شاطئ غلطة ينظر إلى هذا الصراع الدامى بعين لاتطرف وهو لا يكاد يستقر فى مجلسه فوق ظهر جواده ، فلما رأى ما نزل بسفنه ورجاله من القتل والتمزيق لم يتمالك نفسه فاندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره ، وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبالطه أوغلى صوته : ياقبطان ! ياقبطان ! ويلوح له بيده ، وضاعف الأتراك جهودهم فى الهجوم دون أن ينالوا منالاً من السفن النصرانية ، على أن رجالها قد بدأوا يشعرون بالجهد والإعياء ، ولو أن الصراع امتد وقتاً آخر لانتهى بهم حتماً إلى الاستخذاء والتسليم ، وكانت الشمس تدنو من المغيب ، وفجأة هبت الريح من الجنوب قوية زفزافة فنشرت الأشرعة ومرقت السفن الخمس من بين السفن التركية وانفلتت إلى القرن الذهبى حيث أنزلت السلسلة الضخمة ثم شدها الروم مرة أخرى ووصلت السفن إلى ملاذ أمين ثم خيم عليها الليل وطواها بظلامه .

ولوى السلطان الفاتح عنان فرسه وخرج من الماء وقد ابتلت أطراف ثيابه وعلاها زبد البحر الممزوج بالدم وعاد إلى معسكره وهو مطرق فى صمت مغيظ ، واستُدعى إليه قائده بالطة أوغلى وعنفه واتهمه بالجبن وتأثر بالطة أوغلى لهذا القول وقال :

إنى أستقبل الموت بجنان ثابت ولكن يؤلمنى أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة ، لقد قاتلت أنا ورجالى بكل ما كان فى وسعنا من حيلة وقوة ، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة ، وأدرك الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه وجعل مكانه حمزة باشا ، أما ما ذكره كثير من الكتاب الأوروبيين أن السلطان الفاتح جلده بالسوط وقولهم إن بالطة أوغلى من أصل بلغارى فيرى الأستاذ شاكر أن لاصحة لذلك [1].

أما أهل القسطنطينية فقد غمرتهم موجة من الفرح والاغتباط بهذا النصر المبين وزاد أملهم وثقتهم فى المستقبل اعتقادهم أن هذه السفن الخمس التى جاءتهم بالزاد والعتاد والرجال الأشداء ما هى إلا طليعة لأسطول أكبر عدداً وأشد قوة ، ولاح لهم فى الأفق أنهم سيهزمون الأتراك ويردونهم عن أسوار القسطنطينية وأقيمت مواكب الأفراح والمهرجانات فى المدينة ودقت أجراس الكنائس ، وظل الناس طوال الليل ينشدون

---

(1) Zia Sakir, op. cit.

الأناشيد المقدسة ويتردد صداها فى معسكر الأتراك ، ولكن هذا المدد من الغرب كان المدد الوحيد الذى وصل إلى القسطنطينية وكان أشبه بومضة لمعت فى حلكة الليل ثم انطفأت وأرخى الظلام أسباله عليها مرة أخرى .

لم تكف المدافع العثمانية خلال ذلك عن إطلاق قذائفها ليلاً ونهاراً على أسوار القسطنطينية تهدّ منها وتدك ، واعتقد خليل باشا الذى كان يمالئ الروم سراً أن الفرصة مواتية بعد هزيمة الأسطول العثمانى ودخول السفن النصرانية فى القرن الذهبى لصرف السلطان الفاتح عن المضى فى حصار القسطنطينية فأشار عليه أن ينظر فيما عرضه عليه قسطنطين ويعقد معه الصلح قبل أن تأتى من الغرب قوات أخرى لاقبل له بها ولكن السلطان الفاتح إزدراه وأعرض عنه وأصر على عزمه على فتح القسطنطينية وأيده فى ذلك وزيره زغنوس باشا والمولى الكورانى والشيخ آق شمس الدين الذى كان يلهب حماس الجند بخطبه ومواعظه [1] .

أخذ السلطان الفاتح يبحث عن وسيلة لإدخال سفنه فى القرن الذهبى للسيطرة على هذا الميناء وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها وإضعاف الدفاع عن السور البرى وتشديد الإشراف والمراقبة على جنوبى غلطه الذين يعملون بوجهين ثم تسهيل المواصلات مع قاعدته فى رومللى حصار .

وقد حاولت السفن العثمانية عدة مرات تحطيم السلسلة الضخمة القائمة عند مدخل الميناء فلم توفق ، وكان أحد طرفى السلسلة يقع فى شاطئ غلطة مدينة الجنويين وكانت العلاقات بينهم وبين الفاتح علاقة سلام وإن كانوا يميلون بعواطفهم إلى الروم ويتمنون لهم النصر ، ولو أن السلطان الفاتح اقتحم غلطة واحتلها لتيسر له تحطيم السسلسلة ويدخل فى الميناء ما شاء من السفن ولكنه بذلك يخلق لنفسه أعداء جدداً وهو أحوج ما يكون إلى تجميع قواته ضد القسطنطينية إذ كانت غلطة فى ذلك الحين تحت حماية دوق ميلان ، ولاحت للفاتح فكرة بارعة لنقل السفن من مرساها فى بشكطاش إلى القرن الذهبى ، وذلك بجرها على الطريق البرى الواقع بين الميناءين ، ويذكر جيبه وجبون وهمر وغيرهم من المؤرخين أنه قد سبق أن استعملت مثل هذه الطريقة قبل السلطان الفاتح ، والمسافة بين

---

(1) صولاق زاده تاريخى . سعد الدين تاج التواريخ .

الميناءين نحو ثلاثة أميال وهى ليست أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها وهاد وتلال تعلو وتنخفض ، تتلوى وتتعرج .

وبعد أن عبدت الأرض وسويت أتى بألواح من الخشب ودهنت بالزيت والشحم وصفت على الطريق ، ثم اختار الفاتح الخفاف من السفن وأمر بتزليقها على هذه الألواح المدهونة ، ونشرت أشرعتها وجرها العمال فسارت كأنها على اليم ، وألقى فى القرن الذهبى نحو سبعين سفينة ، وقد تم هذا العمل كله فى ليلة واحدة (21ـ22 إبريل) ، وقد صرف الفاتح أنظار الروم فى القسطنطينية والجنويين فى غلطة وهم أقرب الناس إلى الشعور بهذا العمل الضخم الذى يجرى تحت أسوار مدينتهم بحيلة أخرى لا تقل براعة وتوفيقا فقد نصب على الهضاب الواقعة خلف أسوار غلطة كثيراً من المدافع وظلت طوال اليوم الحادى والعشرين من أبريل تطلق قذائفها فتقع فى القرن الذهبى ، وقد أصيبت إحدى السفن النصرانية فغرقت وجنحت بقية السفن إلى أسوار غلطة واحتمت تحتها ، وتملك أهل غلطة الفزع والرعب وهم يرون القذائف الحجرية الضخمة تمرق فوق رؤوسهم وهى تصفر صفيراً مخيفاً وشغلهم ذلك عن كل شىء إلا عن طلب النجاة لأنفسهم ، وفى نفس الوقت قامت السفن التركية وحاولت عدة مرات اقتحام السلسلة القائمة عند مدخل القرن الذهبى

وضاعفت المدافع القائمة تجاه السور البرى للقسطنطينية قوتها فى إطلاق قذائفها ليلاً ونهاراً . وقد نجحت هذه الخطة فى صرف انتباه الروم والجنويين ولم يحاول أحد منهم عرقلة نقل السفن من ميناء إلى ميناء وإن كان الفاتح قد أعد العدة لقمع أى محاولة من هذا القبيل . ويتهم بعض المؤرخين مثل دوكاس « جنويى » غلطة بأنهم كانوا على علم بما بيته الفاتح ولكنهم تغاضوا عنه بعد أن حشا السلطان أفواههم بالذهب والمال .

واستيقظ أهل القسطنطينية فى صباح 22 إبريل على صيحات المسلمين المدوية وهتافاتهم المتصاعدة وأناشيدهم الغليظة العالية وموسيقاهم العسكرية الصاخبة عقب نزولهم فى ميناء القرن الذهبى وأطلوا من فوق أسوارهم فرأوا تحت أعينهم سبعين سفينة تركية فى الميناء برجالها ومعداتها وانتابهم من الهلع والفزع شىء عظيم ولم يكتموا إعجابهم بهذه الهمة الإسلامية القعساء التى أظهرها العثمانيون .

وكان قسطنطين أشدهم تأثراً وازدادت مخاوفه وقلقه من المستقبل فرفع يديه إلى السماء وقال :

أيها الإله القادر ، لاملجأ لنا من هذا البلاء إلا إليك ، وانتشرت بين أهل القسطنطينية نبوءة جديدة تقول : ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر على اليابسة .

لقد تحقق نصف النبوءة فهل تتحقق النبوءة بتمامها ؟

ودفعت السفن العثمانية إلى أعلى الميناء حيث الماء ضحضاح وتحميها القوات البرية من الضفتين فلا تجرؤ السفن النصرانية الراسية فى الميناء على الدنو منها وأمر السلطان الفاتح بعد ذلك بأن يبنى إلى جانب هذه السفن جسر عائم فجمعت البراميل والصناديق الخشبية وشد بعضها إلى بعض بالكلاليب والحبال الضخمة وثبتت عليها ألواح من الخشب ثم نصبت عليها المدافع لقذف ذلك الجانب من أسوار القسطنطينية وأصبحت السفن النصرانية هناك محاطة بالسفن العثمانية من جانبين :

السفن العثمانية التى فى أعلى الميناء والسفن العثمانية التى خارجه والتى لا تكف عن محاولة تحطيم السلسلة القائمة عند مدخله ، وأصبحت السفن النصرانية بذلك فى توجس دائم وحذر لا ينقطع وظلت على هذه الحال من التوجس والحذر إلى آخر الحصار واضطر قسطنطين أن يضع فى هذا الجانب من السور عدداً كبيراً من الجند لمراقبته ، ثم دعا جستنيان وبعض كبار رجال الجيش واجتمع بهم فى كنيسة سانت مارى وشاورهم فى أمر السفن العثمانية التى فى ميناء القرن الذهبى وأجمع رأى المؤتمرين على وجوب التخلص منها وذلك بمباغتتها فى جوف الليل وإحراقها .

وأخذ جاكومو كوكو Jacomo Coco البندقى على نفسه قيادة هذه الحملة التدميرية ، وتسرب الخبر إلى جنويى غلطة فأبلغوه إلى السلطان الفاتح وفى نفس الوقت أرسلوا وفداً إلى المؤتمرين وقالوا لهم :

إنه ما ينبغى لكم أن تعجلوا فى أمر عظيم كهذا وتستبدوا به دوننا ، فإن رأيتم أن ترجئوه إلى ليلة أخرى فإنا نكون معكم فى هذا الأمر ونكون إلباً واحداً على الأتراك فنحرق جميع سفنهم ولا نذر منها شيئاً ، ورضى القوم هذا الرأى وتأجل القيام بتدمير السفن التركية إلى ليلة أخرى ، وفى فجر ذلك اليوم (24 إبريل) بعث الجنويون مرة أخرى إلى السلطان الفاتح ينبئونه بما تم بين المؤتمرين فبعث الفاتح من فوره عدداً من الجند ومعهم

المدافع والعدة اللازمة لاقتناص السفن .

وفى الهزيع الأخير من الليل فى الثامن والعشرين من إبريل غادرت السفن النصرانية ميناء غلطة للانقضاض على السفن الإسلامية الهاجعة وصب النار عليها ، وكان الليل حالك السواد ، قد شمل الكون سكون عميق ، ولم تكد السفن النصرانية تقلع وتبدأ المسير حتى لمح بعضهم ناراً تضاء فى قمة برج غلطة كأنما كانت تنذر الأتراك بإقلاع السفن واقتراب الخطر ، ولم يحدث غير ذلك شيء يبعث الريبة والظنة وامتلأ قلب كوكو أملاً وثقة وقال لمن حوله : لاشك أننا سنشعل النار فى الأتراك ونشويهم شياً ، ومضت السفن فى سيرها فلما قاربت الهدف أبى القائد البندقى إلا أن يكون له السبق فى تدمير السفن التركية فدلف بسفينته إلى الأمام ولم تكد تتقدم خطوات أخرى حتى دهمتها قذيفة ضخمة أعقبتها قذيفة أخرى مماثلة ففلقتها وابتلعها اليم فى لمح البصر بمن فيها وما فيها ، ولم تعلم بقية السفن ـ فى الظلام الدامس ـ بما حدث لسفينة كوكو ولعلها اعتقدت أنه هو الذى أطلق قذائفه على السفن الإسلامية فدلفت سفينة نصرانية أخرى إلى الأمام ، ولم تكد تتقدم بضع خطوات حتى دهمتها قذيفة شديدة فخرقتها وأسرع رجالها إلى سد الثلمة وعادوا بها مسرعين وقد مالت إلى الغرق .

وهناك أدرك النصارى أن المسلمين لهم بالمرصاد ، أيقاظ لارقود ، وفرت بقية السفن النصرانية مذعورة تنشد لنفسها النجاة تلاحقها قذائف المدافع العثمانية ، وقبض الأتراك على بعض بحارة السفينة البندقية المغرقة وقتلوهم ، فانتقم الإمبراطور قسطنطين لذلك وعلق على أسوار القسطنطينية رؤوس مئتين أو مئتين وستين من الأسرى المسلمين الذين كانوا فيها وتملك النصارى بعد هذه الهزيمة هم شديد ويأس قاتل .

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد فإن الفشل فى حرق السفن التركية قد أثار النزاع والخصومة فى القسطنطينية بين البنادقة والجنويين وأخذ يكيل بعضهم لبعض أشنع التهم ، اتهم الجنويون البنادقة وعلى رأسهم جاكومو كوكو بالجهل والتهور وعدم الدراية فى قيادة السفن ، الأمر الذى أدى إلى تلك النكبة الفاجعة واتهم البنادقة الجنويين بالخيانة وإفشاء السر إلى الأتراك فكانت تلك النكبة ، واستحر الخلاف بين الفريقين وكادا يقتتلان لو لا أن أسرع إليهم الإمبراطور وناشدهم الله أن يكفوا عن هذا النزاع ولا يزيدوا المدينة كرباً وبلاءاً على ما وقعت فيه من كرب وبلاء .

وجهز قسطنطين حملة ثانية لحرق السفن العثمانية بقيادة القائد الجنوى جستنيان ولكنها لم تكن أكثر توفيقاً من سابقتها ، ولم يكن من الممكن أن تظل السفن العثمانية والسفن النصرانية قابعة فى ميناء القرن الذهبى بغير صدام فما لبث أن نشبت بينهما المعارك وتتالت يوماً بعد يوم وكانت سجالاً بينهما .

وفى خلال ذلك كله لم تتوقف المدافع العثمانية عن إطلاق قذائفها على أسوار القسطنطينية بينما يجهد المحصورن فى القيام بسد الثغرات وإفراغ الخنادق من الأنقاض .



الفصل الثالث

بوادر الكلال فى القسطنطينية وتناقص الطعام - اقتراح بخروج الإمبراطور من المدينة - تجديد الإستغاثة بالغرب - محاولة العثمانيين اقتحام القسطنطينية من أنفاق تحت الأرض - محاولة اقتحامها من فوق قلاع خشبية شامخة - فزع المحصورين واشتداد الحالة عليهم - آخر إنذار إلى الإمبراطور قسطنطين لتسليم المدينة - إشاعة وصول نجدة للقسطنطينية - الفاتح يعقد مجلساً حربياً - الجنود يستعجلون الهجوم - العلماء يتلون آيات الجهاد - الفاتح يخطب جنوده - وصيته باتباع تعاليم الإسلام فى القتال - فرار رهبان إلى المعسكر العثمانى وإسلامهم - موكب ضراعة فى القسطنطينية - خطبة قسطنطين الأخيرة - آخر صلاة نصرانية فى أياصوفيا - الهدوء الذى يسبق العاصفة - مطر مبارك - الهجوم العام على القسطنطينية من البر والبحر - كيف دخل العثمانيون المدينة - قول المؤرخين الأوروبيين فى هذا وتفنيده .

بدأ أهل القسطنطينية منذ أوائل مايو يشعرون بتناقص الطعام واضطر كثير من الجنود أن يتركوا مواقعهم ليبحثوا عن غذائهم وغذاء عائلاتهم فأمر قسطنطين بأن يحمل إليهم الطعام فى مواقعهم لكى لا تستهدف الأسوار لمباغتة الأتراك وتوفير الغذاء لعائلاتهم ، وسأل قسطنطين البنادقة عن تأخر البندقية فى إرسال النجدة والمعونة إلى القسطنطينية على حسب ما عقد بينهما من اتفاق فى 26 يناير ، واشتد القلق بقسطنطين واستبد به الذعر وعيل صبره فأعد سفينة صغيرة مسلحة اختار لها اثنى عشر رجلاً من أمهر البحارة وأشجعهم وجاء البطريرك ورجال الأكليروس فباركوا السفينة ورجالها ووضعوا فيها صورة العذراء ودعوا لها بالتوفيق والنجاح ، ولبس هؤلاء البحارة الملابس التركية كما نصبوا على السفينة العلم العثمانى واستطاعت السفينة بذلك أن تتسلل وتفلت فى حلكة الليل من بين السفن التركية الرابضة فى بحر مرمرة دون أن تثير أى ريبة وانطلقت ترتاد بحر الأرخبيل باحثة عن السفن البندقية .

فى ذلك الحين شن العثمانيون هجوماً عنيفاً على أسوار القسطنطينية واشتد الضيق والكرب على المحصورين فأشار بعض أهل الرأى وفى مقدمتهم البطريرك وجستنيان على قسطنطين بالخروج من القسطنطينية إلى بعض الأمكنة القريبة المجاورة ويستنجد بنفسه هناك من حوله من النصارى لعلهم يخفون إلى نجدته ولعله حين يجأر باستغاثته بعجل البابا والبندقية فى إرسال سفنهما ونجدتهما إليه ، وقد يجد السلطان الفاتح نفسه مهدداً بجيش نصرانى من خلفه فيرفع الحصار عن القسطنطينية .

وأصغى قسطنطين فى إطراق ووجوم إلى مقالة نصحائه ثم شكر لهم نصيحتهم واعتذر أنه لا يستطيع العمل بها فقد أخذ على نفسه أن لا يتخلى عن عاصمته وشعبه فى هذه المحنة ، وماذا عسى أن يتحدث عنه الناس إن خرج من القسطنطينية وحسبوه قد فر ؟ ورجا منهم قسطنطين أن لا يعاودوه بأمر كهذا ، ولم يملك نفسه من البكاء فانهمرت الدموع من عينيه وبكى من حوله من الحاضرين لبكائه .

وبعث رسلاً آخرين إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وسائر بلاد الفرنج يحملون الكتب إلى أمرائها وملوكها تبين لهم الخطر المحدق بالقسطنطينية ووجوب المبادرة إلى إرسال المعونة والنجدة قبل فوات الأوان [1] ، بينما عمد السلطان الفاتح إلى تشديد الخناق على القسطنطينية من ناحية السور القائم على ميناء القرن الذهبى ، ولما رأى أن السفن النصرانية الكبيرة القوية الراسية فى الميناء وتبلغ نحو ثلاثين ـ قد عاقت سفنه الصغيرة الموجودة هناك عن تسديد ضرباتها إلى السور كما وقفت حارسة قوية على السلسلة التى تسد مدخل الميناء فقد صمم على إغراق هذه السفن النصرانية بطريقة أخرى فنصب على الهضاب الواقعة خلف غلطة مدافع جديدة ضخمة أخذت تطلق قذائفها إلى الميناء وقد وقعت إحدى القذائف على سفينة جنوية تجارية فأغرقتها فى الحال فذعرت بقية السفن النصرانية ولاذت تحت أسوار غلطة وأصبحت بنجوة من القذائف ، واشتكى الجنويون إلى السلطان الفاتح من إغراق سفينتهم وهم على الحياد حريصون على السلام ، وكان الفاتح يعرف حقيقة أمرهم وموقفهم من القتال الدائر بينه وبين أهل القسطنطينية فأجاب بأنه كان يجهل جنسية السفينة المغرقة وكان يحسبها للعدو ووعدهم بالتعويض فيما بعد .

---

(1) ويظهر أن هؤلاء الرسل قد خرجوا فى استخفاء وتنكر على نحو ما فعل البحارة من قبل بحثاً عن سفن البدقية .

ظلت السفن العثمانية تهجم على ميناء القرن الذهبى مرة بعد مرة كما ظل العثمانيون من ناحية البر يهجمون على السور مرة بعد مرة ، وكان الفاتح يرمى من توالى الهجمات وإطلاق القذائف فى البر والبحر على غير انقطاع ليلاً ونهاراً نهك قوى المحاصرين وعدم إتاحة الراحة لهم حتى أصبحت نفوسهم مرهقة مكدودة وأعصابهم مرهفة مجهودة تثور وتحتد لأقل شىء ، وقد تكرر النزاع فى القسطنطينية بين البنادقة والجنويين ـ وهم قبيلان قد أورثت فيهما التجارة والمغالبة على القوت والربح روح الحقد والتنافس منذ القدم ـ وكثيراً ما انتهت هذه المنازعات بينهما فى القسطنطينية إلى الاحتراب والقتال فى شوارعها فيهرول إليهم قسطنطين وقد أخضلت عيونه بالدمع ويضرع إليهم ويناشدهم الله إلا كفوا عن هذا النزاع والشجار وأن ينصرفوا إلى قتال العدو الداهم .

واقترح على قسطنطين أحد رجاله أن يباغت الأتراك بهجوم شديد عنيف وينقض على مخازن مؤونهم فإن ذلك حرى بإحياء العزيمة وبعث الهمة بين جنوده ، ولكن بقية رجال قسطنطين استبعدوا هذا الرأى واستحمقوه وقال الدوق نوتاراس :

إن مثل هذا العمل تهور وخيم العاقبة ، لقد مضت خمسة أشهر على نضالنا ونستطيع بعون الله أن نواصل النضال والمقاومة زمناً آخر طويلاً إلا إذا كنا آثمين نستحق العقاب من الله فلن تجدينا حينئذ أية مقاومة .

وأعقب ذلك صمت مطبق بين الحاضرين لم يقطعه عليهم إلا مجىء جندى وهويلهث ، وأخبر الإمبراطور بأن الأتراك قد شنوا هجوماً شديداً على وادي ليكوس ، فوثب قسطنطين على فرسه ، وركضه حتى وصل موضع الهجوم حيث كان القتال لا يزال محتدماً على أشده بين الأتراك والمدافعين ، فاستدعى قسطنطين الجند الاحتياطى إلى هذا الموضع واستمر القتال إلى آخر الليل وذهب كثير من الناس إلى الكنائس يصلون ويتضرعون حتى مطلع الفجر عندما بلغهم انسحاب الأتراك وكان ذلك فى الثانى عشر من مايو .

وبعد يومين نقل الفاتح مدافعه من هضاب غلطة وضمها إلى المدافع المنصوبة أمام طوب قبو ليضاعف ضربات مدافعه على أضعف نقطة فى السور البرى ، وقد قاوم المدافعون من الروم واللاتين وحدهم الخطر مقاومة قوية باسلة يواصلون العمل ليل نهار

لسد الثغرات وإصلاح الثلم .

وإلى جانب هذه الهجمات المتعاقبة التى تقوم بها القوات العثمانية فى البر والبحر والتى تبلغ فى بعض الأحيان درجة بالغة من الشدة والخطر تروع أهل القسطنطينية وتفزعهم ، مافتىء السلطان الفاتح بذهنه المتوقد الجبار يفاجئهم من حين إلى حين بفن جديد من فنون القتال وحرب الأعصاب .

فقد سمع المحصورون من أهل القسطنطينية ذات ليلة (16 مايو) ضربات غليظة شديدة تحت الأرض أخذت تعلو وتقترب شيئاً فشيئاً كأنها تتلمس طريق الخروج ، وحمل الخبر إلى الإمبراطور قسطنطين وكبار رجال الجند فخفوا إلى المكان ، وطلب الإمبراطور جميع من فى المدينة من المهندسين والمعدنين وكان فيهم مهندس نمساوى حاذق يدعى جان جرانت Jean Grant وأدرك لساعته أن المسلمين قد حفروا نفقا من خارج السور ليدخلوا المدينة من تحت الأرض ، فأمر بأن يحفر تجاه نفق المسلمين إلى مسافة بعيدة وأمر العمال بعد ذلك بالكف عن الحفر والصعود إلى سطح الأرض ولبثوا جميعاً ينظرون فى سكون ظهور الأتراك ، ولم يكن هؤلاء يعلمون شيئاً مما دبر لهم ، واستمروا يحفرون ، وما أن وصلوا إلى الفجوة التى حفرها الروم حتى تملكهم الفرح وظنوا أنهم اهتدوا إلى سرداب خفى يوصل إلى المدينة ولكن هذا الفرح لم يطل فلم تكد أعينهم تلمح السماء من خلال الحفرة حتى صب الروم عليهم النار والنفط والمواد الحارقة المهلكة فمنهم من اختنق واحترق ومنهم من فر وعاد أدراجه .

ولكن هذا الفشل لن يفت فى عضد المسلمين فعاودوا حفر النفق مرة بعد مرة فى مواضع مختلفة من المنطقة الممتدة بين أكرى قبو وشاطىء القرن الذهبى إذ كانت هذه المنطقة أصلح مكان للقيام بمثل هذا العمل ، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار ، وأصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتسمعون بين حين وحين إلى مواطىء أقدامهم وكثيراً ما كان يخيل لهم الخوف أن الأرض ستنشق ويخرج منها جنود المسلمين .

وقد أودت الأنفاق الكثيرة التى حفرها العثمانيون بحياة كثير منهم وماتوا اختناقاً واحتراقاً فى باطن الأرض كما وقع بعضهم فى بعض هذه المحاولات فى أسر الروم

وقبضتهم فقطعت رءوسهم وقذف بها إلى معسكر السلطان ، ولكن ذلك لم يزد المسلمين إلا عناداً وإصراراً وكأن الخطر يغريهم إغراءاً بالمجازفة والإقدام !

وقد أثارت هذه البسالة الفائقة إعجاب أهل القسطنطينية ودهشتهم وسجل ذلك من كتب منهم تاريخ هذا الحصار المرير فى كتبهم كباربارو البندقى وتتالدى Tetaldi الفلورنسى .

ولم يكد أهل القسطنطينية يستفيقون من الدهشة التى انتابتهم من النفق الذى حفره الأتراك تحت مدينتهم حتى فجأهم السلطان الفاتح باختراع جديد من وسائل الحصار والقتال تفتقت عنه ألمعيته وعبقريته الفذة فقد استيقظ أهل القسطنطينية فى صباح اليوم الحادى والعشرون من مايو فإذا بهم يرون أمامهم قلعة ضخمة شامخة من الخشب أكثر ارتفاعاً وسموقاً من السور الخارجى ، ذات ثلاث طبقات قد كسيت كلها بالجلود السميكة المبللة بالماء لئلا تؤثر فيها النار والنبال ، وكان فى كل طبقة منها عدد من الجنود يحملون القذائف ومختلف معدات القتال وتحمل فى أسفلها التراب والأحجار والأخشاب لردم الخنادق ، وفى أعلاها سلالم من الحبال عصبت فى أطرافها كلاليب يلقونها على أعلى السور فتنشب فيه ويمر عليها الجند كالقنطرة بينما النبالة يصوبون نبالهم إلى كل من يظهر رأسه على السور من المدافعين ، ولم يكن فى إمكان هؤلاء المدافعين استعمال مدافعهم الكبيرة فوق السور لأن اهتزازها عند الإطلاق قد يزلزله ويهده .

وقد هال أهل القسطنطينية أمر هذه القلعة الجبارة ووقف الإمبراطور قسطنطين ومن معه من أهل المدينة ينظرون إليها فى عجب ودهش وفزع ولم يدر الناس إلى من يلجأون وأى قديس يدعون ليحميهم من بأس العثمانيين الذين يلقون الرعب فى قلوبهم كل يوم بمثل « هذه الوسائل الشيطانية » وقال المؤرخ البندقى باربارو الذى شهد هذه القلعة الجبارة بنفسه :

لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة لما صنعوها فى شهر وقد صنعها المسلمون فى ليلة واحدة بل فى أقل من أربع ساعات [1] .

أقيمت هذه القلعة تجاه طوب قبو الذى يدافع عنه المغامر الإيطالى جستنيان وصحبه

---

(1) Schlumberger, op. cit.

الشجعان ولم يعد فى إمكان المحاصرين إصلاح الثغرات الخارجية التى تدكها المدافع التركية وهذه القلعة الجبارة واقفة بالمرصاد بل أخذت القذائف الحجرية الضخمة تنهال من هذه القلعة نفسها فدكت أحد الأبراج القوية عند طوب قبو ، واندفع المسلمون نحو هذه الثغرة ، واقتربت القلعة من السور ، وكان الجنود العثمانيون فى هجومهم يصيحون صيحات مرعبة وتسلق كثير منهم السور بالسلالم وحمى القتال واشتد الخطر على المدينة ، ولاح للإمبراطور أن الهزيمة فى هذه المعركة ستؤدى إلى كارثة فاستبسل هو وجميع رجاله فى القتال وطلب إحضار مواد سريعة الالتهاب تحرق كل ما يصادفها ولا يطفئها الماء ، وأخذ المدافعون يقذفون بها على القلعة الخشبية فما لبثت أن احترقت الجلود المبللة التى تكسوها والتهمتها النار ، وكان الليل قد أظلم فتوقف القتال وانسحب الأتراك وابتهج قسطنطين لهذا النصر وحث أهل المدينة رجالاً ونساءاً وأطفالاً على إصلاح البرج المتهدم ، وما أشرق الصباح حتى كان قد عاد إلى حاله الأولى من القوة والمناعة ، ونظر السلطان الفاتح إلى قلعته الخشبية فإذا هى كومة من رماد فما زاد على أن ابتسم ابتسامة يكمن وراها العزم والتصميم فقال لمهندسه مصلح الدين : غداً نصنع أربعاً أخرى غيرها [1] .

وهكذا كلما ظن أهل القسطنطينية أنهم نجوا من الخطر برز أمامهم من جديد وأصبحوا فى هم دائب وقلق لا ينقطع ، يتطلعون ذات اليمين وذات الشمال وإلى فوقهم وأسفلهم لا يدرون من أين يدهمهم الخطر والهلاك ، هل يخرج عليهم المسلمون من بطن الأرض فيفتكون بهم ويقتلونهم أم يطمرون عليهم من فوق قلاعهم الشامخة وينقضون عليهم كالبواشق ويبيدونهم ؟

وبات الناس فى القسطنطينية على مثل هذه الحال من القلق والتخوف والتوجس لا يغمض لهم جفن ولا يستقر بهم مضجع ، وكان لذلك أثره فى إرهاق أعصابهم ونهك قواهم وتوهين عزائمهم ففتر نشاطهم وكلت أيديهم شيئاً فشيئاً عن سد الثغرات التى أخذت تتسع فى عدة مواضع من السور وتمهد للهجوم ، ولاحت بوادر النصر الأولى للأتراك .

وفى اليوم الثالث والعشرين من مايو عادت السفينة المتنكرة ودخلت ميناء القرن

---

(1) Zia Sakir, Fatih Istambulu nasil aldi.

الذهبى بمثل الحيلة التى خرجت بها منه وقد استقبلها سكان القسطنطينية بفرح بالغ يمازجه الأمل وأدخل البحارة على قسطنطين فأخبروه نتيجة رحلتهم بأنهم جابوا بحر الأرخبيل طولاً وعرضاً جيئة وذهاباً ولم يلقوا سفينة واحدة من سفن البندقية ، واشتد وقع هذا النبأ على قسطنطين وثقلت وطأته على نفسه فطأطأ رأسه وسنده براحتيه واغرورقت عيناه بالدموع وتضرع إلى الله فى همهمة حزينة أن ينقذ المدينة المقدسة ، وانتشر هذا النبأ الأليم فى أرجاء القسطنطينية فانتشر معه الألم والحزن ، وياليت السفينة ما عادت وأبقت الناس على حالهم من الأمل والترقب فذاك خير من هذه الخيبة المرة واليأس القاتل .

قطع المحصورون كل أمل فى مجىء النجدة من الغرب ووضعوا كل أملهم فى هذا السور الضخم العملاق الذى لم تنقطع مدافع الأتراك عن قذفه ودكه ، واستحوذ اليأس والقنوط على بطريرك القسطنطينية فاعتزل منصبه واختلى فى أحد الأديار ليقضى بقية حياته فى الصلاة والعبادة والاستغفار .

وفى صبيحة اليوم التالى عقد اجتماع فى قصر الإمبراطور حضره قسطنطين ووكيل البطريرك وكبار رجال الجيش للتشاور والنظر بعد أن وصل الأمر إلى هذه الحالة من الحرج والضيق ، وكان يسود المجلس جو من الكآبة والألم وارتسمت على وجه الإمبراطور أمارات الجهد والإعياء ، وأدليت آراء مختلفة لعلاج الموقف وأظهر وكيل البطريرك يأسه من إنقاذ المدينة فاقترح على الإمبراطور أن يغادرها وينجو بنفسه قائلا :

إذا لم نستطع إنقاذ المدينة فلا أقل من أن ننقذ الإمبراطور ، ووقع هذا الاقتراح وقعاً شديداً على نفس قسطنطين فأغمى عليه فلما أفاق من غشيته أعادوا عليه الاقتراح ولكنه تأبى وأصر على البقاء فى المدينة مهما تكن العواقب ليشارك شعبه فى مصيره .

وفى خلال هذا الاجتماع الحزين كان يسمع من بعيد دوى القذائف التركية وهى تدك السور وصيحات الجنود العالية بالتكبير والتهليل ودق طبولهم ومزامير هم الصاخبة ، وركب الإمبراطور حصانه كدأبه كل يوم ليفتش مواقع الجند ، وكان يتوقف بين مرحلة وأخرى وينزل عن جواده ويصعد إلى أعلى السور وينظر إلى معسكر الأتراك ثم يهبط ويستأنف طوافه وقلبه يتفطر ألماً وحسرة .

وحدثت فى ذلك الوقت بعض أحداث وظواهر طبيعية كان لها أثر سيئ ، لا سيما فى

نفوس قوم كأهل القسطنطينية ، فقد اجتمع عليهم الجهد والإعياء من طول ما عانوا من أهوال الحصار وويلاته والإيمان الشديد بالخرافة والطيرة فقد خرج فى اليوم الخامس والعشرين من مايو موكب من الرجال والنساء حملوا معهم تمثال العذراء وأخذوا يجوبون أنحاء القسطنطينية وهم يستغيثون ويتضرعون .

وفيما كان الموكب يسير فى طرقات المدينة على هذا النحو إذ سقط التمثال من أيدى حامليه ووقع على الأرض فارتفعت صيحات الفزع والألم وتسابقوا إلى رفعه وتشاءموا بهذا الحادث ورأوا فيه نذيراً بسقوط المدينة ، ولم يمض وقت طويل حتى ثارت زوبعة شديدة وبرقت السماء وأرعدت ثم تهاطل المطر غزيراً مدراراً وطغى الماء وعاق الناس عن السير .

وفى الغد (26 مايو) تجمعت السحب والضباب فى السماء وتكاثفت ثم انقض نيزك من السماء على قبة كنيسة أياصوفيا كاد يخطف الأبصار فازداد الناس تشاؤماً واشتدبهم الفزع واعتقدوا أن الله قد تخلى عن مدينتهم ، وذهب وكيل البطريرك مع بعض كبار الرهبان إلى الإمبراطور ونصحوا له بمبارحة المدينة فقد ظهرت أمارات أنها ستسقط فى يد العدو بعد أن رفع الله حمايته ورعايته ، وما أن سمع قسطنطين هذا القول حتى غشى عليه وسقط إلى الأرض ، وعندما أفاق قال لمن حوله :

إذا كانت هذه هى إرادة الله ، فأين نفر من غضبه ؟ سأبقى هنا وأموت معكم .

وكان هناك أناس فى المدينة تداعب أخيلتهم أطياف من الذكريات والأمانى وتبعث فى نفوسهم شعاعاً من الأمل والنور فى هذا الجو المظلم الكئيب .

كان فريق من هؤلاء الناس يذكرون كيف حاصر السلطان مراد الثانى والد السلطان الفاتح مدينة القسطنطينية وأطبق عليها بخيله ورجله ولكنه اضطر آخر الأمر أن يرفع الحصار عنها ، وفريق آخر من هؤلاء الناس كانوا يرددون نبوءة مشهورة ذائعة وهى أن الأتراك إذا انتصروا سيزحفون حتى يبلغوا أيا صوفيا وهناك يهبط ملك من السماء فيقهرهم ويردهم على أعقابهم .

هكذا كانت الحال فى القسطنطينية فى أيامها الأخيرة وهى تدنو من نهايتها ، تتوزعها الأوهام والأمانى والنبوءات .

أما قسطنطين وجنوده فكانوا يعرفون الحالة على حقيقتها ويدركون خطر الموقف وشدة بأس العدو .

مضت سبعة أسابيع والحصار قائم على قدم وساق وقد تهدمت أجزاء كثيرة من السور وأبراجه وامتلأ الخندق بالأنقاض بعد أن كلت أيدى المحصورين عن رفعها وأصبحت أمام السلطان الفاتح ثلاثة مواضع للهجوم واقتحام المدينة .

الأول : ما بين تقفور سراى وباب أردنه .

والثانى : فى وادى ليكوس عند طوب قبووهو أكثر المواضع تهدماً وانهيارا من قذائف المدافع .

الثالث : بالقرب من الباب العسكرى الثالث .

واعتقد السلطان الفاتح أن السبيل قد تمهد ، وحان الوقت للقيام بالهجوم العام فبعث برسالة أخرى إلى قسطنطين يدعوه فيها إلى تسليم المدينة قبل أن يستحر القتال وتراق الدماء وتكون المدينة غنيمة للفاتحين وأوفد إليه إسماعيل اسفنديار أوغلو الذى كان تربطه بالإمبراطور صحبة قديمة وود قديم وعرض عليه أن يسلم القسطنطينية بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الخراب والبؤس والشقاء وتهدمت أسوارها ، وأن يجنب الأطفال والنساء والشيوخ أهوال الحرب وويلاتها وعرض عليه باسم السلطان أن يكون حاكماً على المورة كما كان من قبل ، ما سكان المدينة فمن أراد رحل عنها بما شاء من أمواله ، ومن آثر البقاء فيها فقد ضمن لهم السلطان الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم فإن أبى قسطنطين هذا فلا ينتظرون غير الحرب الشعواء الضروس وما تجره من الأهوال والدمار والهلاك والأسر والسبى .

واجتمع قسطنطين برجاله وأهل مشورته يستشيرهم فى هذا الأمر ومال بعضهم إلى تسليم المدينة ولكن جستنيان ونفراً من أهل الحرب أصروا على مواصلة القتال مهما تكن نتائجه وكان ذلك رأى قسطنطين فقال لرسول السلطان : أنه يشكر الله إذا جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية ، أما القسطنطينية فإنه قد أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس فى حياته فإما أن يحتفظ بعرشها أو يدفن تحت أسوارها ، فلما بلغ السلطان الفاتح

مقالة قسطنطين قال بدوره : حسناً ، عما قريب سيكون لى فى القسطنطينية عرش أو يكون لى فيها قبر .

وهكذا أصر كل من قسطنطين والفاتح على أن تكون القسطنطينية له وحده ، وكان قد مضى خمسون يوماً على ما بينهما من الصراع العنيف فى سبيلها ولابد لهذا الصراع من أن ينتهى .

عمد السلطان الفاتح إلى مضاعفة قوة مدافعه وتكثير إطلاق قذائفها ، وكان المدفع كلما أطلق قذيفة انبعثت منه حرارة شديدة فيتوقف عن الإطلاق مدة غير قصيرة حتى يبرد خصوصاً بعد أن انفجر ذلك المدفع الضخم الذى صنعه أوربان من شدة الحرارة وقتل من حوله من الرماة وفى مقدمتهم صانعه فطلب الفاتح أن يؤتى له بزيت الزيتون ووجد فيه وسيلة ناجعة لتبريد المدافع تبريداً سريعاً .

وتفتقت عبقرية السلطان الفاتح إلى جانب ذلك عن طراز جديد من المدافع يرمى قذيفته إلى أعلى فتتخطى السور وتسقط فى قلب المدينة .

وذاع فجأة أن أسطولاً نصرانياً عظيماً من الغرب يحمل الزاد والعتاد والرجال فى طريقه إلى القسطنطينية وأن جيشاً برياً كبيراً بقيادة القائد المشهور هونياد المجرى زاحف إليها أيضاً وأثار هذا النبأ شعور الفرح والأمل لدى سكان القسطنطينية بقدر ما أثار القلق والتخوف لدى العثمانيين ولكن مضى وقت غير قصير دون أن يظهر أى أثر للأسطول ولا للجيش المجرى وظهر أن الأمر لم يعد أن يكون إشاعة مغرضة أريد بها الفتنة وإثارة الاضطراب بين الأتراك ، ويذهب كثير من المؤرخين إلى اتهام خليل باشا بأنه هو الذى أثار هذه الإشاعة لغرض فى نفسه [1] .

وعقد السلطان الفاتح مجلساً حربياً فى خيمته حضره وزراؤه وكبار رجال جيشه والشيوخ والعلماء للنظر فى الموقف وما يجب اتخاذه ، وطلب الفاتح إلى الحاضرين أن يعلن كل منهم رأيه فى حرية وصراحة فأشار عليه بعض الحاضرين بالمبادرة إلى الهجوم العام على المدينة فوراً قبل أن يتسرب اليأس إلى نفوس الجنود .

(1) Hammer L, Empire Ottoman. Schlumberger, La prise de Constantinople, Zia Sakir, op. cit .

الأب دي كوبيه اليسوعى كشف المكتوم .

وقال الوزير العجوز خليل باشا فى مكر إبليس :

إن الحمية والحماس شىء جميل يستحق التقدير والثناء ولكن يجب التريث والتبصر قبل الهجوم على قلعة قوية كالقسطنطينية فقد حاصرت أكبر الجيوش فى العالم هذه القلعة أكثر من سبع وعشرين مرة انتهت كلها بالخيبة والفشل والهزيمة والمهم ليس ضرب الحصار على المدينة بل الاستيلاء عليها وقد مضى الآن أكثر من أربعين يوماً على حصارنا لها وبذلنا فى ذلك أغلى التضحيات وأفدحها ولم تبد أية بارقة للنجاح ، فالأنفاق التى حفرناها لم تجدنا شيئاً والقلاع الخشبية حرقت والمهندسون قتلوا ، وقد كنت أشرت من قبل بدء الحصار أن هذا العمل أمر عسير لن يحقق الغاية التى نريدها وقد ظهر لكم الآن صدق قولى ورجاحة رأيى بعد أن مضى عليه أكثر من أربعين يوماً ، وإذا أحسنا الفرض والظن واستولينا على القسطنطينية فإن شعوب النصرانية فى العالم كله ستتألب علينا وتزحف إلينا بجموع لاقبل لنا بها ولن تدعنا حتى تسترد القسطنطينية من أيدينا ، فخير لنا أن نقنع بجزية كبيرة نطلبها من قسطنطين ونرفع الحصار عن المدينة ونعود إلى ديارنا فى الوقت الذى نستطيع أن نفعل ذلك فى أمان .

ولم يكن كلام خليل باشا يخلو من التعريض والنقد للسلطان الفاتح ، وكان الفاتح قد رأى فى خليل باشا ما يثير الريبة والظنة ، وما يستحق المؤاخذة والعقاب ولكنه أغضى وأمسك وأسر الأمر فى نفسه حتى تواتيه الفرصة ، فما زاد ـ بعد أن أتم خليل باشا كلامه ـ أن تبسم ثم التفت إلى زغنوس باشا وسأله رأيه ، وكان زغنوس رجلاً لا يزال فى عنفوان الشباب شديد العزم وثاب الهمة وهو الذى كان يشرف على حفر الأنفاق تحت أسوار القسطنطينية لاقتحامها من بطن الأرض ، فما أن سأله السلطان الفاتح عن رأيه حتى استوفز فى قعدته وصاح فى لغة تركية تشوبها لكنة أرناؤوطية :

حاشا وكلا أيها السلطان ، أنا لا أقبل أبداً ما قاله خليل باشا فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع .

وأحدث هذا الاستهلال وقعاً عميقاً فى نفوس الحاضرين وخيم السكون على المجلس لحظة ثم واصل زغنوس باشا كلامه فقال :

إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة ولكنه لن يبوء إلا

بالخيبة والخسران ، إن جيش إسكندر الكبير الذى قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا ، فإذا كان ذلك الجيش استطاع أن يستولى على تلك الأراضى العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة .

وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم ولكن ما الدول الغربية هذه ؟ هل هى الدول اللاتينية التى شغلها ما بينها من خصام وتنافس ، هل هى دول البحر الأبيض المتوسط التى لا تقدر على شىء غير القرصنة واللصوصية ؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن ، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا إلى الحرب وقاتلونا فهل سنقف منهم مكتوفى الأيدى بغير حراك ، أو ليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا ؟

يا صاحب السلطنة ، أما وقد سألتنى رأيى فلأعلنها كلمة صريحة :

يجب أن تكون قلوبنا قوية كالصخر ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور لقد بدأنا أمراً فواجب علينا أن نتمه ، ويجب أن نزيد هجماتنا قوة وشدة ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة ، لا أعرف شيئاً غير هذا ، ولا أستطيع أن أقول شيئا غير هذا .

وبدت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هذا القول والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه فأجاب على الفور :

إن زغنوس باشا قد أصاب فيما قال وأنا على رأيه يا سلطانى .

ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكورانى عن رأيهما ، وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة فأجابا أنهما على رأى زغنوس باشا وقالا :

« يجب الاستمرار فى الحرب ، وبالعناية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر » .

وسرت الحمية والحماس فى جميع الحاضرين وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر ولم يملك نفسه من القول :

من كان من أجدادى فى مثل قوتى ؟

وخرج خليل باشا من المجلس مخذولاً خزيان وذهب ما كان قد علق ببعض النفوس الضعيفة من الوهن والتردد على أثر تلك الإشاعة الزائفة المرجفة التى أذاعها الوزير العجوز .

وانفرد السلطان الفاتح بوزيره زغنوس باشا وقال له : يجب أن لا نضيع شيئاً من الوقت فقد دكت الأسوار وأعدت العدة للهجوم وتخيرنا مواضعه فاذهب إلى الجنود وأخبرهم أن ساعة الهجوم قد أزفت وانظر أثر هذا القول فيهم وارجع إلى به .

وذهب زغنوس باشا إلى المعسكر وجمع الجند حوله وقال لهم :

إن سلطاننا المعظم يرى أن الحصار والغارات التى دامت سبعة أسابيع كافية وآن أوان الهجوم العام ولا أدرى متى يصدر أمره به وأظنه قريبا جداً ، لقد حانت الساعة لكى تظهروا شجاعتكم وبسالتكم فى هذا الهجوم ولا ريب فى أنه يحتاج إلى أعظم الجهد وأكبر التضحيات فهل أنتم مستعدون ؟

ولم يكد زغنوس باشا يلقى سؤاله حتى جلجل هذا المعسكر الواسع المترامى بدوى كهزيم الرعد وهتف الجند بصوت واحد : الله أكبر .

وعاد زغنوس باشا إلى السلطان يخبره بما رأى ، ولم يكد يمضى بضع خطوات حتى لحق به بعض الإنكشارية وقالوا له : إن لنا رجاء من سلطاننا ، فأجاب زغنوس باشا : وما هو ؟ قالوا : نرجو من السلطان أن يطلق سراح إخواننا ورفقائنا الذين كانوا يقاتلون مع « بالطه وأغلى » وغضب عليهم وسجنهم ليشاركونا فرحتنا بالجهاد .

وتأثر زغنوس لهذا القول ودمعت عيناه وقال : سأذكر رجاءكم لدى السلطان وما أحسب إلا أنه سيعفو عن إخوانكم .

وكان السلطان الفاتح ينتظر زغنوس باشا فى خيمته فى تشوق وقلق ، وما أن دخل عليه حتى بادره بقوله : ماوراءك ؟ فابتسم زغنوس وأشار بيده إلى خارج الخيمة وقال : استمع أيها السلطان ، إن جميع أبنائك العساكر فى فرح وابتهاج ينتظرون بشرى الأمر بالهجوم .

ولم يتمالك السلطان الفاتح نفسه فنهض من مقعده وأسرع إلى باب الخيمة وأخذ

يصغى من هناك إلى أصوات التكبير المنبعثة من المعسكر والأناشيد الدينية والعسكرية التى كانت تتصاعد إلى عنان السماء مجلجلة مدوية ، ثم عاد إلى مجلسه وهو يترنح كالنشوان قد استطار به الفرح ثم قال لزغنوس باشا :

يجب أن يستعد الجيش الآن وبإذن الله ـ تعالى ـ سنقتحم القلعة ، فانحنى زغنوس باشا أمامه ثم قال : لتكن غزوتك غزوة مباركة ياسلطانى وليسدد الله خطانا جميعاً ويوفقنا .

أمر السلطان الفاتح جنوده بالصيام فى يوم الأحد (27 مايو) تطهيراً وتزكية للنفوس وتقوية للعزيمة والإرادة . وزار الفاتح فى ذلك اليوم سور القسطنطينية من بحر مرمرة إلى القرن الذهبى يتفحص أجزاءه بدقة وما أحدثته المدافع من ثغرات والمواضع التى لا تزال فى حاجة إلى الدك والهدم .

ولم تنقطع المدافع طوال ذلك اليوم واليوم التالى عن إطلاق قذائفها على السور وبخاصة المواضع التى رممها المحاصرون .

وفى مساء ذلك اليوم أوقد الجنود العثمانيون النيران والمشاعل والقناديل وأشعلت الشموع على رؤوس الرماح حول معسكرهم وتصاعد الضوء إلى الفضاء فى توهج وتلهب وتضربت مياه بحر مرمرة والبوسفور باللون الأحمر واستحالت السماء إلى قبة حمراء ، وتعالت صيحات المسلمين وهم يهتفون بأعلى صوتهم « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ودقت الطبول ونفخ فى الأبواق وارتفعت الأناشيد الحماسية وأخذ فريق من الشيوخ والعلماء يقرأون القصائد والأذكار الدينية ، واستخف بعضهم الطرب والفرح فأخذوا يتواثبون ويرقصون .

وظن أهل القسطنطينية لأول وهلة عندما شاهدوا النيران المتصاعدة حولهم أن النار قد اندلعت فى معسكر المسلمين وأسطولهم ، وخالجهم شىء من الأمل والفرح وهرولوا إلى السور .

ولأشد ما كانت حسرتهم وألمهم عندما رأوا الجنود والدراوشة يتواثبون ويغنون ويكبرون وتبين لهم أن المسلمين إنما يحتفلون مقدماً بالنصر .

يقول رئيس الأساقفة ليونار Leonard الذى شهد هذا المنظر الرائع بأم عينيه إذ كان

فى القسطنطينية مـع المحصـورين : « لو أنك سمعت مثلنا صيحاتهم المتوالية المتصاعدة إلى السماء (لا إله إلا الله محمد رسول الله) لأخذتك الروعة والإعجاب [1] » .

ونزل الروم من فوق السور وقد تملك قلوبهم اليأس والقنوط ، وذهب كثير منهم إلى الكنائس يبتهلون ويتضرعون ، وعلا بينهم النحيب والبكاء ، وعند منتصف الليل أطفئت النيران والمشاعل فى المعسكر الإسلامى وتغشاه ظلام دامس وسكون شامل لم يكونا أقل روعة ورهبة .

وأمضى السلطان الفاتح اليوم التالى (الإثنين 28 مايو) فى إكمال استعداداته الأخيرة فطاف بالسور مرة أخرى يتعرفه وفتش جنوده .

وقصد فى نفس اليوم إلى مرسى أسطوله فى بشكطاش يصحبه حمزة باشا أمير البحر ليطلع بنفسه على ما اتخذه من الاستعدادات ، وسأل الفاتح قائده حمزة إن كان ثمة نقص فى شىء فأجاب : إن كل شىء قد تم وأننا فى انتظار أوامركم لتنفيذها ، فطلب إليه الفاتح أن يشترك جميع الأسطول فى الهجوم العام ، ويصف سفنه حول السور الواقع على بحر مرمرة ويتسلقه الجنود بالسلالم والحبال ويقتحموا المدينة ، ثم بعث الفاتح إلى جنويى غلطة يحذرهم من مساعدة القسطنطينية ، فقد كان على علم تام بما كانوا يفعلونه طوال مدة الحصار .

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس ، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد ، ويأمن العثمانيون دسائس هذه المدينة التى طالما مالأت عليهم الأعداء والمتآمرين ، وسيكون لأول جندى ينصب راية الإسلام على سور القسطنطينية الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة .

وكان الشيوخ والعلماء يتلون عليهم آيات القتال والجهاد ، وما أعد الله للمجاهدين من حسن الجزاء ، ثم يقولون لهم : لقد نزل سيدنا محمد ـ ﷺ ـ عند هجرته إلى المدينة فى دار أبى أيوب الأنصارى ، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا [2]

---

(1) Schlumberger, op . cit.

(2) أحمد مختار « فتح جليل قسطنطينية » .

وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث فى نفوسهم أشد الحماس والحمية الدينية فيسجدون إلى الأرض ويدعون الله أن يتم لهم النصر المبين .

وعاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه وأصدر إليهم التعليمات الأخيرة ، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية :

« إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً ، أن الظفر العظيم الذى سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً ، ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافى هذه التعاليم ، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون » .

وأخلد الجنود إلي الراحة والنوم استجماعاً للقوة والنشاط واستعداداً للقتال الذي أزف موعده ، وخيم علي المعسكر الإسلامي سكون عميق شامل أثار دهشة أهل القسطنطينية وأثار فيما بينهم كثيراً من التساؤل والقلق ، وأحس الناس في المدينة أن هبوب العاصفة قد اقترب وأن الهجوم العام وشيك الوقوع ، فدقت أجراس الكنائس تدعو الناس إلى الصلاة والدعاء والاستعداد والتأهب .

وإن القارئ فى الروايات النصرانية المعاصرة عن هذا اليوم الأخير من أيام الحصار يجد مؤلفيها يكثرون البكاء والنحيب على ذنوب الشعب التى جلبت هذه الغضبة الإلهية الشديدة فإذا كان المؤلف كاثوليكياً عزا هذه النقمة إلي رفض الاتحاد بإخلاص مع روما ، وإذا كان المؤلف أرثوذوكسياً عزاها إلى الكفران والإعراض عن القديسين حماة المدينة .

وأرهقت أعصاب كثير من المحصورين فى هذا الجو المتوتر وضاقت بهم أنفسهم ، وعيل صبرهم ففروا إلي معسكر المسلمين ينشدون لأنفسهم الأمن والسلامة والطمأنينة وقد لقوا هناك فعلاً الأمن والسلامة والطمأنينة وأحسن المسلمون لقياهم ومعاملتهم ، وقد التجأ إلي المعسكر الإسلامي - فيمن التجأ - الراهب « بترو » في ثلاث مائة من أصحابه فأكرمهم المسلمون وأحسنوا معاملتهم ووقع ذلك وقعاً طيباً في نفس الراهب وشرح الله صدره للإسلام فأسلم وعرف منذ ذلك الحين « بمحمد بترو » وقد عاون المسلمين في الهجوم العام ودلهم علي عورات المدينة وأجزل له السلطان الفاتح في العطاء .

وكانت الجاسوسية تعمل بحذف ونشاط من جانبي الروم والعثمانيين على السواء فكان لقسطنطين عيون وجواسيس فى المعسكر العثمانيين يتنطسون الأخبار ويكتبونها فى ورقة حتى إذا ما جن الليل ثبتوها فى السهام وقذفوا بها إلى المدينة ، كذلك كان يفعل جواسيس الفاتح داخل القسطنطينية .

وقد أظهر الروم البخل والشح الشديد حتى فى هذا الوقت الذى تستهدف فيه مدينتهم لأعظم الأخطار ، فقد خبأ الأغنياء أموالهم وكنوزهم وضنوا بها على وطنهم وصارت فيما بعد غنيمة بادرة للأتراك وأبى كثير من الروم أن ينقلوا الأحجار والتراب إلى السور إلا إذا أخذوا أجراً علي هذا العمل ، واضطر اللاتين أن يدفعوا لهم ما طلبوا .

تزايد إحساس الناس فى القسطنطينية بالخطر واقتراب الهجوم العام فأمر الإمبراطور قسطنطين بإقامة ابتهال عام فقام موكب من رجال الدين الأرثوذكسي والكاثوليكي والنساء والأطفال والشيوخ وحملوا معهم صور العذراء والذخائر المقدسة وطافوا في شوارع المدينة وهم يبكون وينتحبون ويمزقون شعورهم ، وينشدون الأناشيد الدينية الحزينة المشجية يضرعون إلي الله أن يغفر ذنوبهم ويتوب عليهم ، وينجيهم من الهلاك ، ثم قصدوا إلي أسوار المدينة فصعد القسس والرهبان ومعهم صور العذراء إلي الشرفات والمواضع العالية ، لا سيما عند طوب قبو حيث كانت الثغرات التي أحدثتها مدافع الأتراك واسعة فاغرة ، وغمر نفوس الناس شيء من الهدوء والسكينة ثم خطب قسطنطين في جنوده وكبار رجال دولته ـ وكانت آخر خطبة له ـ بدأها بقوله :

أيها المحاربون : أعدوا أنفسكم للقتال والتضحية بأنفسكم وأرواحكم في سبيل هذه البلدة المقدسة وفي سبيل النصرانية ، ثم أمسك بمقبض سيفه الذهبي ومضي في خطبته يقول : إن الساعة الخطرة الفاصلة التي ارتقبناها منذ أيام قد أزفت ، إن الرجل ليقاتل ذوداً عن دينه أو وطنه أو ملكه وأهله وولده فكيف وقد جاءت هذه الأسباب كلها مجتمعة ؟ والقسطنطينية هي معقل النصرانية وملكة المدن وقد كانت زمناً ما عاصمة الدنيا ، لقد مضت ثلاثة وخمسون يوماً والعدو يحاصر هذه المدينة بكل عتاده وقواه وقد رددناه عن أسوارنا بفضل الله وفضل شجاعتكم وهو يتأهب الآن ليضرب ضربته الأخيرة فاثبتوا له

كما ثبتم من قبل وادفعوه اليوم عن أسواركم كما دفعتموه بالأمس حتى تخور قواه وينتكص على أعقابه .

أيها الإخوان : إنكم سلالة صناديد أثينا وأبطال روما فكونوا أهلاً لهذا النسب الرفيع ولا تخيفنكم صيحات العدو ونيرانه المتصاعدة وشدوا عزيمتكم واصدقوا فى القتال وإذا كانت للعدو ومدافعه وجنوده وفرسانه فإن لنا الله حامينا فلنضع ثقتنا فيه وسيمدنا بقوته ومعونته ، ثم التفت إلى كل من البنادقة والجنويين فشكرهم وأثنى عليهم وحثهم على مواصلة الكفاح وأعلن أنه سيدافع حتى الموت وأن النصر لهم ما اتبعوا أمره .

وكان أهل القسطنطينية قد هجروا كنيسة أيا صوفيا وتركوها خاوية مقفرة منذ أن دخلها مندوب البابا الكاردينال إيسيدور فى 12 ديسمبر من السنة السابقة وتدنست فى نظرهم بذلك وتنجست ولكنها فى تلك الأمسية (الاثنين 28 مايو) ازدحمت بالمصلين من الروم واللاتين على السواء واكتظت بهم فقد صرفهم الخطر الجاثم على المدينة عن الحزازات والمنازعات وأنساهم كل شيء وصلوا جنباً إلى جنب خاشعة أبصارهم منكسة رؤوسهم وأضرعوا إلى الله أن يرفع البلاء ويكشف عنهم الغمة ، وكانت آخر صلاة نصرانية فى أيا صوفيا .

ونهض قسطنطين بعد الصلاة وعيونه دامعة فاعتذر إلى الناس وطلب الصفح إن كان قد أصاب أحداً منهم بسوء أو أذى وبكى الناس لبكائه ونهضوا يتعانقون يستصفح بعضهم بعضاً ويستغفر ، كأنهم فى وداع لا يرجون بعده من لقاء .

وعاد المدافعون إلى مواضعهم من السور الخارجى واتخذ الجنود المدرعون أماكنهم فى الصفوف الأمامية ، ونادى المنادون فى أرجاء المدينة :

أيها الناس إن بوادر هجوم الأتراك الأعظم قد لاحت فكونوا أقوياء أشداء وأسرعوا إلى القلاع وعاونوا الجنود الشجعان الذين يدافعون عنها كالأسود .

وقام القسس والرهبان من جانبهم بإلقاء المواعظ على سكان المدينة وبخاصة النساء يحثونهم على الثبات ويبثون فى نفوسهم الثقة والطمأنينة قائلين : إن الله قد تقبل دموعنا ودعواتنا وصلواتنا ولن يمكن العدو من مدينتنا وكنائسنا .

وخطب قنصل البنادقة فى جنود اللاتين فأثنى على ما أظهروه من العزم والشجاعة والاستماتة فى القتال وطلب إليهم أن يضاعفوا الجهد فى المعركة الفاصلة القادمة ذودا عن دين المسيح وعلم النصرانية .

وما أن اتخذ المدافعون أماكنهم فى السور الخارجى حتى أغلقت جميع أبواب السور الداخلى المؤدية إلى داخل المدينة كى لا يكون هناك مجال للفرار فإما أن ينتصروا أو يموتوا .

أما الإمبراطور قسطنطين فإنه بعد صلاته فى أيا صوفيا قصد إلى قصره يزوره الزورة الأخيرة فودع جميع من فيه واستصفحهم وكان مشهداً يثير الأسى والشجن ، وقد كتب بعض من حضر هذا المشهد يقول : « لو أن شخصاً قد قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدمع لهذا المنظر » .

وتوجه قسطنطين نحو صورة للمسيح معلقة فى إحدى الغرف فركع تحتها وهمهم ببعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر عند نحو منتصف الليل يرافقه صديقه وأمينه المؤرخ فرانتزتس وركبا حصانيهما وسارا بجوار السور يلقيان إلى المدافعين بين حين وحين كلمات التشجيع والتحميس ونزلا عن حصانيهما عند باب كاليجاريا (اكرى قبو) وصعدا البرج هناك وألقيا بسمعهما إلى جهة المعسكر التركى فإذا خطوات ثقيلة تجئ وتذهب يخالطها شىء من الحركة والجلبة ، إنهم يعدون معدات القتال ويتأهبون للهجوم ، وأخبرهما الحراس أن الأمر على هذه الحال منذ أول الليل على طوال السور كله .

ونزل قسطنطين وفرانتزتس عن البرج ثم افترقا ولم يلتقيا بعد ذلك مرة أخرى فقد كان ذلك آخر صبح طلع على حياة الإمبراطور قسطنطين .

وكان يجرى مثل هذا الاستعداد من جانب البحر فأقلعت السفن من مرساها فى بشكطاش واصطفت تجاه السور القائم على بحر مرمره وأعدت العدة لتسلقه بالسلالم والحبال .

وقبيل منتصف ذلك الليل بقليل رذت السماء رذاً خفيفاً كأنما كانت ترش الأرض رشاً

فخرج السلطان الفاتح إلى باب خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال ـ وقد سمعه من حوله من الحرس ـ :

« لقد أولانا الله رحمته وعنايته فأنزل هذا المطر المبارك فى أوانه فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة » .

وكان الروم قد شملهم الفرح والغبطة أيضاً عندما بدأت السماء تمطر واعتقدوا أن دعواتهم وصلواتهم قد استجيبت وأن هذا المطر سيكون وابلاً مدراراً تستوحل معه الأرض فلا تثبت عليها قدم وتعسر عليها الحركة وتعجز الأتراك عن الهجوم والقتال .

ولكن المطر لم يدم طويلاً وما لبث أن توقف وانقشعت السحب ولمع النجم فى السماء ، وانطفأت هذه الومضة البارقة من الأمل فى نفوس أهل القسطنطينية ولم تبق على المعركة الفاصلة إلا ساعة أو بعض ساعة .

فى الساعات الأولى من صباح الثلاثاء (20 جمادى الأولى857 هـ 29 مايو 1453م) سمعت فجأة من المعسكر العثمانى دقة ضخمة بالطبل إيذانا للجند بالتأهب أعقبتها ثلاث دقات أخرى مثلها ثم تتابعت الدقات فى جميع أرجاء المعسكر ونفخ فى الأبواق وتصاعدت التكبيرات مدوية مجلجلة من جانبى البر والبحر ، وكان لذلك كله دوى هائل مخيف فى ذلك السكون العميق المظلم ، أثار الفزع والرعب فى قلوب أهل القسطنطينية وهرع كثير منهم إلى الكنائس ودقت أجراسها وانطلق الجنود العثمانيون يهجمون على سور القسطنطينية من البر والبحر .

وكان أشد الهجوم وأعنفه قد ركز وسددِ نحو وادى ليكوس القائم بين طوب قبو فى الجنوب وباب أدرنه فى الشمال ، وكان هذان البابان يقعان على نشز مرتفع ويقع الوادى بينهما متطامناً منخفضاً وكان السور القائم فى هذا الموضع وبخاصة الجانب الذى يلاصق طوب قبو قد تهدم تهدماً كبيراً وأقام جستنيان فى مكانه متراساً قوياً تحصن به .

وقد جعل السلطان الفاتح جنوده الذين يقاتلون فى هذه المنطقة ثلاثه أقسام .

القسم الأول : مؤلف من جنود الروملى والمتطوعين الحديثى العهد بالقتال من أجناس مختلفة ، تقدم هؤلاء الجنود إلى الأمام حتى إذا صاروا على مرمى قوس من

السور توقفوا وأخذوا يمطرونه بالقذائف والسهام ، ورد عليهم المدافعون بالمثل ، ثم اندفع فجأة تحت هذا الوابل من القذائف من النبال كثير من المهاجمين نحو السور وأقاموا عليه مئات السلالم لتسلقه فأسرع المدافعون وقلبوا هذه السلالم بمن كان عليها وقذفوا وراءهم الصخور والجلاميد الضخمة ، ولم يمنع ذلك المهاجمين من معاودة تسلق السور مرة بعد مرة ونجح بعضهم فى ارتقائه وحدث على أنقاضه صراع عنيف بالأجساداستمات فيه جستنيان وجنوده المدرعون الشجعان واستطاعوا دفع المهاجمين الذين تكاثرت عليهم ضربات السيوف والرماح والنبال وهووا صرعى إلى الأرض واستمر القتال على هذه الصورة العنيفة المريرة نحو ساعتين ، وكان السلطان الفاتح ترقب هذه المعركة من فوق صهوة جواده ويدرك شدة بأس المدافعين وقوة مراسهم وحسن موقعهم المرتفع الذى يقاتلون فيه ويصبون منه نيرانهم وقذائفهم على من تحتهم من المهاجمين .

وكان السلطان الفاتح يرمى بهذا الهجوم إلى إرهاق المحصورين ونهك قواهم واستنزاف طاقتهم قبل أن يضربهم الضربة الشديدة القاضية ، فأمر جنوده بعد نحو ساعتين من هذا القتال العنيف بالانسحاب ودفع إلى الهجوم .

القسم الثانى : من جنوده وهم جنود الأناضول ، أما المدافعون فقد ظنوا لأول وهلة عند انسحاب المهاجمين أن الأتراك قد دحروا ونكصوا على أعقابهم وعدلوا عن مواصلة القتال ، ولكنهم لم يكادوا يتنفسون الصعداء حتى بوغتوا بهجوم أشد وطأة وعنفاً من الهجوم الأول فقد كان جنود الأناضول أحسن تنظيماً وتدريباً وأكثر مراساً فى القتال .

وكانت أشعة الفجر قد بدأت تنير المكان ، واندفع هؤلاء الجنود يهجمون على السور وقد لبس بعضهم الدروع وهم يكبرون بصوت كهزيم الرعد وأقام كثير منهم السلالم للتسلق وأدرك قسطنطين خطر الموقف فأتى إلى هذا المكان بمزيد من الجند وآلات الرمى والقذائف ونصب مدافع صغيرة ، ونشط جستنيان وجنوده المدرعون الشجعان وقاوموا هذا الهجوم العنيف مقاومة عنيفة مستميتة ، وصبوا قذائفهم ونيرانهم الحامية على المهاجمين وقلبوا السلالم التى أسندت إلى السور ، ولكن ذلك لم يزد العثمانيين إلا حماساً وشدة فى القتال .

ووقف الفاتح على ظهر حصانه « جامبولات » يرقب هذا العراك الدامى العنيف ،

وكان أشد القتال يجرى على السور نفسه حيث التحم المهاجمون والمدافعون فى صراع بالأجساد وتردد النصر بين الفريقين ، ولكن القذائف والسهام تهطلت على الأتراك بغير هوادة وتهاووا صرعى إلى الأرض ، فأمر السلطان الفاتح بسحب جنوده واستعمال المدافع مرة أخرى فنصبت فى أقرب مكان من السور ، وأخذت تطلق قذائفها على هذا الجانب الذى يدافع عنه جستنيان وصحبه ، وزحف الجنود الأتراك تحت ستار الدخان والغبار وهجموا مرة أخرى على السور ولكن جستنيان وجنوده المدرعين الشجعان ثبتوا لهذا الهجوم أيضاً .

وفيما كان القتال يجرى هكذا عنيفاً مريراً عند السور البرى كان هناك قتال آخر لا يقل عنفاً وشدة على جانب البحر ، فقد أخذت السفن العثمانية التى يقودها أمير البحر حمزة باشا فى بحر مرمره والسفن العثمانية الراسية فى القرن الذهبى أمكنتها من السور وأخذ الجنود يطلقون عليه قذائفهم ونبالهم وأخذ فريق منهم يتسلقونه بالسلالم والحبال وغيرها من أدوات التسلق والتحموا فى صراع عنيف مع المدافعين الذين هبوا إلى قذف السلالم إلى البحر وإطلاق النيران والسهام والقذائف على الأتراك .

وقد أثار هذا الهجوم الشديد من ناحية البحر الفزع والرعب بين أهل القسطنطينية وجأرت أصواتهم بالدعاء والضراعة ودقت أجراس الكنائس دقات شديدة متوالية ، على أن هذا الخطر قد أثار فى الأهلين من جهة أخرى روح المقاومة والكفاح ولم تتخلف النساء عن الاشتراك فى أعمال الدفاع فأخذن يغلين الزيوت ثم يحملنها إلى الأسوار لتصب على المهاجمين والذين يتسلقون السور منهم خاصة ، ولكن ذلك لم يضعف عزيمة المسلمين الذين كانوا يندفعون فى الهجوم بغير مبالاة وهم يرددون بكل قوة كلمة : الله ، الله وظل الصراع على جانبى السور البحرى على هذا النحو من الشدة والعنف إلى آخر الحصار ، وإذا كان العثمانيون لم يفلحوا فى اقتحام المدينة من هاتين الناحيتين فإنهم قد شغلوا عدداً كبيراً من المدافعين الذين كان يمكن استخدامهم لتقوية الدفاع عن جانب السور البرى .

أما جنود الأناضول الذين كانوا يهاجمون وادى ليكوس فقد أمرهم السلطان الفاتح بالانسحاب وكان المدافعون قد بلغوا من الكلال والجهد والإعياء أقصى مداها ولم يكن

الفاتح يرمى من هذه الهجمات المتواصلة إلا إرهاق المدافعين وإجهادهم واستنزاف طاقتهم وقواهم قبل أن يضربهم الضربة الأخيرة القاصمة .

واغتبط جستنيان وجنوده بانسحاب الأتراك وارتفعت صيحات الفرح والنصر من جوانب السور وقال جستنيان للإمبراطور قسطنطين وقد طفح وجهه بالبشر : يا صاحب الجلالة اطمئنوا فإن سيوفنا قد ردت العدو .

وانسدح جستنيان على ظهره ليستريح وهم جنوده أن يفعلوا مثله ، ولكن السلطان الفاتح لم يمهلهم ولم يدع لهم وقتاً للراحة والاستجمام ، فلم يكد يسحب جنوده من السور حتى أطلقت عليه مدافعه قذائفها القوية المدمرة وجاء بالقسم الثالث : من جنوده وهم الإنكشارية وكانوا خير الجند تدريباً وحنكة وبسالة .

وكان تنفيذ خطة الهجوم هذه المرة أكثر إحكاماً ودقة ، وكان الشيوخ والعلماء يشجعونهم ويحرضونهم على صدق القتال والجهاد ، وكان الصبح قد أضاء وأمكن رؤية كل شيء بسهولة ووضوح ، وقد قاد السلطان الفاتح بنفسه هؤلاء الجنود إلى حافة الخندق ، وهناك أمر الرماة والنبالة بأن يمطروا المدافعين بالنبال والسهام بحيث لا يقدر أحد منهم أن يطل برأسه من فوق السور ، وتحت هذا الوقاء من النبال المنهمرة الكثيفة زحف الإنكشارية وهجموا على السور كالأسود ـ كما يقول باربارو ـ وكان هجوماً هائلاً مريعاً اهتزت له جوانب القسطنطينية ، وفى مثل لمح البصر أقام كثير منهم السلالم وقفزوا منها إلى أعلى السور فى خفة مدهشة ، وكانت تكبيراتهم العالية ودقات الطبول الضخمة وطلقات المدافع الشديدة ، كان كل ذلك يحدث دوياً يصم الآذان ويلقى الرعب والفزع فى نفوس أهل القسطنطينية ، وتعالت منهم أصوات الدعوات والضراعة تسأل العذراء حماية القسطنطينية وتنجيتها من الأتراك « الوثنيين » وجأرت الكنائس بدقات أجراسها العنيفة المتوالية وسرى الحماس نفوس كثير من الناس وصاحوا بأعلى صوتهم : إلى الأسوار ، ساعدوا المدافعين .

وقد كان جستنيان الجنوى ـ كعادته دائماً ـ ذلك القائد الحاذق النشيط الذى لا يكل ، يتنقل من موضع إلى موضع يبعث الحماس والقوة فى جنوده ويضرب لهم المثل بنفسه ويقول لهم : لقد صددنا هجمات العدو من قبل وسنصدها الآن أيضاً ، وحمى وطيس

القتال وبلغ أقصى مداه فى العنف والشدة لا سيما عند طوب قبو وباب أدرنه ، ولا غرو فقد أدرك الفريقان أنها الساعة الأخيرة الحاسمة من تلك المعركة التى بدأت منذ أكثر من خمسين يوماً ، فإما أن يستولى العثمانيون بعدها على القسطنطينية وإما أن يردوا عنها رداً لا يعودون بعده أبداً إلى الهجوم .

وشهدت هذه المعركة أروع صور البسالة والاستماتة من الجانبين ، فمن ذلك أن جندياً من الإنكشارية يدعى حسن طولوباتلى زحف فى نحو ثلاثين من رفقائه الفدائيين وقد أمسك كل منهم السيف بيمينه والترس بيساره ولم يبالوا النبال والقذائف التى انهمرت عليهم كالمطر من فوق السور وصرعت ثمانية عشر منهم ، وتسلق حسن طولوباتلى وبقية رفقائه السور فأسرع إليهم المدافعون من المدرعين ونشب بينهم صراع دام عنيف ، وقد أظهر حسن طولوباتلى بسالة نادرة فى القتال أشاد بها المؤرخ البيزنطى فرانتزتس الذى شاهدها بنفسه ، وأصيب هذا الجندى الشجاع بقذيفة قوية أوقعته إلى الأرض ولكنه نهض على ركبتيه وظل يقاتل فى حماس وحمية ، وتكاثر عليه الأعداء وخرقته الرماح والنبال فخر صريعاً بعد أن أظهر أن الطريق إلى اقتحام المدينة قد تمهدت وأن الوصول إلى أعلى السور قد أصبح ميسوراً .

وزاد ذلك حماس المسلمين فضاعفوا جهدهم وقوتهم فى الهجوم ، وكان من أثر ذلك أن أصيب جستنيان بجرح بالغ عجز عن احتماله فأزمع على الانسحاب من الميدان لتضميد جرحه وطلب إلى الإمبراطور أن يتولى القيادة مكانه ، وارتاع قسطنطين لهذا الأمر ، ورجا جستنيان ملحاً فى الرجاء أن لا يترك مكانه فإن ذلك سيفت فى عضد الجند ويثبط عزيمتهم فى وقت هم أحوج ما يكونون إلى من يشد أزرهم وأن مصير المدينة كلها متوقف على موقفه ولكن جستنيان أصر على أن ينقل فى الحال إلى سفينته الراسية فى الميناء .

ويظهر أنه كان قد أيس من استمرار الدفاع وصد الأتراك عن القسطنطينية فآثر الانسحاب والسلامة بنفسه ، فقد سأله الإمبراطور : وكيف السبيل إلى الانتقال إلى سفينته ، فأجاب جستنيان : سأتبع الطريق التى فتحها الله للأتراك ، ونقل القائد الجنوى إلى سفينته الراسية وراء السلسلة فى القرن الذهبى ، ومن هناك نقل إلى جزيرة خيوس

حيث قضى نحبه ، بل لعله قد مات قبل وصوله إليها [1] .

ونظر الجنود المدرعون إلى قائدهم وهو ممدد على المحفة تحمله الأعناق إلى داخل المدينة فأثر ذلك فى نفوسهم وكسر من عزيمتهم فأسرع الإمبراطور قسطنطين إليهم ليخفف عنهم وقع هذه الكارثة ويرد إلى نفوسهم الثقة والطمأنينة فقال لهم : إنى سأتولى قيادتكم بنفسى ، لقد انهزم الأتراك فى الباب الشمالى وسنهزمهم هنا أيضاً ونردهم على أعقابهم فما عليكم إلا أن تثبتوا قليلا وتنالوا بعده النصر المؤزر ولأجزلن العطاء والمكافأة بعد ذلك .

وكان هجوم الإنكشارية يزداد عنفاً وشدة فى هذه المنطقة وارتقى كثير منهم أنقاض السور وثبتوا أقدامهم فيها ، واشترك السلطان الفاتح بنفسه فى هذه المرحلة الأخيرة من الصراع فاجتاز الخندق بحصانه وأخذ يدير القتال بنفسه ، ولا شك أنه قد لحظ الارتباك الذى انتاب صفوف المدافعين عقب انسحاب جستنيان فانتهز هذه الفرصة وشدد وطأة الهجوم عليهم ولكن يزيد الفاتح حماس جنده أعلن أنه قد أباح لهم نهب المدينة ثلاثة أيام [2] .

ولم يمض وقت طويل على انسحاب جستنيان وقيام قسطنطين مكانه فى القيادة فى طوب قبو حتى انطلقت من الجهة الشمالية للسور صيحات عالية مفزعة مالبثت أن سرت فى جميع أنحاء المدينة وهى تدوى : لقد دخل الأتراك المدينة دخل الأتراك المدينة .

والتفت الإمبراطور إلى الشمال فإذا الأعلام العثمانية ترفرف على بعض الأبراج القريبة من باب أدرنة .

وكان يقود القوات العثمانية فى هذه المنطقة قره جه بك وقد حاول قبل ذلك اقتحام هذا الباب ففشل ، فجمع قواته وشن عليه هجوماً آخر أشد عنفاً وقوة فزحزح المدافعين عن أماكنهم ووثب جنوده على أنقاض السور المتراكمة إلى جنوب هذا الباب وتمكن أحدهم

---

(1) اختلف المؤرخون فى الحكم على انسحاب جستنيان بعد جرحه فمنهم من أعذره ومنهم من قسا عليه فى الحكم ومنهم من توسط بين هذا وذاك .

Gibbon, op. cit. Lord Eversly, The Turkish Emprie .

(2) صولاق زاده تاريخى سعد الدين ، تاج التواريخ ، منجم باشى .

من قتل قائد الحامية ، وبمقتله انهارت مقاومة المدافعين وولوا هاربين وتدفقت جموع العثمانيين نحو المدينة .

فلما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية المرفرقة ركض فرسه نحو الشمال ليستخبر عن الأمر فإذا جموع الأتراك تتدفق إلى المدينة كالسيل فنزل قسطنطين عن حصانه وخلع ملابسه الإمبراطورية وسل سيفه وأخذ يخبط به ذات اليمين وذات الشمال حتى كلت يده وأصابه أحد الجنود الأتراك بضربة سيف قاتلة فخر صريعاً وصاح صائح بأن الإمبراطور قد قتل ، فزاد ذلك فى فزع الناس ورعبهم ، ولم يقف شيء بعد ذلك فى وجه الأتراك لدخول المدينة فقد تفتحت لهم جميع الأبواب والمنافذ بعد أن فر حماتها وذهبوا يلتمسون النجاة لأنفسهم واشتد الهرج والمرج فى المدينة واختلط الحابل بالنابل ، وتزاحم الناس يدفع بعضهم بعضاً كل يطلب النجاة لنفسه ولا يدرى أين يجدها .

أما عن القتال من جانب البحر فقد أخذ العثمانيون من فوق سفنهم الراسية فى بحر مرمرة والقرن الذهبى يناجزون المدافعين وظلوا على ذلك إلى أن رفعت الأعلام العثمانية فوق الأبراج القائمة على السور البرى ورآها المدافعون فخارت قواهم واستخذت عزائمهم ، فمنهم من استسلم ومنهم من فر يطلب النجاة مع الفارين .

ولم يجد المهاجمون العثمانيون الذين ازدادوا حماساً وحمية عند رؤيتهم الأعلام العثمانية المرفرفة أى صعوبة بعد ذلك فى اقتحام المدينة [1] .

---

(1) يذهب بعض المؤرخين المحدثين مثل همر وبيرز وشلانبرجيه فى شأن دخول العثمانيين القسطنطينية إلى القول بأنه كان فى شمال باب أدرنه باب صغير خفى لا يكاد يري يدعى Cerco porta أى باب السرك ، وقد أهمل هذا الباب أثناء الحصار وأغفل إغلاقه ، فلما قام الأتراك بمهاجمة باب أدرلمح بعض الإنكشارية هذا الباب الصغير فاقتحموه واندفع بعدهم جنود آخرون وأخذوا المدافعين على غرة واستولوا بذلك على المدينة ، ويرمى هؤلاء المؤرخون الغربيون بهذا القول إلى تهوين شأن الأتراك وبطولتهم فى فتح القسطنطينية والإشادة بقوة المدافعين النصارى وأن الحظ وحده هو الذى خانهم ومكن الأتراك من فتح المدينة . ولو صح وقوع مثل هذا الحادث لسجله الذين كانوا فى مدينة القسطنطينية ، ثم كتبوا فيما بعد تاريخ حصارها مثل فرانتزتس وباربارو وليونار ، فقد عرض هؤلاء فى كتاباتهم إلى ذكر أشياء تفصيلية ليست بذات خطر فكيف يغفلون عن أمر جلل كهذا كان نقطة التحول الحاسم وفصل الخطاب فى مصير القسطنطينية ، وقصة دخول الأتراك من الباب الصغير المفتوح لم يذكرها غير دوكاس وانفرد بروايتها ، وهذا المؤرخ وإن كان معاصراً كان بعيداً كل البعد عن ميدان المعركة لم يشهد شيئاً من حوادث الهجوم والقتال .

الفصل الرابع

دخول السلطان الفاتح مدينة القسطنطينية خاشعاً يحثو التراب على رأسه - تأمين الناس على حياتهم وأموالهم - ألست مسلماً ؟ - رهبان يسلمون - الفاتح فى قصر الإمبراطور - سياسة الفاتح العادلة الرحيمة إزاء النصارى - تنصيب البطريرك - الروم يدعون للفاتح - القسطنطينية منار العدالة والحرية للعالم بعد الفتح الإسلامى - اللورد إيفرسلى وفهمه المغرض لمعنى التسامح - الفاتح يستعرض جيشه فى أوق ميدان - تصوير جائر لبعض المؤرخين الأوربيين لمسلك الفاتح وجنوده فى القسطنطينية وتفنيده - استسلام مدينة غلطة للفاتح - تأمين أهلها على حياتهم وأموالهم .

وقف السلطان محمد الفاتح على صهوة جواده (جامبولات) ينظر إلى جنوده وهم يدخلون من كل صوب مدينة القسطنطينية الخالدة ترفرف عليها أعلام النصر والظفر ، وكان يمسك بلجام فرسه البشاطر قللى يوسف [1] . وأقبل كبار رجال الفاتح ووجوههم تطفح بالبشر والسعادة على سلطانهم يهنئونه بالنصر والفتح وكل منهم يقول له : لقد بارك الله فى جهادك يا سلطانى ، فكان الفاتح يجيب بقوله :

حمدا لله ، ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبى الفخر والشكر .

أما أهل القسطنطينية فقد تملكهم الفزع والرعب أول الأمر وفروا هنا وهناك يطلبون النجاة فقد كانوا يعتقدون أن العثمانيين قوم أجلاف غلاظ الأكباد ووحوش كاسرة ، سيمعنون فيهم تقتيلاً وتذبيحاً بغير رحمة ولا هوادة .

ولهؤلاء الناس كل العذر فى هذا الاعتقاد ، إذ لا شك أنهم كانوا يذكرون كيف دخل الصليبيون مدينتهم قبل ذلك الوقت بقرنين ونصف وما ارتكبوه فيها من التقتيل والتدمير والتحريق وأبشع الأفاعيل والفظائع التى كانت آثارها لا تزال ماثلة فى القسطنطينية إلى ذلك اليوم .

---

(1) البشاطر كل جندى حارس يقوم بمثل هذا العمل .

فإذا كان الصليبيون وهم حماة النصرانية يرتكبون كل هذا فكيف بالأتراك المسلمين ؟

وكان معظم الناس قد لجأوا إلى الكنائس التى غصت بجموعهم الزاخرة وبخاصة كنيسة أيا صوفيا يدفعهم أمل غامض فى حماية إلهية ، وأغلقوا على أنفسهم الأبواب وقبعوا فى هذه الكنيسة داعين متضرعين ينتظرون حدوث المعجزة الكبرى التى أنبأت بها النبوءات وهى أنه عندما يدخل « الكفار » القسطنطينية ويتقدمون نحو عمود قسطنطين الأكبر يهبط ملك من السماء يحمل فى يده سيفاً فيسلمه إلى رجل من طغام العامة جالس فى أسفل هذا العمود ويأمره أن ينتقم لشعب الله فيستولى الفزع والرعب على الأتراك فيخرجوا من القسطنطينية مدحورين ويردوا على أعقابهم إلى حدود فارس .

وقد علق بعض المؤرخين البيزنطيين لإظهار تعصب الروم لأرثوذوكسيتهم بأنه لو ظهر فى تلك الساعة ملك من السماء وذكر لهم أنه سيمزق شمل أعدائهم الأتراك ويفنيهم عن آخرهم على شرط أن يقبلوا اتحاد الكنيستين لرفضوا هذا الاتحاد وآثروا الخضوع للأتراك .

وكان ذلك اليوم (20 جمادى الأولى 857 هـ ـ 29 مايو 1453 م) يوم عيد القديسة تيودوزى Sainte Theodosie فقصد الناس منذ الصباح الباكر إلى كنيستها وزينوها بالورود ، وعندما حولها الأتراك فيما بعد إلى جامع لا يزال بها بقية من هذه الورود فسموه جامع الورود « كل جامعى » .

وقد دخل الجنود العثمانيون القسطنطينية عنوة بعد حرب ضروس وقتال مرير ، بل إن كثيراً من الأهالى والجنود الذين تركوا مراكز دفاعهم فى الأسوار قد صعدوا إلى أسطح المنازل وأخذوا يقذفون منها الأحجار الضخمة وقطع الحديد المحمية والأخشاب المشتعلة . ولم يجد المسلمون بداً من مقاتلتهم وأصبحت المدينة بذلك غنيمة للفاتحين كما تقضى بذلك قوانين الحرب فى ذلك العهد وكما يقضى الإسلام ، وأفاء الله عليهم مغانم كثيرة وأسرى وسبياً كثيراً من الرجال والنساء .

وعند الظهيرة توجه السلطان الفاتح إلى القسطنطينية على ظهر جواده يحف به كبار رجال دولته وحرسه وقد أعجبته المدينة بآثارها الرائعة ومبانيها الفخمة ، وكان ألوف من العثمانيين يحيطون بهذا المركب السلطانى ويهتفون بين حين وحين : ما شاء الله ، وما شاء الله ، ليحيى سلطاننا : ليحيى سلطاننا .

ولما بلغ الفاتح منتصف المدينة توقف عن السير وقال لمن حوله من الجند :

أيها الغزاة المجاهدون حمداً لله وشكراً، لقد أصبحتم فاتحى القسطنطينية ، وقرأ عليهم الحديث النبوى الشريف :

« لتفتحن القسطنطينية فلنعم الامير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » .

وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل والنهب والسلب ، وأن يكونوا أهلاً للشرف الذى حباهم به الرسول ـ ﷺ ـ ، وترجل الفاتح عن فرسه واستقبل القبلة وسجد على الأرض وحثا التراب على رأسه شكراً لله على ما منحه من توفيق ونصر ، ثم استأنف سيره إلى كنيسة أيا صوفيا ، ولما اقترب منها وصلت إلى مسامعه أصوات خافتة حزينة هى أصوات الصلوات والدعوات التى كانت تجرى فيها ، وقصد الفاتح إلى أحد أبواب الكنيسة وكان باباً منيعاً حصيناً فوجده مغلقاً ، فلما علم الراهب بمقدمه أمر بفتح الباب على مصراعيه وانتاب الناس خوف عظيم وفزع لحضور السلطان وتوجسوا شراً وانقطعوا عما كانوا فيه من الصلاة وساد بينهم لجب ولغط فما كان من الفاتح إلا أن طلب من الراهب أن تستمر الصلاة كما كانت من قبل وأن يبقى كل إنسان فى مكانه دون أن يجزع ، وتمت الصلاة فى هدوء وأمان ، وسجد الفاتح مرة أخرى يشكر الله ويحمده ثم طلب إلى الراهب أن يأمر المصلين بالعودة إلى منازلهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأن يعود كل إنسان إلى ما كان يمارسه من قبل من عمل وحرفة ، ونزل هذا الكلام برداً وسلاماً على هؤلاء الناس الذين كانوا يتوقعون أن ينزل بهم أشد أنواع البطش والتنكيل ، وشاعت فى نفوسهم الراحة والطمأنينة وبعث الفاتح إلى مختلف أرجاء المدينة نفراً من رجاله لتأمين الناس وليعودوا إلى حياتهم العادية .

وفيما كان السلطان الفاتح يطوف بأرجاء كنيسة أياصوفيا الكبيرة الفسيحة إذ سمع قرعاً ونقراً من ورائه والتفت فإذا جندى من جنوده يضرب بآلة فى يده عموداً من المرمر كانت معلقة عليه إحدى الصور المقدسة ، واقترب منه الفاتح وقال له غاضباً : ما عملك هذا ؟ فأجاب عليه الجندى الأمى بكل بساطة : ألست مسلماً ؟ أريد محو آثار الكفار !

فقال له الفاتح : ليس من الحق تخريب المعبد ، وخطف منه الآلة وضربه بها على رأسه وأرداه صريعاً .

وكان نفر من الرهبان مختبئين فى سراديب الكنيسة خوفاً من القتل ، فلما سمعوا بما

فعله الفاتح وحسن رعايته للنصارى خرجوا من أماكنهم وأعلنوا إسلامهم وعرف أحدهم وكان أكبرهم سناً ـ باسم بابا محمد [1] .

وأمر السلطان الفاتح بعد ذلك بتحويل هذه الكنيسة إلى مسجد وطلب إلى أحد العلماء الذين كانوا برفقته أن يؤذن فجلجل صوته بالأذان فى هذا المعبد الضخم الفسيح وأدى فيه صلاة العصر ، ثم أعلن أن أول صلاة جمعة قادمة ستقام فيه فأخذ البناؤون فى إعداده لذلك فرفعت الصلبان وصور القديسين والقديسات وكان فى بعض جدران البناء زخارف من الفسيفساء تحمل صوراً مختلفة قد تلهى المؤمن فى صلاته فأراد بعضهم نزعها فنهاه الفاتح عن ذلك وأمر بتغطيتها بطبقة من الكلس ثم أنشئ فيه المحراب وأقيم المنبر وشيدت المئذنة .

وقصد السلطان الفاتح أيضاً إلى قصر الإمبراطور ، وقد كان هذا القصر زمناماً مثال العظمة والأبهة والرواء يزخر بساكنيه ويسطع بالأضواء والأنوار الباهرة ويموج بالخدم والحشم ، يقصده السفراء ومندوبو الدول من جميع أرجاء العالم ، ولكنه أهمل شأنه منذ اشتد الحصار على القسطنطينية وأقفر من ساكنيه وانتشر التراب والغبار فى جميع أنحائه وعششت العناكب فى جدرانه وبدت عليه الوحشة والظلام والكآبة ، وقد استبدل فى ليلة وضحاها سيداً بسيد وحاكماً بحاكم فكان عبرة بالغة من عبر الدهر فى تقلب الأحوال وتصاريف الزمن ، وقد جالت هذه المعانى فى ذهن الفاتح وهو يجوب أبهاءه وعرصاته فأنشد بيتاً فارسياً معناه : أن العنكبوت قد نسجت بيوتها فى قصر الأباطرة وأن البوم ينعق فيه نعيقا محزنا .

وسأل السلطان الفاتح عن قسطنطين وجستنيان ونوتاراس وما مصيرهم ، ولم يأته منهم غير نوتاراس الذى كان يقوم بالإدارة المدنية فى القسطنطينية أثناء الحصار ، وقد أحسن الفاتح لقاءه واستخبره عن الإمبراطور فأجاب بأنه لا يعلم عنه شيئاً ، فقد كان هو يقوم بتصريف الأمور فى المدينة بينما كان قسطنطين فى الأسوار الأمامية ، وقام مقام جستنيان فى قيادة الجنود المدرعين بطوب قبو بعد إصابته بالجرح ، فسأله السلطان عن مصير جستنيان وأجاب نوتاراس بأن كل ما يعلمه عنه أنه عقب إصابته بالجرح ، نقل إلى

---

(1) أحمد مختار فتح جليل قسطنطينية .

سفينة راسية بميناء القرن الذهبى فأرسل الفاتح من فوره بعض رجاله إلى طوب قبو للبحث عن الإمبراطور كما أرسل أناس آخرين إلى الميناء للبحث عن السفينة التى يرقد فيها جستنيان وإنزاله إلى البر وإحضار أحذق الأطباء لتطبيبه وتضميد جراحه وقد كان السلطان الفاتح جندياً عظيم النفس يكرم البطولة ولو كانت فى ألد أعدائه وكان قد أظهر شديد إعجابه بجستنيان عندما كان يدافع عن السور بحذق ومهارة وبسالة .

وجاء جندى صربى يحمل رأس قسطنطين وقد ظن أنه جاء بما يفرح السلطان فقال له : يا صاحب الجلالة ، أطال الله عمرك ، هاهو ذا رأس قسطنطين وقذف به إلى الأرض ، ونظر الفاتح إلى الرأس وهو يتدحرج تحت قدميه وقد تلطخ بالدم والتراب وسأل نوتاراس إن كان حقاً هو رأس قسطنطين فأجاب بالإيجاب وهو ينشج بالبكاء ، وعز على السلطان الفاتح أن يمثل بالإمبراطور ويزدرى على هذا النحو فأمر بقطع رأس ذلك الجندى الذى ارتكب هذه المثلة وأن يحتفل بدفن الإمبراطور قسطنطين بما يليق بمكانته ومنزلته [1] .

وسلك السلطان الفاتح نحو أهل القسطنطينية سياسة التسامح والرأفة ، وأمر جنوده بحسن معاملة من فى أيديهم من الأسرى والرفق بهم ، وقد بذل الفاتح كل ما كان فى وسعه لتخفيف آلامهم وفك أسرهم ، وفدى عدداً من كبار الأسرى بماله الخاص [2] ويقول أحمد مختار باشا :

إن السلطان الفاتح قد حنا على أهل القسطنطينية حنو الوالد الشفيق العطوف على ولده [3] وكان كثير من السكان قد فروا من المدينة عندما دخلها العثمانيون خوفاً من القتل فأصدر الفاتح بياناً عاماً دعا فيه هؤلاء الفارين إلى العودة إلى مدينتهم كل إلى منزله وأمنهم على حياتهم وأموالهم ويعود أهل التجارة والحرف إلى أسواقهم ومزاولة أعمالهم ومهنهم ووعدهم بحرية العبادة وممارسة شعائر دينهم .

وكان السلطان الفاتح يعلم أن الروم قوم شديدوا التمسك بالدين فرأى أن خير ما

---

(1) الأب دي كوبيه اليسوعي كشف المكتوم .

Finlay, A History of Creece. pears, The Destruction of the Creek Empire .

(2) قريتو وولوس ، تاريخ سلطان محمد خان ثاني .

Cibcon, op. cit. Salaberry, Histoire de l' Empire Ottoman .

(3) فتح جليل قسطنطينية .

يجمع شملهم ويشجعهم على العودة والاطمئنان إلى حكمه هو أن يظهر العناية بالناحية الدينية ، وكانت البطريركية إذ ذاك شاغرة فعمل على تنصيب بطريرك رومى جديد بنفس المراسيم الفخمة التى كانت تتبع فى عهد الأباطرة الأول ، واجتمع الأساقفة وانتخبوا چناديوس بطريركاً لهم وقد كان من أقوى المعارضين لاتحاد الكنيستين وأشدهم عداء له وبعد انتخابه ذهب فى موكب حافل من الأساقفة إلى القصر الذى كان فيه الفاتح فاحتفى به أعظم احتفاء وبالغ فى تكريمه والترحيب به وتناول معه الطعام على مائدته وتحادث معه حديثاً طويلاً ثم قدم إليه بعد ذلك عصا البطريركية وقال له :

« إنك البطريرك وليحفظك الله واعتمد دائماً على صداقتى ومودتى وتمتع بكل ما كان يتمتع به سلفك من الحقوق والامتيازات » (1) .

ولما هم البطريرك بالانصراف نهض له الفاتح ورافقه إلى بابا القصر وأعانه على ركوب الجواد المطهم الذى أعد له ، وأمر وزراءه وكبار رجال دولته أن يصحبوه إلى مقره الذى هيئ له ، وقد تأثر البطريرك لما لقيه من السلطان محمد الفاتح من بالغ الحفاوة والتجلة وشعر بشىء من الخجل فقال للسلطان : إن الأباطرة النصارى لم يفعلوا قط مثل هذا لمن سبقه من البطاركة .

ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريركهم فقد كانوا يحسبونه فاتحاً بربرياً سفاكاً غادراً لا يرعى للدين حرمة ولا يفهم للإنسانية والتسامح معنى ، ولكنهم وجدوا فيه من السماحة والدماثة والأريحية ما لم يروا مثلها من قبل فلم يسعهم إلا أن رفعوا أيديهم إلى السماء يسألون الله أن يبارك لهم فى هذا السلطان الجديد .

وأصدر الفاتح بعد ذلك فرماناً للبطريرك أمنه فيه على شخصه وجعله فى رتبة الوزراء وعهد إليه بالنظر فى أمور الروم من الناحيتين الدينية والمدنية كالزواج والطلاق والميراث ، وأصبح البطريرك بذلك زعيماً دينياً وسياسياً لشعبه .

وباستيلاء المسلمين على القسطنطينية قضى على ما كان فيها من المنازعات والمشاحنات التى طالما أثارت الفتن وأراقت الدماء ، وحرم السلطان الفاتح اضطهاد

---

(1) Hammer, L' Empire Ottoman. Mazas, Les Hommes Illustres de l' Orient . Baron Cara de Vaux, Les penseurs de I Islam .

النصارى تحريماً قاطعاً ولم يميز فى تسامحه ومعاملته بين أحد منهم على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم بل جعلهم كلهم سواء وأظلهم جميعاً بعدله ورعايته ، وقد طلب إليه بعض المتعصبين الجهلة قتل الروم وإبادتهم إذا لم يدخلوا فى الإسلام فأبى عليهم ذلك وقال : إنه إن فعل ذلك يخالف تعاليم القرآن (1) .

وأصبحت القسطنطينية بعد الفتح العثمانى الإسلامى ملجأ العالم كله يأمن فيه الخائف والمذعور ويطمئن فيه المضطهد والمظلوم وينال فيه جميع الناس العدل والمساواة والحرية على قدر سواء لا تمييز بين غنى وفقير ولا بين عظيم وحقير (2) ولكن اللورد إيفرسلى قد استنتج من هذا التسامح أنه دليل على أن العثمانيين في فتوحاتهم بأوروبا لم يكونوا يقصدون إلي نشر الإسلام (3) . وهو استنتاج خبيث المرمى والغرض إذ معناه أن الإسلام قبل ذلك لم ينتشر بالتسامح والاختيار وإنما نشر بالسيف والإكراه ، ولو أن هذا اللورد الإنجليزى قد شدا شيئاً فى تاريخ الإسلام لعلم أن هذا الدين فى مختلف عصوره وعهوده لم يفرض قط على أحد من الناس .

ولم تمض بضعة أيام على فتح القسطنطينية حتى ساد الأمن والسكينة ربوع المدينة واستأنف الناس حياتهم المدنية العادية فى اطمئنان وسلام .

وكان الدوق نوتاراس كما رأينا من قبل قد قابل السلطان الفاتح ولقى منه كل حفاوة ورعاية ، وقد عاتبه السلطان على عدم تسليم المدينة بعد أن أرسل إليها الإنذار الأخير ومن قبل أن يصيبها الخراب وتراق الدماء ، وأجاب نوتارس بأن استمرار المقاومة يرجع إلى الجنود الأجانب وإلى الرسائل التى كان يبعثها أحد وزراء السلطان إلى قسطنطين يحثه فيها على مواصلة المقاومة وعدم الاستسلام ويطمعه فى رفع الحصار ، وقد اهتم قسطنطين بهذه الرسائل وعمل بها ، وما إن سمع خليل باشا هذا حتى ظهر عليه الارتباك والخوف وكان واقفا بجانب السلطان فصاح : كلا يا سلطانى ، من المستحيل أن يوجد فى معيتكم من يرتكب مثل هذا الخزى والعار ، إن هذا الكافر يفترى كذباً فلا تسمحوا له بالكلام واقطعوا

---

(1) Halil Ganem, Les Sultans Ottomans .

(2) السير توماس أرنولد ـ الدعوة إلي الإسلام ـ .

(3) Lord Eversly, The Turkish Empire .

رأسه فنظر الفاتح إلى خليل باشا وعلى فمه ابتسامة ساخرة وقـال لـه :

فلماذا ترتبك إذن يا لالا ؟ ألا تجيب على هذه التهم الموجهة إليك ؟

وعزله السلطان الفاتح عن الوزارة وعهد بها إلى محمود باشا ورعاية لكبر سن خليل باشا اكتفى الفاتح بمصادرة أمواله وحبسه وظل فيه حتى وافاه أجله [1] .

أما نوتاراس فقد صفح عنه السلطان وأكرمه ووهب له ولأولاده مالاً كثيراً . وذهب فى اليوم التالى إلى بيته لعيادة زوجته المريضة فواساها وأسبغ عليها من عطفه ورعايته ولكن نوتاراس ومن معه من نبلاء الروم قد أغرتهم هذه المعاملة السمحة الكريمة من الفاتح وأطمعتهم فأخذوا يأتمرون لإخراج المسلمين من القسطنطينية وبعثوا رسلاً إلى إيطاليا يدعون إلى حملة صليبية ضدهم فأمر السلطان الفاتح باعتقالهم وقتلهم .

واستعرض السلطان الفاتح جنوده بعد فتح القسطنطينية استعراضاً عسكرياً فى أدق ميدان شبيهاً بالاستعراضات العسكرية التى نراها اليوم ، ثم أقيمت بين الجنود مسابقة فى الرماية بمختلف الأسلحة فأقبلوا عليها نفوس فرحة نشيطة [2] .

وبعد انتهاء المسابقة أقام الفاتح مأدبة حافلة لجنوده استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات ، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائر « سيد القوم خادمهم » ووزع عليهم العطايا والمنح ، ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم فقال :

يا جنود الإسلام ، أعلموا واذكروا أن النبى ـ ﷺ ـ قال فى شأنكم :

« **لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش** » ونسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفقنا ويغفر لنا جميعاً ، ألا لا تسرفوا ما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا

---

(1) طاشكبري الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية وذهب بعض المؤرخين إلي أن السلطان الفاتح قتله . ولكن هناك إجماعاً يكاد يكون تاماً بن المؤرخين الشرقيين والغربيين علي أن خليل باشا كان يمالئ الروم علي المسلمين .

(2) وقد أصبحت هذه المسابقة في الرماية سنة متبعة في القسطنطينية ، ففي موسم معين من كل عام يقصد كثير من أهالي هذه المدينة إلي هذا الميدان يتبارون في الرماية بالرماح وظل هذا التقليد جارياً إلي عهد قريب .

وأنفقوها فى البر والخير لأهل هذه المدينة ، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه ، ثم التفت إلى الفاتح وقال له : يا سلطانى ، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان فكن على الدوام مجاهداً فى سبيل الله ، ثم صاح مكبراً بالله فى صوت جهورى جليد [1] .

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية إلى قبر الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى بموضع قريب من سور القسطنطينية فأمر السلطان الفاتح بناء المسجد الشريف والحجرات والقبة على ذلك الموضع . وما أن تم بناء المسجد حتى قصد إليه الفاتح وأدى فيه الصلاة . وهناك نهض الشيخ شمس الدين وسلم إليه سيفاً عظيماً ، وجرت السنة بعد ذلك أن يكون تقليد السلطان الجديد وتنصيبه فى ذلك المسجد .

هكذا تم فتح القسطنطينية للسلطان محمد الثانى ، تم له هذا الفتح المبين الذى عجز عنه الغزاة والفاتحون من قبله فى محاولات تبلغ العشرين وتحدتهم القسطنطينية بأسوارها الشامخة وقلاعها المنيعة وردتهم على أعقابهم مدحورين .

ولكن هذه المدينة العاتية الحصينة خرت صاغرة مستسلمة أمام عبقرية الفاتح الحرية الفذة وعزيمته الحديدية التى لا تفل وإرادته الصلبة التى لا تلين ، ولكن هذا النصر على عظمه وبهائه وفخامته لم يبطر ولم يزه ذلك السلطان الشاب الذى لم يكن قد جاوز الخامسة والعشرين من عمره حينذاك فلم يدخل المدينة دخول الملوك العتاة الجبابرة المفسدين بل دخلها خاشعاً متخشعاً وسجد إلى الأرض وحثا التراب على رأسه شكراً لله على ما منّ عليه من توفيق ونصر ، ورفق بأهل القسطنطينية ولاينهم وواسى الضعفاء والعجزة منهم ، فكان فتح القسطنطينية مفخرة من مفاخر الإسلام التى يزهى بها التاريخ ومجداً من أمجاده الخالدة الباقية على الدهر .

وبعد ذلك الفتح المبين أطلقت على السلطان محمد الثانى كنية « أبو الفتح » .

ولكن القارىء فى كتب المؤلفين الأوروبيين يجد فى كثير منها صورة تختلف عن هذه الصورة كلا الاختلاف ، صورة يشوبها السواد والقتامة ، يصور هؤلاء المؤلفون الجنود العثمانيين عند دخولهم القسطنطينية فى صورة البرابرة والمتوحشين ، فما أن دخلوا هذه المدينة حتى أمعنوا فى القتل والنهب والسلب والتدمير فلم يرحموا شيخاً كبيراً ولا امرأة

---

(1) أحمد مختار ـ فتح جليل قسطنطينية ـ.

ضعيفة ولا طفلاً رضيعاً واعتدوا على الراهبات فى الكنائس وانتهكوا الحرمات والمقدسات علانية فى ظاهرة النهار وأحرقوا الكتب وحطموا الآثار التاريخية ، ويقولون عن مقتل الدوق نوتاراس إن السلطان الفاتح فى مأدبة أقامها أسرف فى شرب الخمر حتى إذا ما انتشى طلب من الدوق نوتاراس أن يأتيه بأصغر أبنائه وكان غلاماً فى الرابعة عشرة من عمره ، غضاً جميلاً صبيح الوجه فأبى عليه نوتاراس ذلك وآثر الموت على أن يدنس شرفه ، وغضب السلطان لذلك أشد الغضب واستحوذ على الغلام غصباً وأمر بقتل نوتاراس وبقية أبنائه وألقيت جثثهم فى الطريق وحملت رؤوسهم إلى الفاتح ووضعت على المائدة [1] .

ويجب أن نلاحظ قبل كل شىء أن هذه المساوىء والمقابح والمنكرات المنسوبة إلى الفاتح وجنوده إنما جاءت بها الروايات النصرانية لاسيما البيزنطية ، وقد شهد كثير من أصحاب هذه الروايات مثل فرانتزتس وباربارو حوادث حصار القسطنطينية بأنفسهم وأصابهم شىء من متاعب الحصار وأهوال القتال وعواقب الهزيمة ونجا منهم من نجا وقلبه يغلى كالمرجل بالحقد والبغضاء والكراهية ويصب لعناته على المنتصرين ، وذلك أقل ما يشعر به المهزوم إزاء قاهره وحسبك لكى تدرك ما فى قلوبهم من نار الغيظ والحقد أن باربارو ـ وهو مؤرخ إيطالى بندقى شهد حوادث فتح القسطنطينية بنفسه ـ حين يتحدث عن الأتراك لا يسميهم باسمهم بل يدعوهم بالكلاب ويسمى السلطان الفاتح نفسه الكلب [2] ، وباربارو هذا أشد من تحامل وتعصب فى الحكم على جستنيان الذى انسحب من المعركة بعد إصابته بالجرح لا لشىء إلا أنه جنوى والعداء بين البنادقة والجنويين قديم [3] ، فإذا كان هذا هو حقد باربارو على جستنيان الذى أبلى أعظم البلاء فى الدفاع عن القسطنطينية فماذا عسى أن يكون حقده على السلطان الفاتح والأتراك الذين فتحوا هذه المدينة ؟

أما المؤرخون الروم أو البيزنطيون وفى مقدمتهم فرانتزتس صديق الإمبراطور

---

(1) انظر مثلاً ما كتبه . Schlumberger, Pears, Hammer

(2) Schlumberger, op. cit.

(3) الأستاذ بيوري Bvry في تعليقاته علي كتاب جبون :

The History of the Decline and Fall of the Roman Empire .

قسطنطين وأمينه والذى شاركه فى الدفاع عن القسطنطينية وأصابه شىء غير قليل من ويلات الحرب فقد اعترف همر وبيورى وغيرهما من المؤرخين بتعصبهم وتحاملهم على الأتراك (1) .

وأعجب العجب أن يعرف المؤرخون الأوروبيون المحدثون هذا التحامل والتعصب فى المؤرخين الروم ثم يأخذون عنهم كل شىء ويثقون برواياتهم ثقة عمياء ، فقد جمعوا على أنفسهم إذن ضلالاً فوق ضلال .

---

(1) المرجع السابق . Hammer, op. cit

ويقول الأستاذ بيورى عن المؤرخ فرانتزتس فى تعليقاته على كتاب جبون :

He is naturally a good hater of the Turks from whom he had suffered so much .

ومع ذلك فإن الأستاذ بيورى يعتقد صحة هذه الروايات البيزنطية الخاصة بفظائع الأتراك واستدل على ذلك بأن ما ذكره كريتوبولس (أو قريتووو لوس كما جاء فى الترجمة التركية لكتابه عن تاريخ السلطان محمد الثانى) الذى يكتب كصديق للأتراك ويتحدث بلسانهم عن وصف هذه الفظائع يدل على أن المؤرخين الآخرين لم يبالغوا فيما سجلوه من وصف شنيع مخيف ، وقد أشار قريتووولوس بنوع خاص إلى تدمير الكتب المقدسة وبيع أكثرها بثمن بخس (المرجع السابق) ويجب علينا أن نذكر قبل كل شىء أن المؤرخ قريتووولوس ـ وإن كان معاصراً لم يشهد بنفسه ـ كما صرح بذلك فى مقدمة كتابه ـ شيئا من حوادث الحصار ولا ما فعله العثمانيون بعد دخولهم القسطنطينية . وإنما تلقى أخبارها فيما بعد من أفواه الناس ، ويظهر أن قريتووولوس كان يتلقف هذه الأخبار تلقفاً دون أن يعنى بتفحيصها وتمحيصها ، لذلك كثر التناقض بين أقواله ، ففى الموضوع الذى نحن بصدده الآن نجده يقول : إن ما ألحقه الأتراك بالقسطنطينية من التدمير والتخريب لم تصب بمثله أية مدينة من قبل ، فقد صارت هذه المدينة كومة من الأنقاض ، ولكنا نجده يقول أيضاً عند دخول السلطان الفاتح مدينة القسطنطينية : إن السلطان قد أعجب أشد الإعجاب بفخامة المدينة وروائها وكثرة مبانيها ومعابدها وجمال مساكنها وبخاصة منازل الأعيان والسراة وما بها من ألوان النعمة والترف مما يشعر أن المدينة لم يصبها أقل سوء (انظر كتابه تاريخ السلطان محمد خان ثانى) فكيف يجتمع هذان القولان المتناقضان لقائل واحد فى موضع واحد ؟! لا تعليل له إلا ما أسلفناه وهو أن الرجل كان يلقف كل ما يطرق سمعه بدون تمييز بين الغث والسمين ، ثم كيف ينصرف الجنود إلي نهب الكتب وبيعها بثمن بخس (إن صح هذا) ويتركون هذه الدور والقصور الحافلة بألوان الترف والنعيم والتى تغرى بالنهب والسلب ؟

ولكن الأستاذ بيورى يتجاهل كل هذا ، ويتجاهل أيضاً قول قريتوولوس بأن الفاتح بعد دخول القسطنطينية قد أكرم من وجد بها من العلماء وأحسن معاملتهم وأنه رفق بالأسرى كل الرفق وعطف عليهم كل العطف وبذل جهد طاقته لتخفيف آلامهم وفك أسرهم ، يتجاهل الأستاذ بيورى كل هذا ويفصح عنه ويتمسك بما يراه سندا وتأييداً لرأيه المغرض فى التنديد بالمسلمين عند دخولهم القسطنطينية ووصمهم بالبربرية والهمجية .

وفوق ذلك كله فإننا لم نجد فى كتاب قريتووولوس (اعتمدنا على الترجمة التركية) ما ادعاه الأستاذ بيورى من أن الجنود العثمانيين قد باعوا الكتب بثمن بخس .

ونلاحظ أيضاً فيما يتعلق بمقتل نوتاراس أن المؤرخين الغربيين المعاصرين له كان أحد رجلين : كاثوليكى مثل باربارو أو أرثوذكسى مشايع لاتحاد الكنيستين الشرقية والغربية مثل فرانتزتس ودوكاس فى حين أن نوتاراس ـ كما قد علمنا من قبل ـ كان زعيم المعارضين للاتحاد وهو صاحب الصيحة المشهورة بتفضيل عمامة الأتراك على قبعة الكاردينال ، فلما عرض هؤلاء المؤرخون إلى ذكر شأن نوتاراس نفثوا كل ما فى صدورهم من غيظ وحقد وكراهية فاختلفوا عليه الأكاذيب وأصاروه إلى هذه النهاية المحزنة تشفيا لنفوسهم من الرجل الذى كان ينادى بتفضيل عمامة الأتراك على قبعة الكاردينال .

على أن فى التشهير بنوتاراس على ذلك النحو المزرى تشهيراً بالسلطان الفاتح نفسه فكأنهم أرادوا إصابة عصفورين بحجر .

وأشد هؤلاء المؤرخين عداوة وكراهية لنوتاراس هو فرانتزتس . ولم يخفف موت نوتاراس ولا مرور الزمن شيئاً من هذه العداوة والكراهية المتأججتين فى صدره حتى بعد اعتزاله فى أحد الأديار بجزيرة كورفو [1] .

فإذا كان فرانتزتس بعد أن ترهب فى الدير وانقطع إلى العبادة والاستغفار لم يتورع عن نبش قبر رجل من بنى جلدته وأكل لحمه فماذا عسى أن يكون موقفه من السلطان محمد الفاتح الذى استولى على بلدته ؟

لعله كان يرى أن من تمام العبادة والاستغفار أن يطعن فيه ويفترى عليه !!

وإن فى بقاء هذا المؤرخ نفسه حياً بعد فتح القسطنطينية لأكبر دليل على كذب اتهامه للعثمانيين بالوحشية وتقتيل الناس بغير وازع ولا رادع ، فقد وقع فرانتزتس أسيراً فى أيديهم وكان أولى الناس بأن يقتل إذ كان صديق الإمبراطور قسطنطين وأمينه وعونه الأكبر

---

(1) الأستاذ بيوري في تعليقاته علي كتاب جبون .

ويقول صاحب « كشف المكتوم » وحباً بالحق الذي هو غاية مطلوبنا لابد من القول أن المثالب المقرف بها نوتاراس نقلاً عن المؤرخين مستندة كلها إلي ما كتبه المؤرخ فرانتزتس الذي طعن أيضاً علي جستنيان ونسبه إلي الجبن وعنه أخذ سائر المؤرخين ، علي أننا نقول إن فرانتزتس ولو كان ذا صفات حميدة كان حقوداً يعنف أعداءه تعنيفاً شديدا لا يخلو من التعصب الأعمي وكان نوتاراس عدواً ألد له لأن فرانتزتس كان يلتمس من الملك أن يمنحه لقب مدير المملكة « لوغوتيت » الذي كان حاصلاً عليه نوتاراس فعارضه في ذلك نوتاراس ، ولهذا لا نقدر أن نثق تامة بكل ما قاله فرانتزتس عن خصمه .

على حرب المسلمين ، ولكن الذى حدث أنهم أبقوا على حياته وأحسنوا معاملته ثم أطلقوا سراحه وتركوه يذهب أينما شاء ليسود عليهم بعد ذلك صحائفهم ويكون إماماً لغيره من المؤرخين فى تخرص الأكاذيب واختلاق الأخبار .

كذلك أسر الكاردينال إسيدور مندوب البابا ، ثم أطلق سراحه وذهب إلى إيطاليا ليستنفر الناس فى أوروبا إلى شن حملة صليبية على الأتراك .

فهل يصح فى عقل عاقل بعد ذلك أن يقال إن العثمانيين حينما دخلوا القسطنطينية أعملوا السيف فى رقاب أهلها فلم يدعوا شيخاً كبيراً ولا امرأة ضعيفة ولا طفلاً رضيعاً وقد أبقوا على مثل هذين الرجلين ؟!

أما ما نسبوه إلى الفاتح وجنوده من الدعارة والفجور بعد دخولهم القسطنطينية فهذه تهمة أو هى من بيت العنكبوت وسنرى فيما يقبل من صفحات هذه الرسالة عظم تدين الفاتح وصلاحه وتقواه وصرامته فى الحق ، وكيف كان يشتد فى معاقبة أقرب الناس إليه فى اللمم والهنة الصغيرة [1] .

---

(1) من تمام الحديث عن فتح القسطنطينية ودخول العثمانيين فيها سنة 1453 أن نذكر كيف دخلها الصليبيون اللاتين قبل قرنين ونصف من ذلك العهد فإن ذلك أحري بأن يزيد في جلاء سماحة المسلمين وأريحيتهم ، كان الصليبيون اللاتين قبل نزولهم القسطنطينية قد راعهم وخلبهم منظرها الفاتن الخلاب ، فلما دخلوها وجدوها أعظم مما كانوا يتصورون ، بل كانت أعظم مدينة وقعت عليها أبصارهم فانقضوا عليها كالسباع الضارية وأمعنوا في النهب والسلب والتقتيل والتذبيح لم يبقوا علي شيخ كبير ولا طفل رضيع وانتهكوا أعراض النساء حتي اضطرت الفتيات إلي تشويه وجوههن دفعاً لاعتداء الصليبيين عليهن ونجاة بشرفهن ، ودخل الصليبيون الكنائس بخيولهم وبغالهم ونهبوا كل ما فيها من الأثاث والكنوز والأواني المقدسة وحزموها علي ظهور الخيل والبغال وإذا ناءت إحداها بحملها طعنوها بالرماح وتسيل دماؤها علي أرض الكنيسة ، وعمدوا إلي التماثيل الحجرية فحطموها . أما التماثيل المعدنية فقد صهروها واتخذوا منها النقود وجعلوا من بعض الكنائس مستودعا للمنهوبات . وتهالك الصليبيون في الفجور والسكر والعربدة واختلط الرجال بالنساء والنساء بالرجال وصعدت إحدي العاهرات عرش البطريرك وتربعت عليه وأخذت صويحباتها يرقصن حولها ويغنين ، ولبس الرجال ملابس النساء ولبس النساء ملابس الرجال وأخذوا يتسابقون في الشوارع والطرقات وهم يقهقهون ويسخرون ، وأحرقوا كثيراً من الكتب وأبادوها ، ولم تقف بربرية الصليبيين اللاتين عند هذا ولم يقنعوا بانتهاك حرمة الأحياء بل تعدوهم إلي الموتي فنبشوا قبور أباطرة الروم ، وقد فعل اللاتين كل ذلك بحق الحرب .

وكان ممن اشترك في هذه الحملة الصليبية الرابعة فيل هاردوان Ville Hardouin وبرغم إيمانه بقدسية هذه الحملة فقد أطنب في وصف فظائع اللاتين في القسطنطينية . وقد أصاب هو نفسه حظاً وافراً من الأسلاب =

أثار سقوط القسطنطينية أشد الفزع والرعب بين أهل غلطة ، وقد كانت هذه المدينة فى أثناء حصار القسطنطينية تعمل بوجهين ، وتداهن الفريقين المتقاتلين على السواء فكانت تقدم معونتها إلى الفاتح وتفشى إليه أسرار الروم وفى نفس الوقت كانت تفشى إلى الروم أسرار الأتراك وترسل جنودها إلى القسطنطينية ليشتركوا فى الدفاع عنها [1] .

وكان السلطان الفاتح يعلم كل ما كانت تفعله غلطة ضده أثناء حصار القسطنطينية ولكنه آثر الإغضاء إلى أن تواتيه الفرصة ، فلما استولى العثمانيون على هذه المدينة رأى حاكم غلطة أن يتفادى من الاصطدام بهم فى حرب لا قبل له بها فبعث إلى السلطان الفاتح فى نفس اليوم الذى سقطت فيه القسطنطينية وفداً يحمل الهدايا ومفاتيح غلطة ويلتمس منه عطفه وأريحيته وطلب الحاكم إلى السكان أن لا يقلقوا ولا يضطربوا ويظلوا هادئين رابطى الجأش وأمر السفن الراسية فى الميناء أن تبقى فى أماكنها ، وكان الحاكم يرمى من وراء ذلك كله أن ينال خير ما يمكن نيله من الشروط والمزايا .

وجاء زغنوس باشا إلى غلطة فأمن أهلها باسم السلطان وهدأ روعهم ، غير أن بعض الناس تسللوا فى جنح الليل وفروا على السفن فغضب السلطان لذلك وذكر للوفد الجنوى

والمغانم وعين مارشالاً لرومانيا وأقطع إقليم مسونوبولي ، وقد كتب عن هذه الحملة مذكرات خاصة نقلها إلي الفرنسية الحديثة الأستاذ ناتاليس دي وايليDewdilly†Hardouin بعنوان فتح القسطنطينيةLa Conquete de Constantinople وهناك تراجم أخري بالفرنسية والإنجليزية ، وتعد هذه المذكرات من الوثائق التاريخية الهامة في تاريخ الحملة الصليبية الرابعة .

ومما كتبه الأستاذ فنلي Finlay بصدد فتح العثمانيين للقسطنطينية قوله :

The Sultan rode straight to the Church of St . Sophia, where he gave the necessary orders for the preservation of all the public buildings. Even during the licence of the sack, the severe education and grave character of the Othomans exerted a powerful influence on their conduct, and on this occasion there was no example of the wanton destruction and wilful conflagration that had signalized the latin conquest .

ويري الأستاذ بيرز أن الحملة الصليبية الرابعة كان لها أبعد الأثر في إضعاف القسطنطينية وتمهيد السبيل للفتح العثمانى : Pears, The Destruction of the Greek Empire.

(1) فريدون بك منشآت السلاطين .

Heyd, Histoire du Commerce. Schlumberger op. cit .

أنه كان على علم تام بأعمال غلطة ومعاونتها لأهل القسطنطينية أثناء الحصار وإن ذلك نقض للعهد وخروج على الحياد فطلبوا الصفح من السلطان وتضرعوا إليه فى ذلك حتى رضى وعفا عنهم وأمن أهل غلطة على حياتهم وأموالهم ، وأصدر زغنوس باشا فرماناً فى هذا الأمر باسم السلطان ضمن لهم فيه حرية العبادة وبقاء كنائسهم وأن تكون لهم إدارتهم الداخلية الخاصة وينتخبوا حاكمهم بأنفسهم وضمن لهم كذلك حرية التجارة فى جميع أرجاء الدولة العثمانية براً وبحراً على أن يدفعوا جزية سنوية وتهدم أسوار مدينتهم ، وبعد خمسة أيام من فتح القسطنطينية زار السلطان الفاتح مدينة غلطة فنزع عنها جميع الوسائل التى قد تغريها أو تعينها على العصيان والثورة ، فجردها من السلاح وهدم أسوارها من ناحية البر لتكون مفتوحة أمام الجيوش العثمانية وأبقى على أسوارها من ناحية البحر .

ووجد السلطان الفاتح كثيراً من البيوت والمحلات خاوية قد هجرها أهلها وأصحابها ، فأمر بإحصاء هذه الأملاك وتقييدها فى دفتر خاص لكى لا يضيع منها شىء ، وبعث رسولاً خاصا ومعه رسالة من الحاكم الجنوى إلى الجنويين الذين فروا إلى جزيرة خيوس يدعوهم إلى الرجوع إلى غلطة حيث تعاد إليهم جميع أملاكهم وأمهلهم ثلاثة أشهر ، فإن عادوا خلال هذه المدة أعيدت إليهم جميع أملاكهم ومتاجرهم وأمتعتهم وإلا أصبحت ملكاً للدولة .

وقد كان فقد كانت مستعمرة غلطة من أسوأ المستعمرات بسبب ما نزل بها من الكوارث بجمهورية جنوا فضاعفت نشاطها وجهودها فى محاربة الدولة العثمانية وأخذت تؤلب دول أوروبا لشن حرب صليبية عامة عليها [1] .



(1). Mirmiroglu, Fatih Sultan Mehmet ll devrine ait vesikalar Hammer op. cit

الفصل الخامس

صدى استيلاء العثمانيين على القسطنطينية فى العالم - الشعور بالفزع والألم والخزى فى الغرب - شاعر من نصارى الشرق يهيب بالعالم النصرانى إلى قتال العثمانيين - تحول الفكرة الصليبية من قتال العثمانيين إلى قتال جميع المسلمين - الفرح والابتهاج فى الشرق الإسلامى - مؤرخ مصرى معاصر يصف أفراح الناس بمصر - رسائل البشارة والتهنئة بين السلطان الفاتح وملوك المسلمين - فتح القسطنطينية بداية التاريخ الحديث .

كان لسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك دوى عظيم فى العالم ، ولكن اختلف وقعه وأثره فى الغرب عن وقعه وأثره فى الشرق ، أما النصارى فى الغرب فقد صعقهم نبأ هذا الحادث وانتابهم شعور بالفزع والألم والخزى وتجسم لهم خطر المسلمين وتهديدهم لأوروبا النصرانية وتوجسوا أن يكون انتصار محمد الفاتح بداية لتوغله فى أوروبا فأخذوا يتتبعون خطواته وحركاته بقلق واهتمام ، وعظمت فى أعينهم أهمية القسطنطينية وخطورة قيمتها .

وازداد العثمانيون شهرة فى الناحية العسكرية بعد فتحهم هذه المدينة المنيعة الخالدة ، وقال حاكم غلطة فى رسالة كتبها بعد فتح القسطنطينية بنحو شهر : إن السلطان محمد الفاتح يهدف إلى أن يكون سيد العالم وأنه قبل أن تمضى ستان سيزحف إلى روما ، فإذا لم يأخذ النصارى حذرهم أو تحدث معجزات فإن مأساة القسطنطينية ستتكرر فى روما ، وعبر كتاب معاصرون آخرون عن مثل هذا الفزع ، وقال إينياس سيلڤيوس Aneas Sylvius أمام ندوة فرانكفورت :

إن سقوط القسطنطينية قد جعل المجر مفتوحة أمام محمد الفاتح ، وإذا ما خضعت له هذه البلدة انفتحت له الطريق لغزو إيطاليا وألمانيا .

وبعث أحد شعراء النصارى فى الشرق بقصيدة طويلة الى العالم النصرانى ندد

على أيديهم - في زعمه - من القسوة والاضطهاد والتعذيب والتنكيل ، وحث البابا نيقولا الخامس أن يجمع شمل أمراء النصرانية ويوحد جهودهم ضد الأتراك كما أهاب بهؤلاء الأمراء أنفسهم أن ينهضوا إلى قتال عدوهم المشترك ، ثم ابتهل إلى العذراء ودعا أن يكون النصر للنصارى [1] .

والحق أن النصارى قد انبعث فيهم نوع من الروح الصليبية القديمة ، وتداعى الناس إلي طرح الخلافات والحزازات والاتحاد ضد الأتراك ، وأنحى الكاردينال سنت أنج Saint Ange باللوم على اللاتين وقرعهم على تخاذلهم عن نجدة الروم وألقى عليهم تبعة هذه الكارثة المفجعة . وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية في يد الأتراك وجد في توحيد الدول الإيطالية وتأليبها على قتالهم ورأس مؤتمراً عقد في روما أعلنت فيه الدول المشتركة عزمها على التهادن فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقواها ضد العدو المشترك [2] ، وكاد هذا الحلف الصليبي يتم لولا أن البابا اشتد عليه أثر الصدمة العنيفة من نبأ سقوط القسطنطينية في يد الأتراك وفدحه الهم والكمدومات في 25 مارس 1455 وترك لخلفائه مواصلة العمل فيما شرع فيه .

وكان من أعظم الناس تأثراً باستيلاء الأتراك على القسطنطينية فيليب الطيب دوق بورغنديا وقد كان هذا الدوق بطبعه ذا نزعة صليبية عارمة وكان من أشد الناس تحمساً لقتال الأتراك من قبل سقوط القسطنطينية ، فلما استولى الأتراك على هذه المدينة وجاءه رسول البابا سنة 1453 يستحثه على قتال محمد الفاتح التهب حماساً وحمية واستنفر جميع النصارى إلى هذا القتال وذهب بنفسه إلى ألمانيا يستنهض إمبراطورها فريدريك الثالث الذي وعده خيراً ، وبعث هذا الإمبراطور بدوره إلى ملك فرنسا شاركل السابع كما بعث إليه في نفس الوقت الفرنس ملك أرجونة يحثانه على حرب السلطان محمد الفاتح ، ولم يكن شارل السابع في حاجة إلى مثل هذه الإثارة والتحريض فقد كان يتحفز حماساً وشوقاً إلى قتال الأتراك ولكن كان عليه إذ ذاك أن يواجه عدواً آخر أكثر قرباً وهم الإنجليز فرأى أن ينهي أمره معهم أولاً ثم يتفرغ بعد ذلك للأتراك واكتفى آنئذ بأن عاون في تقوية تحصينات جزيرة رودس التي كان يتوقع أن يغزوها السلطان الفاتح .

---

(1) Nouveau Journal Asiatique.

(2) Sismondi. op. cit.

وأما الدوق فيليب الطيب فإنه ما إن عاد إلى فلاندر حتى أقام حفلة تمثيلية فى مدينة ليل Lille لاستثارة الحمية والحماس دعا إليها نبلاء قومه ، وعرض فى هذه الحفلة منظر يمثل سقوط القسطنطينية واستغاثتها بحماة النصرانية ، وأعلن الدوق بعد ذلك أنه سيسير بنفسه إلى قتال الأتراك ، وحذا حذوه جميع البارونات والفرسان ولم يلبث أن تحولت فكرة القتال ضد العثمانيين إلى القتال ضد المسلمين كافة وغزو بلادهم إمعاناً فى الانتقام وأخذ الثأر لمدينة القسطنطينية (1) . وسنرى فيما بعد الحملات والمحاولات التى قام بها أهل الغرب فى هذا السبيل .

ذلك ما كان من حال النصارى فى الغرب وموقفهم بعد فتح القسطنطينية .

أما النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان الفاتح أو يتاخمونه فى طرابزون وأماصرة والمورة ولسبوس وغيرها فقد اضطرهم قربهم من السلطان الفاتح أن يكتموا شعورهم الحقيقى فتظاهروا بالفرح والاغتباط وبعثوا وفودهم إلى السلطان فى أدرنه لتهنئته على انتصاره العظيم ، وكان فى مقدمة هؤلاء المهنئين رسل حاكمى المورة أخوى الإمبراطور قسطنطين !

أما فى الشرق الإسلامى فقد كان الأمر على عكس ذلك ، إذ عم الفرح والابتهاج بين المسلمين فى ربوع آسيا وإفريقيا لهذا الفتح الإسلامى العظيم ، وما أن وصل رسل السلطان محمد الفاتح إلى مصر والحجاز وفارس يحملون نبأ هذا الفتح حتى هلل المسلمون وكبروا وأذيعت البشائر من منابر المساجد وأقيمت صلوات الشكر وزينت المنازل والدكاكين والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والأقمشة المزركشة المختلفة الألوان ، وأمضى الناس فى هذه البلاد أياماً كأحسن ما تكون أيام الأعياد الإسلامية روعة ورونقاً وبهاء . وأى مسلم كان لا يغتبط وقد تحققت نبوءة كريمة من نبوءات نبيهم الكريم بفتح

---

(1) يقول المؤرخ المصرى ابن تغرى بردى (حوادث الدهور) « وفى هذا الشهر (ربيع الآخر 861 ـ مايو 1457) وردت الأخبار من الإسكندرية وغيرها من بلاد الساحل أن الفرنج عمرت نحو ثلثمائة مركب لغزو سائر سواحل الإسلام من الروم إلى الإسكندرية ودمياط مكافأة لأخذ السلطان محمد بن عثمان اسطنبول من الفرنج خزاهم الله فلم يلتفت السلطان لهذا الخبر لعزة شوكة الإسلام ونصرته ـ إن شاء الله ـ إلى يوم القيامة » والواقع أنه بعد ذلك بقليل وصل إلى الشرق أسطول صليبى وأخذ يغير على المدن الإسلامية فى شواطئ آسيا الصغرى ويخربها ولكنه اقتصر على ذلك ولم يتعداه إلى المدن الإسلامية الأخرى .

القسطنطينية التى استعصت على المسلمين منذ الصدر الأول من الإسلام ؟!

وندع هنا المؤرخ المصرى المعاصر أبا المحاسن بن تغرى بردى يصف شعور الناس وحالهم فى القاهرة بعد أن وصل إليها قاصد السلطان الفاتح ورفقته فى الثالث والعشرين من شوال سنة 857 (27 أكتوبر ـ 1453) بنبأ فتح القسطنطينية ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم ، قال :

« قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء اسطنبول وطلع بهما إلى السلطان (سلطان مصر إينال) وهما من أهل قسطنطينية وهى الكنيسة العظمى باسطنبول فسرُ السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة فى يوم الإثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا فى ذلك إلى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطانى من قلعة الجبل . . »[1] .

ويقول ابن تغرى بردى فى كتاب آخر : « ثم طلع قاصد متملك بلاد الروم ورفقته إلى القلعة من غير أن يحضر القضاة وتمثلوا بين يدى السلطان وقدموا ما معهم من الهدية التى أرسل بها مرسلهم وكانت تسعة أقفاص سمور وتسعة وشق وتسعة قاقم وتسعة سنجاب وتسعة مخمل مذهب وتسعة مخمل ملون بلا ذهب وتسعة شقق أطلس ومماليك نحواً من ثلاثين فقبلها السلطان ورحب به ثم أنزل إلى محل إقامته ومعه رفقته وهم يتفرجون فى الزينة وكانت عظيمة واستمرت أياماً وتغالى العوام فى شأنها مع استمرار دق البشائر فى صباح كل يوم أياماً[2] » .

وهذا الذى ذكره ابن تغرى بردى من وصف احتفال الناس وأفراحهم فى القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت فى البلاد الإسلامية الأخرى ، وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر وشاه إيران وشريف مكة وأمير القرمان ، كما بعث بمثل هذه الرسائل إلى الأمراء المسيحيين المجاورين له فى المورة

---

(1) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .

(2) حوادث الدهور وانظر كتاب تاريخ مصر لابن إياس تجد فيه مجمل ما ذكره ابن تغرى بردى .

والأفلاق والمجر والبوسنة وصربية وألبانيا وإلى جميع أطراف مملكته .

ولم يورد فريدون بك فى كتابه « منشآت السلاطين » ـ الذى يعد سجلاً للمكاتبات بين سلاطين آل عثمان وغيرهم من السلاطين والملوك والأمراء ـ من هذه الرسائل غير التى بعث بها الفاتح إلى سلطان مصر وشاه فارس وشريف مكة وأجوبتهم عليها ، ونحن ننقل هنا بعض هذه الرسائل لما لها من الأهمية التاريخية ولأنها من جهة أخرى تكشف لنا عن نوع العلاقات القائمة فى ذلك الوقت بين الدولة العثمانية وبين هذه البلاد الإسلامية وما يسودها من حسن المودة والصفاء .

رسالة السلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر الأشرف إينال وهى من إنشاء المولى الكورانى :

بسم الله الرحمن الرحيم متيمناً بذكره القديم ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يحمد الله ويثنى عليه عبده المستبشر بالمبشرات المتواترة المتواردة اللاتى ينبئن عن استقرار القدم المقدام على سرير السلطنة السامية الباهرة بالدولة العلية القاهرة ألا وهو السلطان الوالى العالى العالى المؤيدى المظفرى الظهيرى النصيرى العونى الغوثى الغياثى الإمامى الهمامى النظامى الذى أشرقت من أفق التوفيق شمس سلطنته وخفقت راية الاقبال من هبوب نسيم خلافته ويتطأطأ لها أعناق الجبابرة نحو سدته السنية ويتكأكأ أقيال الأكاسرة على عتبته العلية وبه أضحت عقود الإمامة منتظمة وأمور السلطنة ملتئمة ويتفاخر بوصفه المآثر ويختال بذكره المفاخر أعنى الملكى الألطفى السلطان الأشرف ، الأبوى الأعطفى ضاعف الله ـ تعالى ـ ملكه وسلطانه وأفاض على العالمين بره وإحسانه ولا برح فى دولة لاتنهدم دارها ونعمة لا تنفصم آثارها وسعادة لا تصفر أوراقها وسيادة لا تتغير آفاقها وما انفك بنود الدين بباهر صولته مرفوعة وأسنة الحوادث فى نحو أعدائه مكسورة وجماجم حساده على رءوس الأسنة منصوبة وتحت الأقدام مخفوضة ونقول لما تتابعت عندنا الأخبار التى تشتمل على صعود شمس السلطنة على أوج سرير الخلافة أدامه الله وأعلاه وبارك فيه وأبقاه ببركة نبيه المجتبى ورسوله المصطفى عليه وعلى آله من صلة الصلوات أزكاها . ملئنا بهجة وسرورا وغبطة وحبوراً وأنشدنا بلسان صدق . شعر :

هنيئاً لمصر أنت صرت عزيزة * بلوغ الأمانى وابتغاء المحامد**

وتعتدل الأيام فيها ويقتنى * صنوف البرايا منه طرف الفوائد**

فمذ ظهرت فيه علايم بأسكم *** قد التطمت منها رسوم المفاسد

هذا وإن الولاء والمواصلة بين من تكفل بمؤنة إحياء نسك الحج للعباد والعباد وبين من تحمل بمشاق تجهيز أهل الغزو والجهاد كما هو المتوارث من الآباء والأجداد أنعمهم الله بنعمه الموعود فى المعاد فالقلب مصمم على تأييد تلك القديمة بسلوك طرايق تنسى لطائف أخريها بطيب نعيمها لذايذ أوليها فبهذا الحبل المتين نحن ماسكون وعلى هذا الصراط المستقيم المستبين سالكون فشددنا وثاق صدق ذلك المقر العالى أعلاه الله وأسماه وفتحنا أبواب المراسلة وقدمنا أسباب المواصلة وأهدينا طرايف التسليمات السليمات عن شوايب الرياء والرعونات وأتحفنا لظايف التحيات المنورات بنور الإخلاص المجلاة بالولاء والاختصاص المزهرات بصدق الطوية رياضها المترعات من زلال المحبة حياضها ورفعنا الأدعية الصالحة المستجابة والأثنية الفايحة المستطابة والأشواق البالغة ذروة الكمال والأتواق المتوالية بالغدو والآصال وانهينا إلى العلم الكريم محفوفاً بما يسره الله ـ تعالى ـ من المطالب البهية والمآرب السنية إن من أحسن سنن أسلافنا ـ رحمهم الله ـ أنهم مجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تيك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله ـ تعالى ـ (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) ومستمسكين بقوله ـ عليه السلام ـ : من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار فهممنا فى هذا العام عممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل ذى الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاء فى الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفرا التى بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهى بكفرها فخرا ، شعر :

فكأنها حصف على الخد الأغر *** وكأنها كلف على وجه القمر

وهى محصنة صعب المرام شامخة الأركان راسخة البنيان مملوءة من المشركين الشجعان خذلهم أينما كانوا وهم مستكبرون على أهل الإيمان متناصرون بالجزاير الغربية مثل رودس وقطلان ورنديك وجنويز وغيرهم من أهل الشرك والطغيان وحصن محصن مسدد مشدد مشيد منسق النظام ما ظفر به أسلافنا العظام هؤلاء السلاطين الأساطين الفخام مع أنهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلاً وهى قلعة عظيمة مشتهرة فى ألسنة أهل الأرض باسم القسطنطينية ولا يبعد من أن تكون هى التى نطق بها صحاح الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية عليه وعلى آله أتم الصلاة والتحية .

فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقتسمون الغنايم قد علقوا سيوفهم بالزيتون - الحديث . وغير هذا من الصحاح المشهورة هى هذه المدينة الواقع جانب منها فى البحر وجانب منها فى البر فأعددنا لها كما أمرنا الله بقوله : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ كل أهبة يعتد بها وجميع أسلحة يعتمد عليها من البرق والرعد والمنجنيق والنقب والجحور وغيرها من جانب البر والفلك المشحون والجوار المنشآت فى البحر كالأعلام من جانب البحر ونزلنا عليها فى السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة . شعر :

فقلت للنفس جدى الآن فاجتهدى *** وساعدينى فهـذا مـا تمنيت

فكلما دعوا إلى الحق أصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين فأحطنا بها محاصرة وحاربناهم وحاربونا وقاتلناهم وقاتلونا وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوماً وليلة . شعر :

إذا جاء نصر الله والفتح هين *** على المرء معسور الأمور وصعبها

فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من شهر جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشيطان سخرها الحكم الصديقى ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان قد من الله ـ تعالى ـ بالفتح قبل أن ظهـر الشمس مـن مشرقها ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكنود فأهلكوا كقوم عاد وثمود فحفظهم ملائكة العذاب فأوردهم النار وبئس المآب فقتل من قتل وأسر من به بقى وأغاروا على خزاينهم وأخرجوا كنوزهم ودفاينهم ودفاينهم موفوراً فأتى عليهم حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله فلما ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحلوس طهرنا القوس من القسوس وأخرجنا منه الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام وتشرفت تلك الخطة بشرف السكة والخطبة فوقع أمر الله وبطل ما كانوا يعملون .

وبعد ، فكانت فى شط الشرم الذى يكون شماليا منها قلعة إفرنجية جنوزية وهى المحصنة المدعوة بقلعة غلطة وهى جارة لها منسقة النظام مملوءة من المشركين اللئام فلما حاصرنا قسطنطينية جاءنا أهل تلك القلعة وشددوابنا ميثاقهم وجددوا معنا وفاقهم وقلنا لهم كونوا كما كنتم واثبتوا على ما أنتم عليه بشرط أن لا تعينوا بها فقبلوا شرطنا وأطاعوا أمرنا فلما وقع ما وقع على قسطنطينية وجد بين القتلى والأسرى من أهل غلطة وهم قد حاربونا وبدا أنهم نقضوا ميثاقهم

وأظهروا انشقاقهم فأردنا أن نفعل بهم ما فعلنا بالأخرى فبينما هم جاؤوا مبتهلين ومتضرعين وقالوا إن لم ترحمنا لنكونن من الخاسرين فعفونا عنهم إنه هو العفو الغفار ومننا عليهم المنة لله العزيز الواحد القهار وقررنا على ملكهم الملك لله العزيز الجبار ولكن جعلنا حصنهم صعيداً جرزاً بحيث لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ومسكنا أرضهم وماءهم وكتبنا فى جريدة الجزى أسماءهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) شعر :

سعد الزمان وساعد الإقبال *** ودنا المنى وأجابت الآمـــال

فلما جمع الله ـ تعالى ـ بفضله فى قلب عبده زين السرورين العظيمين أحدهما حفظ نظام سرير السلطنة وحماية البلاد والآخر قرة لعين الشرع بإحياء فرض الجهاد وجه تلقاء الأرض المقدسة التى بارك الله فيها بإجراء أحكام السلطنة حامل وقر الثناء وناقل ورق الدعاء فخر الأماجد ذخر المحامد أمير جلال الدين القابونى رزقت عودته بالسلامة بهدية يسيرة من الأسارى والغلمان والأقمشة وغيرها حسبما ذكر مفصلاً فى كتاب غير هذا وإن كانت نسبتها إلى ما وجب علينا كنسبة القطر إلى البحر فالمأمول الإغضاء بحسن القبول فإذا يسر له الله التشريف بتقبيل بساط الخلافة زاد الله بسطة بالعدل والنصر يتأمل ويتمنى أن ينعم بالمشرفات السارة المحتوية بسلامة النفس النفيس الطيبة وصحة الذات المطهرة أبقاها الله فى دولته دينية ودنياوية وبسوانح الأخبار من مهمات السلطنة كما نتشرف بالانتماء إلى ذلك المقر الشريف ونتلطف بالاعتزاء لذلك المجلس اللطيف ونحن نترقب طيبات أدعية تلك المساكن الطيبة والله مجيبها ببركة نبيه المجتبى عليه من التحيات أزكاها الحمد لله على نواله والصلاة على محمد وآله والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب[1] .

***

(1) فريدون بك ـ منشآت السلاطين ـ .

جـواب سلطان مصر

« ضاعف الله ـ تعالى ـ نعم المقر الشريف العالى المولوى الأولوى الكبيرى العالمى العادلى المؤيدى العضدى الكهفى العونى الغوثى الغياثى الملكى السيدى الهمامى النظامى القوامى المظفرى الذخرى الممهدى المشيدى المجاهدى المشاغرى المرابطى الظهيرى الناصرى معز الإسلام والمسلمين ناصرى الغزاة والمجاهدين ملجأ الفقراء والمساكين زعيم جيوش الموحدين ممهد الدول مشيد الممالك عماد الملة حامى الثغور الإسلامية غياث الأمة المحمدية ظهير الملوك والسلاطين عضد أمير المؤمنين ولا زالت أخبار فتوحاته متواترة وركايب نصره فى ساحة الوجود سائرة وعرصة الهيجاء قائمة فالأفلاك الدائرة تجرى بتأييده فيجعل لأوليائه العقبى وعلى أعدائه الدائرة ، أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقر الكريم مهنئة له بهذا الفتح الذى ادخره الله لأيام سعده وهذا النصر الذى من الله ـ تعالى ـ به على المسلمين وما النصر إلا من عنده وتهدى إليه سلاماً طاب نشره وثناء يشنف الأسماع ذكره ونبدى لعلمه الكريم إن مكاتيبه الرفيعة التى جهز إلينا على يد رسوله المجلس السامى الأميرى الكبيرى الذخرى العضدى المؤتمنى الجمالى يوسف القابونى الناصرى أحسن الله وفادته ويسر بالخير إعادته وقفنا عليها وصرفنا وجه الإقبال إليها وسرحنا النظر فى زمر الحمائل من سطورها وشرحنا الخاطر ببديع منظومها ومنثورها ووجدنا لها محلاً من البلاغة عالياً لا يدرك ثناءه الأوهام ومنهلاً من الفصاحة عذباً ازدحمت فيه غرايب المعانى وانتهينا إلى ما أشار إليه مما يسره الله ـ تعالى ـ له من فتح القسطنطينية العظمى وما خصه الله ـ تعالى ـ به من آيات النصر ومنحه به من ألطافه الخفية وفهمنا ذلك مجملاً ومفصلاً ومفرعاً ومؤصلاً وكررنا حمد الله ـ عز وجل ـ على ما من به من هذا الفتح المبين وهذه النعمة التى تتضمن تثبيت قلوب المتقين على اليقين وإعلاء كلمة الموحدين على الملحدين وهذه النصرة التى أصبحت بها كلمة الإيمان منتشرة وجبهة الصادقين مبيضة وشفاه المسلمين ضاحكة مستبشرة ووجوه المشركين عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة وقد أعدنا الجواب عن ذلك وعن جميع ما أشار إليه مفصلاً على يد رسوله المجلس الجمالى المشار إليه أعلاه كما سيحيط به علمه الكريم بعد أن عاملنا بمزيد الإنعام ووافر الاحترام وأفضنا عليه وعلى من معه خلع التشريف والإكرام وأنعمنا عليهم من مائدة الإحسان التام وأعدناهم إلى خدمتهم الكريمة على أحسن الوجوه وأجمل الحالات

وجهزنا صحبتهم الواصل بهذه المكاتبة هو المجلس العالى الأمير الكبيرى المؤيدى الذخرى الأعزى الأخصى المؤتمنى المقربى السيفى برسباى الأشرفى أحد أمرائنا وأوحد أخصائنا كتب الله - تعالى - سلامته وأدام سعادته وحملناه من السلام الوافى والإكرام الكافى ما هو أزكى من نشر الخزام وعن المحب الصافى والود الشافى مالو تجد لكان أصفى من ماء الغمام ومن الصداقة والإخلاص والموالاة والاختصاص ما هو على ذلك شهيد وله مبدىء ومعيد وجهزنا على يده من الهدية ما يؤكد أسباب الوداد والمحبة ويوثق عرى الاتحاد والصحبة كما هو دأب السالفين الأقدمين من الحكام والسلاطين وهى هذه :

سيف	يمجا	دبابيس	جوفلان
سقط ذهب وبدل مكاكين	سقط ذهب	يرد غانيات	مخمل أحمر بمسمار
من سمك وسيولق	عا	وأطبار فولاد	ذهب
مكسر	كسطوان	سرج	قماش اسكندري
مخمل أحمر بصفايح ذهب	مخمل أحمر بمسمار	ذهب وعرقية	قطعه
سقط ذهب خاص نح حا	ذهب	زركش خاص	
كمحا	بندتي	تفاصيل اسكندري	خيول
	لهوسة	أحد وثلثون	خاص ثلثه
أفيال	حمار وحشي	رطل	مموله حجون
2	واحد	زجاج ضمنها دهين ثاثان	1 2

فالمقر الكريم يأمر بتسليم ذلك وقبوله ويشمل قاصدنا المشار إليه بحسن النظر ومثوله ويواصل بأخبار المسرات وما يعن له من المهمات لتيسير الموافاة من الجهتين كما كان بيننا وبين آبائه العظام وأجداده الكرام أنار الله براهينهم مع الاتحاف بالمودات والإهداء بالمصافات والله - تعالى - يمتع الإسلام ببقائه ويجعل قواضيه القاضية فى أعدائه محكمة حتى يصبح جنود الملة المحمدية بتوالى فتوحاته منصورة الأعلام ويصير البلاد كلها بعزماته دار السلام إن شاءالله الملك العلام . كتب فى العشرين من شهر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وثمانمائة من الهجرة النبوية » [1]

---

(1) فريدون بك منشآت السلاطين .

رسالة السلطان الفاتح إلى شريف مكة

(وقد أرسلها إليه عن طريق سلطان مصر)

« الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أدام الله علو المقر الكريم السيدى السندى الشريفى الأشرفى الأكرمى الأعلمى الأورعى النظامى الأمامى الهمامى الأوحدى الأمجدى العالى العاملى الأعظمى الأولوى الأعلوى العلوى المشيدى المؤيدى النصيرى الظهيرى الظاهرى الطاهرى معلى قواعد الموسم والحرمين حامى مشاهد البقاع الشريفة والمروتين مؤسس مواسم العظمة والجلال مؤكد معاقد المقاصد والأمال مطلع لوامع العز والتمكين مظهر مآثر الملك والدين فلذة أكباد الرسول زبدة أحفاد البتول أمير المسلمين وولى المؤمنين خلاصة أولاد شفيع المذنبين وهو السيد الشريف والقرم المنيف سلطان بيت الله ـ تعالى ـ شرفه الله وحواليه علاء الدولة والملة والدين السيد الأحسنى العجلانى الحسنى زاد الله ـ تعالى ـ سعادته وأدام سيادته ولاخلا فى دولة لا ينهدم دارها ونعمة لا ينفصم آثارها ولا زالت أسباب مودته ومحبته مؤكدة وعقود موالاته وهمته منتظمة منضدة مدى الدهور والأعوام بحرمة سيد الأولين والآخرين وآله وصحبه أجمعين الطيبين الطاهرين عليه أفضل الصلاة والسلام ، وبعد فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشراً بما رزق الله لنا فى هذه السنة من الفتوح التى لا عين رأت ولا أذن سمعت وهى تسخير البلدة المشهورة بقسطنطينية الملاصقة بمرج البحرين وفى مقابلتها مدينة أخرى موسومة بغلطة وفى جانبها الشرقى بلدة أخرى معلمة باسكدار . أما الأولى فكأنها ثعبان له سبع رءوس من قللها المشتهرة وتلك القلل سبع رواسى شامخات حصينة رفيعة مهيأة بأمر الله ـ عز وجل ـ لمقر الخلافة الإسلامية ومرزوقة لنا بتقدير الحكم السبحانية ولا شك أنها سلطان البلاد ، والأخريان من جنبيها يميناً وشمالاً كخادمين فى طرفى السلطان فلما توجهنا وعزمنا عليها هجم علينا الكفار المملوءة فيها خارجا وداخلا وحاربوا معنا فقام المحاربة بيننا وبينهم قريب شهرين بعد إبائهم عن إعطاء الجزية الشرعية ثم عجزوا عن القتال وهربوا من الجدال فازدحم أهل الإسلام وجاهد كل من المجاهدين عن البر والبحر حق الجهاد فقربوا من السور وصعد جم كثير من الكماة الموحدين فوق منافذ جدرانها المندرسة من المنجنيق والعرادة فدخلوا فى نفس هذه البلدة المتبركة المنورة بقدوم الموحدين بالتكبير والتهليل يوم

الثلثاء والعشرين من شهر جمادى الأولى فقطع فى مبدأ الأول رأس رأس هذه الملاعين أعنى التكفور اللعين أو لحق بجهنم مع سائر المقتولين من المشركين فخربوا دورهم وكسروا صلبانهم وأغاروا على خزاينهم وأموالهم وأسروا ذراريهم وصبيانهم وجعلوا معابدهم القسيسية مساجد الأمة المحمدية وجمع الملة الأحمدية وطهر تلك المواقع عن الأرجاس الرهبانية والأنجاس النصرانية ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وأما بقية السيوف فعفونا عنهم وقطعنا عليهم الجزية السنوية سعياً لبيت المال فلما تشرف منابر الخطب بشرف ألقابنا العلية الباهرة وتزين وجوه الدراهم والدنانير المسكوكة بزينة أسمائنا الجلية الطاهرة جهزنا إلى خدمتكم الشريفة فخر المقربين وزين حجاج الحرمين خواجه حاجى محمد الزيتونى حفظه الله فى الذهاب والإياب ورزقه الوصول والمعاودة بالخير والصواب لتبليغ الرسالة وترسيل البشارة ، فالمأمول من مقر عزكم الشريف أن يبشش بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى مع سكان الحرمين الشريفين والعلماء والسادات والمهتدين والزهاد والعباد الصالحين والمشايخ الأمجاد الواصلين والأئمة الأخيار المتقين والصغار والكبار أجمعين المتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام التى كالعروة الوثقى لا انفصام ، والمشرفين بزمزم والمقام والمعتكفين فى قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام داعين لدوام دولتنا فى العرفات متضرعين من الله نصرتنا أفاض الله علينا بركاتهم ورفع درجاتهم بالنبى النبيه وآله وذويه وبعثنا مع المشار إليه هدية لكم خاصة ألفى فلورى من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة وسبعة آلاف فلورى أخرى للفقراء منها ألفان للسادات والنقباء والألف للخدام المخصوصة بالحرمين والباقى للمتمكنين المحتاجين فى مكة المعظمة والمدينة المكرمة زادهما الله شرفاً ، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم وإشعار كيفية السير إلينا وتحصيل الدعاء منهم لنا دائماً باللطف والإحسان إن شاء الله - تعالى - والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية إلى يوم الدين آمين يارب العالمين ، وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه أجمعين » [1].

(1) فريدون بك ، المرجع السابق .

رسالة سلطان مصر إلى السلطان محمد الفاتح ينبئه أنه أبلغ رسالته السابقة إلى شريف مكة وما أحدثه نبأ فتح القسطنطينية فى مصر من الفرح والابتهاج .

« أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالى الكبيرى العالمى العادلى المجاهدى المرابطى الغياثى الممهدى المشيدى الزعيمى الظهيرى الناصرى معز الإسلام والمسلمين ناصر الغزاة ذخر المجاهدين ملجأ الفقراء والمساكين زعيم جيوش الموحدين ممهد الدول مشيد الممالك حامى الثغور الإسلامية غياث الملة المحمدية ملك الملوك والسلاطين عضد أمير المؤمنين وهنأ بهذا الفتح الذى جاء الإطناب فى بلاغته وجيزاً وابتهل كل موحد به وأعلن بسورة الفتح وتلا ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾لازالت وجوه النصر ترى فى مرآة صفاحه وثمرات النضر تجتنى من أغصان رماحه وفروض الجهاد بسيوفه المسنونة فى كل وقت تقام وبلاده الإسلامية محروسة بالجناب المحمدى ـ عليه السلام ـ وهمزات عوامله بصدور الكفار موصولة وألسن سيوفه بثغور بلادهم من رشف إرحاق دمائهم مبلولة وهم أبطاله منتظمة فى نصرة دين الله كالعقد النظيم ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ولا برحت عزماته تحلى من أعداء الإسلام المقاعد وتحل منهم المعاقد وتحلو عليهم مواقف الحرب مستعرة المواقد وتطلع فى سماء النقع من سيوفه نجوماً وقادة وتنشهد على الكفار فى محضر الغزو ما يعجز وكيف وذاك الموطن محل الشهادة فهو بحمد الله ما سلك خلف الكفار برا إلا قالوا ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ ولا خاض عباب بحر ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقر الكريم معربة عما نحن منطوون عليه من التهانى بهذا الفتح الذى وضح على جبين الصباح بشره ورجح على ميزان الكواكب قدره ونخصه بسلام يتأرج عرفاً ويتبلج وصفاً ويكاد يمازج النسيم لطفاً وثناء جلل ملابس الإكرام وأضفى وأعذب موارد الوداد وأصفى قد اتخذ نفحات المسك طليعة وأجمل لرداء الملك تفويفه وتوشيعه وانتشر به بناء الحب الذى استودعه من الصدور الرسائل بحفظ الله هذه الوديعة ونبدى لعلمه الكريم ورود كتابه الكريم وخطابه الذى أزرى بالدر النظيم على يد المجلس السامى الأميرى الكبيرى الأوحدى الأكملى المؤتمنى المقربى الجمالى يوسف

القابونى الناصرى أحسن الله وفادته ويسر إلى المقر الكريم إعادته فأكرمناه حين قابلناه ورفعنا محله لما تناولناه واستنشقنا المسك لما فضضناه وابتهجنا ابتهاج الظمآن بوروده ونظرنا منه إلى أحسن من برود الروض إذا حل الندى أزرار وروده فشممنا مخايل النصر من سطوره ونزهنا النواظر فى رياض منظومه ومنثوره وتلمحنا من خطه وخطابه ما هو أزهى من زهر الخمايل عند مر النسيم ، ووجدناه مشتملاً على أنواع البراعة محاوش الرقيم محتوياً على بديع الألفاظ التى سحبت ذيل البلاغة على سحبان فى الزمن القديم متضمناً بما من الله به ويسره على المقر الكريم من هذه النصرة على أهل الكفر والعناد وبلوغه من إرغام أعداء الله ورسوله بنى الأصفر أقصى المراد وانتهينا إلى ما أشار إليه من مسيره على القسطنطينية العظمى بعساكره الإسلامية وجنوده المحمدية وأنهم أحدقوا بها فكانوا لها أصفاداً وزلزلوا أرضها بجياد خيل وقفت صابرة فكانت أوتاداً وأنه أرسل إليها فى البحر جوارى كالأعلام ومدلها فى اللج سوائر كأنها معلقة بالأيام ورماها بفرسان من البر وأقدم على منازلها بمن أطاع الله وبره وخطبها بكراً فتمنعت وأطالت فى التجنى فترفعت فلما تحققت عظم أمرها فى النفوس ورأت كثرة ما ألقى إليها من نثار الرءوس جنحت إلى الأحضان بعد النشوز إذ علمت أن الامتناع من قبول الإحسان لا يجوز فأمكنت زمامها من يد خاطبها وأمتعته على رغم أنف مراقبها وأنشد لسان الحال شعر :

خطبتها بكراً وما أمهرتها ... إلا قنا وقواضبا وفوارسا

من كانت السمر العوالى مهره ... جلبت له بيض الحصون عرايسا

الله أكبر ما جنيت ثمارها ... إلا وكان أبوك قبلك غارسا

هذه كلها بعزايم لم يشبها فى الحرب نكول ولا تقصير فكان بحمد الله جمعه جمع سلامة وجمع الأعداء جمع تكسير فأخذهم أخذ القرى وهى ظالمة وأعلمهم أن السيوف الإسلامية لم تترك لهم بقوة الله يداً فى الحروب مبسوطة ولا رجلاً فى المواقف قائمة فزلزل بعون الله أقدامهم ونكس أعلامهم وقابل العدو بصدره وقاتل حتى أفنى حديد بيضه وسمره وهبت نسمات النصر على جيوشه فقيل يا خيل الله اركبى وبأيد النصر اكتبى وقام الحرب على ساق وأضحى كل من الأعداء إلى حتفه يساق وهجرت سيوفهم الأغماد وأقسمت أنها لا تقر إلا فى الرءوس والأسنة أسرعت وآلت أنها لا تروى ظمأها إلا من

دماء النفوس ، والسهام قد التزمت أنها لا تلج كنايتها إلا من النحور ولا تعص عن حنايا القسى بخبايا الأضلع إلا لترفعها لا تحل إلا فى الصدور ، والدروع قد لزمت الأبطال قائلة لا نفارق الأبدان حتى تتلى سورة الفتح المبين والجياد حرمت وطىء الأرض وقالت لفرسانها لا نطأ إلا جثث القتلى ورءوس الملحدين فعند ذلك أثبت سيفه الناصر الحق لأنه القاضى فى ذلك المجال ونفذت سهامه لأجل تصميمه فلم تمهل حتى أخذت دين الآجال وهو حال . شعر :

الله أكبر هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لا ما يزعم البشر

فطهر الله منهم تلك الديار وسلموا عندما أيقنوا بالدمار وصارت بحمد الله نجوم الضلال آفلة ومواطن الكفر بالإسلام آهلة وعن الأذان يعرب حيث كان الناقوس يضرب وأصوات حماتكم الإسلامية بالتكبير والتوحيد بها عالية فقد فهمنا ذلك وحمدنا الله ـ تعالى ـ وقابلنا هذه البشارة بتكرار الشكر لله الذى جعل جيوش الإسلام حيث سلكت ملكت وأين حجت من بلاد أسرت وفتحت ، لله الحمد الذى أيدكم بنصره وجعل مهابة جيوشكم فى قلوب الكفرة تقوم مقام هزيمة العدو وحصره وظفركم على حزب المشركين الذين زعزع هيبتكم دانيهم وقاصيهم وأنزل الذين ظاهر وهم من أهل الكتاب من صياصيهم وسدد سهم رأيكم الذى دل على هلاك العدى سرعة نفاذه ووعدكم مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وحكمكم فى بلاد العدى لتنشروا بها المهابة وتطئوها ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأرضاً لم تطؤها ولقد أيدتم هذا الدين المحمدى الذى وضح به طريق النجاة واستنار وفزتم بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ « ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار » وقوله ـ ﷺ ـ « إن الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » رواه البخارى ومسلم ـ رضى الله عنهما ـ

فله الحمد على ما أنعم به عليكم من الغزوات التى سطرت أجورها فى صحايفكم وصحايف أسلافكم الكرام وصار خبرها غرة فى جبهة الدهر وحسنة فى صحيفة الأيام ولقد أنشد شاعر حضرتنا :

كذا فليكن فى الله جل العزايم وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جيادها إذا ما تهادت موجه المتلاطم

تحيط بمنصور اللواء مظفر ... له النصر والتأييد عبد وخادم
فياناصر الإسلام يا من يغزوه ... على الكفر أيام الزمان مواسم
تهن بفتح سار في الأرض ذكره ... سرى الغيث يحدوه الصبا والنعايم*

فعند ذلك أمرنا بإعلان البشاير وإظهار الزينة والسرور بممالكنا الشريفة لما من الله به من هذه النصرة وأمددناكم بصالح الدعاء مع تضاعف المسرة وأضحى المسلمون مستبشرين بهذه النعمة التى تسربل كل واحد منها بأبهى لباس وتلا كل منهم ذلك من فضل الله علينا والناس وجهزنا أمينكم مفخر الحجاج والزوار زين الدين حاجى محمد الزيتونى زاد الله تقواه ويسر مناه مع الأفلوريات المسكوكة بالسكة الجيدة الجديدة السلطانية المنبعثة إلى شريف مكة المكرمة وفقراء الحرمين الشريفين مع القافلة المصرية فالمرجو من الله أن يصل إلى المقصود وبالخير سيعود إن شاء الله ـ تعالى ـ ، وأما ما أشار إليه الكريم من سروره وابتهاجه بجلوسنا على سرير ملكنا الشريف وإذعان جميع الرعايا لطاعتنا وأمرنا المنيف من المشروف والشريف وأنه أخذ بالحظ الوافر من هذه البشرى التى خصت الإسلام وعمت أمة سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنه أمدنا بدعائه أن الله يشد أزر سلطاننا ويشيده ويجعل ألوية ملكنا الشريف مسبلة على مقامنا ويخلده وما أشار إليه من أنه عاقته هذه الغزوة الشريفة عن المكاتبة والابتداء بالمخاطبة ليتحقق بخواطرنا الشريفة تأكيد أسباب الوداد وتصحيح علل الاتحاد فقد فهمنا ذلك ونتحقق أن المحبة لنا من هذا البيت الكريم مستديمة والمودة بيننا وبينه كالأسلاف الكرام مستقيمة وقد تواردت الخواطر منا ومنكم على عقود المحبة بجميل الاعتقاد وتأكد المودة بعزيز الخلوص والوداد ، وأما الهدية التى شرفنا بارسالها فقد وصلت وبالاقبال قوبلت وشكرنا صدق محبة مهديها وأثنينا على جميل موالاته التى لم تزل فى ملأ ملكنا نبديها وقد أعدنا المجلس السامى الجمالى قاصدكم إليه بعد أن عومل بمزيد الإكرام ووافر الإحسان وغرر الاحترام وأرسلنا معه أحد أمرائنا وأعز أخصائنا المجلس السامى الأميرى الكبيرى الذخرى المؤتمنى الأخصى الأكملى المقربى الأوحدى السيفى بروندق الأشرفى أدام الله سعادته وكتب سلامته بما على يده من كتابنا الشريف وخطابنا المنيف والهدايا والتحف التى تؤكد أسباب الوداد وجميل المصافات والاتحاد وحملناه من السلام للمقر الكريم ما يتبسم ثغر الدهر عند أداءه ويسفر وجه البشر عند إبدائه وسيحيط علمكم الوسيع بما تحملناه من ذلك فتتحف بتجهيز رسله وأخباره

السارة من هناك والله ـ تعالى ـ يمده بأعوانه وأنصاره ويخلد نعمه عليه بدوام ليله ونهاره بمنه وكرمه .

كتب فى أواخر شهر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وثمانمائة من الهجرة النبوية على واضعها السلام [1]

(1) فريدون بك المرجع السابق .

جواب شريف مكة إلى السلطان محمد الفاتح

« يقبل الأرض فى حضرة السلطانى المخدومى المظفرى المنصورى المجاهدى المرابطى الأعظمى المؤيدى المشيدى العنوى الغوثى النصيرى الناصرى معين الإسلام والمسلمين سلطان الملوك والمسلمين نور عيون المجاهدين نور حدايق لطف الله فى الأرضين قهرمان الماء والطين محى الشريعة المحمدية منجى الملة الأحمدية الفايق على أسلافه فى الغزو والجهاد المباهى بين أقرانه بالفتوح وتسخير البلاد الذى يفتخر بعهده الشريف السوابق واللواحق من آل عثمان المشرف بتشريف ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ لازالت أولياؤه منصورة وأعداؤه مقهورة وحصون الخصماء بصلابته مفتوحة ونواحى بلدانهم ودريارهم بمهابته مضبوطة وما برحت نواحى أحياء دولته فى غداة غزواته مبيضة وشفاههم ضاحكة مستبشرة ووجوه المشركين عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة وعساكره المنصورة مؤيدة من عند الله العزيز المجيب وأعلام نصره منتشرة بكتاتيب ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ ما قرت الغبراء قرارها وذارت الخضراء أدوارها بالنبى النبيه وآله وذويه ، وبعد يبدى لعلمه العالى أعلاه الله وأدامه بالدولة الأبدية والسعادة السرمدية إن مشرفتكم الشريفة ومبشرتكم المنيفة وردت إلى مخلصه الداعى بالإخلاص ومحبه المباهى بالاختصاص على يد فخر الزوار وزين الحجاج خواجه حاجى محمد الزيتونى زاد الله تقواه وجعل أخراه خيراً من أولاه فى أحسن الأوقات وأطيب الساعات فاستقبلناها بالتعظيم وقبلناها بالإجلال والتكريم وفتحناها بكمال الأدب وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب فرأينا فيها من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين وما هى إلا فتح القسطنطينية العظمى وتوابعها التى متانة حصنها مشهورة بين الأنام وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام وحمدنا الله تعالى بتيسير ذلك الأمر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير حمداً يوافى نعمه وشكراً يكافئ كرمه على أن أداءها فريضة مشكلة وإحصاءها خارج عن الطاقة البشرية وقرين بالعذر والتقصير راجين الإعانة منه فى طاعته إنه على ذلك قدير حسب ما ورد فى الأخبار من الأخيار أن اعتراف العبد بقصور خدمته لمولاه عند الغفلة

سهواً أو من عدم الاقتدار سعياً معدود من أحسن العبادات والقبول موقوف على رضائه حال التضرع فى الخلوات .

اللهم يارب الكعبة والعرفات ويا نور الأرض والسموات أنصر من نصر الدين واحفظ من حفظ المسلمين واكتب السلامة على كافة الغزاة وعامة المجاهدين والحجاج والمسافرين فى برك وبحرك يارب العالمين وفرحنا بها نهاية المسرة وبششنا بذلك غاية البشاشة وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم العظام والسلوك بمسلك أجدادكم الكرام روح الله أرواحهم وجعل أعلى غرف الجنان مكانهم فى إظهار المحبة لسكان الأراضى المقدسة من الفرق الإسلامية عملاً بمدلول والحب يتوارث واهدائكم لنا ولسائر السادات والفقراء والصلحاء والعلماء المسرورين بما قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« **خيار أمتى قوم يضحكون جهراً من سعة رحمة ربهم ويكون سراً خوف عذاب ربهم بالغداة والعشى فى البيوت الطيبة يدعون بألسنتهم رغباً ورهباً ويسألون بأيديهم خفضاً ورفعا مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم كثيرة** » الحديث . تسعة آلاف فلوريات الجديدة بالسكة المحمدية من أنفال تلك البلدة العظيمة المعينة تقسيمها فى مراسلتكم اللطيفة فعملنا بحسب الإشارة الشريفة فقبض كل واحد من المستحقين كل القبض وقال الناظرون عليها النرجس الأصفر خير من الأبيض وامتلأت أكف الفقراء من الذهب الأصفر فصاروا كطالى الأكسير الواصلين إلى الكبريت الأحمر داعين لكم بخلوص الجنان راجين قبوله من الله الملك المنان كما قال ـ عليه السلام ـ « **دعاء المحسن إليه للمحسن لا يرد** » حامدين الله على أنعمه فى الأيام وساعاتها عملاً بما قال ـ عليه السلام ـ « **الحمد على النعمة أمان من زوالها** » والمسؤول من فضل الله الكامل أن ينالكم خير الدارين العاجل والآجل كما نقل عن النبى ـ ﷺ ـ : « **جنة عدن فى السماء العليا لا يدخلها إلا نبى أو صديق أو إمام عادل** » آخر الحديث ، والملتمس من جنابكم السامى أن يحيط علمكم على أموال فقراء هذه الديار بالأصل والفرع ويزيد لطفكم على الضعفاء المتمكنين بواد غير ذى زرع ابتغاء لمرضات الله يوم معاده كما قال ـ عليه السلام ـ « **خصلتان ليس فوقهما شىء من الخير الإيمان بالله والنفع لعباده** » وبعثنا مع الحاجى زين الدين المشار إليه قدوة الصلحاء والمتورعين مولانا نجم الدين السيوطى زاد الله تقواه لينوب منابنا فى تقبيل سدتكم السنية ، وتلثيم عتبتكم العلية ، واتحفنا لخدمتكم برقع باب مكة المعظمة والأقمشة الهندية المنوعة سبع طقوزات وعشرين شاشاة المبلولة بماء زمزم ورأس رمكة معلمة طائرة فى الهوا كحمامة الحرم فالمرجو من نواب أبوابكم العالية الإنعام

بالقبول والعذر عند كرام الناس مقبول ، أدامكم الله وأيدكم بالدولة القاهرة والسلطة الباهرة إلى يوم الدين آمسح » [1] .

ورسالة السلطان الفاتح إلى شاه فارس وجواب الأخير عليها لا يختلفان كثيرا عن الرسائل المتقدمة [2] .

اصطلح المؤرخون على اتخاذ فتح الأتراك للقسطنطينية فى 29 مايو 1453 م بداية للتاريخ الحديث ومن الجلى أن حوادث التاريخ سلسلة متصلة الحلقات يأخذ بعضها بعض يؤثر سابقها فى لاحقها ويتأثر لاحقها بسابقها ، ولكن من أحداث الزمن أحداثاً تميزت بالعظم والبروز والبهر تقف فى هذه السلسلة الطويلة من تاريخ الإنسان أعلاما بارزة فتتخذ محطات أو فواصل بين عهد وعهد ، كما أن من طبيعة الإنسان الميل إلى تقسيم المسافات الطويلة وتجزئة المراحل الشاسعة تحديداً للنظر وتسهيلاً للدرس .

وقد كان فتح القسطنطينية سنة 1453 من أعظم الحوادث شأناً فى تاريخ الإنسان وأبعدها أثراً فى مصايره وتطور حياته إذ هاجر بعده كثير من علماء الروم إلى الغرب وبخاصة إيطاليا ونشروا فيها معارف اليونان القديمة وكان ذلك من بواعث النهضة الحديثة فى أوروبا ولو أن هؤلاء العلماء بقوا فى مواطنهم بالقسطنطينية واليونان للقوا من السلطان الفاتح من التقدير والتشجيع أضعاف مالقوا من أمراء أوروبا وسنرى فيما يأتى من صفحات هذا الكتاب عظم رعاية الفاتح للعلوم والفنون وتوافد العلماء إليه من الشرق والغرب .

ومهما يكن من شىء فإن السلطان الفاتح بفتحه القسطنطينية قد خلد اسمه فى التاريخ يذكره الدارسون والمتعلمون إلى آخر الدهروإن اختلفت نظرة الإسلام والنصرانية إليه واختلف تقدير الشرق والغرب له .

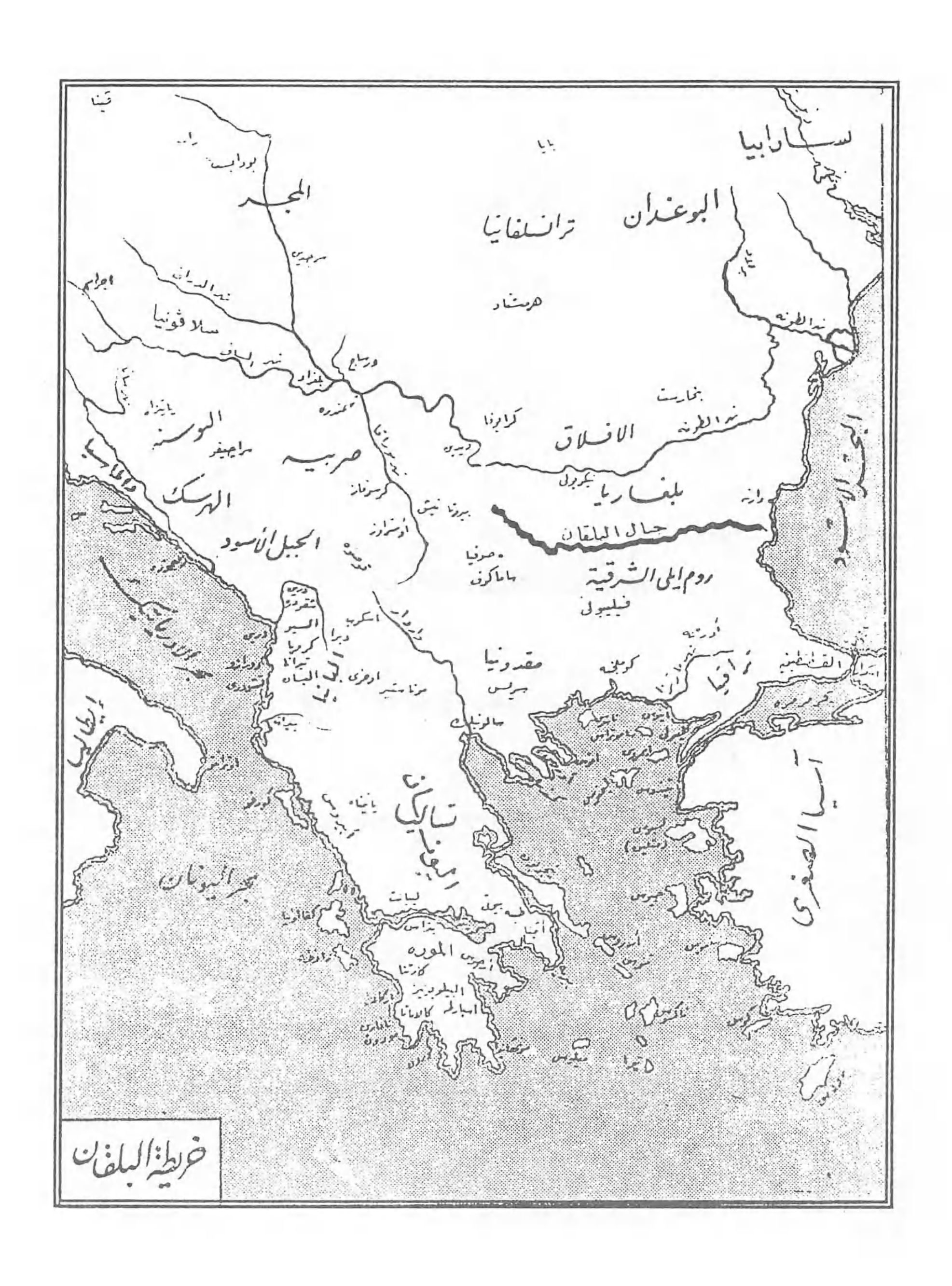
وبعد ، فإن المسلم ليدخل اليوم فى مسجد السلطان محمد الفاتح باسطنبول فيكون أول ما يروعه من هذا المسجد جبينه الوضاح الأبلج وقد نقش عليه هذا الحديث الكريم : « لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش »

فتخشع نفسه ويخفق قلبه وتطوى فى ذهنه آماد الزمن وتمر به الذكر بين محمد بن عبد الله الذى أنطقه الوحى بهذا الحديث وبين محمد الفاتح الذى حقق هذا الحديث فلا يملك إلا أن يقول : سبحانك ربى أية معجزة قد تمت ! .

(1 ، 2) فريدون بك ـ المرجع السابق ـ .

القسم الثانى

فتوحات وأحداث سياسية وحربية فى أوروبا



خريطة البلقان

الفصل الأول

فتح صربية والبوسنة والهرسك

توطد سيادة العثمانيين فى البلقان بعد فتح القسطنطينية ـ حاكم صربية يظهر الصداقة ويبطن العداوة ـ خروج الفاتح بجيشه واحتلال نوفوبردة ـ البابا كاليكست الثالث يشرع صلاة التبشير ويدعو إلى شن حملة صليبية على العثمانيين ـ حصار بلغراد وفشله ـ ابتهاج النصرانية ـ وفاة برنكوفيتش والتنازع على الملك من بعده ـ صربية ولاية عثمانية ـ التنافس على العرش فى البوسنة ـ استنجاد ملك البوسنة بالبابا ـ عمامة المفتى خير من قبعة الكاردينال ـ سهولة فتح البوسنة وإقبال اليوجوميل على الدخول فى الإسلام ـ فتح الهرسك.

بعد أن انتهى السلطان الفاتح من فتح القسطنطينية وأخذ فى أسباب التعمير والبناء فيها عاد إلى أدرنة حيث استقبل استقبال الظافر المنتصر ومكث هناك بعض الوقت ثم ذهب إلى بروسه للاستجمام واستجماع القوة قبل أن يستأنف حروبه وفتوحه .

وقد كان فتح القسطنطينية حدثاً عظيماً بعيد الأثر فى مصاير الدولة العثمانية بأوروبا ، لقد كانت للعثمانيين سيادة على كثير من أجزاء البلقان ولكنها كانت سيادة مزعزعة تقوى حيناً وتضعف حيناً ولكن بعد أن وضع الفاتح يده على القسطنطينية مفتاح أوروبا الشرقية بل مفتاح العالم تيسرت الطريق وتوطدت سيادة العثمانيين ، وبدأت حقاً إمبراطوريتهم فى أوروبا وسهل على الفاتح فتح البلاد الصربية واليونان والأفلاق والقريم والجزر الرئيسية فى الأرخبيل وتم ذلك كله خلال بضعة وعشرين عاماً ولم يزد خلفاؤه شيئاً ذا بال على فتوحاته بأوروبا .

وكان أول هدف قصده الفاتح بعد القسطنطينية هى صربية ، والحق أنه ليس أنكد على الدولة الصغيرة من أن تقع بين جارين كبيرين متعاديين يسعى أحدهما إلى البطش بالآخر وتصبح بذلك بين المطرقة والسندان يصيبها الشر من كل جانب .

كذلك كانت حال صربية فقد صاقبتها من الشرق الدولة العثمانية الإسلامية وصاقبتها من الغرب الدولة المجرية الكاثولكية ، ولم يكن الصرب أقل تعصباً وتمسكاً بالأرثوذكسية من الروم ، وكانت بعض أجزاء من صربية تحت سيطرة العثمانيين وبعض أجزاء أخرى تحت سيطرة المجر ، وكانت إذا جاءها الخطر من قبل العثمانيين لاذت بالمجر وإذا جاءها الخطر من جهة المجر لاذت بالعثمانيين ، وكان أمير صربية إذ ذاك جورج برنكوفيتش (يسميه الأتراك يوركى) ، وبالرغم من أنه كان يدفع الجزية للعثمانيين لم يكن فى الحقيقة مخلصاً فى تبعيته لهم بل كان يخادعهم ويداجيهم ويتربص بهم [1] أو كما قال عنه السلطان الفاتح نفسه : **كان يظهر الصداقة ويبطن العداوة** .

فلما جاءه رسول هونياد يعرض عليه الاشتراك فى الحلف الذى ستعقده بعض الدول الأوروبية ضد الفاتح الذى عظم خطره على أوروبا بعد احتلاله القسطنطينية بادر إلى الموافقة عليه وتأييده ، ولم يخف أمر ذلك على السلطان الفاتح الذى كان يبث العيون والأرصاد فى كل مكان ، وللتفادى من هذا الخطر بادر إلى غزو صربية قبل أن تتخذها القوات المتحالفة مركزاً للهجوم فلما علم جورج برنكوفيتش بزحف السلطان الفاتح نحوه أمر الناس أن يلجأوا إلى الأماكن الحصينة وفر هو إلى المجر بعد أن وعدهم أنه سيأتيهم بالمدد والقوة من هناك .

أما السلطان الفاتح فإنه عندما وصل فى زحفه مدينة صوفيا ترك بها معظم جيشه ليكون ردءاً له وسار ببقية الجيش ثم قسمه إلى كتيبتين اتجهت إحداهما إلى أوستراوز واحتلتها واتجهت الأخرى إلى سمندرة ولكن امتنعت عليه هذه المدينة ، وكان الشتاء قد أقبل فعاد السلطان الفاتح أدراجه إلى أدرنة بعد أن ترك قائده فيروز بك فى عدد من الجند بمدينة كرسوفاز على نهر مورافا ولكنه لم يقو على صد الجيش الذى جاء به هونياد وبرنكوفيتش فهزماه وأخذاه أسيراً ثم اتجها إلى بيروتا وويدين فأحرقا هاتين المدينتين ونهباها .

ولم يكد السلطان الفاتح يعلم بهزيمة جيشه حتى خرج من فوره من أدرنة برغم البرد القارس واتخذ معسكره بين بيروتا وصوفيا وكان هونياد قد عاد إلى المجر ، ووجد

---

(1) قريتوولوس ، سلطان محمد خان ثانى .
Chopin et Ubicni, Provinces Danubiennes et Roumaines .

برنكوفيتش نفسه أضعف من أن ينازل السلطان الفاتح فآثر التسليم وقبل أن يدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دوقة ، وعاد السلطان الفاتح إلى القسطنطينية ريثما تواتيه الأحوال الجوية على مواصلة الحرب .

وفى ربيع سنة (859 هـ ـ 1455 م) زحف السلطان محمد الفاتح إلى صربية وحاصر نوفوبردة أغنى مدينة فى صربية لوفرة المناجم بها وسميت لذلك « أم المدن » وكان قد سبق أن استولى العثمانيون عليها ثم استردتها صربية ، وبعد أسبوع من الحصار استسلمت هذه المدينة للسلطان الفاتح فى أول يونيو 1455 فجعل عليها والياً وقاضياً وقائداً للقلعة ، وأخضع الفاتح بعد ذلك عدة قلاع أخرى ثم عاد إلى القسطنطينية ولم يبق أمامه من قلاع فى صربية غير بلغراد .

اشتد شعور الناس فى أوروبا بالخطر الإسلامى وتهديده ، لقد استولى العثمانيون قبل سنتين على القسطنطينية معقل النصرانية فى الطرف القصى من القارة الأوروبية ولكنها بعيدة على آية حال عن قلب أوروبا ، أما إذا استولوا على بلغراد « باب المجر » فلن يقف فى سبيلهم بعد ذلك شىء وستتدفق جموعهم على ألمانيا وما يحيط بها ، وأخذ الراهب كابسترانو يجوب أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبولندا والمجر يلهب الحماس فى صدور الناس بخطبه النارية البليغة ويدعوهم إلى شن حرب صليبية على الأتراك .

أما البابا كاليكست الثالث الذى هاله الأمر وتعاظمه الخطر وأفزعه تقدم الأتراك فقد شرع للنصارى صلاة التبشير Angelus فتدق النواقيس ويتوجه النصارى إلى العذراء يسألون العون ويطلبون النصر على الأتراك [1] ، وطلب إلى الناس فى جميع بلاد النصرانية أن لا يغفلوا عن دق هذا الناقوس صباح كل يوم والذى سماه « ناقوس الأتراك La cloche des Turcs [2] » .

ودعا كاليكست الثالث أهل أوروبا إلى قتالهم واختار هونياد المجرى ليتولى قيادة الحملة الصليبية يعاونه فى ذلك مندوبه جان انجيلو Jean Angelo وذلك

---

(1) Cuillet, Histoire du regnede Mahomet II. De La Croix, Abrege Chronologique de l' Histoire Ottomane .

(2) Jules Zeller, Histoire resumee de l' Italie

الراهب الخطيب المتحمس جان كابسترانو وكثير غيرهما من رجال الدين ، وتكون حلف صليبى ضد الأتراك اشترك فيه ملك المجر وملك أرجونة وعدة من أمراء إيطاليا ودوق بورغنديا والبنادقة والجنوبون وفرسان رودس وألمانيا وبوهيمية وبولندا وصربية ، ولم ينتظر الفاتح حتى يدهمه الهجوم بل سار إلى بلغراد فى مئة وخمسين ألف مقاتل .

وبلغراد هذه مدينة منيعة تقع حيث ينتهى نهر الساف فى نهر الطونة ، الطونة فى الشمال والساف فى الغرب ، فهى تشبه إلى حدما أن تكون شبه جزيرة يحيط بها من جانب هذين النهرين سور واحد سميك متين ومن جانب البر سوران عظيمان وخندق واسع عميق (1) .

رأى الفاتح أن يحاصر هذه المدينة من ناحيتى البر والبحر بعد أن أمن جميع حدوده التى قد تطعنه من خلفه ، وبعث بسفنه إلى الطونة من طريق البحر الأسود لتجعل من نفسها سداً قوياً فى النهر تجاه بلغراد يمنع عنها كل معونة قد تأتى من الشط الثانى ، وخرج السلطان الفاتح على رأس جيشه البرى الكبير ، وما أن وصل مدينة كرسوفاز حتى أمر بنصب المدافع التى ستستعمل فى دك أسوار المدينة ، وداخل الجنود العثمانيين فى هذه الغزوة ماداخل المسلمين من قبل فى غزوة حنين من الغرور والاستخفاف بالعدو وأعجبتهم كثرتهم وقوتهم وقالوا لأنفسهم : لقد فتحنا بالأمس مدينة القسطنطينية وهى أعظم قلاع النصرانية فى الشرق وأشدها مناعة وحصانة ، فما تكون بلغراد هذه إلى جانبها ؟ وليس أخطر على الجيش من أن يستخف بعدوه ويستضعف قوته مهما يكن شأنه .

هبط هونياد بسفنه من بود وكانت تعادل السفن التركية فى الكثرة ولكنها كانت أشد صلابة وإحكاماً فى الصنع والبناء وأكثر مراساً ومهارة فى النزال والقتال من السفن التركية الحديثة العهد ، ووجدت فوق ذلك من الريح وتيار النهر ما أعانها على سرعة السير وقوة الاندفاع ، وقد انقضت على السفن التركية الرابضة التى كانت قد ثبتت فى مواقعها وكأنما

---

(1) كانت بلغراد جزءاً من صربية وتابعة لها ، ولكن عندما توغل الأتراك في أوروبا طلب ملك المجر من جورج برنكوفيتش أن يسلم إليه هذه المدينة لأنها ضرورية للدفاع عن حدوده ولأنه أقدر علي الدفاع عنها ، ورضي جورج برنكوفيتش ذلك وسلم إليه بلغراد في مقابل قلاع وأراض في داخل المجر تعطي له لتكون ملجأ للفارين من أهل صربية (1435) .

قد سمرت فيها تسميرا لا حراك معه فمزقتها سفن هونياد كل ممزق فغرق بعضها إلى قاع النهر وشل بعضها عن السير فجرفها التيار ، ولما رأى الفاتح ما أصاب أسطوله أمر بحرق بقية سفنه لكيلا تقع غنيمة فى يد عدوه وهلك من الجيش العثمانى فى هذه المعركة خلق كثير وأنزل هونياد جنوده المغاوير فى بلغراد فى سهولة ويسر وهم يصيحون صيحات الفرح والنصر .

وكان كابسترانو خلال المعركة واقفاً على الشاطىء يلوح بعلم الصليبيين ويحرض المقاتلين ويهتف باسم المسيح ، وكف السلطان الفاتح عن محاصرة بلغراد من ناحية النهر وحصر كل جهده وقوته فى جانب البر ووالى هجماته على المدينة قبل أن تتكاثر إليها الأمداد من الطونة والساق ، وفى حميا المعركة أصيب قره جه باشا - وهو من خيرة قادة الفاتح - بقذيفة قاتلة صرعته فى الحال ، وكان فقده فى تلك الظروف ضربة شديدة على الجيش العثمانى ، على أن المدافع العثمانية استطاعت أن تفتح بعض الثغرات فى السور فأمر السلطان الفاتح في صباح (17 شعبان 860 هـ - 21 يوليو 1456 م) بالهجوم وكان هجوماً قوياً عنيفاً كاد يزلزل النصارى ويحمل هونياد نفسه على الفرار لولا ذلك الراهب المتحمس كابسترانو الذى ظل ينفخ روح الحماس والحمية فى الجيش الصليبى وجاء بجنود جديدة ، واضطر الأتراك إلى ترك المواقع التى كانوا قد احتلوها ، ولكن ذلك لم يوهن عزم الفاتح وأخذ ينظم صفوف جيشه من جديد وقرر معاودة الهجوم فى السادس من أغسطس .

وفى صباح ذلك اليوم كان كلا المعسكرين على أتم التأهب للنزال ، وما لبث أن هجم العثمانيون بكل قوتهم ونفذ كثير منهم إلى داخل المدينة ووقف الفاتح يحث جنوده ويشجعهم بينما كان كابسترانو على نشز من الأرض يلوح بعلمه ويحرض جنوده ، واحتدم القتال فى عنف بالغ ترددت كفة النصر بينهما وقتاً طويلاً حتى جاء هونياد بجنود جديدة أحاطت بالعثمانيين الذين كانوا فى داخل المدينة وشددت عليهم الخناق ، وكان السلطان الفاتح يقاتل بنفسه عند أسوار المدينة ، وفيما كان القتال دائراً على أشده إذ أصيب بجرح بالغ فى فخذه تبجس منه الدم وسقط من ظهر جواده مغشياً عليه ، وأثار ذلك أشد الحماس بين النصارى واندفع إليه فى وقت واحد فريق من جنود النصارى وفريق من الجنود العثمانيين ، أولئك لأسره أو قتله وهؤلاء لتخليصه وإنقاذه واقتتلوا اقتتالاً شديداً

حول جثمانه إلى أن جاء جماعة من الإنكشارية الأشداء فشتتوا شمل النصارى وحملوا سلطانهم إلى معسكره وعندما أفاق من غشيته ورأى ماحل بجنوده من الإنكسار وما أصابه هو من الإعياء والنصب تملكته نزوة من نزوات الغضب الشديد فطلب أن يؤتى له بالسم .

واندفع حسن قائد الإنكشارية فى نفر من الجند وألقى بنفسه على العدو يطوح رؤوسهم بسيفه وما لبث أن قتل فزاد ذلك فى اضطراب الجيش العثمانى ، وانتهز كابسترانو اليقظ هذه الفرصة فانقض فى نخبة من جنوده الأشداء على العثمانيين وردهم عن أسوار بلغراد وهم بملاحقتهم ومطاردتهم لولا أن نهاه هونياد الذى علم من خبرته الكثيرة من قتاله للأتراك أن هؤلاء القوم لا يستكينون إلى هزيمة وأن مطاردتهم قد تحملهم على معاودة الكرة والهجوم فمن الخير تركهم ينسحبون بل تسهيل سبيل الانسحاب لهم .

انسحب السلطان الفاتح بجيشه والعدة القليلة التى تبقت له وهو يحرق الأرم وتوقف قليلاً فى صوفيا ثم واصل سيره إلى أدرنة وقال ـ وكأنما كان يعزى نفسه :

إن بلغراد ستسقط فى أيدينا عاجلاً أو آجلاً وإذا لم أستول أنا عليها فإن أبنائى الشجعان سيستولون عليها .

أما النصارى فقد زهاهم النصر واستطاربهم الفرح ، ويرجع أكبر الفضل فى إحراز ذلك النصر إلى الراهب المتحمس كابسترانو والقائد المقدام هونياد ، وقد نفس كل منهما على الآخر ونازعه فخار النصر ، فلما كتبا إلى البابا كاليكست الثالث يبشرانه أغفل كل منهما ذكر صاحبه ولم يذكر جهده وحسن بلائه فى القتال ، ومهما يكن من شىء فقد عم الفرح والابتهاج جميع أرجاء العالم النصرانى لا سيما روما مقر البابوية حيث أقيمت احتفالات ومهرجانات عظيمة ، وتخليدا لهذا الانتصار على السلطان محمد الفاتح أمر البابا كاليكست الثالث بأن يتخذ اليوم السادس من أغسطس (وهو اليوم الذى انتصر فيه الجيش الصليبى) عيد التجلى Fete de la Transfiguration ونالت مدينة بلغراد بهذا الانتصار شهرة عظيمة واسعة فى العالم النصرانى ونظر إليها النصارى على أنها معقل النصرانية ضد التوسع الإسلامى كما أثار هذا الانتصار جذوة الحماس فى أوروبا فألفت فى فرنسا وألمانيا وانجلترا حملات شعبية لقتال الأتراك واستعاد هونياد بعد معركة بلغراد شهرته العسكرية القديمة ومجده السالف فى الانتصار على العثمانيين ولمع نجمه مرة أخرى

فى سماء النصرانية بعد أن كاد يطمس على أثر هزائمه فى وارنة وقوصوه الثانية ، بيد أن لم يعش طويلا بعد انتصاره الأخير ، فإن ما أصابه من الجهد والإعياء فضلاً عن كبر سنه كل ذلك لم يساعفه على تحمل الجرح الذى أصابه . وكانت آلاف الجثث قد انتثرت فى ميدان القتال ونتنت وأفسدت الهواء من حوله ثم انتابته حمى عنيفة قضت عليه فى 11 أغسطس 1456 ودفن واقفاً إشارة إلى نشاطه الجبار وهمته المتوثبة وعزيمته الصلب ، وقد بكى البابا عندما بلغه نعيه وأقيمت له صلاة خاصة فى كنيسة القديس بطرس بروما .

وفقدت النصرانية بوفاته جندياً من أشجع جنودها وقائداً من أمهر قوادها ، وكتب اينياس سلفيوس ـ الذى صار بابا فيما بعد باسم پى الثانى pie II فى وصف هذه الخسارة يقول « لقد ماتت آمالنا بموته » ولم يكن السلطان الفاتح أقل حزناً لوفاة هونياد إذ حرمه ذلك من منازلته مرة أخرى ، وقد أظهر إعجابه بشدة مراسه وإقدامه وحنكته وكان السلطان الفاتح جنديا عظيم النفس يقدر البطولة حق قدرها ولو كانت فى ألد خصومه .

ولم يمض وقت طويل على وفاة القائد هونياد حتى لحق به الراهب كابسترنو فى 23 أكتوبر من ذلك العام ، على أنه بالرغم من انتصار الصليبيين فى بلغراد فقد ظل جزء كبير من صربية تحت سيطرة العثمانيين وبقى جزء منها لجورج برنكوفيتش الذى أقام فى عاصمته سمندرة .

وكان هونياد إبان قتاله للأتراك قد طلب إليه أن يمضى فى قتالهم فسأله برنكوفيتش وماذا تصنع بديننا إذا أنت انتصرت على الأتراك ؟ » فأجاب هونياد :

أحمل الناس على اعتناق الكاثوليكية وأقيم الكنائس الكاثوليكية فى كل مكان .

ووجه برنكوفيتش نفس السؤال إلى السلطان الفاتح فأجاب « أقيم إلى جانب كل مسجد كنيسة والناس أحرار فى دينهم فمن شاء ذهب إلى المسجد ومن شاء ذهب إلى الكنيسة [1] » .

---

(1) Temperely, History of Serbia. Chopin et Ubicini, Op. cit. Baron Cara de Vaux, Les Penseurs de l' Islam. Jonqniere, Histoire de l' Empire Ottoman. Sir Edward Creasy, History of the Ottoman Turks .

وقد كان لهذه السياسة السمحة فى عصر لم يكن قد عرف بعد مبدأ التسامح الدينى أثر عظيم فى مدفتوحات السلطان الفاتح ويسرت له سبيلها .

وعندما شغل السلطان محمد الفاتح بعد ذلك بشؤون المورة أرسل وزيره محمود باشا فى جيش آخر إلى الصرب فاستولى على عدة قلاع أهمها قلاع رسواز وكوريكواز وحصن قلعة حوالة التى كان السلطان الفاتح قد شيدها على بعد ثلاثة فراسخ تجاه بلغراد ثم استولى على قلعة كولمباج بعد أن قطع الماء عن حاميتها ، وأرسل محمد بك بن منت بك فى سرية للإغارة على بلاد المجر فاجتاح قلعتى طراوة ووراحاوه ثم عاد مثقلاً بالأسلاب والغنائم والأسرى [1] .

كان جورج برنكوفيتش شيخاً كبيراً قد طعن فى السن ومالبث أن مات فى قلعته بسمندرة فى 24 ديسمبر 1457 وترك خلفه زوجته إيرين وابنته ماريا أرملة السلطان مراد الثانى وأبناءه الثلاثة جريجوار واتيين ولازار وكان لازار هذا أصغر الثلاثة ولكنه كان أكثرهم طموحاً وأشدهم جرأة وطمع فى الحكم والتفرد به فسم والدته وطرد أخويه ، وخشيت ماريا على نفسها من بطشه ففرت مع بعض ذوى قرباها إلى السلطان محمد الفاتح ولاذت به وقد أكرم « ذلك الرجل العظيم [2] » مثواها وأنزلها خير منزل ، وقضت ماريا بقية أيام حياتها فى ظل وارف من الأمن والسكينة وأوقفت كل جهودها لخدمة بنى دينها النصارى والبربهم .

وعرض لازار على السلطان الفاتح أن يدفع جزية سنوية كبيرة ، غير أنه لم يتمتع بثمرة جريمته طويلاً فقد مات بعد شهرين من استبداده بالحكم فى 20 يناير 1458 ، وقد أوصى قبل مماته بتزويج ابنته بولى عهد البوسنة استفان توماسيفيتش واستصوبت زوجته هيلين هذه الفكرة واستجادتها فأنفذتها ، كما رأى ملك المجر ماتياس كورفان فى هذه المصاهرة بين بيتى صربية والبوسنة ما يقوى جبهة النصرانية ضد الأتراك فبادر إلى الاعتراف باستفان توماسيفيتش حاكماً لصربية ، ولم تقنع هيلين بكل هذا بل أرادت أن تستزيد من الأيد والقوة وتأمين بلادها ضد الأتراك الذين يتطلعون إلى فتحها فوضعتها تحت حماية البابا

---

(1) صولاق زاده تاريخى . سعد الدين ، تاج التواريخ .

(2) Cambridge Medieval History.

وسيادته وبادر البابا كاليكست الثالث من جهته فأرسل مندوبه الخاص انجيلو إلى صربية .

وهيلين هذه أرثوذكسية من أسرة باليولوج التى حكمت القسطنطينية وانتهت دولتها بمقتل الإمبراطور قسطنطين فى 29 مايو 1453 ، ولكنها لم تعتبر بما وقع فى القسطنطينية من الفتن والثورات حينما أراد إمبراطورها توحيد الكنيسة الشرقية بالكنيسة الغربية ، ولم يكن أهل صربية أقل عداء للكاثوليك من أهل القسطنطينية فلما فعلت هيلين ما فعلت ووضعت البلاد تحت سيادة البابا هاج الصرب وثاروا عليها وصاحوا فى وجهها كصيحة الروم فى وجه قسطنطين :

« لأن نكون من الأتراك خير من أن نكون من الرومان الكاثوليك [1] » .

وآثروا أن يفتحوا أبوابهم للأتراك على أن يفتحوها للبابا [2] واختاروا زعيماً لهم ميخائيل أبو غوفيتش ولكن هيلين احتالت عليه وأوهمته أنها تريد مفاوضته ومداولته فذهب إليها فى قلعتها بسمندرة فاعتقلته وأرسلته أسيراً إلى المجر ، ولم يطل بها الأمر فقد رأت فجأة السلطان محمد الفاتح تحت أسوار سمندرة وأخذت هيلين على غرة ولم تجد مندوحة عن التسليم ، وأذن لها أن تخرج بجميع أموالها ، وخضعت بقية القلاع بعد ذلك للعثمانيين ما عدا بلغراد ، وصارت صربية منذ ذلك الحين ولاية من ولايات الدولة العثمانية (863 هـ ـ 1459 م) .

وكتب السلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر الأشرف إينال يبشره بهذا الفتح وأهدى إليه بعض الأسرى وأصنافاً مختلفة من الأقمشة .

أما البوسنة فقد ظلت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر فريسة للمتنافسين الطامعين ، يتنازعون الملك فيما بينهم حتى صار تنصيب الملك وخلعه شيئاً عادياً كثير الوقوع ولم يتوصل الملك استفان توماسيفيتش آخر ملوك البوسنة إلى العرش إلا باغتيال والده عام 1461 بمعونة عمه راديفوج .

وقد أصبح العثمانيون بعد استيلائهم على صربية ـ كما أوضحنا من قبل ـ يجاورون

---

(1) Miller, The Balkans.

(2) Temperely, op. cit.

البوسنة ، وكان ملك هذه البلاد استفان توماسيفيتش أصرح عداوة وأشد خطراً على الدولة العثمانية من أمير صربية إذ كان هذا الملك حليفاً للبابا والبندقية والمجر وكان يسعى إلى تأليب الدول النصرانية على العثمانيين .

وقد كان فى عزم السلطان الفاتح إخضاع البوسنة سنة (866 هـ ـ 1462 م) فبعث رسولاً إلى ملكها يطلب منه الخضوع للدولة العثمانية والاعتراف بسيادتها ودفع الجزية لها وإلا فالقتال فما كان منه إلا أن اقتاد رسول الفاتح إلى خزائن أمواله وأشار بيده إليها ثم قال له :

إنك لترى الأموال هنا مكدسة ولكنى لا أرى إرسالها إلى السلطان ، فإن حاربنى استعنت بها على قتاله ، وإذا اضطررت إلى الفرار واللجوء إلى بلد آخر استعنت بها على تكاليف الحياة .

وتأهب السلطان الفاتح للزحف إلى البوسنة ولكن جدت حوادث بالأفلاق اضطرته إلى تأجيل الحملة إلى السنة التالية ، أما ملك البوسنة فلم يكد يشعر باقتراب الغزو العثمانى حتى كتب إلى البابا پى الثانى ينبئه بالخطر الداهم الذى يتهدده ويستعجله فى إرسال النجدة والمعونة وطلب إليه أن يستحث ملك المجر على معاونته ومعاضدته فى مقاتلة الأتراك ، فبذلك وحده يمكن إنقاذ البوسنة وإلا تكررت فيها مأساة القسطنطينية مرة أخرى ، وإذا تم للأتراك الاستيلاء على البوسنة فإنهم سينقضون بعد ذلك على إيطاليا وروما نفسها (1) .

ولكى يؤكد ملك البوسنة ولاءه وإخلاصه للبابا طلب أن يكون تاجه من عنده ، وقد أجيب استفان توماسيڤيتش إلى طلبه هذا فبعث إليه البابا بالتاج وقام مندوبوه بتتويجه فى عاصمته الجميلة يايتزا فى حفل فخم حفت به جميع مظاهر الأبهة والفخامة واشترك فيه النبلاء والأعيان وأسبغ توماسيڤيتش على نفسه فى هذا الحفل الألقاب الملكية الرفيعة الضخمة التى ليست له ، وكان ذلك كل ما ناله هذا الملك المغرور من معونة البابا ، أما الجند والمال والسلاح فلم ينل منها شيئاً ، واقتربت ساعة نهايته .

وفى أوائل الربيع من سنة (867 هـ ـ 1463 م) بعث السلطان الفاتح رسولاً آخر إلى ملك البوسنة يخيره بين دفع الجزية والقتال فما كان من توماسيڤيتش إلا أن اعتقل الرسول

Sismondi, Histoire des Republiques Italienns du Moyen Age . (1)

وهم بقتله لولا أن نهاه وزيره لأنه بذلك إنما يستفز غضب السلطان ويعجل هلاك نفسه والقضاء على مملكته ، وليس من المروءة بعد قتل الرسول ، فلما عاد هذا الرسول أخبر السلطان الفاتح بما رأى فأخذه الغضب وسار بجيشه من فوره إلى البوسنة وحاصر أكبر قلاعها وأمنعها وهى قلعة لوفجه فاستسلمت بعد ثلاث أيام ، وحاصر بعد ذلك قلعة يايتزا فحذت حذو الأولى واستسلمت بعد مقاومة يسيرة ، وكان الملك استفان توماسيڤيتش موجوداً بهذه القلعة فما كان منه إلا أن فر منها عندما سمع باقتراب الفاتح ولجأ إلى قلعة كلوج الحصينة القائمة على نهر سانا وأرسل السلطان الفاتح وراءه وزيره محمود باشا لمطاردته ومحاصرته .

وكان من رأى الفاتح أن يمضى محمود باشا فى حصار القلعة حتى يستولى عليها عنوة ويكون بعد ذلك فى حل من تقرير مصير من بها من المقاتلين بالقتل أو الأسر ، ولكن محمود باشا لم يكد يحاصر القلعة حتى بعث إلى ملك البوسنة يحثه على التسليم وطلب الصلح وأمنه على حياته ، ولم يكن شىء أحب إلى توماسيفيتش من هذا بعد أن أحيط به من كل جانب ولم ير أمامه غير الهلاك أو التسليم الذى لا يدرى ما وراءه ، فخرج من قلعته وسلمها لمحمود باشا وتلقى منه كتاب الأمان ، واستاء السلطان الفاتح من تصرف وزيره وقبح رأيه فى ذلك وعاتبه عليه لشدة غضبه على قرال المذكور » (1) .

وتتابعت سائر القلاع بعد ذلك فى الاستسلام للعثمانيين ، وقبل أن ينتصف شهر يونيو من سنة 1463 كانت البوسنة كلها قد صارت ولاية من ولايات الدولة العثمانية .

ولم يجد السلطان الفاتح مندوحة من الوفاء بالأمان الذى قطعه محمود باشا لملك البوسنة برغم كراهيته لهذا الأمان ، ولكن هذا الملك ونفراً من الأمراء لم يقدروا هذا الأمر حق قدره بل أغراهم ما لقوه من الأمن والسماحة وحسن المعاملة فحاولوا الانتقاض واستفتى السلطان الفاتح العلماء الذين صحبوه فى هذه الحملة فى جواز قتلهم ، وانبرى الشيخ على البسطامى وأفتى بجوازه ، ولم يكتف بذلك بل استل سيفه ونفذ بنفسه حكم القتل فى الملك توماسيڤيتش ثم قتل الأمراء الآخرون .

وهكذا تم للعثمانيين فتح البوسنة ذات القلاع الكثيرة المنيعة فى سهولة ويسر ، لم يتكلفوا فيه كبير جهد ولم يلقوا كبير عناء ، وليس يرجع ذلك إلى ضخامة الجيش العثمانى

---

(1) منجم باشي .

وشدة بأسه ومضاء سلاحه وإنما يعود ـ قبل كل شيء ـ إلى ما ذكرناه من قبل من شهرة الفاتحين العثمانيين فى ذلك العهد بالسماحة والمروءة وحسن معاملة الطبقات الفقيرة المعدمة المسخرة وتحريرها من أغلال العبودية التى ترسف فيها وإلى تسامحهم الدينى العظيم وعدم تعرضهم للناس فيما يعتقدون من مذاهب ومعتقدات ، وقد ذكر ملك البوسنة نفسه فى كتابه الآنف الذكر إلى البابا أن العثمانيين يعاملون الفلاحين بمنتهى اللطف والأريحية [1] ، وفضلاً عن ذلك فقد كان فريق كبير من أهل البوسنة على مذهب خاص فى العقيدة ويعرفون بالبوجوميل Bogomiles « وقد تعرضوا من القرن الثالث عشر لاضطهاد الكاثوليك الرومان وطالما دعا البابوات إلى شن حرب صليبية عليهم » [2]

وقد كتب البابا جون الثانى والعشرون فى سنة 1325 إلى ملك البوسنة يطلب منه أن يستأصل شأفة هؤلاء « الخوارج » ويجتثهم من جذورهم ولا يبقى منهم على أحد ، وفى القرن الخامس عشر اشتد الاضطهاد والعسف بهؤلاء البوجوميل وبلغت آلامهم حداً لا يحتمل ففر منهم من فر إلى البلاد المجاورة طلباً للنجاة ، ولكن هذه الاضطهادات العنيفة القاسية المتوالية لم تزدهم إلا استمساكاً وتصلباً فى عقائدهم ولم تزدهم إلا كراهة وحقداً على حكومتهم الجائرة ، وتطلعت نفوسهم إلى من ينقذهم من الجحيم الذى يعيشون فيه ولم يجدوا أمامهم غير العثمانيين فاستغاثوهم واستنجدوهم ، وقد كانوا يرون عمامة المفتى أفضل من قبعة الكاردينال .

فلما جاءهم العثمانيون لم ينهض أحد منهم إلى مقاتلتهم ومدافعتهم بل رحبوا بمقدمهم واستقبلوهم استقبال من جاء لإنقاذهم وتحريرهم [3] «ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن البوجوميل إلا قليلاً ويظهر أنهم دخلوا فى الإسلام بمحض إرادتهم فى جموع كبيرة على أثر الفتح التركى أما البقية الباقية منهم فيظهر أنهم اعتنقوا الإسلام بعد ذلك تدريجاً [4] » .

---

(1) Sismondi, op. cit Gambridge Medieval History .

(2) السير توماس أرنولد . ـ الدعوة إلي الإسلام ـ .

(3) Miller, op. cit. Charls Eliot, Turkey in Europe.

وقد تنبأ ملك البوسنة في كتابه إلي البابا بأنه إذا لم يتلق معونة منه أو من البنادقة أو غيرهم من اللاتين فإن العثمانيين سيجدون البوسنة مفتحة الأبواب لهم . .

(4) السير توماس أرنولد ـ الدعوة إلي الإسلام ـ .

ويرجع إقبال البوجوميل على الدخول فى الإسلام إلى ذلك التشابه بين مذهبهم وبين الإسلام فى نواحى كثيرة كالجنوح إلى البساطة وتحريم الخمر وعبادة الصور والقديسين ومريم العذراء وغير ذلك .

وأشربت نفوس البوجوميل حب الإسلام والتعلق به والتعصب له حتى فاقوا فى ذلك الأتراك العثمانيين أنفسهم .

وفى السنة التالية حاول ملك المجر ماتياس كورفان امتلاك البوسنة واستولى على يايتزا بعض الوقت ولكنه مالبث أن أخرج منها .

واتجه عزم الفاتح بعد ذلك إلى الهرسك فقد كان فتح هذه البلاد فى نظره مما تدعو إليه الضرورات الحربية لمناعة حصونها وقلاعها وموقعها الاستراتيجى الهام المشرف على بحر الإدرياتيك .

وعهد الفاتح بفتحها إلى وزيره محمود باشا ، فما أن علم أميرها بزحف الجيش العثمانى نحوه حتى فر إلى إحدى الجزر القريبة ، فلما أوشك محمود باشا أن يتم فتح الهرسك ويخضع جميع قلاعها ومدنها سارع ذلك الأمير الفار فأرسل ابنه بأثمن الهدايا والنفائس إلى السلطان محمد الفاتح بالقسطنطينية يلتمس منه العفو والإذن له بأن يقيم فى عاصمة ملكه السابق وقد أجابه السلطان إلى ملتمسه فقسم الهرسك قسمين أما الأول ـ وهو أكثرهم أهمية وخطراً ـ فقد أدمج فى الدولة العثمانية وأقطع القسم الآخر للأمير الهرسكى .

أما ابنه الذى أوفده رسولاً إلى الفاتح فقد شرح الله صدره للإسلام ونال شرف المصاهرة وتدرج فى مناصب الدولة العثمانية حتى رقى إلى منصب الوزارة [1] ، وعندما مات أمير الهرسك بعد ذلك ضمت البقية الباقية من بلاده إلى الدولة العثمانية « وحظيت بما تحظى به الممالك المحروسة من يمن العدالة وأصبحت مركزاً من مراكز رايات الإسلام وامتلأت أرجاؤها بالمنشآت الإسلامية [2] » .



(1) صولاق زادة تاريخى . سعد الدين تاج التواريخ .

(2) سعد الدين ، المرجع السابق .

الفصل الثانى

فتح أثينا والمورة وبعض الجزر اليونانية

غرام مشئوم يقضى على دوقية أهل أثينا يستنجدون السلطان الفاتح - فتح أثينا وإعجاب الفاتح بآثارها - الأميران ديمتريوس وتوماس وحكمهما الفاسد فى المورة - ثورة الألبانيين وانتشار الفوضى والاضطراب فى شبه الجزيرة - التسابق إلى كسب تأييد الفاتح - عودة الفتن والاضطرابات إلى المورة - استغاثة السكان بالسلطان الفاتح - فشل الإصلاح بين توماس وديمتريوس - بعض أهل الرأى والفكر من الروم يعتنقون الإسلام - زحف الفاتح إلى المورة وافتتاح مدنها - سماحته وإنسانيته نحو المغلوبين - كبريات جزر الأرخبيل اليونانى فى يد الجنويين - خطرها على سلامة الدولة العثمانية - فتحها .

كانت أثينا تحكمها أسرة أكسيولى الفلورنسية ، وعندما مات حاكمها نريو أكسيولى Nerio Acciauli سنة 1453 ترك وراءه طفلاً قاصراً وزوجة أقيمت وصية عليه ، وكانت امرأة لا تزال فى مقتبل العمر على جانب عظيم من الحسن والجمال مشبوبة العاطفة عارمة الشهوة ، وقد أحسنت إدارة الدوقية فى السنوات الأولى من وصايتها وساست الأمور بحكمة وحزم إلى أن وقعت فى غرام شاب إيطالى فقضى عليها هذا الغرام وعلى دوقيتها ، ذلك أن جمهورية البندقية أوفدت إلى أثينا رسولها الشاب بيترو الميريو لمفاوضتها فى بعض شؤون التجارة ، ولكنهما ما لبثا أن صرفا عن هذه الشؤون وأحاديثها إلى أحاديث الحب والهوى .

وكان الرسول البندقى متزوجاً وقد وجدت الدوقة فى زوجته العقبة الكأداء فى سبيل زواجها بعشيقها البندقى ولمحت له بذلك وعرضت عليه أن تجعله دوق أثينا إذا قبل أن يتزوجها فما كان من الميريو إلا أن عاد مسرعاً إلى بلاده فقتل زوجته سماً وقفل راجعاً إلى

أثينا ليقدم إلى الدوقة جريمته برهاناً على حبه لها وعقد زواجهما على الفور ، ولكن هذا الزواج السريع الفاضح أثار غضب أهل أثينا وسخطهم ولجأوا إلى السلطان الفاتح يطلبون منه أن يعين فرانكو اكسييولى دوقاً عليهم ، وفرانكو هذا ابن أخ نريو اكسييولى الدوق السابق لأثينا وقد حقد على زوجته الدوقة لقيامها بالوصاية على الطفل القاصر وتفردها بتولى مقاليد الحكم .

فلما وقعت الدوقة فيما وقعت فيه من ذلك الغرام العنيف والزواج الفاضح وسخط الأثينيين عليها انتهز فرانكو اكسييولى هذه الفرصة فأجج سخطهم وأضرم نار غضبهم عليها ، كذلك خشى أهل الرأى فى أثينا من الروم واللاتين إذا ما استحوذ الميريو البندقى على السلطة فى أثينا أن يؤدى ذلك إلى وقوعهم تحت سيطرة البندقية الشديدة الصارمة ، كما اشمأزت نفوسهم من مسلك الدوق المزرى فرفعوا الأمر إلى السلطان محمد الفاتح أيضاً وشكوا إليه جرائم العاشق البندقى .

وأصغى الفاتح إلى شكايتهم باهتمام كبير ، وقد رأى من جهته أنه من الخطر السماح للبندقية أن توطد مركزها وتوسع نفوذها وسلطانها فى اليونان فأبعد الميريو عن حكم أثينا وعهد به إلى فرانكو واستقبله سكانها بفرح عظيم ، ولكن فرانكو لم يطمئن إلى أمره ومنافسته الدوقة لا تزال على قيد الحياة ، وهى لن تستكين إلى ما أصابها ولن تكف عن مناوأته والكيد له وانتزاع الحكم منه بأى سبيل ، فبادر إلى اعتقالها وقتلها ، وأثار هذا الاغتيال غضب أهل أثينا أيضاً ونقموا على فرانكو ، وانتهز الميريو البندقى هذه الحالة فطلب إلى السلطان الفاتح معاقبة القاتل وأن يعيده هو إلى حكم أثينا باعتباره وصياً على الأمير الطفل الذى يخشى عليه من بطش فرانكو قاتل أمه .

ولما رأى الفاتح الاثينين ساخطون على كلا المتنافسين قرر أن يقضى على هذه الفوضى ويستأصلها من شأفتها فأمر قائده عمر بن طرخان أن يزحف بجيشه إلى أثينا ويستولى عليها ويضمها إلى الدولة العثمانية بعد أن كانت فى عهد الدوقية تكتفى بدفع الجزية ، وحاول فرانكوا أن يقاتل الجيش العثمانى واستنجد أمراء اللاتين ولكن لم ينجده أحد فلم يجد مناصاً من التسليم ورضى ما عرضه عليه القائد العثمانى وهو أن يذهب بأمواله إلى طيبة وبيوتى ويكون أميراً على تلك المنطقة (860 هـ ـ 1456 م) .

وقد زار السلطان الفاتح مدينة أثينا بعد سنتين من فتحها وذلك عند عودته من المورة فأعجب بما فيها من المباني وآثار الحضارة اليونانية وهتف قائلاً :

« ما أعظم مايدين به الإسلام لابن طرخان » .

واغتبط أهل أثينا بمقدم السلطان الفاتح واستقبلوه بحماس عظيم ، وأمضى الفاتح عدة أسابيع فى المدينة يجول بين آثارها وروائعها الفنية التي طالما تشوق إلي رؤيتها ، ولم يجد الفاتح ما يعبر به عن إعجابه بهذه المدينة آثارها الفذة خيرا من أن يتعطف على أهلها فأغدق عليهم بالعطايا والمنح السخية [1] .

وفى سنة (864 هـ ـ 1460 م) زار السلطان الفاتح أثينا مرة أخرى بعد أن أتم فتح المورة وهناك علم أن بعض أراخنة أثينا يأتمرون مع فرانكو للاستيلاء على هذه المدينة . وتفادياً من تجدد الفتن والاضطرابات أمر الفاتح زغنوس باشا بالسير إلى فرانكو والقضاء عليه وإنقاذ البلاد من دسائسه ، ولم يجد زغنوس باشا أية صعوبة فى تنفيذ هذا الأمر ، وأخذ الفاتح عشرة من كبار رجال المدينة واتخذهم رهائن عنده .

وبذلك تخلصت أثينا من الفتن والفساد واستقرت فيها الأمور ونعمت فى ظل الدولة العثمانية بالرفاهة والأمن والسلام .

أجل ، لقد ضاق السكان الروم ذرعاً بحكم أواخر حكام أثينا وتعصب الكنيسة

---

(1) فريتوورلوس ، المرجع السابق .
هذا ما كان من السلطان الفاتح عند زيارته لأثينا وموقفه من آثارها وتراثها الفني ، لقد قدرها حق قدرها وأمضي وقتاً طويلاً وهو يتملي بمشاهدتها ويسرح النظر إليها ، وحدث في سنة 1687 أن دخل البنادقة أثينا بقيادة مورسينى Morsini فأطلقوا مدافعهم علي كثير من هذه الآثار ودمروها ، ثم جاء اللوردألجن Elgin بعد ذلك في القرن التاسع عشر فكان أكثر بربرية ووحشية ، وفي هذا الصدد يقول الكاتب الفرنسي المعروف شاتو بريان .
Chateaubriand في كتابه Itineraire de Parise Jerusalem
C'est une chose triste a remarquer que les peuples civilises de l'Europe ont cinquante ans, que tous les barbares ensemble dans une suite de siecles . II est dur de penser qu' Alaric et Mahomet II avaint respecte le parthenon, et qu il a ete renverse par Morsini et lord Elgin .

البابوية فـلا غـرو أن استقبلوا قيام الحكم العثمانى بـفرح وابتهاج [1] .

أما المورة فقد كانت يحكمها قسطنطين قبل أن يتولى إمبراطورية القسطنطينية ، فلما آلت إليه هذه الإمبراطورية سنة 1448 عهد بحكم المورة إلى توماس وديمتريوس وقسمت بينهما فكان الأول يقيم فى بتراس والثانى فى أسبرطة ، وقد أخذت عليهما الأيمان والعهود الغليظة فى القسطنطينية قبل رحيلهما إلى المورة أن يعيشا جنباً إلى جنب فى سلام ووئام لا يبغى أحد منهما على الآخر ، ولكن هذه الأيمان الغليظة نكثت بمجرد وصولهما إلى المورة ، وقد كان توماس رجلاً طاغية فظاً غليظ القلب بينما كان أخوه ديمتريوس رجلاً يغلب عليه الترف والخمول والدعة ويجمع بينهما الجشع والنهم إلى المال وعدم الالتفات إلى شؤون الرعية ، وقد كانا فى المورة بمثابة نائبين للإمبراطور قسطنطين .

غير أن الظروف التى أحاطت به قد جعلت لهما الاستقلال التام ، ولم يكن أحد من الأخوين على شىء من الدراية بالحكم والإدارة ونزعا إلى الظلم والاستبداد وعسفا بالناس عسفاً شديدا أثار فيهم الحقد والكراهية ، واستحرت المنافسة والشقاق بين الأخوين وأخذت بطانة كل منهما فى سبيل مصالحها الخاصة تؤجج نيران العداوة بينهما ، ولم يكن شىء يمنع توماس من التمادى والإمعان فى هذا النزاع والهجوم على أخيه ديمتريوس غير خوفه من الأتراك .

وعندما أراد السلطان الفاتح حصار القسطنطينية ، كما رأينا من قبل ، أرسل بعض جنوده إلى المورة لمناجزة حاكميها توماس وديمتريوس ومنعهما من انجاد أخيهما قسطنطين وقد نجح الجيش التركى فى مهمته فلم يمكّن الحاكمين من نجدته ، فلما بلغهما سقوط القسطنطينية ومقتل أخيهما قسطنطين استولى عليهما الذعر والفزع وخشيا على ملكهما فبادرا إلى طلب السلام من السلطان الفاتح على ما يراه من الشروط ففرض عليهما جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوقة وأبقاهما فى حكميهما .

على أن الأمور لم تستتب فى المورة بل عمتها الفوضى والاضطرابات وانتشر فيها

---

(1) " The government of the last sovereigns of Athens and the bigotry of the papal church had become intolerable to the Greek population, who hailed the establishment of the Othoman power with dedight " Finlay op. cit.

السلب والنهب والتخريب ، فقد كان بالمورة عدد كبير من المغامرين الألبانيين وهم قوم أهل بأس وشدة ، فلما شاهدوا ما عليه شبه الجزيرة من الضعف والانحلال طمعوا فى أن يكون لهم فيها ملك وشأن ، وشجعهم على ذلك ما بلغهم من أنباء انتصارات اسكندر بك فى ألبانيا ، ولم يفتأ هؤلاء الألبانيون ينهبون ويسلبون ويرعون مواشيهم أينما طاب لهم حتى شمل الخراب والادقاع والبؤس جميع أنحاء المورة وأصابت الناس مخمصة وعوز وهجر الفلاحون قراهم وتوافدوا إلى المدن ليموتوا فيها صرعى من أثر الجوع ورحل الصناع والتجار إلى بلاد أخرى ، وفى هذا الظرف السيىء المنحوس طلب أراخنة المورة وكبار البيزنطيين فيها أجرا إضافياً من الألبانيين لما يحتلونه من الأراضى فاستفزهم ذلك وبدا لهم أن الوقت قد حان للقيام بانقلاب عام فأعلن زعماؤهم بجسارة أنهم يريدون طرد السكان الروم من المورة .

ولم يكن ثمة شيء يستطيع الحؤول دون تنفيذ هذا التهديد وإنقاذ البلاد من أن تصير ألبانية إلا تدخل الأتراك ، ومما زاد الموقف اضطراباً انضمام كثير من الروم الحانقين الساخطين إلى الثوار الألبانيين وأصبحوا أنشط القادة فى هذه الثورة ، وكان فى مقدمة هؤلاء الحانقين مانويل كانتا كوزين Manuel Cantacuzene وهونبيل بيزنطى وقد تزعم أهم فرق الثائرين واستبدل باسمه البيزنطى اسماً ألبانياً وهو غين Ghin إمعاناً فى الاعتداد بالألبانية وطمعاً فى أن ينتخبه الألبانيون أميراً على المورة ، وذهب من فوره على رأس الثوار الألبان وحاصروا الحاكم ديمتريوس فى أسبرطة .

ومن الروم الحانقين أيضاً سنتوريون ولوكانوس وقد فرا من السجن الذى كان قد اعتقلهما فيه توماس واقتادا جمعاً من ثوار الألبان وغيرهم وحاصروا توماس فى بتراس .

وهكذا حوصر الحاكمان الأخوان وضيق عليهما الخناق وعجزا عن الدفاع عن أنفسهما وتوقف مصير المورة كلها على موقف السلطان الفاتح ، وتسابق الفريقان المحتربان إلى كسب تأييده ونيل معونته فبعث إليه الألبانيون نفس الجزية التى كانت قد فرضت على الحاكمين توماس وديمتريوس ويرجون منه أن يعهد إليهم فى حكم جميع شبه جزيرة المورة تحت سيادة الدولة العثمانية ومن جهة أخرى بعث إليه القائد الرومى الذى كان يتولى قيادة الحامية الرومية فى كورنثه يؤكد له رغبته فى دفع الجزية له ويلتمس منه العون لإخضاع العصاة الألبانيين المتمردين الذين يسعون إلى الاستقلال ولا هم لهم غير النهب والسلب .

أما السلطان الفاتح فلم يكن يسعه إذ ذاك أن ينظر بعين الرضا إلى أى حركة يقوم بها الألبانيون مواطنوا إسكندر بك فى المورة ويستبدوا بالسيطرة عليها ، ووجد الأصلح لسياسته أن يبقى على العنصرين المتنازعين فى الموره على قدر متوازن من القوة والشوكة لايدع أحداً منهما يطغى على الآخر ويقضى عليه ، وكان لابد إذ ذاك من التدخل السريع قبل أن يقضى الألبانيون على الروم ويستفحل خطرهم فأرسل طرخان مرة أخرى إلى المورة لإنقاذ الحاكمين المحاصرين توماس وديمتريوس .

اجتاز طرخان برزخ كورنثه فى أكتوبر 1454 وأكره الألبانيين على رفع الحصار عن أسبرطة وانضم ديمتريوس إلى الجيش العثمانى الذى استولى على غنائم وفيرة كان الألبانيون قد نهبوها من الروم أثناء ثورتهم ، ورفع الحصار أيضاً عن بتراس وقضى بذلك على ثورة الألبانيين ولكن طرخان لم ير من حسن السياسة أن يقسوا فى استئصال شأفتهم لكيلا يجعل للروم عليهم تفوقاً حاسماً قد يغريهم فيما بعد بالخروج على الدولة العثمانية نفسها ، وكان طرخان معروفاً حسن السمعة لدى أهل المورة ، فما إن دخل بلادهم حتى خفو إلى استقباله والترحيب به .

وبعد أن نظم شؤون المورة ألقى على الحاكمين توماس وديمتريوس درساً بليغاً فى سياسة الحكم وكيف ينبغى أن تكون وجاهرهما بفساد حكمهما وأن الحكومة الصالحة لا تقوم إلا على النصفة والعدالة ولم يبلغ الأتراك ما بلغوا من علو الشأن والسلطان إلا بأنهم يتوخون الحق والعدل فيما يفعلون ويحرصون عليهما أشد الحرص ، لا يتغاضون عن معاقبة المسيئ بما أساء ويكافئون المحسن على ما أحسن .

وقبل أن يغادر طرخان المورة كرر مثل هذه النصائح لتوماس وأخيه ديمتريوس وحثهما على الكف عن ظلم الناس وإلا اضطر السلطان الفاتح إلى الزحف بنفسه إلى المورة لرفع هذا الظلم واحتلال هذه البلاد ، على أن ذلك كله لم يؤد إلى ما كان يرتجيه طرخان من استقرار الأمن والسلام فى ربوع المورة وما لبثت الفتن أن انبعثت من جديد وعادت أشد مما كانت وجاشت الأطماع فى صدور الروم والألبانيين على السواء ، ووصلت إلى الفاتح شكاوى كثيرة من الأهالى مما لحق بهم من الحيف والعسف ويطلبون منه أن يشخص بنفسه إلى المورة ليقضى على ما استشرى فيها من الفساد .

وقد ذهب إليها فى غرة رجب 862 هـ (15 مايو 1458 م) وترك جزءاً من جيشه لمحاصرة كورنثه وزحف هو نحو طرسوس ـ متجنباً المدن والمواقع التى كانت تملكها البندقية فى المورة ـ وكانت يقطنها الألبانيون وقد استسلموا للسلطان الفاتح أول ما جاءهم وقدموا له ثلاث مئة من الغلمان ليجندوا فى الإنكشارية .

وترك الفاتح بعض جنوده فى هذه المدينة وذهب فأخضع مدينتى إيتوس وأكوفا ثم قصد إلى مدينة بازنيكا وكانت فى يد الألبانيين أيضاً ، وكان يصحب الجيش العثمانى مانويل كانتا كوزين أوغين الذى كان قد تزعم الألبانيين فى محاربة حاكمى المورة فأرسله السلطان فى صحبة بعض الأتراك إلى بازينيكا ليطلب من الحامية الألبانية فيها أن تسلم ، ولكن هذا الزعيم الإغريقى المخادع كان يتظاهر بأنه يحث الحامية الألبانية على التسليم بينما كان فى واقع الأمر يشير عليهم بإشارات خاصة يحثهم فيها على المقاومة والقتال ، وأدرك ذلك الأتراك الذين كانوا معه وأبلغوه إلى السلطان فما كان من كانتا كوزين إلا أن لاذ بالفرار وهرب إلى المجر حيث قضى بقية أيام حياته .

وزحف الفاتح بعد ذلك إلى مدينة موخلى Mouchli المنيعة القائمة على قمة جبل فأخضعها بعد أن قطع عنها الماء ودك سوريها القويين ، ومن هناك سار الفاتح إلى كورنثه فأخضعها أيضاً بعد أن دكت أسوارها بالقذائف الضخمة ، وأحسن السلطان الفاتح معاملة قائد الحامية وبعثه إلى ديمتريوس وتوماس ليبلغهما الشروط التى يرتضيها على أن يبقيا حاكمين فى المورة ، وبمقتضاها ضم جميع الجانب الشمالى من المورة إلى الدولة العثمانية ونصب عمر بن طرخان حاكماً عليها وفرضت على توماس وأخيه جزية سنوية قدرها خمسة آلاف قطعة ذهباً ، وأراد الأمير ديمتريوس أن يتزلف إلى السلطان الفاتح فبعث إليه بابنته لتكون ضمن حريمه .

أما الأمير توماس ـ وهو ذلك الرجل الطموح الغدور ـ فقد قبل ما فرض عليه من الشروط على كره منه ومضض ولبث يتربص ويترقب الفرصة المواتية للانقضاض بينما أخذ أتباعه يحمسونه ويحرضونه على الثورة ويغرونه بأن الروم والألبانيين ناقمون مثله وأن جموعهم كافية لتحطيم نير الأتراك ، وانتهز توماس فرصة انشغال الدولة العثمانية بشؤون صربية والاضطرابات التى نشبت فى آسيا الصغرى فعقد العزم على أن يهجم فى آن واحد

على أخيه ديمتريوس وعلى الحاميات التركية فى المورة ويبسط سيطرته على شبه الجزيرة كلها ويستبد بأمرها قبل أن يتمكن السلطان الفاتح من إرسال أى نجدة ، وداخل توماس الغرور واعتقد أنه بقوته يستطيع أن يبذ إسكندر بك فى انتصاراته .

وفى يناير 1459 م (ربيع الأول 863 هـ) بدأ توماس أعماله الحربية فاستولى من أخيه على كاريتنا وسان چورچ وبوردونيا وكاسترتزا بعد أن وعد أهل هذه المدن بحكم أفضل وإدارة أحسن .

وانضم أتباع ديمتريوس إلى جيشه وأخذ توماس يلهب حماس الناس ويثير فيهم بغض الأتراك وازدراء ديمتريوس والنزوع إلى الحرية ليجذبهم إلى صفه واستولى على كالاڤريتا من حاميتها التركية ، وذهبت فرقة من جيشه فحاصرت الحامية التركية فى بتراس .

وحاصر توماس بعد ذلك مدينة كالاماتا زارناتا فى خليج كورون وهى لأخيه ديمتريوس فنهض هذا للانتقام وهجم على إسكدار وأكوبا ، وحمى وطيس القتال بين الأخوين . وانتهز الألبانيون ـ وهم قوم أهل شكيمة وشغب ـ هذه الفرصة ليثأروا لأنفسهم مما كان قد لحق بهم من الهزائم فأمعنوا فى سلب الروم ونهبهم بدون تمييز بين أتباع توماس وأتباع أخيه ديمتريوس فعمت الفوضى وأهرقت الدماء فى كل مكان ، وما لبث الأتراك أن أدلوا دلوهم فى هذه المعمعة وخرجوا من قلاعهم فى موخلى وفوستتزا وكورنثه وأميكا فزادوا النار ضراماً وشدة .

ولما علم السلطان الفاتح بهذه الاضطرابات عزاها إلى إهمال عمر بن طرخان وعزله من منصبه وجعل مكانه حمزة فزحف إلى بتراس وأكره الروم على رفع الحصار عنها ، وزحف بعد ذلك إلى ليونداری حيث تحصن توماس فهزم جيشه وكاد حمزة يستولى على هذه المدينة لولا ظهور وباء فى الجيش التركى حمله على الانسحاب ، وحاصر الروم بتراس مرة أخرى غير أن الأتراك انقضوا عليهم وأكرهوهم على الفرار تاركين وراءهم عتادهم ومدافعهم غنيمة للأتراك ، وأدرك توماس أنه أعجز من أن يناضلهم فطلب الصلح ولم يمانع السلطان الفاتح فى ذلك فقد كان يريد التفرغ لشؤون أخرى أعظم قدراً وأهمية ، على أن يدفع توماس ثلاثة آلاف قطعة ذهباً كتعويض حربى ، ولكن توماس ما

لبث أن نكث هذا الاتفاق وأزمع على مواصلة القتال .

ورأى بعض أهل الرأى من الروم فى المورة وفى مقدمتهم مطران أسبرطة أن هذه الحروب المستعرة بين توماس وديمتريوس لا يستفيد منها غير الأتراك وسعوا إلى التوفيق بين الأخوين وإصلاح ما بينهما ، وجمع بينهما فى إحدى الكنائس حيث أقيمت فيها الصلاة ووقف الأخوان جنباً إلى جنب وأقسما أمام المذبح أن ينسيا كل ما كان بينهما من نزاع وخصام ويعيشا بعد ذلك على المحبة والتعاون والتساند وتلقيا من المطران القربان المقدس توكيداً للقسم العظيم الذى أقسماه .

فلما علم السلطان الفاتح بهذا الاتفاق بين الأخوين وتحالفهما ضده اعتبر ذلك فشلاً لسياسة حمزة فعزله وعين مكانه زغنوس باشا الذى ذهب من فوره إلى المورة .

على أن الأخوين توماس وديمتريوس لم يكادا يخرجان من الكنيسة حتى نسيا كل ما قد تواثقا عليه من المحبة والتعاون والتساند ولم تنقض سنة 1459 حتى هجم كل منهما على الآخر ممعناً فى التخريب والتقتيل ، وقام الألبانيون من جانبهم فزادوا نار الحرب ضراماً وضاعفوا التخريب والدمار ، ونظر بعض أهل الرأى والفكر من الروم فيما ينزل بالبلاد من دمار وخراب وهذه الحرب الدامية التى لا يخبو أوارها بين النصارى يفتك بعضهم ببعض لايردعهم شىء والكنيسة واقفة تنظر ولا تقدر على شىء فذهب إيمانهم بالنصرانية ونبذوها واعتنقوا الإسلام [1] .

وكان توماس قد استولى على بعض أملاك أخيه وطمع فى أن يحتفظ بها فبعث إلى السلطان الفاتح يفاوضه فى ذلك ، وكان الفاتح إذ ذاك يتأهب للقيام بحملة فى آسيا الصغرى فقبل ما عرضه عليه توماس وهو أن يدفع جزية سنوية قدرها ثلاثة آلاف قطعة ذهباً ويبقى جنوده بعيدة من الحدود التركية وأن يعقد هذا الاتفاق بعد عشرين يوماً مع المندوب التركى الذى سيرسل إلى كورنثه ، ولكن توماس لم يف بشىء مما وعد ، وضاق السلطان الفاتح ذرعاً بالأمر وأخذه الغضب فأجل حملته إلى آسيا وسار لتوه بجيشه إلى الموره ليستأصل منها أسباب الفساد والاضطراب ويقر فيها الأمن والسلام واتجه نحو أسبرطة حيث تلقاه ديمتريوس مستسلماً خاضعاً وأحسن الفاتح لقاءه وطلب إليه أن يأمر

---

(1) Finlay, A History of Greece .

كل مدينة وقلعة فى أراضيه أن تسلم للأتراك ، ولكن ديمتريوس لم تعد له الطاعة على مدنه وقلاعه فلم يكن بد من إخضاعها بالقوة .

وهكذا أخضع السلطان الفاتح قلعة كاسترتزا التى قاومت مقاومة عنيفة وقتل فريقاً من رجال حاميتها الأشداء لإرهاب حاميات القلاع الأخرى التى قد تحدث نفسها بالمقاومة واستسلمت ليوندارى طواعية بغير قتال واشتد الفاتح فى إخضاع وقهر كارديكا لمقاومتها الشديدة ، الأمر الذى أثار الفزع والرعب فى سائر المدن والقلاع فتسابقت إلى الخضوع والاستسلام وفى مقدمتها نافارين وأركاديا ، ونقل سكان المدينة الأخيرة إلى القسطنطينية ثم واصل تقدمه دون أن يلقى مقاومة تذكر وتفتحت أمامه الأبواب وعامل الناس بالحسنى والرحمة والإنسانية .

ولكن مدينة سالمينيكو قاومت مقاومة عنيدة فقطع الفاتح عنها الماء الذى كان يسقيها فاستسلمت المدينة ولكن قائدها جريتزاس انتقل إلى القلعة وواصل قتاله هناك إلى أن نفذت قواه فعرض على السلطان الفاتح أن يسلم له على أن يأذن له بالرحيل إلى ليبانت وكانت للبندقية ، وقد قدر الفاتح فى هذا القائد شجاعته وبسالته فأجابه إلى طلبه وتركه يذهب حيث أراد .

وكان السلطان الفاتح عند بدء توغله فى المورة قد أرسل قائده زغنوس باشا لفتح الشمال الغربى من شبه الجزيرة . وحدث أن أمن هذا القائد حامية إحدى القلاع على حياتها وأموالها ولكنه نكث قوله عندما رأى وفرة الأموال فاستحوذ عليها بعد أن قتل رجال الحامية ، فلما بلغ ذلك السلطان استشاط غضباً وعزل زغنوس باشا من منصبه .

أما عن حاكمى المورة ديمتريوس وتوماس فإن السلطان الفاتح قد جعل للأول مقراً فى مدينة إينوس وعين له راتباً سنوياً سخياً ، وقضى الأمير الرومى بقية حياته فى عيشة رافهة هادئة ثم ترهب فى آخر عمره وتوفى سنة 1471 بأدرنة ، أما توماس فإنه أول ما علم بدخول السلطان الفاتح أسبرطة فر إلى ميناء نافارين وهرب على إحدى السفن إلى كورفو ومن هناك بعث إلى السلطان الفاتح يعرض عليه أن يسلم له مدينة مونمفازيا على أن يوليه على الجنوب الشرقى من المورة ولكن الفاتح لم يكترث لأمره ، وظل توماس في كورفو يترقب إلى أن فقد كل أمل في العودة إلى المورة فأقلع فى أواخر سنة 1460 مع بعض رجاله

من النبلاء إلى روما ليطلب المعونة والمساعدة من البابا پى الثانى ودوق ميلان وغيرهما من أمراء النصرانية ولكنه لم يلق شيئاً مما كان يريد حتى غلبه اليأس فعاد أدراجه إلى درازو بألبانيا وظل بها حتى مات فى 12 مايو 1465 وتفرق أصحابه من بعده [1] وتشتتوا فى أنحاء إيطاليا .

أما المورة نفسها التى طالما جلبت عليها الفتن والحروب المتوالية الخراب والدمار والتعس فقد استأصل منها الفاتح أسباب الفتن والاضطرابات وأخلدت إلى السكينة لتعيش فى رغد وطمأنينة .

وبفتح أثينا والمورة أصبحت اليونان كلها للدولة العثمانية اللهم إلا بعض مواقع وقلاع متفرقة على الشواطئ مثل كورون ومودون وأرجوس وليبانت كان أغلبها للبنادقة .

ليس من شك فى أن لمضيقى الدردنيل والبوسفور أهمية عظمى للدولة العثمانية إذ يقع بين هذين المضيقين بحر مرمرة الذى يفصل بين تركيا الأسيوية وتركيا الأوروبية إن صح هذا التعبير ، فإذا ما دخل أسطول أجنبى هذا البحر فقد هدد الدولة العثمانية تهديداً خطيراً وشقها شطرين وقد كان أول شىء قام به السلطان الفاتح قبل حصار القسطنطينية أن شيد قلعة « بوغازكسن » على الشط الأوروبى من البوسفور لمنع أى مدد قد يأتى من البحر

(1) كان لتوماس ابنان مات أحدهما في روما سنة 1502 أما الآخر وهو مانويل فلم يطب له المقام لدي البابا وفر إلي القسطنطينية ولاذ بالسلطان الفاتح فاحتفي به وأكرم مثواه وقدم إليه بعض الخدم والجواري وأسبغ عليه فضله ونعمه ووسع له في عيشه وتركه علي دينه حتي مات وترك وراءه ابنين وهما يوحنا وقد مات علي النصرانية أيضاً أما أخوه أندريه فقد مال إلي الإسلام واعتنقه وتسمي بمحمد كذلك كانت لتوماس ابنتان أما إحداهما وهي هيلين فكانت قد تزوجت حاكم صربية لازار .
وقد رأينا من قبل كيف أن السلطان الفاتح قد أذن لها بعد أن سلمت قلاعها في صربية بالرحيل عنها بجميع أموالها ولجأت إلي راجوزة . ولم يهمل السلطان الفاتح مع ذلك أمرها بل واصل رعايته لها وغمرها بعطفه وفضله إلي أن توفيت مترهبة ، وتزوجت إحدي بنات لازار بملك البوسنة . فلما مات عنها زوجها لجأت إلي روما ولم يطب لها المقام والعيش هناك ففرت إلي القسطنطينية وعاشت بقية حياتها ناعمة راضية تحت كنف السلطان الوارف الظليل ، فهذه صور مما تجيش به نفس السلطان الفاتح من الأحاسيس والعواطف الإنسانية الكريمة يسبغها علي من قست عليهم الأيام وأخني عليهم الدهر ولو كانوا من أعدائه وفيها أبلغ حجة علي أولئك الذين يتخرصون علي السلطان الفاتح ويصمونه بالغلظة والقسوة والوحشية .

الأسود كما وضع كثيراً من السفن عند مدخل ميناء القسطنطينية لمنع أى مدد قد يأتى من الغرب .

ولم ينس الفاتح ـ ولا شك ـ ما قام به النصارى سنة 1402 م عندما سدوا الطريق فى وجه والده ومنعوه من العبور إلى أوروبا وكيف استولى الهلع والفزع على المسلمين بأدرنة حينما لاح لهم أن النصارى قد أطبقوا عليهم من البر والبحر ، فكان طبيعياً بعد أن فتح السلطان الفاتح القسطنطينية واتخذها عاصمة لدولته أن يعمل على تحصينها واتخاذ جميع أسباب الحيطة والقوة فأصلح أسوار المدينة واستحكاماتها ووضع على كل جانب من جانبى مضيقى البوسفور والدردنيل مدافع ضخمة قوية لمنع أى سفينة من دخول بحر مرمرة إلا بعد تفتيشها .

ورأى الفاتح زيادة فى الدعم والتحصين أن يستولى على المواقع القريبة من القسطنطينية والتى لا تزال فى أيد أجنبية فكانت هناك من ناحية الشمال طرابزون وأماصرة وسينوب على شاطئ آسيا الصغرى ، وقد استولى الفاتح عليها جميعا كما سنرى فيما بعد

أما من ناحية الجنوب فقد كانت تقع قبالة مضيق الدردنيل طائفة من الجزر ما بين كبيرة وصغيرة متناثرة فى بحر « إيجيه » وفى مقدمتها تاسوس وساموتراس وإيمبروس وليمنوس ولسبوس (أو ميتيلين) وخيوس (أوخيو) [1] .

وكانت الجزر الخمس الأولى تملكها أسرة جاتيلوزيو Gattilusio الجنوية ، ذلك أنه فى الحرب الأهلية التى نشبت بين الإمبراطور « يوحنا الخامس » بالبولوج وبين « كانتا كوزين » شريكه فى الحكم انهزم يوحنا وفر إلى جزيرة تينيدوس ولاذ بها وظل يترقب الفرصة المواتية ليعيد الكرة على خصمه ، وإنه لكذلك إذ رسا « فرانسسكو جاتيلوزيو » أحد تجار ونبلاء جنوا فى جزيرة لسبوس بأسطوله المسلح تسليحاً قوياً واهتبل يوحنا هذه الفرصة فعرض على فرانسسكو جاتيلوزيو أن يعينه على أمره واعداً إياه بأن يزوجه إحدى أخواته ويقدم إليه جزيرة لسبوس مهراً عنها ، وقبل جاتيلوزيو هذا العرض ، وبمعاونته استرد يوحنا الخامس عرش القسطنطينية ، وامتلك فرانسسكو جاتيلوزيو لسبوس .

---

(1) أما جزيرة تينيدوس فقد كانت خاوية مهجورة اتخذها القراصنة وكرلهم ومحطة لسفنهم في غدوها ورواحها فشيد فيها السلطان الفاتح قلعة منيعة ونقل إليها جمعاً كبيراً من السكان بأهلهم وأولادهم ويسر لهم أسباب الإقامة فيها .

ولكن الجنويين تجار استعماريون ينزعون بطبعهم إلى التوسع فى نشر التجارة واستزادة الكسب ما وسعهم السبيل إلى ذلك ، وقد ساعدهم على النجاح ما كانت عليه بيزنطة فى ذلك الحين من الضعف والانحلال والفساد وعجزها عن الدفاع عن نفسها فى عقر دارها فضلاً عن أملاكها البعيدة التى تفصلها عنها البحار .

ولم تكد أسرة جاتيلوزيو تستقر فى مستعمرتها الجديدة لسبوس حتى أخذت تتمدد وتتبسط كالأخطبوط تمد أيديها هنا وهناك وتقبض على فرائس جديدة ، فقد انقسمت هذه الأسرة الجنوية إلى فرعين استقر أكبرهما فى لسبوس واتخذها قصبته ثم استولى بعد ذلك على جزيرتى ليمنوس وتاسوس ، أما الفرع الآخر الأصغر فقد اتخذ مقره فى إينوس وهى مدينة ساحلية فى جنوبى تراقيا واتخذها قصبته واستولى بعد ذلك على جزيرتى إيمبروس وساموتراس .

وهكذا أصبحت الجزر الكبرى فى بحر إيجيه فى أيدى حكام جنويين ووجدت جنوا فى هذه الجزر محطات لسفنها تأوى إليها وملاذاً تفزع إليه إذا ما دهمها القراصنة فى عرض البحار ، وكان ذلك من عوامل ازدهار تجارة جنوا فى الشرق .

وعلى أثر سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك فر كثير من أهلها من الروم واللاتين إلى جزر الأرخبيل ، كما أن النجدة التى أرسلها البابا وبعض دول الغرب كانت قد وصلت إلى جزيرة خيوس وعاقتها الرياح عن مواصلة السير فتلبثت هناك ، وخشى الفاتح أن تتجمع هذه القوى النصرانية فى هذه الجزر الواقعة عند مدخل الدردنيل فسيَّر أسطوله إليها للاستكشاف والمراقبة وبلغ فى استكشافه إلى أقصى الجنوب حيث تقع رودس ، وقد كان لهذه الجزيرة من الأهمية والخطر مالم يكن لغيرها من الجزر المجاورة لها ، وكان يقطنها فرسان القديس يوحنا وهم بقية من الصليبيين الذين كانوا بفلسطين وبقوا على حميتهم الصليبية الأولى كما ظلوا على ولائهم للبابوية يدينون لها بالطاعة ويصدرون عن أمرها وأخذوا يمدون يد المعونة إلى كل حملة تشن على الدولة العثمانية ، وكانت هذه الجزيرة فوق ذلك محصنة تحصيناً حربياً قوياً فعقد السلطان الفاتح عزمه على إخضاعها وسيَّر إليها أسطوله وحاصرها ، وسنذكر تفصيل ذلك فى موضعه من هذا الكتاب..

والآن نعرض للجزر الجنوية التى مر ذكرها آنفاً وما تم فتحه منها والأسباب المباشرة

التى دعت إلى ذلك .

كان على أهل جزيرة خيوس دين قدره أربعون ألف دوقة لتاجـر من تجار غلطة يدعى « فرانسسكو درابيريو » ولما عجز هذا الدائن عن استرداد دينه من أهل الجزيرة رأى السلطان الفاتح أن يقوم هو بهذا الأمر بوصف أن هذا التاجر من رعاياه الذين تجب على الدولة العثمانية حمايتهم واستيفاء حقوقهم .

أقلع حمزة باشا فى عدة سفن إلى خيوس وذكر لأهلها الرسالة التى بعثه بها السلطان الفاتح وجاء وفد من أهل الجزيرة فأنكروا أن عليهم شيئاً من الدين لدرابيريو ، وكانت هذه الجزيرة على جانب عظيم من المناعة وقوة التحصين ، فقد كان بها حامية كبيرة فضلاً عن السفن المسلحة القوية التى تحمى ميناءها ، ولم يكن مع حمزة من القوة ما يقدر به على القتال واقتحام الجزيرة عنوة ، فطلب من حكامها أن يبعثوا بعض المندوبين ليتفاوضوا ويتفاهموا مع درابيريو نفسه ولكنهم أبوا ذلك عليه فأطلق حمزة باشا مدافعه على بعض ضواحى وأطراف الجزيرة ثم رحل عنها وواصل سيره جنوباً نحو رودس للاستكشاف واستطلاع حصونها وقلاعها .

وعند عودته عرج على جزيرة خيوس ونزل بعض الأتراك إلى البر وهناك حدث شجار بينهم وبين بعض السكان ، وحينما أراد الأتراك العودة إلى سفينتهم تعقبهم هؤلاء الناس وأغرقوا سفينتهم ، وغضب السلطان الفاتح لذلك أشد الغضب وكاد يقتل حمزة ولكنه أبقاه رعاية لما كان له من الحرمة والمنزلة لدى والده السلطان مراد واكتفى بعزله من منصبه ، ثم التفت الفاتح إلى درابيريو وقال له : أنا الذى سيتحمل دينك على أهل الجزيرة وسأطالب به مضاعفاً ثمناً لدم الأتراك الذين هلكوا .

وفى ربيع السنة التالية (589 هـ ــ 1455 م) سير السلطان الفاتح إلى هذه الجزيرة أسطولا بقيادة يونس باشا . ولكن هبت عليه زوبعة شديدة شتتت شمل سفنه وأغرقت بعضها وحال ذلك دون إنفاذ الحملة .

ذكرنا فيما تقدم أن الفرع الأصغر من أسرة جاتيلوزيو قد استقر فى إينوس أقرب المواقع إلى الدردنيل وأشدها خطراً عليه وتهديداً له ، وما إن سنحت الفرصة للسلطان

الفاتح لفتحها حتى اهتبلها ، وذلك عندما شكا إلى بعض قضاة أينوس ما يعانيه سكان هذه المدينة من جور أميرهم دورينو وتعدياته واختطافه عبيد المسلمين وغلمانهم ولا يرد أحداً منهم إلى صاحبه إلا بفدية [1] .

ونما إلى الفاتح من جهة أخرى أن هذا الأمير يحوك مؤامرة ضده فأمر قائده يونس باشا بالإبحار إلى هذه المدينة على بعض السفن لمحاصرتها من جانب البحر بينما زحف هو إليها على رأس جيش آخر لمحاصرتها من البر (صفر 860 هـ ـ يناير 1456 م) .

فلما بلغ ذلك دورينو عجل بالفرار إلى جزيرة ساموتراس أما أهل المدينة فلم يبدوا أية مقاومة وآثروا التسليم للأتراك ونصب عليهم السلطان الفاتح والياً من قبله ، وبدا لدورينو أن يجنح إلى السلم ومصالحة السلطان الفاتح فوفد عليه بأدرنة واعتذر إليه عما كان معه وقدم إليه ابنته وقد عفا الفاتح عنه ومنحه بعض المقاطعات ليعيش فيها فى أمن وسلام ، ولكن دورينو ما لبث أن عاودته كبرياؤه وشق على نفسه أن يقضى بقية حياته فى كنف السلطان كالأسير وانتفض انتفاضة المسعور وانقض فجأة بسيفه على من كان يرافقه من الأتراك ثم ولّى هارباً وخرج من حدود الدولة العثمانية ، ولم يعلم شىء من أمره وطوى الزمن ذكره .

وكان من نتيجة فتح إينوس على هذا النحو السريع بغير حرب ولا قتال وفرار أميرها دورينو واختفاء أثره أن بادرت جزيرتا إيمبروس وساموتراس إلى الاستسلام وفتحتا أبوابهما على مصاريعها للعثمانيين .

ورأت جزيرة خيوس أن تتفادى من العاصفة التى كانت تهددها وتدفع الخطر قبل وقوعه فدفعت ما كان عليها من دين للتاجر الجنوى ودفعت للسلطان الفاتح جزية سنوية قدرها ستة آلاف دوقة ، ودفعت له فوق ذلك تعويضاً للسفينة التركية المغرقة ، وبذلك تمتعت هذه الجزيرة بفترة طويلة من الهدوء والسلام .

وتفرغ السلطان الفاتح بعد ذلك للفرع الأكبر من أسرة جاتيلوزيو والذى اتخذ مقره الرئيسى فى لسبوس ، وكان أمير هذه الجزيرة « فرانكو » قد توفى فى أغسطس 1455م ، وخلفه ابنه « دومينيكو » فأوفد إلى السلطان الفاتح دوكاس المؤرخ يحمل إليه الجزية ، ولكن

---

(1) عاشق زادة تاريخى ، صولاق زادة تاريخى ، سعد الدين ، تاج التواريخ .

السلطان لم يقنع بأن ترسل إلى الجزية إرسالاً بل طلب أن يحضر إليه الأمير الجديد بنفسه ليقدم إليه الولاء والطاعة ، فرجع دوكاس ثم عاد يصحبه دومينيكو ولقيا السلطان فى مدينة « أسلاتى » حيث كان قد أقام معسكره فراراً من هواء القسطنطينية الذى خالطه الوباء والفساد ، واحتفى بمقدم الأمير الجديد وزيدت جزية لسبوس إلى أربعة آلاف دوقة ، وطلب منه الفاتح أن يسلم له جزيرة تاسوس التى عجز عن الدفاع عنها وأصبحت مباءة للقراصنة واللصوص وأن يبلغه أنباء حركاتهم ونشاطهم فى مياه اليونان ، ثم خلع على أمير لسبوس قفطاناً مزركشاً بالذهب وخلع على دوكاس وبقية الحاشية قفاطين من الحرير .

وحدث فى ربيع السنة التالية (860 هـ ـ 1456 م) أن ثار سكان ليمنوس على حاكمهم الجنوى « نيكولو » الذى كان يحكم هذه الجزيرة من قبل أخيه أمير لسبوس وطردوه منها وطلبوا إلى السلطان الفاتح أن ينصب عليهم حاكماً عثمانياً من عنده ولم يكن أحب إلى الفاتح من أن يستجيب لمثل هذا الطلب فبعث إليهم حمزة باشا والياً عليهم ورحب به الشعب أجمل ترحيب .

وانتهز نيكولو المطرود فرصة خروج السلطان الفاتح إلى المجر فحاول بمعونة أخيه أمير لسبوس الذى أمده بالجند استعادة جزيرة ليمنوس ولكن حمزة هزمه وأسر عدداً من جنود لسبوس وأرسلهم إلى السلطان الفاتح .

ومن الأمور الجديرة بالنظر أن معظم سكان هذه الجزر التى يحكمها الجنويون كانوا من الروم . ولاشك أنهم قد علموا كيف كان موقف الجنويين فى غلطة حينما حاصر العثمانيون القسطنطينية وكيف كانوا يعاونونهم سراً ويهدون إليهم أسرار الروم الحربية بينما كان جنودهم يدافعون عن القسطنطينية مع المدافعين فكان موقفهم يحوطه شىء من الغموض والريبة .

ويظهر أن السكان الروم فى هذه الجزر التى يحكمها الجنويون أرادوا أن يثأروا لأنفسهم من هؤلاء القوم فأخذوا يسلكون مسلكاً شبيهاً بمسلك الجنويين حين حصار القسطنطينية ، ففيما كان السلطان الفاتح يقوم بحملته فى بلجراد قدم أسطول صليبى أرسله البابا « كاليكست » الثالث إلى الشرق وألقى مرساه فى جزيرة رودس واتخذها مركزاً

لأعماله الحربية ، وأخذ رجال البابا يثيرون أهل جزر الأرخبيل ويذكون فى نفوسهم نار الحماسة النصرانية ويحرضونهم على قتال الأتراك وخلع سيادتهم ، وقد أبت جزيرة خيوس الانضمام إلى الأسطول البابوى بل رفضت أن تدفع الجزية التى كانت تدفعها للسلطان ، أما جزر لسبوس وليمنوس وإيمبروس وساموتراس وتاسوس فقد رحبت بأسطول البابا وانضمت إليه ووضع فيها رجال الأسطول حاميات للدفاع عنها .

غير أن السيادة البابوية على هذه الجزر كانت قصيرة الأجل ضعيفة الأثر ، ولم يجد العثمانيون مشقة فى استرداد هذه الجزر ـ ما عدا لسبوس ـ والقضاء على الحاميات البابوية فيها ، ولم يظهر السكان أنفسهم حماساً فى القتال ، بل أن الروم فى جزيرة ليمنوس قد ناصروا العثمانيين على جنود البابا [1] .

أما لسبوس التى تعد أكبر جزر الأرخبيل ولا يفصلها عن ساحل آسيا الصغرى غير مضيق صغير ضيق فإنها لم تكتف بمساعدة نيكولو على استرداد ليمنوس والانضمام إلى الأسطول البابوى ، بل جعلت من نفسها وكراً للقراصنة الجنويين والكاتالان يغيرون منها على الشواطئ التركية وينهبون المتاجر والأسواق ويختطفون الناس ليبيعوهم أرقاء فى أسواق النخاسة ، وعندما عاد السلطان الفاتح من بلغراد أراد دومينيكو أمير لسبوس أن يتفادى من غضبه فأوفد إليه دوكاس المؤرخ يحمل إليه الجزية ويعتذر إليه عما كان منه ويلتمس منه إعادة الأسرى اللسبوسيين وكان السلطان قد أمر بقتلهم فاكتفى بأن أمر ببيعهم فى الأسواق العامة .

وكان السلطان الفاتح شديد الاهتمام بجزيرة لسبوس فإن هذه جزيرة إلى جانب موقف أميرها العدائى كانت محصنة تحصيناً قوياً وذات استحكامات منيعة وقد حاول أسطول عثمان فتحها سنة (862 هـ ـ 1558 م) فلقى مقاومة شديدة وارتدعنها دون أن ينال منها أى منال ، وقوى ذلك عزم الفاتح على إخضاع هذا الحصن القوى الذى يجاوره .

على أن الانتصار الذى أحرزته لسبوس على الأسطول العثمانى لم يمض بهيجاً صفواً بغير كدر بل أعقبته جريمة بشعة . ذلك أن نيكولو أمير ليمنوس السابق الذى فر إلى لسبوس حيث استظل برعاية أخيه دومينيكو لم يلبث أن نازعته نفسه إلى الحكم والسلطان

---

(1) Heyd, Histoire du Commerce du Levant .

ووجد فى لوسيو ابن أخيه عوناً على تحقيق بغيته ، فاغتال أخاه دومينيكو واغتصب إمارة الجزيرة لنفسه ، ثم أمعن فى مساعدة القراصنة واللصوص الذين يهاجمون الشواطئ التركية ، بل أخذ يشجعهم ويقاسمهم الأسلاب والمغانم .

وكان السلطان الفاتح إذ ذاك منهمكاً فى غزوات وحروب أخرى صرفته حيناً عن هذه الجزيرة إلى أن واتته الفرصة سنة 1462 ، وفى سبتمبر من هذه السنة توجه فى بضعة آلاف من جنده الإنكشارية إلى أيازما وهو شاطئ فى أقصى غربى آسيا الصغرى تجاه لسبوس ، وهناك قدم عليه الأسطول العثمانى فى سبع وستين سفينة زودت بالمدافع والقذائف بقيادة الصدر الأعظم محمود باشا ، واستقله السلطان الفاتح إلى لسبوس وبعث إلى أميرها يطلب منه أن يسلم له الجزيرة على أن يعوضه عنها بمكان آخر يكفل له فيه العيش الرغد الهنيئ ، فما كان من نيكولو الذى كان قد دعم حصون جزيرته وأعد فيها كل ما قدر عليه من وسائل القتال والجنود المدربين وشجعان القراصنة من الجنويين والكاتالان فضلاً عن النخبة المختارة من الفرسان الذين أمده بهم رئيس فرسان رودس بييرريمون زاكوستا واحتشد له من كل ذلك جيش لا يقل عن ثلاثين ألف جندى إلى جانب ما سيلقاه من معونة سكان الجزيرة من الرجال والنساء الذين سيعاضدونه فى القتال ثم هناك بعد ذلك كله السور المائى الذى يحيط بالجزيرة من جميع نواحيها ، وهى ميزة عظيمة لم تكن للقسطنطينية يوم حاصرها العثمانيون منذ تسع سنين - ما كان من نيكولو الذى اجتمعت له كل هذه القوة وامتلأت نفسه إيماناً وثقة بقدرته على الدفاع والانتصار على الجيش المهاجم إلا أن أجاب على رسول السلطان الفاتح فى عزة وخيلاء بأنه سيحتفظ بجزيرته ولن يسلمها أبداً ما بقى على قيد الحياة [1] .

وتوقع محمود باشا أن القتال سيكون طويلاً عنيفاً حامي الوطيس ، وكان السلطان الفاتح مع جنده على إحدى السفن فأشار عليه محمود باشا أن يعود إلى البر خشية أن يصيبه بأس أو مكروه أثناء المعركة ، وهى معركة بحرية لم يألف الفاتح أساليبها وهو رجل شديد الاندفاع قليل المبالاة للخطر ، وحسبه أن يرقب المعركة من الشاطئ ويشرف على سيرها من هناك .

---

(1) تاريخ خير الله أفندي .

وأخذت مدافع الأسطول العثمانى تطلق قذائفها الضخمة من الحجر الصلد والرخام وكان لاصطدامها بأسوار الجزيرة دوى هائل مرعب وتملأ الفضاء بشظاياها المتناثرة ، وظلت على ذلك سبعة عشر يوماً حتى تهدمت الأسوار ودكت الأبراج وفتحت الثغرات فهجم عليها العثمانيون هجمة رجل واحد لم يقو المدافعون على صدها طويلاً . ولم يلبث أن اضمحلت قواهم واستحوذ الفزع على قلب نيكولو وأدرك أن حصونه وجنوده لم تغن عنه شيئاً فقصد مسرعاً إلى محمود باشا وقال له : « إنى جئت هنا وحدى أحمل رأسى بين كتفى لأحظى بمقابلة السلطان وتركت ولدى وابنتى فى الحصن ولا غاية لى غير نيل رضا السلطان »(1) .

وأبلغ محمود باشا ذلك إلى السلطان الفاتح فعاد لتوه إلى لسيوس وترامى الأمير نيكولو تحت قدميه يبكى ويعتذر له عما كان منه وعدم إسراعه إلى إجابة طلبه بالتسليم وأعلن استعداده لتنفيذ جميع أوامره بعد ذلك ، وقد عاتبه السلطان على قلة تبصره وتهوره ثم عفا عنه وأمنه على حياته وخلع عليه ونصب له خيمة بجانب خيمة محمود باشا وطلب إليه أن يضع الجنود والحاميات العثمانية فى المدن الرئيسية والقلاع الهامة فى الجزيرة ، واختار الفاتح من سكانها أهل الجاه والرفعة ونقلهم إلى القسطنطينية ، وعهد الفاتح إلى وزيره محمود باشا فى إدارة الجزيرة وتنظيم شؤونها . وطلب إليه أن يسجل فى دفتر خاص ما فى الجزيرة من الغنائم والأموال ، ووزع طرفاً منها على المجاهدين والعلماء والفقراء ، وطهر الجزيرة من أهل الشغب والفساد ونصب فيها قاضياً للمسلمين الذين اختاروا الإقامة فيها وأنشأ لهم بعض المساجد .

أما نيكولو وابن أخيه لوسيو فقد بدءا حياة جديدة يسودها الأمن والرفاهية ، غير أنها لم تطل فقد كشف السلطان الفاتح عن أمر استوجب عقابهما ، ذلك أنهما قبيل الحرب كانا قد آويا غلاماً من غلمانه فرَّ من قصره وأكرهاه على التنصر ، فلما فتحت لسبوس أسر هذا الغلام فيمن أسر من أهلها واقتيد إلى القسطنطينية وهناك ظهر أمره ، وأراد نيكولو وابن أخيه أن يتفاديا من العقاب فأعلنا إسلامهما ، ولكن السلطان الفاتح لم ينخدع بهذا الإسلام المزيف الذى أثار الريبة والسخرية لدى المسلمين والنصارى على السواء وأمر بقتلهما .

---

(1) عاشق زاده تاريخي .

الفصل الثالث

فى ألبانيا والأفلاق والبوغدان

إسكندر بك يحمى استقلال بلاده بسيفه ـ هزيمة الجيوش العثمانية ـ هدنة بين الفاتح واسكندر بك ـ البابا يحث إسكندر بك على نقضها ـ ألبانيا معقل النصرانية فى نظر أهل الغرب ـ خروج الفاتح بنفسه إلى ألبانيا ومحاصرة كرويا ـ اسكندر بك يستنجد إيطاليا ـ رفع الحصار عن كرويا ـ وفاة إسكندر بك وحزن النصرانية ـ إمارتا الأفلاق والبوغدان ـ سياستهما المذبذبة تجاه الدول الكبرى المجاورة ـ الحرب بين الفاتح ودراكول السفاح ـ مقتل دراكول وضم الأفلاق إلى الدولة العثمانية ـ أسطفان أمير البوغدان يهزم جيشاً عثمانياً ـ اغتباط النصرانية ـ غضب الفاتح وخروجه بنفسه ـ أسطفان يستنصر الدول النصرانية ـ هزيمة أسطفان ووصيته لابنه بالخضوع للعثمانيين .

ظل إسكندر بك منذ عودته إلى ألبانيا يذود عن بلاده بقوة سيفه وهزم جميع الجيوش العثمانية التى قاتلته فى عهد السلطان مراد الثانى وابتهج أهل إيطاليا ابتهاجاً عظيماً بانتصاراته وبعثوا إليه يهنئونه وأرسل إليه الفونس ملك ناپولى بالميرة والجنود والرجال المدربين من المعدنيين والمدفعيين .

وقد واصل السلطان الفاتح حملات والده فوجه إلى ألبانيا بعد فتح القسطنطينية جيشين متواليين هزمهما إسكندر بك ، وزاده ذلك ثقة وإيماناً بقواته فحاصر مدينة بيرات التى كانت لا تزال فى أيدى العثمانيين وشدد عليها الضغط وكاد يستولى عليها لولا أن جاء جيش عثمانى جديد بقيادة صوالى فانقض على إسكندر بك وهزمه فلجأ إلى جباله وهو يرى فريسته وقد أفلتت من يده وتميز من الغيظ وصر بأسنانه ونفث الدم من شفته السفلى وقتل فى هذه المعركة صديقه موزاخى وقد كان من خيرة قواده وقتل معه جميع من كان معه

من جنود نابولى الذين أرسلهم الملك الفونس ، وعظم ابتهاج الأتراك بهذا النصر فقد كان أول نصر أحرزوه على الألبانيين ولكنه كان آخر نصر أيضاً .

وفيما كان إسكندر بك يقاسى آلام الهزيمة إذ خانه صديقه وزميله فى السلاح دبره لى موسى وحاول أن يستميل الألبانيين ويغريهم بالفرار معه إلى الجيش العثمانى الظافر وترك إسكندر بك المهزوم الذى انتهى عهد انتصاراته ولن يقوى بعد ذلك على مقاتلة العثمانيين ، ولكنه لم يجد من يصغى إليه ففر وحده وصحب القائد العثمانى صوالى فى عودته إلى القسطنطينية .

وقد شك السلطان الفاتح أول الأمر فى حقيقة أمره ونواياه واعتقد أن إسكندر بك بعثه عيناً يتجسس عليه ودسيساً يتعرف أخباره وأسراره فراقبه فى يقظة وحذر فترة من الزمن حتى اطمأن بعض الشىء ، وأكد دبره لى موسى للسلطان أنه قادر على إخضاع إسكندر بك وطلب إليه أن يمده بخمسة عشر ألف جندى فقط ويرجع إليه بعد ذلك برأس هذا الثائر . وأجابه الفاتح إلى ما طلب فليس أحب إليه من أن يظفر بعدوه اللدود بهذا الثمن البخس .

وخرج موسى بجيشه إلى ألبانيا والتقى به إسكندر فى دبرا السفلى ، وما هى إلا صولة صالها حتى هزمه ومزق الجيش العثمانى وفر موسى عائداً إلى القسطنطينية ودخلها وهو منكس الرأس خزيان ، وتجهم له السلطان الفاتح وأعرض عنه ، واستحوذ اليأس والقنوط على موسى وضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم يجد له مقاماً فى القسطنطينية فعاد إلى ألبانيا وارتمى بين قدمى إسكندر بك يستغفره عن زلته فعفا عنه وأعاد إليه ما كان له من المنزلة .

ولم يكد إسكندر بك يفعل ذلك حتى فوجىء بصدمة أخرى أشد عنفاً ومرارة ، فقد خرج عليه ابن أخته حمزة وفر إلى القسطنطينية بعد أن وعده السلطان الفاتح بأن يجعله والياً على أبيروس ، إذا استطاع أن يهزم إسكندر بك ، والواقع أن إسكندر بك قد ساوره شىء غير قليل من القلق والخوف لما كان يعرفه عن ابن أخته حمزة من الكفاية والذكاء والإحاطة بمواقع بلده ، وقد أرسله السلطان الفاتح إلى ألبانيا فى أربعين ألفاً من الجند ومعه القائد العثمانى عيسى بن أوره نوس وتأهب إسكندر بك للقائهما بعد أن تخير لنفسه

أحسن المواقع وانقض على الجيش العثمانى فى سهل السبو بين نهرى ماتيا ودرين وأمعن فيه فتكاً وتقتيلاً حتى جرت دماؤهم غزيرة إلى نهر درين وصبغته باللون القانى وانهزم الأتراك انهزاما تاماً ، وأسر حمزة مع أحد كبار الجيش التركى .

ودخل إسكندر بك مدينة كرويا ظافراً منتصراً محملاً بالغنائم الوفيرة وأذاع نبأ انتصاره على جميع ملوك أوروبا زاعماً أنه قتل من الأتراك ثلاثين ألف وبعث إليهم ببعض الغنائم والأسرى ، وعفا إسكندر بك عن ابن أخته حمزة واتفق معه على أن يتظاهر بالفرار ويذهب إلى القسطنطينية دون أن يثير الريبة والشك ويعود منها بزوجته وأولاده ولكنه مات بها مسموماً .

ولم يكن فى وسع السلطان الفاتح إذ ذاك أن يوالى إرسال حملاته إلى ألبانيا بغير انقطاع فقد كانت هناك أمور أخرى هامة تشغله فى آسيا ومجابهة البندقية التى اندلعت نيران الحرب بينها وبينه ، ورأى أن لامناص من مهادنة إسكندر بك للتفرغ لهذه الشؤون فأوفد إلى ألبانيا مزيد بك ومعه قدر كبير من المال لافتداء كبار الأسرى من العثمانيين ومباحثة إسكندر بك فى عقد الهدنة .

وكان إسكندر بك من جانبه يرى أن الهدف الذى يرمى إليه من الحرب هو صد الغزاة ومنعهم من احتلال بلاده وقد نجح فى ذلك أيما نجاح ، وكانت بلاده بعد هذه الحروب الطويلة المتوالية بالرغم من انتصاراته فى أشد الحاجة إلى الراحة وأن ينصرف الزراع إلى مزارعهم ، ولا بد له بعد ذلك من استجابة دعوة البابا پى الثانى وحليفه ملك ناپولى إلى الشخوص إلى إيطاليا لمعاونته فى حربه ضد الفرنسيين .

وهكذا انتهت المفاوضات التى كانت تحدوها الرغبة من جانبى الفاتح وإسكندر بك على السواء إلى عقد صلح بينهما فى(13 رمضان 865 هـ ـ 22 يونيو 1461 م) وأعيدت إلى إسكندر بك قلعتا « ستيفجراد وبيرات » اللتان كانتا يحتلهما العثمانيون ، ولم يكد يتم هذا الاتفاق حتى أسرع إسكندر بك فى السفر إلى إيطاليا وأبلى أحسن البلاء فى مناصرة حليفه ملك ناپولى فرديناند الذى خلف أباه الفونس ، وفى أثناء غيابه بإيطاليا قام العثمانيون بفتح المورة على نحو ما أبنا من قبل .

ولم تدم الهدنة أكثر من ثلاث سنوات إذ لم يكد يعود إسكندر بك من إيطاليا

سنة 1463 م ، حتى دعا البابا پى الثانى جميع النصارى إلى شن حملة صليبية موحدة على العثمانيين ، وأبلغ دعوة البابا هذه إلى إسكندر بك « پول انجيلو » مطران درازو وهو صديق حميم له ، ونجح فى حمله على نقض عهده مع الفاتح وإقناعه بأن هـذا العمل لا يعد جريرة بل هو قربى إلى الله ، واغتبط البابا بنجاح رسوله فى أداء رسالته وكافأه بقبعة الكاردينالية .

ولما علم الفاتح بهذا الأمر بعث إلى إسكندر بك يذكره بما بينهما من العهد ويناشده الوفاء به والمحافظة على الهدنة ، فما كان منه إلا أن سخر من الفاتح وقال إنه لن يعقد معه أى عهد إلا إذا ارتد هو عن دينه المزيف (الإسلام) [1] .

ولم يشأ إسكندر بك انتظار الجيوش الصليبية التى كان سيأتى بها البابا بنفسه إلى ألبانيا [2] بل بادر إلى الإغارة على أملاك الدولة العثمانية وتخريبها فسير إليه الفاتح قائده شرمت بك على رأس أربعة عشر ألفاً من الفرسان ولاقاه إسكندر بك فى أوخرى وأوقع به الهزيمة وأسر ثلاثة عشر شخصاً من كبار رجال جيشه فداهم شرمت بك بأربعين ألف دوقة وغضب السلطان الفاتح لهذه الهزيمة فسير إلى ألبانيا جيشاً آخر يقدر بخمسة عشر ألف فارس وثلاثة آلاف من المشاة بقيادة القائد الجسور بالابان بك وهو ألبانى الأصل وقد أظهر فى حصار القسطنطينية شجاعة فائقة وبسالة نادرة وكان أول جندى نصب العلم العثمانى على أسوار هذه المدينة وقد كافأه السلطان الفاتح على ذلك بأن رقاه إلى مرتبة القيادة .

حاول بالابان بك أول الأمر أن يستميل إليه إسكندر بك بالهدايا ويغريه بالوعود الخلابة ولكن هذه المحاولة ذهبت هباء بغير طائل ، ولم يجد بالابان آخر الأمر مندوحة عن مقاتلته ، وقد اختار إسكندر بك لملاقاته ـ وكان أمهر الناس فى اختيار الأمكنة ـ وادى فالخاليا حتى لا تطغى عليه كثرة الجيش العثمانى ، وقد توقع أن يكون وراء هذا الوادى كمين للعثمانيين فحذر جنوده إلى ذلك قبل نشوب القتال ونهاهم عن مطاردة العدو إذا ما كتب لهم النصر فى القتال ، وما هو إلا أن التحم الجيشان حتى انهزم العثمانيون وارتدوا على أعقابهم ، ولم تستطع تحذيرات إسكندر بك أن تمنع ثمانية من أشجع قواده من

---

(1) Sismondi op. cit.

(2) لم تتم هذه الحملة الصليبية الكبيرة التي أراد البابا پى الثانى شنها على الدولة العثمانية . وسنرى فيما بعد كيف انتهى أمرها .

الاندفاع وراء المهزومين فوقعوا فى شرك وأحيط بهم من كل جانب وأسرهم العثمانيون وأرسلهم بالابان إلى القسطنطينية ، وبادر إسكندر بك إلى دفع فدية كبيرة عنهم ولكن الفاتح رفضها فقد كان يرى فى حياتهم خطراً شديداً تهون إلى جانبه كل فدية مهما عظمت وأمر بقتلهم .

وكان لفقد هؤلاء القواد الشجعان أثر عميق من الحزن فى نفوس أهل ألبانيا ونفوس الجنود الألبانيين بخاصة فلبسوا السواد وأطلقوا شعورهم ولحاهم حداداً عليهم واشتد الحنق والغضب بإسكندر بك وجنوده فانقضوا على العثمانيين والتحموا بهم فى معركة حامية رهيبة فى أورنيخ بالقرب من دبرا العليا أرغمت بالابان على الانسحاب ولكنه لم يلبث أن عاد بجيش جديد أرسله له السلطان الفاتح تعداده سبعة عشر ألف فارس وثلاثون ألفاً من المشاة ، وظل يترقب فترة من الزمن حتى ظن أن الفرصة قد واتته فهجم بكل قوته على إسكندر بك بالقرب من سفيتجراد وحمل عليه حملة عنيفة وحمى وطيس القتال وأصيب اسكندر بك بجرح بالغ فى ذراعه واصطدم جواده اصطداماً شديداً بجذع شجرة فسقط عنه إسكندر بك مغشياً عليه ، وترددت كفة النصر زمناً بين الفريقين ، وما لبث إسكندر بك أن استفاق من غشيته وكر على العثمانيين كرة عنيفة مزقت صفوفهم وهزمتهم هزيمة ساحقة ، ولم ينج بالابان نفسه إلا بصعوبة .

على أن هذا الفشل الجديد لم يوهن عزم الفاتح ولا عزم قائده بالابان ، واقترح هذا القائد أن يعد جيشان جديدان قويان يزحفان إلى ألبانيا فى وقت واحد من طريقين مختلفين ، وتولى قيادة أحد الجيشين يعقوب أرناءوط وكان عليه أن يدخل ألبانيا من الجنوب متبعاً ساحل البحر ، ويقود بالابان الجيش الثانى فيسير من تراقيا ومقدونية ويدخل ألبانيا من معابر الجبال .

وعلم إسكندر بك من جواسيسه بخطط الأتراك وأدرك أن السرعة وحدها هى التى ستمكنه من منع الجيشين التركيين من التلاقى والإطباق عليه ، فعجل بملاقاة بالابان وهزمه وفيما كان جنوده يقتسمون الغنائم إذ جاءه رسول من عند أخته ماميزا يخبره بأن يعقوب أرناءوط قد دخل بيرات فى ستة عشر ألفاً من الفرسان يكتسحون كل شىء أمامهم ، فأسرع إليهم إسكندر بك بجيشه وقذف إليهم من أعالى الجبال برؤوس قتلى الأتراك من

جيش بالابان يعلمهم بهزيمته ثم اشتبك الجيشان فى قتال عنيف مرير وبحث إسكندر بك عن يعقوب حتى لمحه وسط الجند فنهش إليه وطوح رأسه بسيفه ، وتشتت شمل الجيش العثمانى بعد مقتل قائده وتمت عليه الهزيمة .

عاد إسكندر بك إلى كرويا ودخلها دخول الظافر المنتصر واستقبله الناس بأشد مظاهر الفرح والابتهاج ، ثم بعث إلى ملوك أوروبا يبشرهم بالنصر العظيم الذى أحرزه وأرسل لهم بعض الأسرى من العثمانيين ، كما أتحفهم ببعض ما غنمه منهم كالجياد والسيوف والقسى وزاد هذا الانتصار فى مجد إسكندر بك وشهرته العسكرية ، ونظرت إليه شعوب أوروبا كبطل من أبطال النصرانية يذود عنها ضد تيار الإسلام الجارف وأصبحت جبال ألبانيا فى نظر أهل الغرب معقل النصرانية الحصين الذى تتحطم على صخوره حملات الإسلام الزاحفة .

وأخذ بعض الجنود العثمانيين يتحدثون عن بسالة إسكندر بك وشجاعته فى الحرب وتحدثوا بوجه خاص عن سيفه الصمصام المهول الذى يفلق الثور نصفين بضربة واحدة ، واشتاق السلطان الفاتح إلى رؤية السيف وبعث يطلبه من صاحبه ، ولكنه عندما جربه وجده دون ما بلغه عنه ، وكتب بذلك إلى إسكندر بك فأجابه بقوله : إن المعجزة ليست فى السيف وإنما فى الساعد الذى يضرب به[1] .

ولم يجد السلطان الفاتح بداً بعد فشل قواده أن يخرج بنفسه فأعد جيشاً كبيراً يربو على مائة ألف جندى وزحف به إلى ألبانيا ودخلها فى (ذى القعدة 870 هـ - يونيو 1465م) واستعاد بعض القلاع ، ورأى إسكندر بك أنه من الحمق أن ينازل بجيشه الصغير هذا الجيش الضخم العرمرم فى ميدان مكشوف فغادر كرويا قبل أن يحاصرها الجيش العثمانى وترك بها حامية قوية تحت قيادة رجل إيطالى يدعى بالتاسار بردوشى عرف ببراعته وحذقه فى الهجوم على القلاع والدفاع عنها ولاذ هو بالجبال وأخذ ينقض منها بين حين وحين على الجيش العثمانى ويفتك بساقته .

ووجد الفاتح أن الحصار سيطول قبل أن يؤتى ثمرته ، وهناك أمور هامة تستوجب عودته إلى القسطنطينية فعهد إلى قائده بالابان فى مواصلة حصار كرويا ويشدد قبضته

---

(1) هناك اختلاف بسيط في اللفظ في روايات المؤرخين عن إجابة إسكندر بك .

عليها حتى تستخذى وتستسلم ووجد إسكندر بك من جانبه أن كثيراً من أجزاء بلاده قد خربتها المعارك وأن الحروب المتواصلة التى خاضها برغم أنها كللت بالانتصارات قد نهكت جيشه وذهبت بكثير من خيرة قادته ورجاله ، وهناك بعض القلاع والحصون تعوزها الحاميات ، وتلفت إسكندر بك ينظر فيمن يستنجده ويستعينه فرأى أن أقرب البلاد إلى نجدته ومعاونته هى إيطاليا إذ أنها أكثر البلاد تعرضاً للخطر فإن الأتراك إذا ما استولوا على ألبانيا فلن يكون أمامهم هدف بعد ذلك غير إيطاليا ، يضاف إلى ذلك أن البابوية كانت تنظر إلى إسكندر بك على أنه ابن المسيح البار وحامى النصرانية الأشم وقد رشحته من قبل لقيادة الحملة الصليبية الكبرى ضد العثمانيين فهل تضن عليه الآن بالمعونة والنجدة ؟ ألم يسبق له هو نفسه أن أنجد البابا وملك نابولى ؟

أسر إسكندر بك إلى بعض رجاله بعزمه على السفر إلى إيطاليا وذكر لهم أن الأتراك سيظلون على حصارهم معتقدين أنه رابض بين الجبال يتربص بهم ، فليست هناك إذن حاجة ملحة لبقائه فى ألبانيا ، وتنكر فى زى فلاح وأبحر فى تكتم شديد إلى روما حيث لقى البابا بول الثانى الذى احتفى بمقدمه ، فذكر له إسكندر بك الأمر الذى جاء من أجله ورجا منه فى إلحاح شديد أن يمده فى جهاده إن لم يكن بالرجال فلا أقل من أن يمده بالعتاد والمال ثم اجتمع بالكرادلة الذين بالغوا فى الحفاوة ببطل النصرانية فوصف لهم إسكندر بك الأخطار التى تهدد إيطاليا والنصرانية ، فإن الأتراك يتقدمون كل يوم ويقتربون من إيطاليا لقد قضوا على القسطنطينية واليونان وصربية والبوسنة وبقيت أنا وحدى فى بقعة صغيرة أناضل بجيشى الصغير حتى نفذت قواه فمدوا أيديكم إلينا قبل أن يفوت الأوان ويستفحل خطر الأتراك فلا يبقى على الشط الآخر من الأدرياتيك رجل واحد من أتباع المسيح .

وتفضل البابا بول الثانى فخلع على إسكندر بك شارات التشريف وأهدى إليه قبعته وسيفاً باركهما بيده وقدم له مالاً ، ثم كتب إلى جميع أمراء النصرانية يستحثهم على معاونته ومناصرته ، فأمدته جمهورية البندقية بجنود مسلحين من المشاة والفرسان كما بعث إليه رؤساء المقاطعات بمدد جديد من الرجال الأشداء .

وعندما عاد إسكندر بك إلى بلاده كان بالابان لايزال على حصاره لكرويا وينتظر مدداً جديداً من الجند سيأتى به أخوه يونس ، فلما علم إسكندر بك بأمر هذا المدد صمم أن

يحول بينه وبين الوصول إلى بالابان بأى ثمن لكيلا تزداد قوته وشدة ضغطه على كرويا فكمن مع نخبة من رجاله فى بعض الطرق التى سيمر بها يونس ثم انقض عليه فأسره وأسر معه ابنه خضر وشتت شمل الجيش الذى جاء به ، وأتى بالأسيرين مكبلين بالحديد وعرضهما من بعيد على بالابان ثم ضربهما بالسيف نصفين .

ولم يكد بالابان يلمحهماحتى صعق وأخذته الدهشة ، فقدكان يترقب المدد الذى يأتى به أخوه بصبر شديد ويعلق عليه أملاً كبيراً فى الهجوم على كرويا التى اعتقد أنها قد أوهنها الضيق وطول الحصار ، فلما رأى ما صار إليه يونس والجيش الذى جاء به تملكه اليأس والحنق وهجم بجيشه على المدينه لايبالى مايكون واندفع إلى الأمام بغير روية كالمجنون فأصابته قذيفه قاتلة فى حلقه صرعته فى الحال وشاع خبر مقتله بين جنوده فأحدث الفوضى والاضطراب فى صفوفهم وانسحبوا إلى تيرانا .

وحاول إسكندر بك أن يمنع جنوده من ملاحقتهم ، ويحسبهم نصراً وظفراً أنهم رفعوا الحصار عن كرويا ، ولكن هؤلاء الجنود كانوا يتقدون غيظاًوحنقاً من طول ماعانوا من وطأة الحصار فى المدينة فاندفعوا وراء العثمانيين وأحدقوابهم من كل جانب ، ورأى العثمانيين أن بقائهم محصورين فى موضعهم سيفضى بهم حتماً إلى الهلاك فاستجمعوا قوتهم واقتحموا النطاق المضروب حولهم وشقوا لأنفسهم طريقاً للنجاة وإن لم يتم لهم ذلك إلا بتضحية غير يسيرة فى الأنفس .

وبالرغم من فشل القوات التركية فى إخضاع كرويا فإن السلطان الفاتح لم يشأ أن يستسلم للهزيمة ويدع الألبانيين إلى الراحة والطمأنينة ، فأرسل قوات أخرى لمناوشتهم وجعلهم دائماً فى تخوف وحذر وأمر بتحصين مدينة البسان وهدم مدينة تشوردى التى أنشأها الإسكندر الأكبر بالقرب من درازو على شاطىء البحر .

أما إسكندر بك نفسه فقد أخذ يطوف ببعض المدن ويتعهد شؤون جنده ويتأهب لما قد يأتى به الغد ، ووصل فى تطوافه إلى مدينة السيو وهى للبنادقة حيث دعا إلى عقد اجتماع عام ، ولكن حمى عنيفة فاجأته واشتدت عليه وطأتها وأخذت بمجامع نفسه ، وشعر إسكندر بك بدنو أجله فدعا إليه رجاله وقواده وأوصاهم بمواصلة الكفاح والدفاع عن النصرانيه والذود عن الحمى وأوصاهم خيراً بابنه چان Jean خيراً وأن يمحضوا له

الإخلاص والصدق والحب كماكانوا يفعلون من قبل مع أبيهم ، ولما كان ابنه هذا لايزال قاصراً فقد عهد بالوصاية عليه إلى حليفته جمهورية البندقية[1] .

وفيما كان إسكندر بك يوصى وصاياه الأخيرة إذ سمعت من الخارج جلبة وصيحات بأن الأتراك يقتربون فنهض جالساً على سريره وطلب سلاحه وجواده ، ولكن المرض كان قد استنزف قواه وهد جسمه فاسترخى وهوى إلى خلفه ، وطلب إلى رجاله أن يخرجوا إلى العدو وأنه سوف يلحق بهم بعد قليل ، والتقوا بالأتراك فى شقودرة وظن هؤلاء أن إسكندر بك هو الذى يقود الجيش الألبانى فآثروا الانسحاب والارتداد .

وفى الليلة التالية اشتد المرض على إسكندر بك وما عتم أن مات فى السابع عشر من (يناير 1467 ـ العاشر من جمادى الآخرة 871 هـ) بعد أن حكم أربعة وعشرين عاماً وله من العمر ثلاث وستون سنة .

وبكاه جنوده بكاءاً مراً ، وفقدت ألبانيا بوفاته زعيمها الأكبر وقائدها الذى لم يقهر وحاميها الذى أعلى شأنها بين العالمين ، وفقدت النصرانيه بطلاً فذاً من أبطالها ، وحزن البابا پول الثانى لموته حزناًشديداً وكتب إلى دوق بورغنديا يعزيه فى هذا الرزء وينذره باستفحال الخطر الإسلامى على المدن النصرانية .

ولم تجد ألبانيا بعد وفاة إسكندر بك زعيماً وطنياً تجتمع عنده الكلمة وتدين له بالطاعة فانتشرت الفوضى والاضطراب فى أرجاء البلاد ، وصارت هناك ثلاث قوى تتنازع السيطرة والسيادة فيها ، وهى رؤســاء القبائل والدولة العثمانية وجمهورية البندقية .

وسنعرض فيما بعد إلى المرحلة الثانية من حروب السلطان الفاتح فى ألبانيا عند الكلام عن حروبه مع هذه الدولة الأخيرة .

بقى هنا أن نعرض للأفلاق والبوغدان [2] وما كان بينها وبين الدولة العثمانية من

---

(1) Gvillet op. cit. sagredo cp.cit .

(2) يكتبها الأوروبيون : ڤلاشيا ومولداڤيا Moldavia,Valachia

علاقات واحداث سياسية وحربية فى عهد السلطان الفاتح .

تقع هاتان الإمارتان الرومانيتان -كما هو ظاهر فى الخريطة شمالى نهر الطونة تحيط بهما ثلاث دول كبيرة تتنازع السيادة السيطرة عليها ، وهى بولندا والمجر والدولة العثمانية فكانت هاتان الإمارتان بحكم الموقع الذى تشغلانه تحالفان هذه الدولة تارة وتحالفان تلك تارة على ما يتراءى لهما من نفع ومصلحة وحسبما توحى به الظروف والأحوال ، وسارت كل منهما على هذه السياسة التى طبعت بطابع الذبذبة والمخاتلة لنيل كل كسب ممكن ، ولم يكن ذلك بالشيئ اليسير ، ولم يكن ثمة فى داخل كل من هاتين الإمارتين نظام ثابت واضح للوراثه ، فكان ذلك مدعاة لقيام التنافس والمنازعات الداخلية والحروب الأهلية ، ولم يكن المتنافسون الطامعون فى السلطة يتورعون عن الإستعانه بالقوات الأجنبية ، وفضلاً عن ذلك لم تكن العلاقة بين الأفلاق والبوغدان كمايجب أن تكون بين إمارتين متجاورتين تربطهما أواصر الدم واللغة والدين من الود والصفاء والتعاون ، بل كثيراً ما كانت تنشب بينهما الحروب المستعرة الضروس .

وكان أول اتصال العثمانيين بهذه البلاد الرومانية فى عهد السلطان بايزيد الأول وكانت الأفلاق بطبيعة موقعها فى الجنوب أسبق إلى هذا الاتصال ، وقد أخضعها هذا السلطان للسيادة العثمانية (795 هـ-1393م)فى عهد أميرها مرشا الأول عقاباً لها على اشتراكها مع الصرب فى محاولة استرداد أدرنة من المسلمين واشتراكها فى معركة قوصوه إلى جانب النصارى سنة (791 هـ-1389م) وعندما نشبت معركة نيكوبولى سنة(798 هـ-1396م)قاتل مرشا إلى جانب النصارى ثم أعلن استقلاله بعد هزيمة بايزيد فى أنقرة سنة (804 هـ-1402م) ولكن السلطان محمد الأول بعد أن استتب له الأمر أخضع الأفلاق مرة أخرى سنة (819 هـ-1416م) وأصبحت تدفع له الجزية .

وكان مرشا الأول رجلاً مزواجاً وقد علق بأكثر من امرأة وترك وراءه بعد وفاته سنة (1418)عدة أبناء تنازعوا الملك واحتدمت بينهم الحروب الأهلية فمنهم من استنجد الأتراك ومنهم من استنجد المجر وظل الأمر على ذلك من الاضطراب والخلل إلى أن خلصت الإماره لولده الرابع دراكول الذى لم يذكر التاريخ رجلاً يضارعه فى القسوة

وغلظة الكبد وحب التعذيب وسفك الدماءة [1] .

وقد عقد في سنة (864 هـ-1460م) معاهدة مع السلطان محمد الفاتح على نمط المعاهدة التي عقدت من قبل بين بايزيد الاول ومرشا الأول سنة 1393 ، وفي هذه المعاهدة الأخيره تعهد السلطان الفاتح بحماية الأفلاق والدفاع عنها ضد أي عدو على أن تكون السيادة له على هذه الإمارة وتدفع له الجزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوقة ، وفي مقابل

---

(1) وقد ابتدع له خياله في وسائل القتل والتعذيب أفانين شتى لا تخطر ببال إبليس وقد أطلق الناس عليه ألقابا مختلفة تدل كلها على هذا المعنى الجهنمي الشرس . فواطنوه أهل الأفلاق لقبوه بالشيطان (دراكول) وبه يذكره معظم المؤرخين ، وأهل المجر لقبوه بالسفاح ، والعثمانيون لقبوه بالمخوزق (قازيقلي) وكان من أحد الأشياء إلى نفسه أن يتعلى وينظر إلى مشاهد التعذيب والآلام ويطرب لسماع أنات المعذبين ، وكان لا يتناول طعامه مع رجاله إلا وحوله أعمدة الخوازيق والناس منصوبون عليها يأتون أنات الموت ، وكان كثيراً ما يأمر بسلخ أقدام الأسرى من الأتراك ودعك اللحم الحي الحساس بالملح ثم يأتي بالعنز لتلحسه إمعانا في إثارة الألم ، ودعا الشحاذين ذات يوم إلى مأدبة وبعد أن أشبعهم باللحم وأطيب الطعام وسقاهم الخمر حتى سكروا أمر بإشعال النار في المكان الذى كانوا فيه فشوتهم شياً وقضت عليهم جميعاً ، وبدا له ذات مرة فأمر بقطع أثداء بعض الأمهات ليضع في مكانها رءوس أطفالهن ، واخترع آلات خاصة لتقطيع أوصال الناس وتفريمها ثم سلقها بالماء كالكرنب كما اخترع أوعية أخرى كبيرة يسلق فيها من يشاء على نار هادئة ، ولقى ذات يوم راهباً يركب حماراً وأعجبه هذا المنظر فأمر بخوزقتهما معاً على هذه الصورة ، وقتل مرة بعض الأمهات حرقاً بالنار ثم أمر أطفالهن أن يأكلوا من هذا اللحم المشوى ، وجاءه مرة جماعة من التتار ليطلبوا منه العفو عن رجل منهم كان قد سرق وحكم عليه بالشنق فما كان من داركول إلا أن أمرهم أن يقوموا هم أنفسهم بتنفيذ هذا العقاب ، فلما اعتذروا أمر بطبخ ذلك السارق وأكره أصحابه على أكل لحمه : ألا تشم هذا العبير ؟ فعجب صاحبه وأجاب نفياً ، فغضب دراكول ونصبه على خازوق أطول من الخوازيق العادية حتى لا تصل إليه هذه الرائحة الكريهة !

ذلك ما كان يصيب به دراكول الناس الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال من التعذيب والتنكيل إرضاء لنزعته الدموية الشاذة ، أما ما كان يصيب به المجرمين وأهل الفساد وما يصيب به الأسرى من الأتراك والبلقان فحدث بما وسعك التحدث عنه وما أسعفك به خيالك وليس عليك من حرج .

على أن هذه القسوة البالغة قد أدت إلى كبح جماع الأشراف والقضاء على دسائهم كما قضت على اللصوصية وقطع الطرق والسرقة التى كانت منتشرة فى الأفلاق قبل دراكول وشمل الأمن جميع أرجاء البلاد تحت هذا الإرهاب والرعب وأصبح التاجر يضع ماله وأمتعته فى عرض الطريق ثم يغدو إليها فى اليوم التالى فلا يفتقد منها شيئاً .

ذلك تحتفظ الإماره بإدارتها الداخلية ونظمها الخاصة وينتخب الأمير الحاكم على يد الأساقفه والأشراف ويكون له حق اعلان الحرب والسلام وحق الحكم بين رعاياه بالحياة والموت دون أن يكون مسؤولاً أمام السلطان .

ولم يمض وقت طويل على توقيع هذه المعاهدة حتى نقضها دراكول وحالف ماتياس كورفان ملك المجر ، وتزوج إحدى قريباته وتعهد له أن يشن الحرب على العثمانيين ويقاتلهم .

ولما وجد الفاتح عدم جدوى التفاهم معه بالحسنى رأى أن يتخلص من هذا السفاح الجبار الغدار بالحيلة والخدعة فأوفد إليه ويدين چاقرجى حمزة باشا مع كاتبه يونس بك وحاول حمزه باشا أن يستدرجه وينفرد به فى بعض الامكنة الخاليه ليغتالة ، ولكن دراكول فطن للمكيدة التى دبرت له فقبض على حمزه وصاحبه وقطع ايديهماوارجلهما ثم خوزقهما وجعل حمزة باشا على خازوق ممتاز أكثر طولاًوارتفاعاً من غيره ليتناسب مع علو مكانته ومنزلته !

واستحوذ على دراكول الحنق والغيظ من جراءهذه المحاولة لاغتياله فجدد تحالفه مع المجر ووكده ثم عبر نهر الطونة وانقض على بلغاريا وأحرق المدن والقرى وجعل عاليها سافلها وقبض على خمسة وعشرين ألف أسير خوزقهم جميعاً وجعلهم حول جثة حمزة .

وبعث السلطان الفاتح رسلاً آخرين إلى دراكول لمفاوضته فلما مثلوا أمامه أبوا أن يخلعوا عمائمهم تحية له فقال لهم دراكول : حسناً ، سأكفيكم مؤنة هذا العمل إلى الأبد ، وأمر بدق عمائمهم على رؤوسهم بالمسامير وماتوا جميعا .

ولما بلغ ذلك السلطان الفاتح استطار به الغضب وقام من فوره فحشد جيشه وقسمه إلى قسمين ، زحف أحدهما من طريق البر بقيادة محمود باشا والآخر من طريق البحر تولى هو بنفسه قيادته فخرج بسفنه من ميناء القسطنطينية إلى البحر الأسود ثم صعد نهرالطونة. وعندما سمع دراكول بخروج الجيش العثمانى بعث بأولاده وبنسائه إلى ترانسلفانيا والأماكن القاصية والغابات الكثيفة وأرسل جزءاً من جيشه لمقاتلة أمير البوغدان الطموح الذى كان يطمع أيضاً فى الاستيلاء على الأفلاق وضمها إلى إمارتة ، ولم يتلق دراكول شيئا من المعونة التى كان قد وعده بها ملك المجر ، ولما رأى دراكول أن جيشه أضعف من أن

ينازل الجيش العثماني في ميدان مكشوف لاذ بأكناف الغابات والأحراج وأخذ بنفسه يتجسس ويستكشف وكان يجيد لغة الترك كل الإجادة فكان يتزيى بزيهم ويغشى معسكرهم ليلاً يتعرف حالهم ويتنطس أخبارهم لعله يهتدي إلى المقتل الذي يودي بهم .

وظل السلطان الفاتح يجوب الأفلاق بجيشه عدة أيام دون أن يلقى جيشاً ، ووجد المدينة خاوية مقفرة وفي ذات ليلة هجم دراكول بفرسانه على معسكر الأتراك وبيتهم على غره وأخذوا يضربون بسيوفهم ذات اليمين وذات الشمال على غير هدى . واخذت الاتراك دهشة المفاجآه اول الامر وشلتهم عن الحركه ، ثم انتبهوا إلى موقفهم فاسرعوا إلى اسلحتهم وقاتلوا الأفلاقيين في غبش الظلام لايكاد يميز بعضهم بعضا .

وكان أول هم دراكول أن يقتل السلطان الفاتح نفسه ، ويحدث بذلك اضطراباً شديداً في صفوف جنده ويوقع بينهم الفرقة والفوضى وأبصر أمامه خيمة باذخة شامخة فظنها خيمته فهجم عليها بفرسانه ، ولكن تبين أنهالم تكن خيمته فاتجهوا إلى أخرى هي خيمة السلطان ولكن حرسه من الإنكشارية ردوهم على أعقابهم ولم يستطيعوا النفوذ إلى الخيمة وآثارت هذه المحاوله الجريئة من دراكول الغضب والحمية في نفوس العثمانيين فاشتدوا في قتال المغيرين .

وكان الفجر قد بدأ يلقي أشعته على الوجود وخشي دراكول أن يحاط به وبمن معه من الفرسان فانفلت من المعمعة واختفى كما يختفي الجن ويتلاشى ، ولم يستطع قائد الفاتح على بك اللحاق به ولكنه قبض على نحو ألف أسير جاء بهم إلى السلطان فأمر بقتلهم ، ولما اضاء النهار على معسكرالأتراك ظهر أن ضحايا هجوم دراكول من الأنعام والخيول والجمال أكثر من ضحاياه من الجنود .

وكان وقع في يد الأتراك في الليلة الماضية اسير من الأفلاقيين وجيء به إلى محمود باشا فسأله من أين جاء دراكول والى أين ينسحب فأجاب بأنه يعرف ذلك جيداً ولكنه لايستطيع أن يبوح به ، وهدده محمود باشا بالقتل إذا أصر على الكتمان فأجاب بأنه مستعد للموت فنفذ فيه محمود باشا تهديده وقتله ولم يكتم إعجابه بهذا الجندي وقال : لو كان لدراكول جيش ضخم من طراز هذا الرجل لأحرز مجداً عظيماً .

وسار السلطان الفاتح بجيشه قاصداً بخارست ، وهناك على مسافة قريبة من المدينة وقف فجأة وقد تملكته الدهشه أمام منظر مروع مفزع لم يملك دفع أثره عن نفسه .

فقد شهد أمامه فضاء يمتد نحو نصف فرسخ مليئ بالخوازيق نصب عليها عشرون ألف شخص من الأتراك والبلغار وقد تميز من بينها خازوق طويل علا فى الجو يحمل فى قمته چاقرجى حمزة باشا فى ثيابه الفاخرة الزاهية، وكانت هناك خوازيق أخرى نصبت عليها أمهات وإلى جانبهم أطفالهن وقد افترست النسور أحشاءهم ، ولم يملك السلطان أن صاح بقوله : كيف نستولى على بلدمن رجل لايتورع من هذه الافاعيل، إن شخصا كهذا لايستحق التقدير .

وحاول دراكول أن يرهق الجيش العثمانى أثناء سيره فأخذ يهاجمه بين حين وآخر من جهات مختلفة ولكنه لم يصب في ذلك نجاحاً ذا بال فاستقر رأية ان يذهب لمقاتلة الجيش البوغندى لعله يصيب هناك نجاحاً أكبر ، وترك فى الأفلاق جزءاً من جيشه لمناوشة العثمانيين ومناجزتهم وأوصاه أن يلوذ بالغابات والشعاب ولايجازف بمقاتلتهم وجهاً لوجه، ولكن قائد هذا الجيش ركبه الغرور ، وظن نفسه أقدر من سيده الشيطان فهجم على الجيش العثمانى ونهض إليه عمر باشا فهزمه ومزق جيشه واستولى العثمانيون على بخارست .

فلما بلغ ذلك دراكول غادر البوغدان من فوره إلى المجر ليستنجد حليفه ماتياس كورفان وصارت الأفلاق كلها فى يد المسلمين ، وعاد السلطان الفاتح إلى القسطنطينية بعد أن أمر قائد ه على بك أن ينصب رادول -وهو أخو دراكول وكان قد لجأ إلى السلطان الفاتح فراراً من بطش أخيه الشيطان - حاكماً على الافلاق (866 هـ-1462م) .

واستاءلهذا الأمر ملك المجر الذى كان يريد بقاء الأفلاق فى يد حليفه دراكول بدلاً من أن تكون تحت سيطرة أعدائه الألداء العثمانيين ، كما استاء أمير البوغدان الذى كان يطمع فى ضم هذه المنطقه إلى إمارته وانتهز أول فرصة سنحت له فانقض بغته على رادول سنة 1470وهزمه ثم عاد وهزمه مرة أخرى سنة 1472 واستولى على عاصمته ، ولكن العثمانيين خفوا إلى نصرة رادول وأعادوه إلى حكم الأفلاق فى السنة التالية .

على ان حكمه لم يطل ، فإن العداوة ضد العثمانيين بين المجر والبوغدان وتحالفتا على قتاله واضطرتا ه إلى الفرار من الأفلاق ووقع أسيراً فى يد استيفان أمير البوغدان وقتله (881 هـ-1476م) وأعاد ملك المجر دراكول إلى حكم الأفلاق فعاد إلى سيرته الأولى فى

التنكيل والتقتيل ونشر الفزع والرعب حتى غافله أحد عبيده فطعنه من ظهره وقضى عليه 1479) وأراح الناس من هذاالمارد الجبار ، وقطع رأسه وطيف به فى المدن والقرى .

واستتب الأمر فى الأفلاق بعد ذلك للعثمانيين وتوطدت سيادتهم فيها ، وانتزع السلطان الفاتح حق الانتخاب وعهدفى حكمها إلى ابن رادول الذى أخلص الولاء للدولة العثمانية وعاونها فيما بعد فى حربهاضد المجر .

أما البوغدان فقد تولى إمرتها من سنة 1456الى سنة1504 أى على مدى نصف قرن استفان الأكبر وكان رجلا جريئاً مقداماً مسعر حرب بصيراً بفنون القتال وخدعه ، كثير التقلب والمخاتلة لايثبت على الوفاء لأحد ويصفه المؤرخون بأنه " أخدع وأمكر من الشيطان " وقد والى البولنديين والمجريين والعثمانيين والتتار ثم حاربهم جميعاًوانتصر عليهم فى مواقع كثيرة كلا على حدة ، وقد رفعته انتصاراته فى أعين شعبه وحببته إليه وكان استيفان يرى الحروب خير وسيلة للمحافظة على حيوية الشعب وشجاعته . ويعد هذا الأمير ـ فى نظر المؤرخين ـ أعظم أمير رأته البوغدان .

وكانت هذه الإمارة قد اغتصبها بيير أرون من والد استفان واغتاله ، ومحافظة على هذه الإمارة المغصوبة رأى أن يسالم الدولة العثمانية وبولندا فأرسل إلى السلطان الفاتح ألف دوقة على أن تكون جزية سنوية يبعث بها إليه كل عام ، غير أنه لم يتمتع بإمارته طويلاً فقد وثب عليه استفان واسترد منه الإمارة بمعونة أمير الأفلاق الذى رأى أن يتقوى به ضد الأتراك(1) وامتنع استيفان بعد ذلك أن يبعث إلى السلطان الفاتح الجزية التى كان أرون قد أخذ على نفسه بإرسالها إليه كل عام ، وشجعه على ذلك ما رآه من اشتغال الفاتح بالحروب الكثيرة المتوالية التى لاتنقطع والمصاعب الجمة التى تحيط به ، ولم يقف استيفان عند هذا بل هجم مرتين على حاكم الأفلاق الذى نصبه الفاتح كما رآينا من قبل ولم يبق لديه بعد ذلك أقل شك أن العثمانيين لن يغضوا عنه وأنهم سيزحفون إليه عاجلاً أو آجلاً واتخذ عدته لذلك .

Waston, AHistory of the Roumanians. Jorga, Histoire des Roumains. (1)

طلب السلطان الفاتح إلى قائده سليمان باشا بعد رفعه الحصار عن شقودره [1] أن يسير بجيشه إلى البوغدان لمقاتلة أميرها استفان وكان هذا الجيش مجهداً منهوك القوى من طول ماعانى من مشاق فى حصار شقودره واجتمعت عليه إلى جانب ذلك قلة الزاد وصبارة البرد وبلاهة القائد ، ولعل الفاتح لم يكن على علم بحالة جيشه هذا فتركه يمضى على هذا النحو ليلقى عدواً لدوداً شديد البأس واسع الحيلة قوى الشكيمة .

لقد انتصر استفان قبل ذلك على المجر وهزمه فى بايا (ديسمبر 1467) كما هزم التتار وأسر ابن الخان نفسه وخشيت بولندا بأسه فلم لايهزم الأتراك أيضاً كما هزم هؤلاء ؟ .

ولما علم أن الأتراك قادمون إليه أخذ يبحث عن حلفاء يستقوى بهم ، وأنه لفى ذلك إذ وصل إليه رسول بندقى يدعى بول أونمبونم Paul Onembonum كانت البندقية قد أرسلته إلى أوزون حسن [2] فى أمر خاص ، وعند عودته طلب إليه أوزون حسن أن يعرج على البوغدان وحمّله رسالة إلى أميرها يستحثه فيها أن يقوم بتكوين ائتلاف نصرانى ضد الأتراك ، وانتهز استفان فرصة وجود الرسول البندقى لديه فحمله بدوره رسالة إلى البابا يرجوه فيها أن يعينه على تكوين اتحاد مقدس ضد الأتراك .

ولم يكد الرسول البندقى يرحل عن البوغدان حتى كان جيش سليمان باشا قد دخل أطراف هذه البلاد فأخذ استفان يستدرج هذا الجيش العثمانى المنهوك ويتوغل به إلى مجاهل الأدغال والغابات الكثيفة بعد أن أحرق جميع الأماكن التى سيجتازها وجعلها قفراً بلقعاً ، واختار موقعاً حسناربض فيه مع جنوده البوغدانيين ومن وفد إليه من جنود بولندا والمجر ووضع على مسافة منه جماعة من نفاخى الأبواق ليوهم الأتراك أن أمامهم جيشين سيقاتلانهم لاجيشاً واحداً فيضطروا إلى توزيع جنودهم .

واصل سليمان باشا سيره ولم يكد يصل إلى راكوفا على نهر برلاد حتى انقض عليه استفان بجيشه فى صبيحة يوم من أيام يناير القارسة (880 هـ ـ 1475م) وأخذه على غرة

(1) انظر عن هذا الحصار فى الفصل الرابع من القسم الثالث .

(2) أوزون حسن أو حسن الطويل (أوزون كلمة تركية معناها الطويل ولقب به لطول قامته) أمير تركمانى من أمراء الخروف الأبيض (آق قيونلو) بديار بكر وقد استحوذ على الإمارة وتفرد بها سنة 861 هـ (1457م) بعد أن هزم جميع منافسيه وكبرت آماله بعد ذلك واتسعت وجرت بينه وبين السلطان الفاتح وغيره من ملوك الشرق أحداث سياسية وحربية على ماسنرى تفصيل ذلك فيما بعد .

وقاتل الأتراك قتال المستيئس بكل مافيهم من قوة واحتدمت الحرب وحمى وطيسها وترددت كفة الغلبة كثيراً بين الفريقين حتى اضطر الأتراك آخر الأمر بعد أن نفقت خيولهم ونفد زادهم إلى الارتداد والانهزام وهلك من الفريقين خلق كثير بين قتيل وغريق فى نهر برلاد وأحرقت الجثث التى كانت تغطى ميدان المعركة ، أما الأسرى الأتراك الذين وقعوا فى يد استفان فقد خوزقهم جميعاً إلا كبارهم فإنه قد بعث بهم مع الأعلام التى غنمها إلى كازيمير ملك بولندا وماتياس كورفان ملك المجر والبابا سيكست الرابع وغيرهم من أمراء النصرانية يبشرهم بانتصاره على عدوهم و« عدو النصرانية جمعاء»[1] .

وكان لهذا النبأ دوى عظيم فى العالم النصرانى وعم الفرح والابتهاج جميع أرجائه وأقيمت صلوات الشكر فى كل مكان ، ولا غرو فقد كان هذا الانتصار على العثمانيين من الحوادث الفذة النادرة في الصراع بين الإسلام والنصرانية في ذلك الحين .

وتخليداً لهذا الإنتصار أمر استفان ببناء كنيسة وصية أربعين يوماً وكانت البندقية أشد من اغتبط بهذا النبأ ، فقد كانت هى نفسها فى حرب متصلة لاتنقطع فى البر والبحر مع الدولة العثمانية منذ اثنتى عشرة سنة ولقيت فى ذلك كثيراً من الجهد والعناء فبعثت رسولاً خاصاً إلى استفان لتهنئته كما بعث إليه البابا أيضاً يهنئه ودعاه فى كتابه بـ «بطل النصرانية »

ولكن استفان كان ينشد من أمراء النصرانية شيئاً آخر غير هذه التهانى وهذا الثناء والإطراء ، كان ينشد منهم العون من المال والرجال والسلاح ليقدر على مواصلة قتال الأتراك وقد كان استفان على يقين بأن هولاء القوم لن يسكنوا إلى ماأصابهم من الهزيمة وأنهم لابدعائدون لمحاربته .

والحق أن السلطان الفاتح قد غضب أشد الغضب لما أصاب جيشه فى البوغدان ، وزاد فى غضبه أن استفان قد آوى لديه بعد ذلك جماعة من الأسرى الإيطاليين الذين أسرهم العثمانيون عقب فتحهم كفة ، وبعث الأمير البوغدانى إلى الدول النصرانية يستحثها على إمداده بالمال والمعدات وأوفد رسولاً خاصاً إلى البابا والبندقية لهذا الغرض ، واعتذرت البندقيةبأنها لاتستطيع أن تفعل شيئاً فى الحال ، أما البابا فأجاب بأنه قد بعث إليه بقدر عظيم من المال عن طريق ماتياس ملك المجر ، ولكن هذا الملك استحوذ عليه واستأثر به

---

(1) Jorga,op.cit.

لنفسه فقد كان ماتياس ينفس على استفان ويتخوف من أن يعلو شأوه وتزداد قوته وسطوته فيطغى - وقد كان استفان رجلاً طماحاً - ويكون أشد خطراً عليه بعد ذلك من الأتراك أنفسهم أما كازيمير ملك بولندا فقد اكتفى بأن أرسل وفداً إلى السلطان الفاتح يطلب منه أن لايتعرض بسوء لأمير تابع له وأن يتفاوض معه فيما يطلبه من البوغدان .

وكانت المجر وبولندا إلى ذلك الحين تتنازعان السيادة على هذه الإمارة وتنظر كل منهما إلى أميرها على أنه تابع لها بالرغم من أنه قد هزمهما قبل ذلك ، ولم يستطع استفان كتم غيظه لموقف جارتيه بولندا والمجر منه وتخاذل النصارى وفتورهم عن نصرته فأرسل وفداً إلى السلطان الفاتح يذكر له فى شبه اعتذار أنه قد اضطر اضطراراً إلى مقاتلة الأتراك لما قاموا به من اللصوصية والتخريب فى بلاده وأعرب عن استعداده لمفاوضته فى عقد الصلح والسلم وبعث فى نفس الوقت إلى جمهوريةالبندقية يهددها بإنه إذا لم يتلق منها العون والمساعدة فإنه سيسالم الأتراك بل سيحالفهم ويناصرهم على حرب النصارى .

وذعرت البندقية لهذا الإنذار وأوفدت إليه فى الحال إيمانويل جيراردو EmmanuelGeratdoلاسترضاءه وتسكين غضبه والإبقاء على حماسه الصليبى ومنعه بأى ثمن من الاتفاق مع السلطان ، وقد كان ساسة البندقية الخبثاء يعرفون طبع الأمير البوغدانى وطربه لسماع المديح والثناء فكال له الرسول البندقى من ذلك ماامتلأت به جعبته وما وسعته الحيلة والدهاء ، أما السلطان الفاتح فلم تفتر وقدة غضبه وتجهم لرسل استفان وردهم إلى بلدهم رداً جافاً وأبقى عنده رسل ملك بولندا بينما كان فى نفس الوقت يعد العدة لحملته الجديدة .

وفى أوائل الربيع من سنة (880 هـ - 1476م) خرج الفاتح بجيشه اللجب ، وفى أثناء سيره قابله وفد بولندى آخر بالقرب من وارنة فذكر لهم الفاتح شروطه الأخيرة التى يقبل بها السلم مع استفان وهى دفع الجزية وتسليم الأسرى وإعادة مدينة كيليا التى كان قد استولى عليها ولكن استفان رفض هذه الشروط فواصل السلطان زحفه حتى دخل البوغدان فوجدها بلقعاً خاوية ، فقد انتهج استفان طريقته الأولى فى الحرق والتدمير فلم يبق على أخضر ولايابس ورحّل السكان إلى الجبال والشعاب وكل متمنّع من الأرض ثم اتخذ له مكمناً فى وادى رسبوكنى Rasbocniمع جنده بين الأشجار الكثيفة المتلاصقة ، ومن ثم سمى الأتراك هذا الموضع بحر الشجر « أغاج دكزى » .

ولولا أن الفاتح قد أعد لهذه الحملة الزاد الكثير والميرة الوفيرة لهلك الجيش ونفقت الخيل جوعاً .

وأحس المسلمون وهم يجتازون البقاع الجرداء المقفرة التى أكلتها النار أن شيئاً هائلاً سيحدث وقتالاً عنيفاً سينشب ولم يكادوا يتقدمون بعد ذلك خطوات أخرى حتى انهمرت عليهم نيران المدافع الشديدة من بين الأشجار وانبطح جنود الإنكشارية على وجوههم وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش لولا أن سارع السلطان الفاتح وتجانف به عن مرمى المدافع .

وعنّف رئيس الإنكشارية محمد الطرابزونى على تخاذل جنده ثم صاح فيهم :

«أيها الغزاة المجاهدون كونوا جند الله ولتكن فيكم الحمية الإسلامية (1) » .

وأمسك بالترس وامتل سيفه وركض حصانه واندفع به إلى الأمام لايلوى على شئ وألهب بذلك نار الحماس فى جنده فانطلقوا وراءه واقتحموا الغابة على من فيها ونشب بين الأشجار قتال عنيف بالسيوف استمر من الضحى إلى الأصيل .

ومزق العثمانيون الجنود البوغدانية شر ممزق ووقع استفان من فوق ظهر جواده ولم ينج بنفسه إلا بصعوبة وولى هارباً وفر إلى بولندا وترك جنوده طعمة لسيوف الأتراك تطوح برؤوسهم حتى امتلأت بجثثهم ساحة القتال وعرف فيما بعد ذلك الوادى الأخضر الذى كان تحف به الأشجار من كل جانب بالوادى الأبيض The White Vally لكثرة ماتكوم وتناثر هناك من عظام الجنود البوغدانيين (2) .

واستولى العثمانيون على غنائم وفيرة ، وقدأدى تراكم الجثث إلى توخم المكان وفساد الجو وأخذت الأمراض تتفشى فأزمع السلطان الفاتح العودةإلى القسطنطينية ، وحل الشتاء المفاجىء بزمهريره وبرده القارس وأعجله ذلك عن إخضاع قلعتى خوتين وزوجاوا ، ولكنه على أية حال قد أحرز الغرض الذى كان يستهدفه وهو قهر استفان واستعادة هيبة الجيش العثمانى بعد هزيمته الأولى .

وعاد الأمير البوغدانى بعد ذلك من بولندا ومعه جيش جديد واستعاد به إمارته

---

(1) صولاق زاده تاريخى . سعد الدين تاج التواريخ .

(2) Miller, TheBalkans

الخاوية وصرف بقية عمره فى العمل على تأليب الدوله النصرانية على العثمانيين وشن حرب صليبية عليهم ، ولكن ذهبت جميع جهوده بغير طائل .

وأدرك استفان آخر الأمر وفى آخر عمره بعد أن عركته الأحداث وحنكته السنون أن إمارته لن تثبت فى وجه العثمانيين إذا هم عادوا إلى مهاجمتها ـ وهم لاشك عائدون إلى ذلك ولو بعد حين ـ فخير لها إذن أن تخضع لهم اختيار قبل أن يفتحوها قهرا فأوصى ـ عند وفاته عام 1554 ـ ابنه أن يتوجه إلى العثمانين ويعلن لهم خضوعه ويدفع لهم الجزية بل يقوم بمعاونتهم فى حروبهم ! .

وكان ذلك فى عهد بايزيد الثانى ابن السلطان محمد الفاتح وخليفته .



القسم الثالث

محالفات سياسية وحـــربيـة ضـد الدولة العثمانية

فتوحات الفاتح وحروبه في آسيا ، بقية أعماله في أوروبا



خريطة

تبين مدى اتساع رقعة الدولة العثمانية في عهد السلطان الفاتح وأهم الفتوحات العثمانية في آسيا الصغرى

الفصل الأول

المؤامرة الكبرى ضد الدولة العثمانية

طرابزون تترأس المؤامرة. اشتراك البابوية وأمراء من الشرق والغرب فيها. بنك القديس جورج يتولى إدارة المستعمرات الجنوية فى الشرق. كيف أحبط السلطان الفاتح المؤامرة ؟. فتح أماصرة وسينوب وطرابزون. البابا پى الثانى يدعو الفاتح إلى اعتناق النصرانية. حملة صليبية فريدة فى التاريخ. البابا فى وصيته الأخيرة يكرر دعوة الفاتح إلى اعتناق النصرانية.

كانت فى آسيا الصغرى عندما تولى محمد الفاتح عرش السلطنة سنة (855 هـ 1451م) بعض مدن وقلاع إسلامية ونصرانية لم تدخل بعد فى نطاق الدولة العثمانية وكانت كلها تضمر لهذه الدولة أشد العداء والكراهية التى يمازجها شئ من التخوف والخشية ، ومالبثت هذه القوى المختلفة أن أخذت تتآمر وتنظم الخطط للقضاء على الدولة العثمانية التى تزداد كل يوم قوة وخطر لاسيما بعد استيلاء السلطان الفاتح على القسطنطينية . وتولت زعامة هذه الحركات والمؤامرات طرابزون [1] .

وكان يوحنا إمبراطورها وقتذاك كغيره من الروم كبير الاعتداد والعجب بنفسه ، يعتقد أنه لايدانيه أحد فى المهارة السياسية ومعرفة دخائلها وحبائلها ، فكان يستخف بأعدائه ويستهين شأنهم وقوتهم . ولما بلغته وفاة السلطان مراد الثانى وقيام السلطان

---

(1) إمارة رومية نصرانية تقع فى شمال شرقى آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود ، وقد كانت هذه البلدة بماحبتها به الطبيعة من غزارة الثروة وحسن الموقع هدفاً للغزاة والمغامرين ، وعلى أثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية سنة 1204 وتفكك الإمبراطورية البيزنطية فر كثير من أمراء الروم إلى آسيا الصغرى واستقر داود كومنين فى شواطئ البحر الأسود وأسس دولة صغيرة فى طرابزون أطلق عليها هذا الاسم الضخم « إمبراطورية طرابزون » .
وقد حاول السلطان مراد الثانى فى سنة 1442 كما حاول الجنيد شيخ أردبيل - جد إسماعيل مؤسس الأسرة الصفوية بفارس - فتحها فردتهما أسوارها وقلاعها المنيعة .

محمد الفاتح مكانه ، وهو فتى شاب ـ استطار فرحاً وغبطة إذ ليس أيسر عليه ـ فى اعتقاده ـ من أن يتغلب بحنكته ودهائه على هذا الشاب الغر ويخضعه لأمره .

ولم يعتبر يوحنا بعد ذلك بما حدث لصاحبه إمبراطور القسطنطينية قسطنطين الذى ركبه الغرور أيضاً والاستخفاف بالفاتح فبعث إليه يهدد ويرعد ولم يجن من وراء ذلك إلا أنه عجل هلاك نفسه وفقد ملكه .

أجل ، لم يعتبر يوحنا بهذا بل فاق قسطنطين فى زهوه وطموحه ، فهو لايريد قتال الأتراك ومدافعتهم عن بلدته فحسب بل يريد إخراجهم من آسيا الصغرى كلها واستئصال شأفتهم منها وظن أنه بكياسته وحنكته سيستميل إليه من حوله من الأمراء فى آسيا الصغرى وفيما وراءها من آسيا بل فى أوروبا أيضاً ، يشد بهم أزره ويسخرهم لأغراضه ، وبدأ فعلاً يفاوض هذا وذاك لتأليبهم على العثمانيين .

ولم يغب عن السلطان الفاتح اليقظ مايحوكه إمبراطور طرابزون من الدسائس والمكائد فلما كانت سنة (860 هـ ـ 1456م)وهو يحاصر بلغراد أوعز إلى خضر بك حاكمه على أماسيا بالهجوم على طرابزون من البر والبحر لإرهاب الإمبراطوريوحنا وإظهاره على قوة الدولة العثمانية . وكانت عاصمة طرابزون فى ذلك الوقت يجتاحها وباء شديد وتوغل الأتراك فى زحفهم فأسروا وغنموا وأسقط الإمبراطور يوحنا فى يده إذ أحيط بعدوين مخيفين من الداخل والخارج لاقبل له بدفعهما معاً ولم يجد بداً من طلب الصلح من خضر بك ، ورأى هذا القائد العثمانى أن الجنود الذين معه ليسوا من القوة بحيث يقدرون على اقتحام أسوار طرابزون وقلاعها المنيعة ، ولم يكن القصد من الحملة غير إظهار القوة العسكرية للدولة العثمانية وإرهاب الإمبراطور المغرور ، وقد بلغ هذا القصد

فأجاب يوحنا إلى ماطلب ووافق على الانسحاب بجنوده وإطلاق من كان فى يده من الأسرى على أن يعترف يوحنا بالتبعية للدولة العثمانية ويدفع جزية سنوية قدرها ثلاثة آلاف قطعة من الذهب ، وقبل يوحنا مافرض عليه من الشروط على كره منه ومضض .

ولم يكد يرحل الجيش العثمانى حتى أخذ يعمل للتحرر منها ، ووجد فى أوزون حسن الأمير التركمانى خير حليف ونصير وخير من يعينه على تحقيق هذا الأمر ، فقد كان مثل يوحنا ينفس على الدولة العثمانية ماتحرزه من مجد وانتصارات ويكن لها أشد

الكراهية والعداوة فرحب بطبيعة الحال بمساعدته فى محاربة الفاتح ، غير أنه اشترط على يوحنا أن يزوجه ابنته كاترين التى شغفته حباً من كثرة ماسمع عن جمالها وحسنها فقال لرسول الإمبراطور يوحنا : إنه إذا قبل أن يزوجه ابنته فإنه سيضع تحت تصرفه جيشه بل أمواله وشخصه ويدفع عنه السلطان العثمانى (1) .

وقبل الإمبراطور يوحنا ماطلبه أوزون حسن وسره أن يكسب هذا الحليف العظيم بهذا الثمن البخس ، وبعث إليه ابنته مع أخيه داود يصحبها عدد من الوصيفات النصرانيات وجماعة من الرهبان والقسس لمعاونتها على أداء شعائر دينها ، ونجح يوحنا إلى جانب ذلك فى توحيدصفوف الأمراء المجاورين له ـ أمراء سينوب والقرمان والكرج وأرمينية الصغرى ـ الذين جمعهم على اختلاف أجناسهم وعقائدهم الحقد على الدولة العثمانية وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بهجوم واحد عليها ، وجاش فى نفوس هؤلاء المتحالفين أو المتآمرين أمل قوى فى قهر السلطان الفاتح وإخراجه من آسيا .

وحاول الامبراطور يوحنا أن يضم إلى هذه القوى الشرقية المتجمعة قوة اللاتين فى الغرب فتزلف إلى البابوية بالعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية برغم أنه فى قرارةنفسه ـ شأن فى ذلك أباطرة القسطنطينية من قبل ـ كان شديد التمسك بأرثوذو كسيته شديد التعصب لها لايؤمن بالاتحاد ولايعتقد صحته .

وفيما كان الإمبراطور يوحنا يحوك هذه المؤامرة ويرسم الخطط ويعدالعدة للقضاء على الدولة العثمانية ، يدفعه إلى ذلك أعظم الآمال ويرنو إلى المستقبل بنظرة واثقة باسمة إذبغته الموت سنة (1458م ـ 862 هـ) قبل أن يشهد شيئاً مما كان قد أعد ودبر وقبل أن يشهد العاصفة التى كان يعمل على إثارتها ، وترك وراءه طفلاً صغيراً فى الرابعة من عمره يدعى الكسيوس Alexiosولم يجد عمه داود صعوبة فى تنحيته وأن يستبد بالحكم دونه .

واصل داوود ماقد بدأه أخوه فى تكوين تلك الجبهة المتحدة ضد العثمانيين وصرف كل جهده وقواه فى التأهب للحرب المقبلة ، ولم يكن داوود أقل من أخيه يوحنا عجباً وغروراً بنفسه ، يستخف قوة الدولة العثمانية وقوة الجيش العثمانى ويعتقد أن أسوار

---

(1) Miller . Trebizond

مدينته طرابزون لاتقتحم ، سيرتد عنها الفاتح إن هاجمها كما ارتد عنها غزاة من قبله .
كيف وقد اجتمعت حوله قوات أمراء الشرق وستناصره بعد ذلك قوات أمراء الغرب ؟

وكانت شؤون الروم فى المورة آنذاك تشغل بال الفاتح فرأى أن ينهى أمره هناك ويقر فيها السلام قبل أن ينقل جيشه إلى آسيا ، وبذلك تهيأت لداوود فسحة من الوقت امتدت سنتين قبل بدء القتال يحكم فيها أمره واستعداده فأتم زواج ابنة أخيه كاترين باوزون حسن فقد توفى الإمبراطور يوحنا قبل إتمامه وأرسلت إلى زوجها فى موكب فخم . واستطاعت هذه العروس الحسناء الذكية ان تخلب لب الإميرالتركماني وتسيطر على نفسه وأخذت تؤجج نيران الحقد الذى كان يتقد فى صدره على السلطان العثمانى ومآآتاه الله من مجد وسلطان ، وجدد داوود المحالفات السابقة التى عقدت مع من حوله من الأمراء .

وكان البابا كاليكست الثالث ـ وهو الذى أخذ منه الكرادلة ميثاقاً غليظاً عندما انتخبوه للبابوية فى سنة 1455 ليبذلن أعظم الجهد فى قتال الأتراك ـ قد أرسل لوى دى بولونى Louis de Bologne من رجال الفرنسسكان ويجيد كثيراً من لغات الشرق إلى إمبراطور طرابزون وأوزون حسن وغيرهما من أمراء الشرق يدعوهم إلى الائتلاف والتضافر على قتال الأتراك ، ثم عاد الرسول الفرنسكانى إلى الغرب يصحبه رسل آخرون بعثهم إلى الغرب هؤلاء الأمراء الشرقيون وفى مقدمتهم ميخائيل اليجيرى Michael Aligeri رسول إمبراطور طرابزون وكان يحمل رسالة خاصة من سيده للبابا عدد له فيها الجيوش الجرارة التى أعدها هو وأمراه الشرق لقتال العثمانيين ، وبرسالة أخرى لفيليب ليون دوق بورغنديا أشد أمراء أوروبا تحمساً لقتال الأتراك .

وسلك هؤلاء الرسل فى رحلتهم إلى الغرب طريق البر وعرجوا على المجر والنمسا ، وعندما وصلوا البندقية استقبلهم الناس بحماس عظيم وحفاوة بالغة وهم يحدقون بأبصارهم فى تطلع واستغراب إلى ملابسهم الشرقية الفضفاضة ، ومن البندقية شخصوا إلى روما وكان البابا كاليكست الثالث قد توفى وخلفه البابا پى الثانى وكان يفوق سلفه فى الحماس إلى قتال الأتراك فاحتفى بهؤلاء الرسل وأكرمهم وقدم لهم رسائل توصية لملوك أوروبا ، وبعث برسالة خاصة إلى دوق بورغنديا يوصيه فيها أن يحسن لقاء أولئك الرسل ويكرم وفادتهم ويستحثه على التعجيل فى القيام بالحملة الصليبية وأن لايكون أقل همة وبلاء فى هذا السبيل من أمراء الشرق .

وفى شهر مايو من سنة 1461 كان هؤلاء الرسل الشرقيون فى باريس لدى بلاط الملك شارل السابع وذكروا له أن أمراء الشرق قداستجابوا دعوة أهل الصليب وأنهم قد عقدوا العزم على قتال العثمانيين وطلبوا منه أن تشترك فرنسا بجنودها فى هذه الحملة ، بيد أن شارل السابع كان إذ ذاك دنفاً يعانى آلام المرض كما يعانى متاعب أخرى فى بيته فأجابهم على سؤالهم إجابة غامضة لاترجى ولاتؤيس ، ومن هناك ذهب هؤلاء الرسل إلى سان أومير Saint Omer (فى شمال فرنسا) حيث بفيليب ليبون دوق بورغنديا .

ولم يكن هذا الدوق فى حاجة إلى من يثير حماسه ويحثه على قتال العثمانيين فقد كان فى مقدمة من دعا إلى طردهم من أوروبا من قبل استيلائهم على القسطنطينية [1] فكيف بعد استيلائهم عليها ؟ وسلم إليه ميخائيل اليجيرى رسالة سيده الإمراطور داوود وفيها يحثه على الائتلاف والتحالف بين أمراء الشرق وأمراء الغرب والتألب على العدو المشترك ، ووعده داوود بأن يعاونه ـ بعد إحراز النصر على الأتراك ـ على تتويجه ملكاً على بيت المقدس .

وكانت الخطة المرسومة بين المتآمرين هى أن يهجم أمراء الغرب من ناحيتهم على حدود الدولة العثمانية ويزحفون إلى الشرق ، ويهجم أمراء الشرق من ناحيتهم على حدود الدولة العثمانية ويزحفون إلى الغرب ، ويقع العثمانيون بذلك بين فكى « كماشة» واسعة تضغط عليهم من هنا وهناك وتعصرهم عصراً لاتبقى منهم على أحد إلا أن ينقلب إلى البحر ! وعاد هؤلاء الرسل بعد تطوافهم بأوروبا إلى روما .

وكانت جنوا تملك فيما تملك من مستعمرات فى الشرق مدينة أماصرة فى آسيا الصغرى على شاطىء البحر الأسود وكفه بشبه جزيرةالقريم ، وتعد هاتان المستعمرتان وبخاصة الأخيرة منهما من أهم المراكز التجارية لجنوا فى الشرق ، وقد احتفظت جنوا بمستعمراتها فى الشرق أحقاباً متطاولة فى أمن وسلام فى ظل الدولة البيزنطية المضعضعة العاجزة ، فلما قامت الدولة العثمانية وقوى شأنها واتسعت فتوحاتها تخوفت جنوا على مستعمراتها الشرقية فلم تأل جهداً فى الاشتراك فى المحاولات المختلفة التى بذلت لوقف تيار هذه الدولة الجديدة وخضد شوكتها .

---

(1) Djuvara, Op. cit.

وقامت كفه بدور كبير فى هذا السبيل ، فقد وجد أعداء الدولة العثمانية أن هذه المدينة البحرية يتوسطها بين أوروبا وآسيا وبعدها عن حدود الدولة العثمانية وعيونها خير موضع يلتقى فيه سفراء دول الشرق بسفراء دول الغرب للتباحث والتدارس ووضع المناهج ورسم الخطط السياسية والحربية ضد الدولة العثمانية .

وازدادت مخاوف جنوا من العثمانيين بعد فتحهم للقسطنطينية واستيلائهم على غلطة وسيطرتهم على مضيقى البوسفور والدردنيل بتحصينهما بالقلاع والمدافع بحيث لاتجتازهما سفينة ما إلا بعد تفتيشها والإذن لها بالمرور ، وأصبح الاتصال البحرى بين جنوا ومستعمراتها فى البحر الأسود مهدداً تحت رحمة العثمانيين ، وأخذت السفن العثمانية من جانبها منذ سنة 1454 تجوب البحر الأسود تتعرف مواقعه وحصونه .

ومما زاد الطين بلة أن حكومة جنوا فى ذلك الوقت كانت قد شاخت وهرمت وأصابها الضعف والانحلال والإفلاس وأصبحت عاجزة عن الدفاع عن نفسها ضد أعدائها فى إيطاليا بلة الدفاع عن مستعمراتها البعيدة فى الشرق ، وكانت فى جنوا مؤسسة مالية كبيرة اشتهرت بحسن نظامها ومتانة إدارتها وهى « بنك القديس جورج » وكانت له سطوة ونفوذ لايقلان عما كان لحكومة جنوا نفسها ، فكان هذا البنك بحق دولة داخل الدولة .

وكان بما له من حسن الإدارة والتنظيم وبماله من الأموال الكثيرة التى يستطيع بها تجهيز السفن وإعداد الجند خير من يقدر على المحافظة والدفاع عن هذه المستعمرات .

وفى 15نوفمبر 1453 أعلن الدوج (رئيس جمهورية جنوا) أن الحكومة قد سلمت كفة وجميع ماتملكه جنوا فى البحر الأسود إلى بنك القديس جورج [1] وصار له بعد ذلك أن يتصرف فيها كما يشاءويمارس فيها جميع حقوق الملكية وذلك فى مقابل خمسة آلاف وخمس مئة جنيه سلمها البنك للدوج ، وقد استبشر سكان كفة بهذه الإدارة الجديدة لمدينتهم وبعثت فى نفوسهم أحسن الآمال فى المستقبل .

وكان أول مافكر فيه رجال البنك هو أن يجدوا طريقاً برياً آمناً بين جنوا وكفة إذا ماسد

---

(1) Sismondi, op . cit . Heyd, op. cit.

فى وجوههم الطريق البحرى ، وقد استطاع القائد سيريو Cerio مع مئة وخمسين من المغامرين أن يصلوا إلى كفة بالطريق البرى مجتازين فريول فالمجر فبولندا فجزءاً من أرض التتار ، لاقوا فى أثنائها عناءاً كبيراً وصعاباً كثيرة ، وكان ذلك أول محاولة ناجحةفى هذا السبيل وآخرها ، فإنه إذا أمكن لفئة من المغامرين المتخففين أن يجتازوا هذا الطريق البرى الطويل بشق الأنفس والجهد البالغ فقد كان ذلك عسيراً كل العسر على جيش مثقل بالزاد والعتاد ودون أن يصطدم بالدول والشعوب الكثيرة التى تقع فى هذا الطريق .

أدرك الرجال المسئولون فى كفة حرج الموقف وتعذر جلب الأمداد من جنوا من طريق آمن ، ووجدوا من الخير اتخاذ سياسة المسالمة والتفاهم مع السلطان بدلاً من سياسة العداء والخصام فبعثوا بسفراء إلى القسطنطينية لمفاوضته ومعرفة مطالبه فعرض عليهم الفاتح أن تدفع له جزية سنوية عن مدينة كفة قدرها ألفا دوقة وأن تسلم إليه مدينة أماصرة فى آسيا الصغرى ، وفى مقابل ذلك تمنح حرية المرور بالمضايق للسفن الجنوية التجارية فى مقابل دفع رسم معقول ، وقد وافق السفراء الجنويون على الأمرين الأول والثالث - دفع الجزية ورسم مرور السفن - ولم يستطيعوا إجابة الأمر الثانى - تسليم أماصرة - واعتذروا عن ذلك بأنه خارج عن حدود سلطتهم ، وعاد هؤلاء السفراء إلى كفة دون أن يبرموا شيئاً .

وساد كفة جو من القلق والاضطراب والفزع ، وشرع كثير من أهلها يتسللون منها ويفرون فى وقت كانت المدينة أحوج ماتكون فيه إلى كل فرد من أهلها للدفاع إذا ماحم القتال ، فأوفد رجال البنك إلى كفة عدداً من الرجال الأقوياء لبث الثقة والطمأنينة بين الناس وفى نفس الوقت كانوا يقومون بمحاولة الاتفاق مع السلطان الفاتح ، وأخيراً تم عقد الاتفاق بينهما وفيه تعهد رجال المؤسسة المالية بدفع جزية سنوية عن كفة قدرها ثلاث آلاف دوقة ولم تدخل أماصرة فى هذا الاتفاق ولم يبت فى أمرها بشئ .

على أن هذا الاتفاق لم يكن فى الواقع إلا ذريعة تذرع بها رجال بنك القديس جورج إلى إرسال الأسلحة والمعدات إلى كفة وأماصرة ، ولاشك أن جانباً كبيراً من هذه الأسلحة كان يتسرب إلى سينوب وطرابزون وغيرهما من البلاد المتآمرة على الدولة العثمانية .

ولم تكن البابوية من جانبها أقل اهتماماً بمصير هذه المستعمرات الشرقية إذ كانت تنظر إليها على أنها « المواقع الأمامية للنصرانية » فأخذت تمد رجال بنك القديس جورج بالأموال عوناً لهم على الدفاع عن هذه المواقع ، وأخذت من جهة أخرى تعمل على إنجاح تلك المؤامرة الكبرى التى لانعرف لها نظيراً فى التاريخ والتى ائتلفت فيها الروح الصليبية بالمصلحة التجارية والأحقاد الشخصية على الدولة العثمانية ، ولم تخف عن السلطان الفاتح هذه الحركات والمؤامرات ومايدبره أعداؤه فى الشرق والغرب للقضاء عليه .

وظن داوود إمبراطور طرابزون أن أمره قد استحكم وأن المؤامرة قد نجحت وأن حلفاءه فى الغرب قد أعدوا عدتهم للهجوم ، فقد مضى أكثر من عامين منذ رحيل الرسل إلى الغرب ، فليبدأ هو إذن العمل ليكون له فخر السبق ، فأوعز إلى أوزون حسن أن يكتب إلى السلطان الفاتح يطلب منه إسقاط الجزية ، ولكن أوزون حسن ـ وهو ذلك الرجل الطموح المتعجرف ـ لم يكتف بما طلبه منه الإمبراطور فطلب إلى الفاتح أيضاً فى لهجة ملؤها الفخر والكبرياء أن يدفع له الإتاوة السنوية التى كان قد وعد بها جده محمد الأول لجد أوزون حسن قرايلك وهى ألف سجادة وألف عصابة للرأس وألف عدة للخيل ، وذكر أوزون حسن فوق ذلك أن هذه الإتاوة لم تدفع منذ ستين سنة فهو يطالب بما تجمد منها خلال هذه السنين ، وأصغى الفاتح إلى رسالة أوزون حسن فى هدوء ثم قال للرسل : ارجعوا بسلام سأذهب إليه بنفسى فى السنة القادمة وادفع إليه مايريد .

وماأن انتهى السلطان الفاتح من فتح المورة حتى أعد فى ربيع سنة (865 هـ ـ 1461م) جيشاً جديداً فى القسطنطينية وجيشاً آخر فى بروسه وأسطولاً قوياً يتألف من نحومئتى سفينة ، وقد أثار هذا الاستعداد الكبير الفزع والرعب فى بلدان آسيا الصغرى ، ولم يعلم أحد ـ حتى المقربون إلى الفاتح من خاصته وأهل مشورته ـ شيئاً عن الجهة التى سيقصدها ، وقد كان من طرائق الفاتح فى الحرب أن يتكتم فى أمره أشد التكتم ويترك أعداءه فى غفلة أو حيرة من أمرهم ، لايدرى أحدهم من تنزل عليه الضربة القادمة ثم يتبع هذا التكتم الشديد بالسرعة الخاطفة فى التنفيذ فلا يدع لعدوه مجالاً للتأهب والاستعداد .

وكان أغلب الرأى الشائع أنه سيزحف تواً إلى أوزون حسن ألد أعدائه فى آسيا وأقواهم شكيمة والذى تطاول عليه بكتابه واستفزه ، وقد تجاسر أحد قضاة الفاتح وسأله أين يقصد السلطان ؟ فأجاب الفاتح :

« لو أن شعرة فى لحيتى عرفت ذلك لنتفتها وقذفت بها فى النار » .

وسار من فوره إلى آسيا الصغرى وتلبث بعض الوقت فى بروسه ريثما يتم تجهيز الأسطول الذى عهد بقيادته إلى محمود باشا بمعدات القتال والحصار ، ثم أسرع فى الزحف إلى أماصرة بطريق البر فى نفس الوقت الذى زحف إليها محمود باشا من البحر ، وأخذت المدينة على غرة وشلت عن الحركة ، لم تغن عنها غددها وقلاعها شيئاً واستسلمت بغير مقاومة .

وقد عجب الفاتح كيف بقيت هذه المدينة إلى ذلك الحين فى يد الجنويين كأنما غفل عنها آباؤه ولم تخطر لهم ببال وسأل فى ذلك وزيره محمود باشا فأجابه بقوله :

إن الله ـ تعالى ـ قدأبقى هذه المدينة ليكون فتحها على يديك [1] وجاء إلى الفاتح حاكم المدينة يصحبه بعض كبار رجالها وسلموا إليه مفتاح القلعة ، وأمر الفاتح بنقل جزء من أهل المدينة إلى القسطنطينية وحول إحدى كنائسها إلى مسجد .

واصل السلطان الفاتح سيره بعد ذلك براً إلى سينوب كما واصل محمود باشا سيره إليها بحراً . وكانت سينوب إذ ذاك تعتبر أغنى مدينة على البحر الأسود بمالها من ميناء حسن ومناجم معدنية وافرة ، وكانت إلى جانب ذلك محكمة التحصين شديدة المنعة تربض فى قلاعها وأسوارها أكثر من أربع مئة مدفع ، وكان الفاتح يخشى أن تقع هذه المدينة القوية فى يد أوزون حسن ويتخذها المتحالفون قاعدة لأعمالهم الحربية ضده ، فبعث بفرقة قوية من جيشه إلى أماسيا لتمنع ماقد يرسله هذا الأمير التركمانى من مدد ونجدة إلى سينوب .

وجاء إلى الفاتح عند اقترابه من هذه المدينة حسن ابن أميرها إسماعيل فردَّه السلطان إلى أبيه ليطلب منه تسليم إمارته على أن يعوضه عنها مدينة أخرى لايكون لها مالهذه المدينة من أهمية عسكرية وإلا فإنه سيهجم عليه بجميع قواته من البر والبحر هجوما لاقبل له بدفعه ، وسيفقد بعد ذلك مدينته وحياته معاً ، وتلقى أمير سينوب كتاباً آخر من محمود باشا من ناحية البحر ، يحثه فيه على التسليم ويؤكد أمان السلطان الفاتح له ولأهله

---

(1) عاشق زادة تاريخى . سعد الدين ، تاج التواريخ .

وأولاده والتعويض السخى الذى سيمنحه له وارتاح الأمير إسماعيل إلى هذه الرسالة وذهب لتوه إلى محمود باشا يعلن له تسليمه ، وأبلغ محمود باشا الأمر إلى السلطان فأمر باستقدام إسماعيل إليه ، وكان فى الجيش العثمانى أخوه قيزل أحمد فأقطعه السلطان جزءاً من إمارته وجعله حاكماً على قسطمونى .

ولما علم أمير القرمان بعزم إسماعيل على التسليم كتب إليه يثير فيه الحمية والحماس ويحثه على المقاومة فإن النجدة قادمة إليه من أوزون حسن وسائر الحلفاء فأجاب عليه إسماعيل - وقد استيقظ فى نفسه ضميره الإسلامى وكبر عليه أن يحارب سلطاناً مسلماً ويمالئ عليه الكفار - بقوله :

عار علينا ونحن مسلمون أن نحارب هذا السلطان وهو الذى يغزو فى سبيل الله ثم إنه قد نصب على البلاد أخى (1).

وسلم إسماعيل إمارته للسلطان الفاتح ، ولما قدم عليه هم بتقبيل يده فأبى السلطان عليه ذلك وعانقه فى بشاشة ولطف وقال له : **إنك أخى الأكبر ومايجوز لمثلك أن يقبل يدى .**

وعوضه السلطان عن إمارته بعض المقاطعات فى آسيا الصغرى ونصب ابنه حسناً حاكماً على سنجق بولى ، وانتقل إسماعيل بعد ذلك إلى فيليبوبولى (يسميها الأتراك فلبه) بأوروبا وقضى بقية حياته هناك فى دعة وأمن مع أهله وولده .

وهكذا استولى السلطان الفاتح بحسن سياسته على إمارة سينوب دون أن تراق قطرة دم (865هـ - 1461م) وانهار بذلك ركن عظيم من أركان تلك المحالفة الكبرى التى ناطت بها البابوية أعظم الآمال .

ولم يضيع الفاتح شيئاً من الوقت فأمر أسطوله بمواصلة السير إلى طرابزون ، أما هو نفسه فقد كان الظن أنه سيزحف إليها أيضاً ويطبق عليها الجيش العثمانى من البر والبحر كما فعل بأماصرة وسينوب ، ولكن ذلك لم يكن ، فقد أسرع السلطان الفاتح فى الزحف نحو أرضروم عن طريق أماسيا وسيواس لملاقاة أوزون حسن والحؤول بينه وبين إنجاد حليفه داوود إمبراطور طرابزون واستولى فى طريقه على قلعة قيونلى وذعر أوزون حسن

---

(1) عاشق زاده تاريخى .

لزحف الفاتح السريع غير المنتظر واستحوذ عليه الفزع والدهشة ورأى أنه لاقبل له بمفرده على مقاتلته فبعث إليه أمه سارة خاتون مع بعض كبار رجال دولته لطلب الصلح .

واحتفى السلطان الفاتح بالوفد التركماني وكان يدعو سارة خاتون بأمه وقد كانت امرأة ذات مكر ودهاء فبذلت كل مافي وسعها من جهد وحيلة لصرف الفاتح عما اعتزمه من الغزو وقدمت إليه هدايا ثمينة من ابنها أوزون حسن وأشارت إلى ماتربطه به من روابط الدين والقربى وأنه لاينبغي للمسلمين أن يحتربوا ويقاتل بعضهم بعضاً ، ثم لمحت له في تهديد خفي بما أصاب جده بايزيد الأول حينما أقدم على قتال تيمور لنك ، وقد أجاب السلطان الفاتح بأن أنكر على ابنها أوزون حسن موقفه العدائي نحوه وعلاقاته السرية مع النصارى ، على أنه مع ذلك على استعداد لعقد الصلح معه إذا كف يده عن نصرة امبراطور طرابزون وعن الإغارة على الحدود العثمانية .

وقد قبل أوزون حسن ماعرضه الفاتح عليه وعقد بينهما الصلح ، وبذلك منع الفاتح عن إمبراطور طرابزون مساعدة أكبر وأقرب حليف له ، وتخاذل عنه حلفاؤه الآخرون ولم ينهض أحد منهم إلى مساعدته وخلا الميدان له وللسلطان الفاتح الذي كان يتهمه داوود بالرعونة والطيش والتهور ويعتز بطول باعه في السياسة ومعرفة دخائلها وأحابيلها .

ترك السلطان الفاتح طريق أرضرم واتخذ أقرب طريق إلى طرابزون تصحبه سارة خاتون والدة أوزون حسن وكان الطريق صعباً وعراً تكتنفه الجبال والأودية والغابات التي يتعذر اجتيازها .

وكان السلطان الفاتح الذي يرمي إلى مباغتة طرابزون وأخذها على غرة قد أعد العدة لهذه الصعاب والعقبات فاستصحب معه عدداً كبيراً من العمال المتخصصين في قطع الأشجار وتعبيد الطرق ، وقد صادف الفاتح في طريقه بعض الجبال العالية الوعرة فترجل عن فرسه وتسلقها على يديه ورجليه كسائر الجند فانتهزت سارة خاتون هذه الفرصة لتصرفه عن غرضه وقالت له : فيم تشقى كل هذا الشقاء يابني وتتكبد كل هذا العناء ، هل تستحق طرابزون كل هذا ؟ فأجاب الفاتح :

ياأماه ، إن الله قد وضع هذا السيف في يدي لأجاهد به في سبيله ، فإذا أنا لم أتحمل هذه

المتاعب وأؤد لهذا السيف حقه فلن أكون جديراً بلقب الغازى الذى أحمله وكيف ألقى الله بعد ذلك يوم القيامة ؟

وكان الأسطول العثمانى قد وصل إلى طرابزون وحاصرها من ناحية البحر ليحول دون وصول أى نجدة تأتى من كفة أو من الكرج ، وكان رجال الحامية يعتقدون أن قلاعهم من ناحية البحر من المناعة بحيث لاتقتحم فلم يكترثوا للأسطول العثمانى ولم يحفلوا به بل أخذوا يتندرون به ويتفكهون !

ولم يمض أيام حتى نزل بعض الجنود العثمانيين واشتبكوا معهم فى قتال متواصل لايكاد ينقطع .

وكان الإمبراطور داوود خلال ذلك يترقب فى تطلع وقلق وصول المدد إليه من حليفه أوزون حسن ولم يكن قد بلغه شىء مما تم بينه وبين الفاتح من الصلح ، وإنه لفى ترقبه هذا إذ وصل السلطان الفاتح بجيشه أمام أسوار طرابزون ، وجاء وصوله بهذه السرعة الهائلة غير المنتظرة صدمة عنيفة انخلع لها قلبه واستحوذ عليه اليأس والقنوط وفقد كل أمل فى نيل المعونة من الخارج وخارت قواه ولم يعد يفكر إلا فى النجاة بحياته وأمواله ولم تكن له تلك الشجاعة التى دافع بها قسطنطين عن القسطنطينية فأشار عليه جورج أمويرتزس Ceorge Amoitroutzes أحد كبار رجال دولته كما أشارت عليه سارة خاتون بالتسليم ، فتوجه من فوره إلى السلطان الفاتح وسلم نفسه إليه وطلب منه الصفح والغفران [1] وعرض عليه أن يتزوج ابنته آن Anne ليستوثق بهذه المصاهرة من عطفه ومحبته كما طلب منه أن يمنحه أرضاً تدر عليه من الريع ماكانت تدره طرابزون ثم أبحر داوود فى صحبة أهله وولده وكبار رجال دولته إلى القسطنطينية ثم نقلوا من هناك إلى أدرنة حيث جعل لهم ريع خاص يعيشون منه فى رغد ويسر .

واستولى السلطان الفاتح على طرابزون وأقام فيها حامية من جنده كما أصلح الإدارة وأقام بها والياً وقاضياً شرعياً ، وكان ذلك فى أواخر سنة (1461م ـ 866 هـ) ثم انتخب من أهلها أهل الجاه والثروة ونقلهم إلى القسطنطينية كما أسكن فى طرابزون بعض المسلمين .

---

(1) تاريخ خير الله .

وأمضى السلطان الفاتح فصل الشتاء فى هذه المدينة وجاب أنحاءها لمشاهدة معالمها ومعاقلها ومبانيها كما فعل من قبل عند دخوله أثينا وبنى بها مسجداً ومدرسة .

وكانت سارة خاتون كما رأينا فيما سبق - قد جاءت إلى الفاتح لتصرفه عن عزمه على فتح طرابزون ثم رافقته فى حملته إليها وكأنما قد ساقها القدر لكى تشهد بأم عينيها مصرع مسقط رأسها ومهد طفولتها ومرتع صباها (1) ، وقد أعادها السلطان الفاتح إلى بلدها معززة مكرمة مثقلة بالهدايا الفاخرة والجواهر الثمينة يصحبها وفد عثمانى لتوكيد الصلح الذى عقد مع ابنها أوزون حسن ، وقد رد هذا الأمير التركمانى على هذه السفارة بمثلها فبعث إلى السلطان الفاتح وفداً يحمل إليه الهدايا وهنأه على انتصاره وشكر له حسن رعايته وحفاوته بوالدته سارة خاتون وجدد معه توكيد الصلح .

وهكذا قضى السلطان محمد الفاتح بما أظهر من حسن السياسة ونفاذ البصيرة وقوة العزيمة وسرعة الحركة على تلك المحالفة الكبرى أو المؤامرة الكبرى التى دبرت للقضاء عليه وعلى دولته ، وقد كانت هذه المؤامرة معقد آمال واسعة عريضةللمشتركين فيها لاسيما إمبراطور طرابزون وأوزون حسن والبابا .

أماإمبراطور طرابزون رأس هذه المؤامرة فقد كان يؤمل أن يبنى على أنقاض الدولة العثمانية دولة بيزنطية عظيمة كتلك التى كانت فى عهد جستنيان ، وأوزون حسن ذلك الأمير الطموح كان يستهدف بعد القضاء على الدولة العثمانية أن يقيم مكانها إمبراطورية إسلامية كبرى فى الشرق تدخل فى حدودها مصر والجزيرة العربية ويتفرد هو بزعامتها ، أما البابا فقد كان يرمى إلى القضاء على هذه الدولة الإسلامية الفتية التى وصلت فتوحاتها إلى شواطىء بحر الأدرياتيك وأصبحت تتحفز للوثوب على إيطاليا نفسها ويوطد أقدام الكاثوليكية فى هذه البلاد الشاسعة .

هذه هى الآمال أو بعض الآمال التى كانت تخالج رؤوس بعض هؤلاء المتآمرين فأين هم الآن مما قدروا وأملوا ؟

أما الإمبراطور داوود فقد سيق أسيراً إلى أدرنة ليعيش فيها مع أهله وذوى قرباه وإن كانت نفسه لاتزال تجيش ببعض الآمال وتترقب الفرصة المواتية .

---

(1) يغلب على الاحتمال أن سارة خاتون من سلالة الأسرة المالكة فى طرابزون .

أما أوزون حسن فقد أكره على قبول ذلك الصلح إكراهاً وقبله على مضض ومرارة وإن تظاهر بعكس ذلك ، ولم يلبث أن اشترك فى حلف نصرانى جديد ضد الدولة العثمانية على ماسنرى فيما بعد .

أما البابوية التى كانت تعتبر رسالتها الأولى فى العالم نشر النصرانية بين الناس فقد كان لها موقف آخر بعد هذه الهزيمة . ، وكان على كرسى البابوية إذ ذاك البابابى الثانى ، وكان إلى جانب حماسه الدينى رجلاً واسع المعرفة والاطلاع واسع الخبرة والتجربة ، وقد جاب كثيراً بلدان أوروبا قبل توليه البابوية وحفل كثيراً من المناصب المدنية والدينية ، وقد آلمه فشل الحملات الصليبية العديدة التي شنتها البابوية على الدولة العثمانية وآلمه تخاذل ملوك النصارى فى كثير من الأحيان واشتغالهم بمصالحهم الخاصة ، ثم بدا له رأى ، ورأى فريد لم يخطر ببال أحد من البابوات قبله .

لقد سمع پى الثانى كثيراً عن تسامح السلطان محمد الفاتح فى الدين فلم يكره أحداً على اعتناق الإسلام ، وسمع كثيراً عن مجالسه مع بطريرك القسطنطينية ومناظراته معه فى شؤون النصرانية فلم لايحاول البابا أن يطرق قلب هذا السلطان ويدعوه بالحسنى إلي اعتناق النصرانية ويرضي في نفس الوقت طموحه إلي املك والسلطان بعد أن فشلت جميع وسائل العنف والحرب لقهره ويكسب بتنصره ـ وهو ماكان يتوقعه البابا ـ قوة عظيمة بل أعظم قوة فى العالم كانت فى ذلك الوقت ؟

ونفذ البابا پى الثانى رأيه فبعث إلى السلطان الفاتح فى سنة 1463 كتاباً يدعوه به إلى اعتناق النصرانية قال له فيه :

إذا أردت أن تبسط سيادتك وسلطانك بين النصارى وتضفى على اسمك المجد فإن ذلك فى وسعك دون ماحاجه إلى مال ولاسلاح ولاجند ولاأسطول .

بل إن شيئاً هيناً جداً يستطيع أن يجعل منك أعظم رجل بين العالمين وأشدهم قوة وأوسعهم صيتاً وشهرة .

ستسألنى ماهذا الش ؟ إنه لاصعوبة فى وجدانه ولاحاجة إلى الذهاب بعيداً للبحث عنه . إنه فى متناول كل الناس ، إنه قليل من الماء تعمّد به فيجعلك نصرانياً خادماً للإنجيل فإن فعلت ذلك فلن يكون على وجه الأرض أمير يستطيع أن يفوقك فى المجد ولاأن

يضارعك فى القوة ، إننا سننصبك إمبراطور للروم والشرق وسيصبح مافتحته من البلاد بالقوة وتملكها الآن ظلماً وعدواناً سيصبح حينئذ حقاً وملكاً شرعياً لك ، وسيجلك جميع النصارى ويختارونك حكماً لهم فيما يشجر بينهم من خلاف ويقصد إليك جميع المظلومين كما يقصدون إلى حاميهم المشترك [1] .

ولاندرى هل أجاب السلطان الفاتح على رسالة البابا هذه وبماذا أجاب ، والأمر الذى لاشك فيه أنه لم يستجب دعوته إلى التنصر ومضى فى طريقه يجاهد فى سبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام ولم يجد البابايى الثانى بداً بعد فشل محاولته السلمية للتغلب على السلطان الفاتح أن يعود إلى الطريقة التى درجت عليها البابوية من قبل منذ أن كان الصراع بين الإسلام والنصرانية وهى طريقة الحملات الصليبية .

وكانت الحرب قد اندلعت نيرانها حينذاك فى المورة بين البندقية والدولة العثمانية فوجد كلاً من البابا والبندقية فى الآخر الحليف الطبيعى فى كفاح العدو المشترك ، وجدّ البابا فى إعداد حملة صليبية جديدة إلى الشرق ، وقد أرادها هذه المرة أن تكون حملة فريدة فى تاريخ الحملات الصليبية فى القوةوالروعة والمهابة تتحدث عنها الأجيال القادمة إلى آخر الزمن ، فكتب إلى دوج البندقية ودوق بورغنديا يعلنهما أنه سيخرج بنفسه فى هذه الحملة وطلب إليهما أن يخرجا معه لأن وجودهم على رأس الجيش الصليبى سيكسبه روعة وفخامة ويلقى فى نفوس المسلمين الروع والرهبة .

ثم اجتمع بالكرادلة وخطبهم قائلاً ـ وقد كان خطيبا مفوهاً ـ :

فى كل عام يخرب الأتراك بلداً جديداً من بلاد النصرانية وفى هذا العام استولوا على البوسنة وقتلوا ملكها وعم الفزع والرعب بين المجريين ومن يجاورهم من الشعوب فماذا نحن فاعلون ؟ هل نكتفى بأن نستحث الملوك ونحرضهم أن يسيروا إلى نجدتهم ويدفعوا عن حدودنا ؟ لقد حاولنا ذلك من قبل ولكن بغير جدوى ، فليس هناك تأثير كبير عندما يقول الإنسان للآخرين : اذهبوا وحاربوا !

ولكنه سيكون أشد تأثيراً حينما يقول لهم : تعالوا نقاتل ! وإنى سأجرب ذلك ، فلقد عزمت على أن أسير بنفسى إلى قتال الأتراك ، وبذلك أدعو بالعمل والقول أمراء

(1) Revue des Deux Mondes

النصرانية إلى اتباعى ، وهم عندمايرون سيدهم ووالدهم الحبر الرومانى وكيل المسيح- وقد هدّته الشيخوخة والأسقام يزحف بنفسه إلى الحرب المقدسة سيخجلون من القبوع فى ديارهم فينهضوا إلى السلاح ويقاتلوا بكل ماأوتوا من شجاعة عن ديننا المقدس ، فإن لم نستطيع بهذه الطريقة أن نثير النصارى إلى الحرب فلن تكون لنا طريقة أخرى ، ومامن ريب فى أن شيخوختنا ستجعل المهمة خطيرة ونحن سائرون إلى موت يكاد يكون محققاً ولكننا لانخشاه ، إننا نموت مرة واحدة ، وليس يهم النصرانية أين يكون مصرعنا ، وأنتم أيضاً الذين طالما حرضوا على مقاتلة الأتراك ، أنتم أيها الكرادلة أعضاء الكنيسة يجب عليكم أيضاً أن تتبعوا زعيمكم ، لقد وعدنا بذلك دوق بورغنديا والبنادقة ، وسيرافقنا من البندقية أسطول ضخم هائل سيسيطر على البحر وتسير فى أثرنا سائر دول إيطاليا وسيأتى دوق بورغنديا بجميع الغرب معه ، ومن جهة الشمال سينقض ملك المجرو ملك سرماتيا على الترك . ونصارى اليونان سيثورون وينضمون إلى صفوفنا وسيعم الاغتباط والفرح بين الألبانيين والصربيين والإبيرسيين حينما يشرق عليهم يوم الحرية ويكونون لنا عوناً وعضداً ، بل فى آسيا نفسها سيعاوننا أعداء الترك أمراء القرمان وملك فارس [1] ، وأخيراً فإن العناية الإلهية سترعانا وتمنحنا النصر ، على أنى لن أخوض غمار القتال بنفسى فإن ضعف بنيتى وجلال الكهنوتية التى لايليق بها الضرب بالسيف يحملاننى على الابتعاد عنه ، ولكنى سأجثو على ركبتى على كوثل [2] مرتفع أو على قمة جبل وبين يدى القربان المقدس وستحيطون أنتم بى من حولى وندعو الله بقلوب خاشعة ذليلة أن يهب النصر لجنودنا [3] » .

وفى 22 أكتوبر 1463 أذاع البابابى الثانى منشوراً حماسياً بليغاً على جميع النصارى دعاهم فيه إلى الحرب المقدسة ضد الأتراك وأعلن أن احتشاد الجيوش سيكون فى أنكون Ancone [4] وأنذر بأن صواعق الكنيسة ستنزل على المتخاذلين والذين يعكرون صفو السلام فى الداخل بمحاربة بعضهم بعضاً ، ولكى يجمع البابا أكبر قدر ممكن من المال أمر

---

(1) أوزون حسن .

(2) الكوثل : مؤخر السفينة .

(3) Sismondi, op. cit

(4) مدينة فى منتصف إيطاليا على ساحل بحر الادرياتيك .

ببيع صكوك الغفران فى جميع أرجاء القارة الأوروبية . وجعل لكل ذنب ثمنا محدداً ، والصك الكامل لغفران جميع الذنوب كان ثمنه عشرين ألف فلورن .

وفى 11 نوفمبر 1463 كتب البابا إلى « ابنه المحبوب » دوج البندقية يقول له :

إنه قد عقد عزمه أن يقوم فى الصيف القادم بحملة ضد الأتراك يصحبه الكرادلة والجنود المغاوير الأقوياء ، وسينفق فى ذلك كل مايملك من مال وثروة وسيرافقه فى هذه الحملة فيليب دوق بورغنديا مع جنوده البواسل الذين يناط النصر بهم وبالأسطول البندقى الذى أرسل إلى المورة وبدأ أعماله الحربية الظافرة هناك ؛ وأنه لايخالجه شك فى قوة حماس الدوج ودوق بورغنديا وصدق عزمهما على القتال فى سبيل الكاثوليكية ، ومامن شك أيضاً فى أن الجنود البنادقية سيبلون أحسن البلاء فى الحرب ، غير أن النصر سيكون أبهى وأتم إذا خرج رئيس جمهورية البندقية بنفسه مع الجيش النصرانى فإن ماللأمراء والملوك من الجلالة والمجد والنفوذ تأثيراً كثيراً فى نفوس الجند كما أن الأسماء الضخمة العظيمة ستلقى الرعب والفزع فى نفس العدو الذى سيستخذى ويتطامن أمام شخص دوق بورغنديا ومهابة الكرسى الرسولى ، فكيف إذا ظهر معهما دوج البندقية على سفينته الفخمة « بوسنتور Bucentaure وهو فى ثيابه الفاخرة ؟ إن آسيا كلها بل الشرق كله سير تعد خوفاً ورعباً ، فنناشدكم الله أن تأتوا إلى أنكون وتعملوا لالمجد جمهورية البندقية فحسب بل لسلامة الجمهورية النصرانية أيضاً ، وإذا كان قد سبق لأدواج البندقية أن تولوا قيادة الأساطيل وخوض غمار المعارك بأنفسهم فأحرى أن يكون مثل ذلك اليوم والقضية قضية النصرانية ، ويجب أن لايعتذر الدوج بأى عمل أو يتعلل بضعف البنية والمرض فإنه إنما سيحتاج إليه لرأيه ومشورته وإن فيليب دوق بورغنديا أشيخ منه وأنه هو نفسه « أي البابا ، إلي جانب شيخوخته تبطظه الأسقام ليل نهار ، فسيدهب إلي الحرب إذن ثلاثة عجائز وسيبارك الله هذا الحلف الثلاثى » ويهزم العدو وستعرف هذه الحملة باسم « حملة العجائز » لأن الحرب القادمة سيبدأها ثلاثة عجائز تعاضدهم سواعد الشباب والفتيان .

وألح البابا فى آخر رسالته على الدوج أن يأتى ولايخشى الموت فما من أحد قد كتب له الخلود فى هذه الدنيا ، وأى شئ أمجد من الموت فى سبيل الله ؟ ولن يكون إلا ماأراد الله .

ثم كتب البابا إلى إسكندر بك ـ وكان إذ ذاك فى أوج شهرته بما أحرزه من الانتصارات العديدة على الجيوش العثمانية ـ ينبئه بالحملة الصليبية الضخمة التى يقوم بإعدادها والتى على وشك الزحف إلى الشرق وطلب إليه أن يضم إليه جنوده الأشداء وستكون له (أى إسكندر بك) القيادة العسكرية العليا لهذا الجيش الصليبى الجرار ، ووعده البابا فوق ذلك الصليبى أن يتوجه ـ بعد الانتصار على العثمانيين ـ ملكاً على ألبانيا وابيروس .

ولكن إسكندر بك كان قد عقد الصلح مع السلطان الفاتح وأقسم له على احترامه وخامره التردد فيما طلب منه ، فأوفد إليه البابا بول انجيلو paul Angeloمطران درازو ـ كما ذكرنا من قبل ـ لحمله على نقض عهده مع المسلمين وإقناعه بأنه فى حل من ذلك ، وأوفدت إليه البندقية من جانبها سفيرها جبرييل تريفيزانى Gabriel Trevizani لهذا الغرض ، ونجح الرسولان فى حملة إسكندربك على إجابة ماطلبه البابا منه .

ولم يكن السلطان الفاتح فى غفلة عما يدبره البابا وحلفاؤه ويعدونه لمحاربته ، وحاول أن يفسد هذه المحالفة الصليبية الكبرى ضده فبعث إلى إسكندربك يذكره بما بينهما من العهد ويناشده الوفاء به ، ولكن اسكندر بك سخر منه ولم يكترث له ، وأراد الفاتح أن يشل قوة البندقية ـ وقد كانت أكبر القوى فى هذه المحالفة الصليبية ـ فحاول إثارة النزاع القديم بينها وبين ميلان ولكن محاولته فشلت فلم يبق أمامه إلا أن يعتمد على نفسه وعلى قوته وتأهب لملاقاة الحملة المتحالفة القادمة التى ستهاجمه من أوروبا وآسيا .

واطمأن البابابى الثانى إلى نجاح خطته ورسخ فى قلبه أن الحملة القادمة سيكون فيها القضاء المبرم على الدولة العثمانية وسلطانها العنيد الذى أعرض عن استجابة دعوته إلى التنصر وفى 11 يونيو 1464 أدى البابابى آخر صلواته فى كنيسة الرسل بروما ثم بدأ سيره إلى أنكون ليبحر منها إلى الشرق .

وهذه أول مرة فى تاريخ البابوية والنصرانية وآخر مرة أيضاً يخرج فيها البابا من روما ليتولى قيادة حملة صليبية بنفسه وقد انتابت البابا عند بدء سفره من روما حمى خفيفة ولكنه لم يحفل بها وطلب إلى أطبائه أن لايذكرون عن ذلك لأحد شيئاً .

ولم تمض على رحلته ثلاثة أيام حتى بلغه أن جموع الصليبيين المحتشدين فى أنكون يجأرون بالشكوى لأنهم لايجدون مايستعينون به على السفر فأوفد إليهم البابا الكاردينال چان كرڤاچال Jean carvajal لتهدئتهم ، ولم يكد يقترب البابا من بحر الأدرياتيك حتى شاهدأرسالاً من الصليبيين وهم عائدون إلى أوطانهم ، قد انصرفوا عن هذه الحملة المقدسة ، وكان بين المحتشدين فى أنكون عدد كبير من رجال الحرب المغاوير الأشداء المتأهبين للقتال ولكنهم لما وجدوا أن الكنيسة لاتدفع إليهم شيئاً غير صكوك الغفران ، إزوروا عنها وانصرفوا إلى بلادهم ساخطين ساخرين .

وكان البابا فى منشوره الذى أذاعه على النصارى لدعوتهم إلى الحملة الصليبية قد أعلن أنه لن يشترك فيها إلا القادرون على القتال الذين يملكون الزاد والعتاد لمدة ستة أشهر على الأقل ولكن هؤلاء المحاربين لم يأبهوا لهذا ، لاعتقادهم أنهم عنصر أساسى فى الحرب لاغناء عنهم بأية حال .

ومن جهة أخرى فإن كثيراً من الطبقات العامة والدهماء قد توافدوا من أرجاء كثيرة من أوروبا لاسلاح لهم ولا مال ، دفعتهم الحماسة الدينية الساذجة التى تتأجج فى صدورهم واثقين أنهم سيزودون بكل مايحتاجون إليه ويشتركون فى الحملة المقدسة إن لم يكن ذلك بوسيلة من وسائل الأرض فبمعجزة من معجزات السماء ، وقد بكر هؤلاء الدهماء فى المجىء إلى أنكون ليكون لهم فضل السبق فى الإبحار إلى الشرق ، فلما طال بهم الانتظار وألحّ عليهم الجوع والفاقة ولم يغن عنهم أحد شيئاً فترت عزيمته موخابت آمالهم فعادوا أدراجهم إلى أوطانهم فى صورة تبعث الأسى والرثاء والتقوا بالبابا وهو يتهادى فى محفته فى طريقه إلى أنكون ، وقد حز فى نفسه وأرمض قلبه أن يكون أول ماتقع عليه عينه هذا المنظر المؤسى .

ولما وصل أنكون وجد هناك جمعاً آخر كبيراً من أحط الطبقات وأسفلها ، لاقادة لهم ولامال ولاسلاح ؛ كانوا لايزالون يراودهم الأمل فى أن البابا سيزودهم ويشركهم فى الحملة ، ولم يجد البابا مندوحة من إعادتهم ، على أنه لم يشأ أن يحرم هؤلاء المتحمسين السذج من الأجر والثواب على ماتكبدوا من مقشة وعناء فأغدق عليهم بصكوك الغفران ، واشتدت وطأة الجوع والسغب على كثير من هؤلاء العائدين البائسين ولم يتمالكوا أنفسهم من الإعياء وماتوا فى عرض الطريق .

وفيما كان البابا ينظر إلى جموع الصليبيين الذين كان قد علق عليهم أعظم الآمال تتفرق وتتلاشى والجذوة الصليبية تخبو وتموت إذ قدم عليه سفراء من راجوزا ينبئونه بأن جيشاً تركياً قد عسكر على بعد ثلاثين ميلاً من مدينتهم وأنذروا بإبادة أهلها جميعاً إن هم أمدوا البابا بالسفن التى كانوا قد وعدوه بها ، فحثهم البابا على الثبات ووعدهم بأنه سيأتيهم بنجدة قوية عاجلة ، ومالبث أن جاءه نبأ آخر بأن الأتراك قد اتخذوا طريقاً آخر .

وحط البابا رحاله فى أنكون ينتظر مجيء صاحبيه العجوزين وماسيمده به ملوك وأمراء أوروبا من جند وعتاد ، ولكنه لم يجد شيئاً مما كان قد أمل فإن دعوته إلى الحملة الصليبية التى أذاعها فى أرجاء أوروبا لم تؤت الأثر الذى كان يريده ، ففرنسا قد شغلتها دسائس ومكائد ملكها لويس الحادى عشر ، وألمانيا قد شملتها الفوضى والاضطراب تحت حكم إمبراطورها الضعيف فردريك الثالث ، بل أن دوج البندقية نفسه قد حاول أول الأمر أن يعتذر عن عدم السفر بنفسه لكبر سنه ونصح له مستشاروه أن يعدل عن هذا الرأى ولكنه أصر عليه فنهض فيكتور كابللو Victor Capello وصاح فى وجهه فى حماس وشدة « لئن لم تبحر طوعا لنحملنك عليه كرهاً فإن مصلحة الوطن وشرفه أهم وأعز من شخصك فاعتذر الدوج بأنه لايحسن حرب البحار فوعد بأن يعين له قائد ماهر يشدأزره وهو لورنزومورو Lorenzo Moro وقطعت على الدوج كل حجة وأبحر مكرهاً ، بل أن دوق بورغنديا الذى كان ينتظر أن يكون أول السابقين فى طليعة الحملة الصليبية قد كتب إلى البابا بعدم قدرته على السير بنفسه وتعلل ببعض الأعذار الداخلية (1) .

واغتم البابا لهذا النبأ غماً شديداً وثارت به العلل والأسقام ورزحت تحت وطاتها القاتلة شيخوخته الذابلة ، وعندما شاهد الأسطول البندقى فى الميناء على أهبة السفر لم

(1) لم يتحمس لدعوة البابا إلى الحملة الصليبية غير ماتياس كورفان ملك المجر فقد أعد كل ماقدر عليه من جند وعتاد وانتظر وصول الحملة الصليبية الكبيرة ، ولكن ذهب انتظاره بغير جدوى ، وقد أرسل دوق بورغنديا بعد قليل إلى أنكون ابنيه أنطوان وبودوان فى ألفى محارب ، وكانوا يرفعون أعلاماً كتب عليها ذلك الشعار الذى هتف به الصليبيون قبيل حملتهم الأولى إلى الشرق منذ أربعة قرون « هكذا أراد الله » ، ولكنهم لم يكادوا يصلون إلى مرسيليا حتى بلغهم نبأ وفاة البابا پى الثانى والمصير المحزن الذى انتهت إليه الحملة فقفلوا راجعين من طريق البر وهم على أسوأ حال من الشقاء والتعس .

يملك أن قال لنفسه فى توجع وحسرة :

لقد كنت قبل اليوم أنشد الأسطول لأبحر به فلا أجده ، وهاهو ذا اليوم يحضرإلى فلا يجدنى .

فقــد أحس الــوهــن يسرى فى جسمه وشعــر بدنو أجــله فدعــا إليه جميع الكرادلة لتوديعهم وطلب منهــم أن يصلوا لأجـله ، ومــات البابابى الثانى بين أيديهم فى 14 أغسطس 1464 .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الفريدة الضخمة ، حملة العجائز الثلاثة التى دعا إليها البابابى الثانى للقضاء على الدولة العثمانية ونيطت بها أعظم الآمال فى الغرب والشرق ، على أن أثرها لم يقف عند هذا الفشل وهذه المأساة المحزنة ، فإنها فوق ذلك قد أشاعت فى نفوس النصارى نوعاً من القنوط واليأس فى نجاح إعداد أى حملة صليبية أخرى ضد العثمانين .

ولم يفت البابابى الثانى قبيل موته بعد أن تحقق من فشل الحملة التى أعدها أن يعود إلى محاولته الأولى فوجه نداء آخر إلى السلطان الفاتح دعاه فيه إلى التنصر .

وكان ذلك آخر عمل قام به البابابى الثانى فى سبيل النصرانية (1) .



(1) بعد فشل هذه الحملة الصليبية وقع عبء الحرب ضد العثمانيين على البندقية ومن حالفها من الأمراء ودامت بضع عشرة سنة .

الفصل الثانى

الحرب مع البندقية والقرمان

البندقية وسياستها التجارية. طبيعة العداوة بينها وبين الدولة العثمانية. موقف البندقية بعد فتح القسطنطينية. نشوب الحرب بينها وبين الدولة العثمانية. المعارك الأولى فى المورة. إمارة القرمان وسياستها العدائية. أمير القرمان يجلب على نفسه عداوة تركيا ومصر. وفاة هذا الأمير وتنازع أبنائه من بعده. تدخل أوزون حسن التركمانى والسلطان الفاتح فى النزاع. إخضاع القرمان للدولة العثمانية.

بلغت البندقية منذ نهاية القرن الرابع عشر درجة عظيمة من القوة فى الشرق بما أنشأته من تجارة واسعة الآفاق ومستعمرات كثيرة ومحطات ومراكز هامة فى بحار الشرق ومئات من السفن تنقل المتاجر والأمتعة من مختلف أصقاع العالم وتدر عليها الأرباح الوفيرة الطائلة .

ولم يكن لها فى هذا الميدان من منافس له خطر فإن جنوا غريمتها الأولى قد أصابها الإعياء والوهن وأشرفت على الاضمحلال والفناء ، أما الإمبراطورية البيزنطية فقد وصلت فى ذلك الحين إلى حال من الضعف والعجز ، أصبح معها التجار البنادقة فى القسطنطينية يدلّون على الأباطرة أنفسهم ويتطاولون عليهم وينتزعون منهم الامتيازات والحقوق انتزاعاً .

وقد نظرت البندقية إلى الدولة العثمانية فى أول نشأتها وهى تحبو فى آسيا الصغرى بغير اكتراث ولامبالاة ، بل بشىء غير قليل من الإزدراء والاستخفاف ، فكان البنادقة ينظرون إلى السلطان أورخان على أنه رجل بربرى جلف لاخطر له ولااعتبار ، ولكن تزايد نمو الدولة العثمانية واتساع فتوحاتها لاسيما بعد استيلائها على كليبولى التى تشرف على الدردنيل الذى يعد من أهم المنافذ التجارية بين الشرق والغرب ، كل ذلك حمل جمهورية البندقية المتغطرسة على أن تغير نظرتها إلى هذه الدولة الإسلامية الفتية وتحسب

لها ألف حساب ولم تكن خشية البنادقة وتخوفهم من الدولة العثمانية لأنها دولة إسلامية فلم يكن أمر الدين يعنى هؤلاء التجار فى قليل أو كثير إلا بقدر مايتصل بتجارتهم التى كانوا يعدونها أساس رخاء البندقية وقوتها وعظمتها ، بل لم يكونوا يحجمون عن أى عمل يحقق لهم شيئاً من هذا النفع ولو كان فى ذلك ضرر محقق بالنصرانية ذاتها وخيانة لها وإنما كانت خشية البنادقة من الدولة العثمانية أن تعرقل تجارتهم أو تقطع سبيل مواصلاتهم فأخذوا يتوددون إليها ويعقدون معها الاتفاقات والمعاهدات التى تضمن لهم سلامة تجارتهم .

على أن هذه الاتفاقات كانت اتفاقات اصطناعية موقوتة لاتحتمل الدوام والاستمرار لأن طبيعة الأشياء كانت تأباها ، فالدولة العثمانية لاتنفك تمد فتوحاتها فى جميع الاتجاهات وتستولى على مواضع جديدة ، وجمهورية البندقية من ناحيتها كانت حريصة أشد الحرص على الاحتفاظ بمركزها الممتاز فى الشرق بل على المزيد من توسيع تجارتها وتنمية ثروتها حتى تصبح « ملكة الذهب فى العالم المسيحى كافة [1] » .

وتحقيقاً لهذا الهدف قوت مركزها وسلطانها فى اليونان والمورة وبحر الأرخبيل واستولت على مواقع استراتيجية جديدة فيها « وجملة القول أنها حاولت أن تحرم الأتراك من الاستيلاء على كل أرض فى الإمبراطورية البيزنطية يلوح أن من الممكن إنقاذها » وكان أخشى ماتخشاه البندقية هو أن تسقط القسطنطينية هذه المدينة الفريدة بموقعها وأهميتها خصوصاً فى ذلك العهد فى يد العثمانيين بعد أن أحاطوا بها من كل جانب فكان الصدام بين هاتين الدولتين الطموحين أمراً لامناص منه ، وقد تحقق ذلك حينما اشتبكت السفن البندقية بالسفن العثمانية فى الدردنيل سنة (819هـ ـ 1416م) وسحقتها سحقاً ، ولم يكن عجيباً أن يحرز البنادقة مثل هذا النصر الساحق بسهولة فقد كانوا سادة البحر وفرسانه منذ قرون بينما العثمانيون لم يكونوا قد أجادوا تحريك أيديهم بالمجاديف بعد ، ولكن كان لهم مجال واسع فى البر يعوضون فيه مايصيبهم فى البحر من خسار .

وكانت البندقية قد اشترت مدينة سالونيك سنة 1423 من الإمبراطور البيزنطى بخمسين ألف دوقة ، وكان فى عزم البندقية أن تجعل من هذه المدينة الساحلية الهامة

---

(1) شارل ديل ـ البندقية

« بندقية جديدة » فى الشرق ، ولكن لم تمض سبع سنوات حتى استولى عليها العثمانيون سنة (833 هـ ـ 1430 م) فتزايدت مخاوف جمهورية البندقية وتعاظمت وإذا بهذه الدولة التجارية التى طالما عملت على إضعاف بيزنطة واقتطاع أجزائها وانتزاع الامتيازات منها وإهانة أباطرتها ، إذا بها الآن تعمل بكل حمية وحماس لشد أزرها وتقويتها وجعلها سداً منيعاً ضد الأتراك ، ونشطت نشاطاً كبيراً فى الجهود التى بذلتها بيزنطة للتوحيد بين الكنيستين الشرقية والغربية والاستعانة بقوات اللاتين فى الغرب ضد العثمانيين الذين اشتد خطرهم على القسطنطينية على نحو مافصلنا ذلك من قبل .

وما أن تولى محمد الفاتح عرش السلطنة سنة (855 هـ ـ 1451م) حتى شيد على الضفة الأوروبية من مضيق البوسفور روملى حصار وأحكم بذلك سيطرته على هذا المضيق وأمر بمنع أى سفينة من اجتيازه إلا بعد تفتيشها ودفع رسم المرور ، ولم يكترث القبطان البندقى انتونيورزو لأمر الفاتح واقتحم المضيق بسفينه فأغرقتها المدافع المنصوبة على الضفتين وكان ذلك نذيراً بصراع عنيف بين الدولتين ، وقد اشتركت السفن البندقية التى كانت راسية فى القرن الذهبى حينما حاصر السلطان الفاتح القسطنطينية فى الدفاع عن هذه المدينة كما اشترك نائب جمهورية البندقية فى القسطنطينية وجميع أفراد الجالية البندقية فيها فى هذا الدفاع أيضاً .

وحاولت البندقية مع البابا إنقاذ القسطنطينية فأرسلت إليها مدداً من السفن المجهزة بالجند والعتاد ، ولكنها جاءت بعد فوات الأوان ، وجاء استيلاء العثمانيين على القسطنطينية « ضربة قوية جدا على البندقية »[1] وعم فيها البكاء والنحيب ، ودعا الدوج فرانسسكو فوسكارى Foscari Francesco مجلس الشيوخ « السناتو » إلى الاجتماع وألقى فيه خطاباً حماسياً مؤثراً دعا فيه إلى إعلان الحرب فوراً على الدولة العثمانية ، ولكن الشيوخ الموقرين آثروا التريث وتدبر الرأى ووزن المصالح التجارية العليا قبل الأخذ بهذا الرأى الخطير .

وأسفرت المناقاشات آخر الأمر عن الموافقة على تكليف بارتوليميو مارسللو Bartolemeo Marcello بالذهاب إلى أدرنة لمفاوضة السلطان الفاتح للحصول على

(1) شارل ديل ـ البندقية

أفضل الشروط التى تضمن المصالح الاقتصادية للجمهورية والاعتذار للسلطان عن الموقف العدائى الذى وقفه البنادقة فى القسطنطينية واشتراكهم فى الدفاع عنها ، وقد نجح هذا المندوب فى أداء مهمته فعقد فى 8 إبريل 1454 معاهدة سلام ومودة مع الدولة العثمانية ضمنت بها البندقية مصالحها التجارية فى الشرق إلى حد كبير كما منحت بعض امتيازات اقتصادية جديدة .

على أن هذا الاتفاق ـ كسابقه من الاتفاقات ـ لم يكن فى الواقع سوى هدنة مؤقتة أملتها الظروف القائمة فقد كان هناك أكثر من ميدان تلتقى أو بالأحرى تصطدم فيه هاتان الدولتان الطموحان اللتان تتغالبان على النفوذ والسلطان ، وزاد فى قلق البندقية وتخوفها عناية السلطان الفاتح واهتمامه بتقوية أسطوله وتحصينه مضيق الدردنيل بعد البوسفور إحكاماً فى مراقبة السفن التى تنتقل بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط . وقد كانت البندقية تعتبر البحار وبخاصة بحار الشرق الميدان الذى يجب أن تتفرد بالسيادة فيه بغير منازع .

وفى سنة (864 هـ ـ 1460م) استولى السلطان الفاتح على شبه جزيرة المورة حيث كانت للبندقية مراكز هامة على الشاطىء وتجاور الخصمان بذلك وتواجها ، وساد الشعور بأن الصدام بينهما واقع وشيكاً لا محالة ، وأخذت البندقية تعد لذلك عدتها كما أخذت فى نفس الوقت تمد يدها ومعونتها إلى أعداء الدولة العثمانية ، الأمر الذى زاد فى توتر الموقف واستفحال الخطر وأصبح أقل حادث يكفى لإشعال نار الحرب .

وحدث فى سنة (867هـ ـ 1463م) أن فر عبداً لوالى أثينا وسرق معه مال الخزانة ولجأ إلى كورون وهى تحت حكم البندقية فآواه قائدها جيروم فالاريزيو Jerom Valaresio وقاسمه المال المسروق ثم أكرهه علي اعتناق النصرانية ، ولما طالب والي أثينا برد العبد الآبق والمال المسروق أجيب بأنه لاسبيل إلى ذلك بعد أن اعتنق العبد النصرانية . وكان ذلك إيذاناً بالحرب بين البندقية والدولة العثمانية ، ومالبث أن استعر أوارها واتسع نطاقها وامتزجت بالحروب التى دعت إليها البابوية فى الغرب والحروب التى شنها الأمراء الطامعون فى الشرق وشملت ميادينها البر والبحر وتطاول أمدها إلى ستة عشر عاماً .

لم يكد والى أثينا يتلقى إجابة البنادقة برفض رد العبد حتى زحف عيسى بن أوره

نوس حاكم المورة نحو أرجوس واحتلها وأغارت كتيبة ثانية بقيادة عمر بن طرخان على أطراف ليبانت كما زحفت كتيبة ثالثة نحو مدينة مودون .

ولما وصل نبأ هذا القتال إلى البندقية اجتمع مجلس الشيوخ فيها للنظر فى هذا الأمر ، واشتد الجدل فيما يجب اتخاذه ، وقد اقترح كثير من الشيوخ إرسال إنذار إلى السلطان الفاتح لاستيضاح موقفه ومقاصده قبل البت فى أمر القتال ، ونهض الشيخ المتحمس فيكتور كابللو Victor Capello فحمل حملة شعواء على المترددين والمتخاذلين الذين يريدون اتباع طرق اللين والمساناة فإن ذلك لن يزيد السلطان الفاتح إلا إمعاناً فى اللجاج والعناد وطلب المبادرة إلى شن القتال فإن السلاح سيكون أمضى وقعاً وأبعد أثراً وسيكون ذلك أعود بالنفع على الجمهورية وأحفظ لهيبتها وشرفها بدلاً من الاسترسال فى سياسة الضعف والاستسلام التى تجرها إلى الهلاك .

وخطب القائد البندقى لويس لوريدانو Louis Loredano فبذل كل مافى وسعه لإقناع الجمهورية بأن الفرصة مواتية للاستيلاء على المورة وأن عشرين ألفاً من الروم على استعداد لحمل السلاح والقتال تحت لواء الجمهورية وأن المورة إذا ماوقعت مرة فى يد دولة بحرية فإنها لن تنزع منها أبداً وقرر مجلس الشيوخ الحرب .

وحشدت جمهورية البندقية جميع قواها لحرب ضروس تعلم أنه سيكون لها أبعد الأثر فى مصير مستعمراتها وتجارتها فى الشرق ، فأعدت أسطولاً قوياً بقيادة لويس لوريدانو كما أرسلت إلى المورة برتولدوست Bertoldo d'Este لتولى قيادة القوات البرية فيها . وما أن وصلها حتى أخذ يحرض الروم على الثورة ضد العثمانيين ويلهب فيهم الحماس الوطنى ووعدهم بمجى حملة صليبية كبيرة تشد أزرهم فثارت أسبرطة وتيناروس وغيرهما من مدن المورة ، واستولى لوريدانو على قلعة فاتيكا ثم أخذ يجوب جزائر الأرخبيل خلال أشهر مايو ويونيو ويوليو (1463) على أمل أن يلتقى بالسفن العثمانية ثم عاذ فى أول أغسطس إلى المورة وتعاون مع برتولدو فى جيشه البرى على حصار أرجوس واستوليا عليها بعد قتال مرير .

واشتدت نيران الثورة فى المورة بعد سقوط هذه المدينة ، وزادها ضراماً وشدة تواتر

الأنباء بقرب وصول الحملة الصليبية التى سيقودها البابا بنفسه [1] واقترح الروم والألبانيون الذين انضموا إلى القوات البندقية على القائدين لوريدانو وبرتولدو إقامة سور منيع على البرزخ الذى يصل المورة ببقية اليونان فى الشمال ويقطعون بذلك كل مدد عن الأتراك الموجودين فى المورة ، وكان آخر سور على هذا البرزخ قد هدمه السلطان مراد الثانى بعد حصار الأتراك الرابع للقسطنطينية ، وحشد القائدان البندقيان لتشييد السور ثلاثين ألف عامل بين جند وغيرهم أقبلوا على العمل بهمة وحماس . ولم يمض أسبوعان حتى استوى السور شامخاً منيعاً فى ارتفاع اثنتى عشرة قدماً تعلوه مئة وستة وثلاثون برجاً ويحميه خندقان عريضان وأنشىء فى وسط السور مذبح احتفل فيه بالقداس ونصب عليه علم القديس مرقص .

ولم يكد ينتهى البنادقة من نصب مدافعهم الأربع مئة على السور حتى بلغهم نبأ قدوم جيش تركى نحوهم ، ودلف قائد هذا الجيش عمر بك فى نفر من رجاله لتعرف السور ومدى قوته ، وكاد تطلعه هذا يودى بحياته فقدأطلق عليه البنادقة قذائفهم وصرعت اثنين ممن حوله وعاد عمر بك أدراجه بعد أن ألقى نظرة فاحصة على السور .

وقد كان البنادقة يتطلعون منذ زمن بعيد إلى التفرد بالسيطرة على المورة إذ كانت مركزاً تجارياً دسماً تدر من المكوس وحدها ثلاثين ألف دوقة [2] ، ولن تتحقق لهم هذه السيطرة على شبه الجزيرة بمجرد امتلاك عدة مواقع من شواطئها بل لابد من إخراج من فيها من الأتراك وقد واتتهم الفرصة الآن بعد تشييد السور المنيع فأخذوا فى احتلال القلاع المتفرقة التى كانت يحتلها الأتراك ، وامتنعت عليهم قلعة ليوناترى فتركها القائدان البندقيان رتولدو ولوريدانو وذهبا لحصار كورنثه وكانت أهم مدينة وأقواها فى يد الأتراك بالمورة وشددا عليها الحصار وهجما عليها المرة تلو المرة ولكن بغير جدوى .

وفى (6 صفر 868 هـ ـ 20 أكتوبر 1463م) قاما بهجوم عنيف مشترك عليها . وفيما كان القتال دائر على أشده إذ أصيب برتولدو بقذيفة قاتلة فى رأسه ، وأثار مقتله اليأس والقنوط فى نفوس جنده وفترت حميتهم للقتال ، وشعر الأتراك المحصورون بما طرأ على

---

(1) وهى « حملة العجائز الثلاثة » التى فصلنا أمرها فى الفصل السابق .

(2) Heyd, Histoire du Commerce du Levant.

أعدائهم من الفتور والاسترخاء فكروا عليهم كرة عنيفة أكرهتهم على رفع الحصار وعاد البنادقة إلى سور البرزخ وتحصنوا به ، أما السكان الروم الذين كانوا قد ظاهروا البنادقة واستطار بهم الفرح بقرب مجيئ الحملة الصليبية فقد بدأوا يشعرون بالقلق وخيبة الأمل واستحوذ عليهم الخوف والفزع حينما لاح لهم ماسينزل بهم من العقاب إذا ما انتصر الأتراك فانزووا على أنفسهم وكفوا عن مساعدة البنادقية .

وخلف برتولدو فى قيادة القوات البرية بتينو كالسينا Bettino Calcine ولم يكن هذا القائد الجديد على شئ من كفاية سلفه ومقدرته وشجاعته ، فقد كان متحصناً بسور البرزخ مع جنوده فما إن سمع بمقدم جيش تركى بقيادة محمود باشا حتى تملكه الفزع والرعب وفر من السور وتبعه جنوده وتحصنوا ببعض القلاع داخل المورة ، أما محمود باشا فقد كان يتوقع أن يلاقى عند سور البرزخ المحصن المنيع مقاومة شديدة فدلف إليه فى حذر واحتراس ، وماكان أشد دهشته حينما وجد السور خالياً قد هجره حماته واستولى عليه الجنود العثمانيون غنيمة باردة بعد أن أنفق البنادقة على بنائه وتحصينه جهوداً كبيرة وأموالاً وفيرة .

ولم يجد محمود باشا بعد ذلك صعوبة فى استرداد أرجوس وغيرها من المدن والقلاع التى كانت قد استولى عليها البنادقة ، وعهد إلى زغنوس باشا بتموين مدينة بتراس وأرسل عمر بن طرخان لإخضاع الأماكن الواقعة حول مودون ودخل العثمانيون مدينة أسبرطة بعد أن هجرها أهلها وفروا إلى الجبال .

وفى بداية الربيع من العام التالى (1464) كان الأسطول البندقى يتولى قيادته أورساتو جستنيانى Orsato Guitisnuani والتقى ببعض السفن التجارية العثمانية فنكل بها تنكيلاً فظيعاً وأهلك جميع من كان فيها إغراقا وشنقا . وقد أبطره هذا النصر الرخيص فقصد إلى جزيرة لسبوس وحاصر عاصمتها ميتلين وضحى للاستيلاء عليها بخمسة آلاف من أشداء رجاله ولكن الحامية التركية ثبتت للهجوم وارتد جستنيانى على أعقابه وهو كسير وعاد أدراجه إلى ميناء مودون حيث أماته الهم والكمد .

أما عن جيش البنادقة البرى فقد تولى قيادته سجسموند مالاتستا Sigismond Malatesta ولم يكد يضع قدمه على أرض المورة حتى زحف بجيشه إلى أسبرطة

لاستردادها من الأتراك ونجح فى الاستيلاء على المدينة ولكن امتنعت عليه قلعتها الحصينة الباسلة برغم هجماته القوية المتكررة عليها ، وارتد عنها القائد البندقى وهو مغيظ محنق وصب جام غضبه على المدينة فأشعل فيها النار فى قسوة وبربرية وخرب مبانيها .

وهكذا فالبنادقة الذين كانوا قد وعدوا الروم بالحرية والمساعدة أصبحوا وبالاً عليهم ونكالاً ، وقفل مالاتستا راجعاً إلى إيطاليا تصحبه لعنات السماء والأرض ، وتولى قيادة الأسطول البندقى بعد موت جستينانى جاك لوريدانو Jacques Loredano ولم يكن أسعد حظاً من سابقه فعزلته حكومته وجعلت مكانه فى قيادة الأسطول ڤيكتور كابللو Victor Capello وقد فاق هذا القائد الجديد جميع من سبقه من القواد فى القسوة والوحشية والبربرية ، وكان أول ما نزل من أرض اليونان فى بيرية ومنها زحف إلى أثينا وكانت إذ ذاك تعد من أغنى المدن وأحفلها بالسكان فهدم أسوارها وأحرق أبوابها وجعل المدينة نهباً مباحاً لجنوده الأشراس فلم يبقوا على شيء وعادوا بغنائمهم وأسلابهم إلى ، جزيرة نيجربون وانتشى كابللو بهذا النصر فتوجه بأسطوله إلى جزر الأرخبيل فاستولى على إيمبروس وتاسوس وساموتراس وزاده ذلك نشوة وغروراً فقصد إلى اينوس الغنية ـ ولم يكن فيها غير الروم ـ فخربها وجعل عاليها سافلها وارتكب جنوده فيها أحط ضروب الوحشية والبربرية واللصوصية وأمعنوا قتلاً ونهباً فى أهلها العزل وسلبوهم كل شئ ولم يرعوا أية حرمة للمقدسات فاعتدوا على الكنائس وانتهكوا أعراض الراهبات الروميات فيها وأشعلوا النار فى المدينة حتى استحالت رماداً ثم قفلوا راجعين إلى نيجربون يجرون ألفين من الروم بين رجال ونساء وغنائم وفيرة تنوء بحملها الجبال .

وكان مؤرخو البنادقة أول من ندد بهذه الفظائع وذهبوا إلى القول بأن ما أصاب جمهورية البندقية بعد ذلك من نكبات وكوارث إنما كانت انتقاماً إلهياً على تلك الجرائم والمآثم [1] .

---

(1) Cuillet, op cit .de la CROIX, OP. CIT.

يقول المؤرخ البندقى ساجريدو Sagredo عن فظائع مواطنيه البنادقة فى إينوس .

"Ils n'eurent aucun respect pour les liex sacrés, violérenet les épouses de Jusus- Christ et dépouillérent les chrétins innocents de tous leurs biens."

فإذا كان هذا هو مايفعله البنادقة بالروم النصارى الأبرياء وكانوا ـ كما زعموا ـ قد جاءوا لإنقاذهم وتحريرهم وحمايتهم فماذا كانوا يفعلون بمدن الأتراك وأسرى الأتراك ألد أعدائهم ؟ والعجيب أن البابا حينما بلغه مافعله البنادقة فى إينوس أمر بإقامة الصلوات شكراً لله على هذا النصر !

ويسخر الفيلسوف الفرنسى فولتير سخرية لاذعة ممن يزعمون أن النصارى كانوا أكثر إنسانية من الأتراك

أما الجيش البرى فقد عهد بقيادته - بعد عودة مالاتستا - إلى جاك بارباريجو JacquesBarbarigo فنهض بجيشه لحصار بتراس التى كانت لاتزال فى أيدى الأتراك وقد التجأ إليها كثير من الروم من أرجاء مختلفة من اليونان نجاة أنفسهم وأموالهم من شراهة البنادقة وقسوتهم .

وقام كابللو بمعاونة بارباريجو فى حصار هذه المدينة من ناحية البحر ولم يكد يدخل البنادقة ضواحى المدينة حتى عمدوا إلى النهب والسلب واللصوصية كدأبهم فى كل مكان فأخذهم القائد التركى عمر بك على غرة وانقض عليهم بمن معه من الجند ومزقهم شر ممزق وقتل قائدهم بارباريجو ولم ينج من جنوده غير ألف لاذوا بأذيال الفرار .

واعتقد كابللو أن هزيمة البنادقة مردها سوء النظام والفوضى فأزمع معاودة الكرة بنظام أوفر وأنزل بقية جيشه إلى البر وهاجم بتراس من جديد واحتدم النجوم واستمر عدة ساعات ولكن البنادقة صدوا آخر ودحروا على أعقابهم ، وكانت الهزيمة شراً عليهم من الأولى واستحوذ اليأس على القائد البندقى كابللو وانكسرت عزيمته بعد هاتين الهزيمتين فعاد بفلول جيشه إلى نيجربون فى استحياء وذلة وثقل عليه الألم وتضعضعت بنيته ولبث ثمانية أشهر كالمقعد لايقوى على الحركة ، وحاول رجاله وأصدقاؤه أن يستنهضوه ويبعثوا فيه الحياة والقوة بغير جدوى وذهبت محاولتهم نفخة فى رماد . ومالبث كابللو أن قضى عليه الهم والكمد .

هكذا مضت سنوات ثلاث منذ شنت البندقية حربها أو بعبارة أصدق قرصنتها فى المورة واليونان ولم يكن لها من نتيجة غير جلب الدمار والخراب على الروم الذين أخذوايلوذون بالأتراك وينشدون حمايتهم .

كان عام 1463 عاماً حافلاً بالأحداث .

ففى ذلك العام حدثت حرب البوسنة بأوروبا على ماذكرنا من قبل وفى ذلك العام نشبت الحرب بين البندقية والدولة العثمانية ، وفى ذلك العام أيضاً حدثت بإمارة القرمان حادثة هامة أدت إلى نشوب حروب متواصلة بآسيا سارت جنباً إلى جنب مع حروب البندقية ، وإن شئت الإيجاز دون أن تبعد كثيراً عن الحق فقل إنها حرب واحدة ضد الدولة العثمانية اتخذت ميادين مختلفة .

وإمارة القرمان كانت واحدة من الإمارات العشر التى قامت على أنقاض الدولة السلجوقية وكانت أشدها بأساً وأقواها شكيمة وأوسعها رقعة وقد سارت إلى جانب الدولة العثمانية حقبة من الزمن كفرسى رهان ، ولكن الدولة العثمانية بما أوتى سلاطينها من الكفاية والحذق والنشاط أخذت تنمو وتزدهر وتتسع رقعتها وجاوزت حدود آسيا الصغرى فقفزت إلى أوروبا تنتقل من نصر إلى نصر ومن ظفر إلى ظفر ، الأمر الذى أثار الضغينة والكراهية فى نفوس أمراء القرمان فأخذوا يكافحون هذه الدولة الجديدة ويناهضونها بمختلف الوسائل والطرق ، كان الطابع الغالب عليها طابع الغدر وانتهاز الفرص والطعن من الخلف بالرغم من أواصر المصاهرة التى تربط بين القرمانيين وآل عثمان . وقد رأينا من قبل كيف أن إبراهيم أمير القرمان لم يكد يعلم بوفاة صهره السلطان مراد الثانى حتى شن القتال على الدولة العثمانية ظاناً أن السلطان الجديد شاب غر لن يقوى على محاربته وانتهى به الأمر إلى التسليم والاستعطاف ، وقد عفا عنه السلطان الفاتح رعاية لرباط المصاهرة إذ كانت زوجة إبراهيم أمير القرمان عمته .

ولكن الأمير القرمانى لم يقابل هذا الموقف السمح الكريم من السلطان الفاتح بما هو أهله ، بل حاول أن يفسد العلاقات الطيبة القائمة إذ ذاك بينه وبين سلطان مصر فكتب إلى الأشرف إينال يستعديه على الفاتح ويشكو إليه أمره ، ولكن سلطان مصر لم يحفل بأمره « ولم يلتفت لكلامه وأجابه بجواب هين » (1) .

وأثار ذلك غضب أمير القرمان ودفعته رعونته إلى العدوان على مصر ، واستولى على طرسوس وأدنه وكولك ثم أوفد إلى سلطان مصر رسولاً لاسترضائه وطلب إليه أن يجعله نائبا عنه فى حكم هذه البلاد التى اغتصبها ! ولكن سلطان مصر أبى مقابلة الرسول القرمانى ورده ، وأمر باعداد تجريدة لقتال ابن القرمان ، وزاد ذلك فى حنق الأمير القرمانى فزحف بجيشه إلى البلاد الحلبية ، ولم يملك سلطان مصر عند ذلك نفسه واستطار به الغضب وأمر بالتعجيل فى إرسال الحملة .

وفى نحو ذلك الوقت كان إمبراطور طرابزون قد بدأ يحوك تلك المؤامرة الكبرى ضد الدولة العثمانية وبادر أمير القرمان إلى الاشتراك فيها وتحمس لها ، وهكذا جلب على

---

(1) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور . ابن اياس ، تاريخ مصر .

نفسه بحمقة ورعونته وسوء طويته عداوة دولتين إسلاميتين عظيمتين تحدقان به من الشمال والجنوب . ومامن من ريب فى أن عمله هذا كان ـ كما قال ابن تغرى بردى بحق ـ « غلطاً عظيماً . . . بل هو الجنون بعينه » (1) .

وأرسل سلطان مصر لقتاله جيشاً كثيفاً لم يقف عند استرداد المدن التى استولى عليها ابن القرمان ، بل زحف مندفعاً إلى إمارته وأوغل فيها واندس فى الجيش كثير من الأوباش والدهماء « فأخربوا غالب قرى ممالكه وأحرقوا بلاده وسبوا ونهبوا وأمعنوا فى ذلك حتى أنهم أحرقوا عدة مدارس وجوامع (2) » ، ولم يمنع الجيش المصرى من احتلال مدن القرمان إلانفاد الزاد والميرة فعاد أدراجه ، أما إبراهيم أمير القرمان الذى اعتصم ببعض القلاع المنيعة فقد ردت إليه هذه الضربة القاصمة بعض عقله ورشده فكتب إلى سلطان مصر معتذراً يستصفحه ويسأله الرضى عنه ، وانتهى الأمر بينهما بالاتفاق وعقد الصلح .

وكان لأمير القرمان هذا سبعة أبناء ستة منهم مــن زوجته أخــت السلطان مراد الثانى (أى عمة السلطان محمد الفاتح) أما السابع ـ واسمه اسحاق ـ فقد كانت أمه أم ولد أو مجهولة النسب ، غير أنه كان أقرب إخوته إلى قلب أبيهم إبراهيم الذى آثره بحبه ومودته فأقطعه بعض المدن وعهد إليه بخزائن أمواله ثم جعله ولى عهده وأسخط ذلك بقية أبنائه فتألبوا على أبيهم وحاصروه فى عاصمته قونية وطردوه منها ، ومالبث إبراهيم أن مات ، قضى عليه الهم والكمد ولم تخلص الإمارة لإسحاق ولم يستتب له لأمر كما كان يريد أبوه ، فقد نازعه إخوته ، وكان أشدهم منازعة له فى هذا الأمر أخاه پير أحمد الذى استولى على قونية وجميع الجزء الشمالى من إمارة القرمان ولم يبق لأخيه إسحاق سوى جزء ضئيل فى الجنوب .

وفر اثنان من أبناء إبراهيم وهما سليمان ونور صوفى إلى السلطان الفاتح ولاذا به فاحتفى بهما ومنحهما بعض الإقطاعات ، واشتد پير أحمد فى قتال أخيه إسحاق حتى اضطر هذا إلى استنجاد أوزون حسن وسلطان مصر ، وقد وعده الأخير بمناصرته ولكنه

---

(1) حوادث الدهور
(2) ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة .

لم ينجز وعده [1] وكتب إلى أوزون حسن يستحثه على مساعدة إسحاق [2] .

أسرع أوزون حسن بجيشه إلى القرمان وعاث فيها فساداً وتخريباً وتقتيلاً وهزم پير أحمد الذى فر إلى السلطان الفاتح ولاذ بحماه ، وغادر أوزون حسن القرمان وأبقى فيها قريبه جمال الدين فى عدد من الجند لمعاونة إسحاق وتوطيد أمره .

ولكن إسحاق مالبث أن ساوره الخوف بعد رحيل أوزون حسن عنه وخشى أن يثير عليه الفاتح إخوته الذين لاذوا به ينازعونه الإمارة ، فأوفد إليه أحمد چلبى أحد كبار علماء القرمان ليقدم إليه مدينتى آق شهر وبك شهر على أن يعترف به أميراً على القرمان ويكف يده عن مناصرة إخوته عليه ، وأجاب الفاتح بأن هاتين المدينتين فى حوزته فعلاً فلم يقدم إليه إسحاق شيئاً جديداً فإذا كان يريد حقاً أن يأمن جانب إخوته فعليه أن يسلم الأراضى التى وراء نهر جهار شنبه ويكون هذا النهر حداً فاصلاً بين إمارته وبين الدولة العثمانية فإن قبل إسحاق فهو آمن علي إمارته ، ورفض إسحاق ما عرض عليه ، فأمر الفاتح حمزة بك حاكم انطاليه بغزو القرمان والتقي الجيشان العثماني والفرماني بالقرب من أرمناك وانهزم إسحاق انهزاماً تاماً وفر إلى أوزون حسن فى حين تحصنت زوجته وولده بحصن سلفكه

وأعيد پير أحمد إلى إمارة القرمان ، ووعد بالطاعة للدولة العثمانية ومعاونةالسلطان الفاتح بالجنود فى حروبه [3] .

---

(1) حوادث الدهور

(2) نفس الرجع .

يذكر لنا ، المؤرخ المصرى ابن تغرى بردى أن السبب الذى حدا سلطان مصر على مناصرة إسحاق بك هو أن السلطان الفاتح كان قد كاتبه ولم يوف ذكر الألقاب التى كان يلقب بها سلطان مصر ، وقد اعتذر رسول الفاتح الذى حمل الرسالة بأن ذلك من غلطة الكاتب ولكن ذلك لم يرض سلطان مصر وظل غاضباً « متغير الخاطر » (حوادث الدهور) .

وقد أوضح لنا المؤرخ التركى عاشق زاده فى تاريخه هذا التغيير الذى حدث فى الألقاب فقد كان السلطان الفاتح يلقب سلطان مصر بـ « والدى سلطان الحرمين » أو « أخى سلطان مصر » . وحدث أن غير الكاتب اللقب فوضع مكان « سلطان الحرمين » « خادم الحرمين » وكان هذا التغيير البسيط فى اللقب هو الذى أغضب سلطان مصر وحمله - فى رأى ابن تغرى بردى - على مناصرة إسحاق بك ، ونعتقد أن هناك سبباً حقيقياً أبعد من هذا ، فقد وعد إسحاق بك سلطان مصر حين استنجده أن يجعل إمارة القرمان جزءاً من مملكته ويكون هو نائباً عنه فى حكمها وصدق سلطان مصر قوله فعمل على مناصرته ، ولم يكن شئ أحب إلى نفسه من أن يوسع فى ملكه ولعله إلى جانب ذلك قد ساوره الخوف من استمرار توسع الدولة العثمانية التى أصبحت حدودها متاخمة لحدود الدولة المصرية .

(3) عاشق زاده تاريخى . خير الله ، تاريخ دولت عليه عثمانية .

وجدّت بأوروبا أحداث هامة شغلت الفاتح فترة من الزمن عن آسيا . ولم يكد ينتهى منها حتى عقد عزمه على أن ينهى أمر القرمان ويقضى نهائياً على هذه الإمارة المشاكسة التى لم تنفك منذ قرن ونصف تناوىء الدولة العثمانية وتتخذ الاتفاقات ذريعة للكيد لها والإيقاع بها فقد انتهز پير أحمد فرصة انشغال الفاتح فى أوروبا فأخذ يعمل على ضم المقاطعات العثمانية المجاورة إلى إمارته ، ولم يقف عند هذا الحد بل حالف ألد أعداء الدولة العثمانية إذ ذاك وهما أوزون حسن وجمهورية البندقية التى أخذت منذ اندلاع الحرب بينها وبين الفاتح تبحث لها عن حلفاء فى كل مكان ، ولما بلغه تأهب السلطان الفاتح للسير إليه كتب إلى سلطان مصر يستنصره ويستنجده ويعده بالولاء والطاعة « وإنه مملوك له »[1] ولكن سلطان مصر لم يمده بشئ .

خرج السلطان الفاتح بجيشه إلى القرمان يصحبه الصدر الأعظم محمود باشا فاستولى على قونية وأخرج منها پير أحمد ، ثم هزمه مرة أخرى بالقرب من لارنده وأرغمه على الفرار وكانت تقيم بأطراف القرمان قبيلة تترية تدعى « قبيلة طورغود » كانت قد تخلفت عن الرحيل مع تيمورلنك بعد غزوه لآسيا الصغرى واستقرت بتلك الأنحاء ، وهم قوم لايؤمن لهم جانب وقد توجسواهم أنفسهم خيفة عند مقدم السلطان إلى القرمان ففروا إلى جبال طوروس فأرسل الفاتح وزيره محمود باشا وراءهم لمطاردتهم ، ونقل من كان بقونية ولارندا من العمال والصناع إلى القسطنطينية .

وأراد السلطان محمد الفاتح أن يستأصل شأفة الفتنة والفساد من القرمان فأمر بنقل الجزء الأكبر من سكانها إلى القسطنطينية ، وعهد بهذا الأمر محمود باشا ، ولكن هذا الوزير أفسدته الرشوة فبدل أن ينقل أهل الجاه واليسار والنفوذ من السكان تخير منهم الفقراء والضعفاء الذين لاحول لهم ولاغناء فيهم .

وأثار تصرف محمود باشا كثيراً من القيل والقال والغمز واللمز من بعض الناس . وانتهز هذه الفرصة روم محمد باشا الذى كان يحقد على محمود باشا وينفس عليه الصدارة العظمى فوشى به إلى السلطان وهول الأمر وهرّم فعزله الفاتح وجعل روم محمد هذا فى منصبه فلم يكن منه غير الشر والبلاء فقد كان رجلاً قاسياً شرهاً شديد الغلظة

---

(1) حوادث الدهور .

فاختلس الأموال وأرهق الناس وتعسفهم لايبالى من يصيب ولايميز بين أقدارهم ، وكان ممن أصابهم عسفه رجل من أهل العلم والورع يدعى أحمد چلبى وأرسله إلى القسطنطينية فلما علم السلطان الفاتح بعد عودته إلى القسطنطينية بما أصابه ذهب إليه بنفسه واعتذر له وأعاده إلى موطنه معززاً مكرماً .

وضمت القرمان إلى الدولة العثمانية لم يندّ منها غير مدينة سلفكة التى تحصنت بها زوجة اسحاق وابنها بعد فرار زوجها إلى أوزون حسن ، وعهد السلطان الفاتح قبل عودته إلى القسطنطينية بحكم القرمان إلى ابنه الثالث الأمير مصطفى (872 هـ ـ 1467م)

لم يكف پير أحمد وأخوه قاسم عن إثارة أهالى القرمان وحثهم على محاربة الدولة العثمانية والولاء للأسرة القرمانية القديمة واتخذا مدينة سلفكة التى تحصنت بها زوجة إسحاق وابنها محمد مركزاً لهذه الدعوة الثائرة ، فأوفد السلطان الفاتح روم محمد إلى آسيا الصغرى لإخضاع البقية الباقية من بلاد القرمان ، وروم محمد باشا ـ كما ذكرنا آنفاً ـ هو ذلك الرجل القاسى الغليظ القلب الذى لايتورع عن أى قساوة وشدة ، وقد زحف أول ماوصل القرمان إلى مدينة لارنده فخربها وهدم معاهدها ومدارسها وعسف الناس عسفاً شديداً ، ثم قصد مدينة أركلى فلم يدع شيئاً إلا دكه ، وقد تضرع إليه السكان وناشدوه اللّه أن يبقى على الدور التى أوقفت على مدينة رسول اللّه ـ ﷺ ـ ولكنه أغلق سمعه وقلبه دون كل ضراعة .

وتوجه بعد ذلك إلى حيث تقيم قبيلة وارساق القوية بالقرب من جبال طوروس فى شمال غربى سلفكة ، وكان يتولى قيادتها أيوزبك ، وأخذ هذا القائد فى فرسانه الأشداء يستدرج روم محمد وكمنوا له فى بعض الأحراش ثم انقضوا عليه بقوة وشتتوا شمل جيشه وحملوه على الفرار ، وترك لهم روم محمد جميع ماكان معه من الغنائم ، وانتهز الأمير القرمانى قاسم بك فرصة هذه الهزيمة واستثار حماس أهل القرمان للالتفاف حوله واستطاع أن يحشد له بضعة آلاف من الفرسان وهاجم مدينة أنكورى ونهبها وأحرقها فنهض إليه قاضى هذه المدينة أمرة چلبى والقائدان سنان بك وپير بك وطردوا الأمير القرمانى الذى تظاهر بالفرار إلى إحدى الغابات بعد أن نصب كميناً من فرسانه فى بعض الطريق ، ومالبث الجنود العثمانيون أن وجدوا أنفسهم بين عدوين وأحيط بهم من كل جانب وحاقت بهم مقتلة عظيمة .

وصلت أنباء هذه الهزائم إلى السلطان محمد الفاتح فاستشاط غضباً وعزل روم محمد وجعل مكانه إسحاق باشا وسيره إلى القرمان فى ربيع سنة (875هـ-1471م) فى جيش كبير ، وما إن سمع پير أحمد بمقدم هذا الجيش حتى لاذ بالفرار ولجأ إلى أوزون حسن ولم يجد إسحاق باشا صعوبة فى استعادة المدن والقلاع .

وفى السنة التالية أرسل السلطان الفاتح القائد كدك أحمد باشا إلى آسيا الصغرى لتقوية الجيش العثمانى فيها وشد أزر الأمير مصطفى واحتلال المدينتين الساحليتين الهامتين علائية وسلفكة خصوصاً بعد أن تواترت الأنباء بتحفز أوزون حسن للهجوم من الشرق ووصول الأسطول الصليبى من الغرب .

أما علائية فقد كان يحكمها من قبل أمير يدعى قرمان بك وكان يدين بالطاعة والولاء للسلطان مراد الثانى والد السلطان الفاتح ، ولكن أمير القرمان إبراهيم بك مافتئ يغرى لطفى بك ويطمعه فى الملك حتى استجاب لإغرائه وقتل أخاه قرمان بك ، ولكنه لم يستمتع طويلاً بثمرة جريمته فقد وثب عليه ابنه قليج أرسلان وقتله واستحوذ على المدينة وصار كالتابع لأمير القرمان .

ولم يكن السلطان الفاتح ليسمح أن تكون هذه المدينة الساحلية الهامة وكراً للقراصنة ومرسى للسفن النصرانية المعادية ، وزحف إليها كدك أحمد وحاصرها براً وبحراً وما أن شاهد رجال الحامية المدافع العثمانية المنصوبة حتى تملكهم الفزع وخارت قواهم وهرولوا إلى قليج أرسلان يقولون له : إن هذا الرجل الذى يحاصر القلعة ليس كأمراء القرمان ، ولا قبل لنا بمدافعته فأجاب قليج أرسلان : إن الأمر لكم ، فطلبوا من كدك أحمد أن يبعث إليهم رجلاً لمفاوضته وأجابهم إلى ماطلبوا ثم بعثوا إليه مرة أخرى يطلبون مقابلته هو شخصيا ، فلما ذهب إليهم كدك أحمد سألوه : ماذا يجرى على أميرنا إذا استوليتم على المدينة فأجاب : إذا فتحت المدينة صلحاً بغير قتال فلن يصيبه سوء ، أما إذا فتحت عنوة فإن الأمر يختلف .

وسلمت المدينة إلى كدك أحمد بغير قتال فأحسن معاملة الأمير قليج أرسلان وأقدمه القسطنطينية حيث احتفى به السلطان الفاتح وأحسن لقاءه وخلع عليه الخلع الوفيرة الفاخرة وعين له ولأهله ريع أرض واسعة يعيشون به فى رغد ورفاهية .

وكان مقام قليج أرسلان فى كوملجنه يشرف على البحر ، وظهرت له ذات يوم سفينة قادمة فركبها وفر إلى مصر ، ولم يسمع عنه شئ بعد ذلك ومات ابنه حزناً لفراقه ومالبث أن لحقت به أمه .

أمامدينة سلفكة فكانت قد تحصنت بقلعتها زوجة إسحاق وابنها محمد بعد فرار أبيه إلى أوزون حسن ، ثم انضم إليها فى القلعة قاسم أخو إسحاق وظلوا فى حصنهم يترقبون النجدة التى ستأتيهم من عند الأمير التركمانى ، فلما بلغتهم وفاة إسحاق انتابهم اليأس ففر أخوه قاسم من الحصن ولجأ إلى أوزون حسن وآثرت زوجته وابنها محمد أن يسلّما طوعاً للعثمانيين قبل أن يحملا عليه كرهاً .

واحتل كذك أحمد سلفكة ومايجاورها من بقية القلاع الصغيرة وذهب بذلك آخر أثر لسيادة الأسرة القرمانيةفى القرمان .



الفصل الثالث

تحالف جديد ضد الدولة العثمانية

البندقية تبحث عن حلفاء فى الشرق والغرب ـ فتح نيجربون ووقعه الشديد على الغرب النصرانى ـ البابا ينشئ حلفاً إيطاليا واتحاداجرمانيا ضد الأتراك ـ التحالف بين البندقية وأوزون حسن ضد الدولة العثمانية ـ موقف مصر بين القوى المتصارعة ـ أوزون حسن يحلم بإنشاء إمبراطورية على أنقاض الدولتين العثمانية والمصرية ـ بدء النزاع بين تركيا ومصر ـ القتال بين السلطان الفاتح وأوزون حسن ـ هزيمة أوزون حسن وانتهاء أمره .

أخذت جمهورية البندقية على أثر نشوب القتال بينها وبين الدولة العثمانية تبذل ـ إلى جانب جهودها الحربية العظيمة ـ نشاطاً كبيراً فى الميدان السياسى بحثاً عن الحلفاء والنصراء فى أوروبا وآسيا على السواء ، وقد وجدت أقوى وأخلص حليفين فى ماتياس كورفان ملك المجر وأوزون حسن زعيم التركمان اللذين تجمعهما ـ على تباعد الأقطار واختلاف الجنس والدين ـ معاداة الدولة العثمانية ومناهضتها فأمدت الأول بالمال والسلاح وتبادلت مع الثانى الرسل والسفراء لإحكام خطة ونوحيد القوة وتسديد الضربة وأمدته كذلك بالأموال والأسلحة النارية التى كانت تعوز الجيش التركمانى آنذاك .

وأخذت البندقية من ناحية أخرى تعمل على إتمام الحملة الصليبية التى كانت قد بدأها البابا پى الثانى وكانت على وشك الرحيل إلى الشرق ، وقد رأى الكرادلة أنفسهم الذين تلقوا الوصاة الأخيرة من البابا الراحل بمواصلة الحملة الصليبية أن لا يظهروا بمظهر من تخلى عن هذا المشروع الدينى الكبير وأهمله ، فعادوا مسرعين إلى روما وأتمروا فى قصر الفاتيكان لانتخاب البابا الجديد وأخذوا ميثاقاً غليظاً على من يقع عليه الاختيار بأن يواصل الحملة الصليبية ضد الأتراك ، وأسفر الانتخاب عن فوز الكاردينال بيير باربو Pierre Barbo الذى اتخذ له اسم بول الثانى Paul 11 وقد كان أهم مادفع الكرادلة إلى انتخابه أنه بندقى ، ولايبعد أن حكومة بندقية ذات الدهاء والثراء قد تداخلت فى هذا

الانتخاب من قريب أو بعيد ، وعلى أية حال فقد استبشر الناس بالبابا الجديد وانتظروا منه أن يشنّ على الأتراك حملة صليبية قوية لاهوادة فيها ، ويندفع فى مناصرة مواطنيه البنادقة الذين كانوا يصلون وحدهم نار الحرب ضدهم منذ حين ويعاضدهم بكل ماأوتى من عزم وقوة غضباً لدينه وغضباً لوطنه .

والحق أن بول الثانى لم يكد تتم مراسم تتويجه حتى جمع مجلس الكرادلة وشاورهم فى أنجع الوسائل للقيام بالحرب المقدسة ضد الأتراك ، ثم استقبل سفراء الدول الإيطالية الذين قدموا لتهنئته بالباباوية فانتهز هذه الفرصة وفرض على كل واحدة من هذه الدول ـ كل على قدر طاقتها وثروتها ـ أن تسهم بالمال فى إعداد جيش النصرانية ، وجاءت حصة البابوية والبندقية أعظم من حصة الدول الأخرى .

غير أنه لما كان هذا الموضوع الذى أثاره البابا قد جاء مفاجأة للمندوبين والسفراء وليست لديهم أى تعليمات فقد وعدوا بأن يكتبوا فى ذلك إلى حكوماتهم ، ومالبث البابا نفسه أن شغل عن هذا الأمر وانصرف إلى محاربة ملك بوهيمية جورج پوديبراد George Podebrad لحمايته الهراطقة أتباع هوس Hus [1] فى بلاده واستعان على ذلك بملك المجر ماتياس كورڤان الحليف الوحيد المتحمس للبندقية فى أوروبا وحول قواته من مقاتلة الأتراك إلى قتال ملك بوهيمية حمية وصاحب اليد الطولى عليه[2] واستمر البنادقة يحملون وحدهم عبء الحرب ضد الأتراك إلى أن سدد السلطان الفاتح إليهم ضربته القاصمة فى جزيرة نيجربون سنة 875 هـ (1470م) ارتاع لها البابا بول الثانى كالمذعور وارتاع معه الغرب النصرانى بأجمعه كما سنرى بعد قليل .

وكانت سفن البنادقة ـ كما أبنا فى الفصل السابق ـ قد قامت بحرب القراصنة فى المورة وجزر الأرخبيل ، وقد أثار ماأنزلته من تدمير وتخريب لاسيما فى إينوس غضب السلطان الفاتح وصمم على أن ينزل ضربة قوية بالبندقية ، فوجه حملته إلى مستعمرتها الكبرى نيجربون Négrpont التى تعد أكبر جزر بحر الأرخبيل وهى تقع فى الناحية الغربية من هذا البحر ، لايفصلها عن الأرض اليابسة اليونانية غير قناة بحرية تعرف بقناة

---

(1) مصلح دينى تشيكى (1369 ـ 1415) حكم عليه البابا إسكندر الخامس بالحرمان والإعدام بالحرق حياً .

(2) كان لجورج بوديبراد فضل كبير فى تبوء ماتياس كورفان عرش المجر .

أوريب Euripe ، وهذه الجزيرة إلى جانب وفرة ثروتها الطبيعية كانت المرسى الرئيسى للسفن البندقية فى الشرق والمركز الذى تبسط منه سيطرتها على ماحولها من الجزر والموانىء ، وقد عنيت البندقية عناية بالغة بتحصينها حتى غدت على أعظم جانب من القوة والمناعة فى ذلك العهد ونظرت إليها النصرانية كمعقل لها يذودعنها ، فلا غرو أن أسرع فرسان رودس - الذين أوقفوا حياتهم للذود عن النصرانية - إلى إرسال النجدة إليها حينما تسامعوا بالخطر المحدق الذى يتهددها .

أبحر الأسطول العثمانى الكبير الذى يتراوح بين مئتى وثلاث مئة سفينة من ميناء القسطنطينية بقيادة محمود باشا ويقل نحو ستين ألف محارب [1] قاصداً نيجربون ، أما السلطان الفاتح فقد زحف إليها من طريق البر على رأس جيش آخر .

وكان الأسطول البندقى فى نيجربون مؤلفاً من خمس وثلاثين سفينة بقيادة القبطان نيكولا كانال Nicolas Canale وبرغم تفوق رجاله فى حرب البحار وتفوق سفنه فى الجودة وسرعة الحركة فإنه لم يكد يقع بصره على الأسطول العثمانى حتى أخذته دهشة المفاجأة ووقع الرعب فى قلبه وفر هارباً بسفنه ولاذ ببعض الجزر القريبة إنتظاراً لمدد يأتيه من جزيرة كريت ومن البندقية نفسها وأتاح بذلك لمحمود باشا لا أن ينزل جنوده إلى الجزيرة وحسب ، بل وأن يقيم جسراً من السفن يصل هذه الجزيرة بالأرض اليابسة من اليونان حيث كان قد وصل السلطان الفاتح على رأس جيشه البرى .

عبر الفاتح الجسر إلى الجزيرة ليشرف بنفسه على أعمال الحصار والقتال ، وأخذت المدافع العثمانية تطلق قذائفها المدمرة بغير انقطاع على أسوار المدينة فتدكها دكاً ، وقد أبدى رجال الحامية وجميع سكان الجزيرة رجالاً ونساءاً شجاعة واستماتة فى القتال وترميم الثغرات يقودهم ثلاثة من أشجع القواد وهم ليجى كالوا Luigi Caloa وجان بوندوميرى Jean Bondumieri وبول أرزو Paul Erizzo وزاد فى استبسالهم وثباتهم ماكانوا يترقبون من قرب وصول النجدة إليهم من الأسطول البندقى .

---

(1) يقول المؤرخ الإيطالى سيسموندى Sismondi إن اللاتين يغلون دائماً غلواً كبيراً فى تقديرات القوات الإسلامية وذلك إعذاراً لأنفسهم إذا ماانهزموا وتزايداً فى إظهار البطولات إذا ماانتصروا .

والحق أن جمهورية البندقية لم يكد يصلها نبأ حصار الأتراك لنيجربون حتى أمر مجلس الشيوخ لساعته بإرسال جميع السفن إلى نيكولا كانال وأمره بأن يخاطر بكل شيء فى سبيل إنقاذ الجزيرة وكان العمل المنتظر من هذا القائد هو أن يقطع الجسر الذى أقامه الأتراك من السفن ويقطع بذلك خط الرجعة على من نزل منهم فى الجزيرة ويحصرهم فيها حتى يبيدهم الجوع ، ولكن كانال برغم ماوصله من أمداد السفن التى جاوزت المئة عداً وهى قوة أعظم كثيراً من قوة الأتراك البحرية ولو بلغت سفنهم الثلاث مئة أو الأربع مئة فقد كان معظمها سفن نقل صغيرة يسيرها رجال حديثوا عهد بالبحر وأساليب القتال فيه على عكس البنادقة سادة هذا الميدان وفرسانه منذ عهد بعيد ، وكانت الريح نفسها فى صالح السفن البندقية والتيار الدافع خير معوان على الهجوم والانقضاض على السفن التركية الجاثمة ، وكانت صيحات المدافعين فى الجزيرة تستحثه على الهجوم وهمّ بعض بحارته بالتمرد والعصيان ولكن كانال برغم ذلك كله لم يتزحزح من مكانه ولم يتحرك وظل على مبعدة من الجزيرة لايجرؤ على التقدم .

ويعزو بعض المؤرخين [1] موقفه هذا إلى أنه كان معه فى سفينته ابنه وفلذة كبده بيير كانال Pierre Canale وكان غلاماً لدنا فزاعه ، تملكه الخوف والذعر ولاذ بأحضان أبيه فرق له قلبه وأشفق عليه من الخطر ولم تطاوعه نفسه بالمجازفة وأحجم عن الهجوم ولبث فى مكانه لايريم .

وكان الأتراك قد قاموا بثلاث هجمات عنيفة على أسوار المدينة أودت بحياة آلاف منهم ومن المدافعين على السواء ، وشاع فى معسكر الأتراك أن السفن البندقية ستقطع عليهم الجسر من خلفهم فاستجمعوا كل قواهم وصاح فيهم السلطان الفاتح بصوته الجليد المجلجل « اهجموا أيها الغزاة » فهجموا على أسوار المدينة للمرة الرابعة واتبعوها الخامسة فى الثالث عشر من محرم 875 هـ(12 يوليو 1470م) واقتحموها على المدافعين الذين آثر معظمهم الموت .

ونظر القائد البندقى كانال وبحارته إلى علم القديس بطرس وهو ينزل من سارية

---

(1) منهم دارو Daru وسيسموندى Sismondi وساجريدو Sagredo وجيبه Guillet

القلعة ويرتفع مكانه العلم العثمانى الإسلامى ، وحز ذلك فى نفوسهم حزاً أليماً وانبعثت فيهم فجأة حمية شديدة دفعتهم إلى الأمام كأنما يريدون رفع علمهم ، ولكن الحقيقة المرة مالبثت أن صدمتهم .

وأوفدت حكومة البندقية قائداً جديداً إلى الشرق هوبيير موسينجو Pierre Mocenigo وصرح لكانال عقب وصوله بأنه إذا كانت لديه خطة مرسومة لاسترداد نيجربون فإنه مستعد للعمل تحت إمرته وأجاب كانال بسؤال مماثل وهو أنه إذا كان لدى موسينجو منهج مرسوم للهجوم على نيجربون واستردادها فإنه مستعد للقتال تحت لوائه ، ويبدو أن كلا القائدين كان يخشى تحمل التبعة فى محاولة خطرة كهذه قد تؤدى إلى كارثة أفدح ، وعندئذأعلن موسينجو الأمر الذى أصدرته حكومة البندقية باعتقال كانال وأرسله مصفدا بالحديد إلى البندقية حيث حوكم وحكم عليه بالنفى ، وأصدرت حكومة البندقية مرسوماً يحرم على القباطين أن يستصحبوا أبناءهم معهم فى سفنهم ، أما موسينجو فقد عاد بالسفن البندقية إلى المورة وقضى فيها الشتاء .

كان لسقوط نيجربون « مجنّ المسيحية وحصنها » كما سماها تقرير بندقى « دوى هائل فى الغرب بأسره [1] » فإن الناس فى أوروبا إلى ذلك الحين كانوا يعتقدون أن قوة الأتراك إنما هى فى البرّ وحده ، أما البحر فلا نصيب لهم فيه ولاحول ، تكفى أقل قوة لصدهم وهزمهم كما حدث فى المعركة البحرية أثناء حصار القسطنطينية ، ولكن استيلاءهم على نيجربون من البنادقة سادة البحر فى ذلك العهد ـ مهما قيل فى موقف كانال من مبررات ـ قد أوقعهم فى الحيرة والفزع ، وكان أشدهم فزعاً بطبيعة الحال أهل إيطاليا الذين لم يطرقهم غاز من جهة بحر الأدرياتيك منذ خمسة قرون حتى أكسبهم ذلك شعوراً بالاطمئنان إلى أن هذا البحر سد منيع لايقتحم وأنهم لن يؤتوا من هذا الجانب أبدا ، ولكن بعد استيلاء الأتراك على نيجربون لن يكون بحر الأدرياتيك إلا قناة أوسع قليلاً من قناة أوريب التى اجتازها الفاتح فى يسر وسهولة .

لقد أصبحت الشواطىء الإيطالية كلها إذن مفتوحة أمام الأتراك . وكان من الطبيعى أن يكون فرديناند ملك نابولى أشد الإيطاليين تخوفاً وخشية ؛ إذ كانت موانئه الواقعة فى

---

(1) شارل ديل ، البندقية

أطراف كعب « الحذاء الإيطالى » أقرب الشواطىءكلها إلى البر الشرقى بألبانيا ، وكانت بين فرديناند هذا وبين البنادقة عداوة وحزازات قديمة ، وقد كان ضياع جزيرة كبيرة على أعدائه حرياً بأن يبعث فى نفسه أشد عواطف الغبطة والشماتة لولا أن الذين استولوا على هذه الجزيرة هم العثمانيون .

لذلك لما كتب إليه السلطان الفاتح ينبئه بانتصاره واستيلائه على نيجربون وأن ذلك سيدخل على قلبه الفرح والسرور رد عليه فرديناند فى خشونة وغلظة بأن محاربته للنصارى ولأصدقائه وحلفائه البنادقة بخاصة قد قطعت مابينهما من صلات الود والصداقة ، ومن العجب أن يطلب منه مشاركة الفاتح فى ابتهاجه بفتح نيجربون فإن هذا الأمر على عكس ذلك قد أثار فى نفسه شعور الألم والغضب وأصبح من واجبه كنصرانى مخلص لنصرانيته أن يضم سفنه إلى سفن البنادقة ويقاتل معهم بكل قواه الدولة العثمانية[1] .

أما البابا پول الثانى فقد انصرف بكل قواه إلى إقرار السلم فى إيطاليا واستل السخائم والحزازات الدفينة بين بعض دولها ، وكف هو نفسه عن أخذ ثاراته وتغاضى عما له إزاء بعض هذه الدول وجعلها كلها جبهة متحدة ضد الأتراك وربطها بحلف واحد وثيق أذيع على الناس فى 22 ديسمبر 1470 وأقيمت له الأفراح والأعياد فى كل مكان .

ولم يكتف البابا پول الثانى بهذه الجبهة الإيطالية المتحدة بل أراد أن يقيم سداً منيعاً فى كل موضع قد يتقدم منه الأتراك فأصلح مابين الإمبراطور فردريك الثالث وماتياس كورڤان ملك المجر وجعلهما يداً واحدة على الأتراك .

وفى 24 يونيو 1471 عقد اجتماع عام فى راتسبون Ratisbonne خطب فيه أسقف ترانت Trente فأثار شعور الحاضرين بما ذكره عن غزو الأتراك وتخريبهم لحدود ألمانيا فى السنتين الماضيتين ، وتحدث مندوب البابا الكاردينال فرانسوا فحث الألمان على التضافر والتساند للدفاع عن الوطن المشترك ، ثم خطب مندوب البندقية پول موروسينى Paul Morosini فأشاد بما بذله البنادقة ومايبذلونه وحدهم من جهود جبارة منذ سنين

---

(1) Hammer, Histoire de l'Empire Ottoman

عديدة فى مقاتلة الأتراك ، وحذر جميع النصارى من خطر هذا العدو الذى تتعاظم قوته يوماً بعد يوم فى البر والبحر ، على الألمان أن يتكاتفوا لصده ، ولايزال فى الوقت متسع لدرء هذا الخطر ، فإن البنادقة لايزالون يملكون أسطولاً قوياً وحاميات كثيرة منتشرة فى شواطئ الليريا واليونان يقاتل تحت لوائهم خمسة وعشرون ألف محارب ، فإذا ضمت إلى ذلك سفن الملك فرديناند وقوات سائر الدول الإيطالية اجتمعت قوة كبيرة قادرة على سحق الخطر وتأمين النصرانية من كل خوف [1] .

وتواردت رسائل كثيرة من أنحاء كارنيول Carniole وستريجونى Strigonie والمجر تستحث المندوبين على الإسراع فى تكتيل القوى النصرانية ، وأخيراً تقرر فى الجلسة التى عقدت فى 19 يوليو تعبئة قوى الإمبراطورية الألمانية كلها بحيث يتسنى إعداد مثتى ألف جندى فى أتم سلاح ، على أن هذا القرار ظل حبراً على ورق ، وكان إمبراطور ألمانيا نفسه فردريك الثالث رجلاً ضعيفاً يؤثر السلام والعافية وينفر من الحرب وأهوالها .

وقد وجد البابا پول الثانى والبنادقة فى أوزون حسن التركمانى المسلم حليفاً أكثر حماساً وعزماً وأشد جرأة واندفاعاً فى مقاتلة العثمانيين ، وقد بعث إلى الباباپول الثانى رداً على كتابه ـ برسالة مفخمة فى أسلوب شرقى مزركش مزخرف يعده فيها بمعاونته ومناصرته فى الحلف الذى يدعو إليه ضد العثمانيين ، وأسبغ أوزون حسن على البابا كما أسبغ على نفسه ـ أفخم الألقاب وأضخمها ، وقد رأى مؤرخو الكنيسة فى ذلك اعترافاً بعظمة البابوية وجلال مكانتها ، اعترافاً من « كافر » انتزعته منه « قوة الحقيقة »[2] على أن المنية عاجلت الباباپول الثانى فى 26 يوليو 1471 قبل أن يشهد شيئاً من نتيجة مفاوضاته ومحالفته مع الأمير التركمانى .

لقد خسرت البندقية بفقد نيجربون خسارة لاتعوض ، ولما عجزت عن استرداد هذه الجزيرة الهامة بالقوة حاولت شراءها واسترداد بالمال ، ولكن السلطان الفاتح رفض ردها بأى ثمن كان ، ويظهر أن البندقية لم تكن تتوقع خيراً كثيراً من الحلف الإيطالى والاتحاد الجرمانى فى حربها ضد الأتراك فعرضت عقد الصلح على السلطان الفاتح ، غير أنها

Sismondi, op. cit. (1)
Ibid(2)

استفدحت الشروط التى طلبها واستعظمتها ولم تجد مندوحة من مواصلة القتال على فداحته ومراراته وبرغم أنه يكلفها سنوياً من خزانتها نحو مليون ومئتى ألف دوقة ، واستخدمت البندقية فى هذا الصراع المرير كل وسيلة ممكنة تحقق لها الانتصار ولم تتورع فى سبيل التغلب على السلطان الفاتح عن التفكير فى دس السم له « نظراً إلى الحاجة لاستخدام كل الوسائل الممكنة ضد تركيا وسلطانها » .

وكان نشوب الحرب سنة 867 هـ (1463م) بين البندقية والدولة العثمانية ، ونشوب الحرب فى القرمان فى نفس السنة ومناصرة أوزون حسن لأمرائها ضد الدولة العثمانية قد قوى أواصر التحالف والتعاون بين هذا الأمير التركماني وجمهورية البندقية على مناضلة السلطان الفاتح وتبودلت بينهما كتب ورسل كثيرة .

وكان أول رسول بعثته البندقية إلى أوزون حسن هو كيرينى Quirini ، وفى مارس 1464وصل إلى البندقية أول رسل أوزون حسن ويدعى مامنا تزب وتبعه رسول آخر فى سنة 1465 يدعى قاسم محمد .

وقد وجد أوزون حسن أن الاتصال بحلفائه البنادقة شاق عسير يستغرق وقتا طويلا ، إذ كانت أقرب الطرق إلى بلاده تمر بالدولة العثمانية والرقابة فيها شديدة ، ولم يكن فى وسع بعثة بندقية نصرانية المرور بالبلاد المصرية الإسلامية خوفاً من هياج الرأى العام فيها (1) .

---

(1) كان الناس فى مصر فى ذلك العهد يكنون للدولة العثمانية أصدق وأعمق عواطف الحب والإجلال والإكبار لبلائها العظيم فى سبيل الإسلام وجهادها المتواصل ضد المشركين ، وكانت أخبار فتوحاتها المستمرة فى الغرب تصل إلى مصر حيناً بعد حين فتدق لها البشائر أياماً وتقام الأفراح وتقع من نفوس المصريين أحسن وقع ونجد فيما كتبه المعاصرون من المؤرخين المصريين أنفسهم صورة واضحة لعقيدة الناس فيقول السخاوى مثلاً عن سلاطين آل عثمان « وكلهم من خيار ملوك الدنيا ومن محاسن الزمان وسياج للإسلام قديماً وحديثاً » (الضوء اللامع) ويقول عن السلطان الفاتح « فكان ملكاً عظيماً اقتفى أثر أبيه فى المثابرة على دفع الفرنج بحيث فاق مع وصفه بمزاحمة العلماء ورغبته فى لقائهم وتعظيم من يرد عليه منهم . . » (الضوء اللامع) ويقول ابن تغرى بردى عن السلطان الفاتح ، (النجوم الزاهرة) « وتولى الملك من بعده (بعد مراد الثانى) ولده السلطان محمد بن مراد بك واقتدى بسنة أبيه فى الجهاد والغزو ونكاية العدو وأخذ البلاد والبقاع من يد الفرنج » . ويبلغ من مكانة الفاتح لدى أهل مصر أنه كان قد أشيع أنه مات بالطاعون ثم ظهر أنه لم يصب بسوء فدقت البشائر بالقلعة ثلاثة أيام (حوادث الدهور) وانظر ماكتبه ابن إياس عن الفاتح وجهاده ومناقبه (بدائع الزهور) .

وإذا أمكن لرجل أو رجلين أن يجتاز الحدود التركية فى تنكر واستخفاء فقد كان ذلك عسيراً غاية العسر على جماعة من الناس يحملون الأثقال والمعدات الحربية وهو ماكان يطلبه أوزون حسن من حلفائه الغربيين النصارى [1] وهذا هو مادفعه إلى احتلال مدينة خرت برت التى تقع فى حوزة إمارة ذى القدر ليتخذ منها منفذاً إلى البحر يسهل عليه اللقاء مباشرة بالسفن البندقية وأخذ مايريده منها .

غير أن سلطان مصر كان يعتبر إمارة ذى القدر جزءاً من مملكته [2] وينظر إلى أميرها

---

(1) وقد اضطر آخر رسول بندقى إلى أوزون حسن وهو أمبر وازكونتارينى Ambroise Contarini بعد أن شددت الرقابة على الحدود التركية أن يتخذ الطريق البرى ، وقد بدأ رحلته من البندقية فى 23 فبراير سنة 1473 فاجتاز أوروبا الوسطى ثم قصد إلى كفة ومنها أبحر الكرج حيث لقى عنتاً شديداً ومشقة كبيرة ولم يلتق بأوزون حسن إلا فى نوفمبر من تلك السنة بأصفهان أي بعد تسعة أشهر من رحلته .

(2) إمارة ذى القدر إمارة تركمانية أسسها فى سنة 780 هـ (1378م) زين الدين قره جه ذو القدر فى البستان وأضاف إليها ابنه خليل مرعش وملطية وخرت برت وبهنسى واضطرات هذه الإمارة بوقوعها بين دول وإمارات مختلفة لا سيما الدولتين الكبيرتين تركيا ومصر أن تتبع سياسة المداهنة والملاينة لتخطى بصداقة هذه الدول جميعاً فتقربت إلى الدولة العثمانية بالمصاهرة وعاونتها فى بعض حروبها وقد تزوج السلطان الفاتح نفسه ستى خاتون ابنة الأمير سليمان بن ناصر الدين ذى القدر الذى حكم اثنتى عشرة سنة (846 ـ 858 هـ ـ 1442 ـ 1453 م) وخلفه على الإمارة ابنة ملك أرسلان ذو القدر ، يكتبه ابن تغرى بردى ملك أصلان بن سليمان بن دلغادر . (حوادث الدهور) .

ولما شعر هذا الأمير بأن أوزون حسن يطمع فى إمارته تقرب إلى السلطان الفاتح وقوى علاقته به ، ولكنه أغضب بذلك سلطان مصر فكتب إليه ملك أرسلان « يعتذر بأن مايفعله مع ابن عثمان (السلطان الفاتح) يصانعه به لكون بلاده متاخمة لممالك ابن عثمان ولايمكنه مشاققته لكونه لاطاقة له به فقبل السلطان عذره وفى النفس مافيها (حوادث الدهور) فأوعز سراً إلى أوزون حسن وأمره بالاستيلاء على خرت برت وأوعز فى نفس الوقت إلى ملك أرسلان أن يقاوم أوزون حسن ويقاتله ويستعين فى ذلك ببعض جنود السلطان من التركمان ، ويظهر أن سلطان مصر كان يرمى إلى التخلص من هذين الأميرين التركمانيين المذبذبين اللذين لايثبتان على الولاء لأحد فأراد أن يضرب أحدهما بالآخر ويهشمهما معاً ويقيم على أشلائهما وجماجمهما سيادة أكثر ثباتاً وأمناً ، ولكن الذى حدث أن ملك أرسلان لم يقاتل أوزون حسن بل سلم إليه خرت برت تسليماً بغير قتال إذ لم تكن لديه قوة كافية لمقاتلته أو لعله تعمد تسليم المدينة نكاية فى سلطان مصر نفسه ، وعلى أية حال =

كتابع له ونائب عنه وغضب لاعتداء أوزون حسن على بلاده واشتدت النفرة والعداوة بينهما وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى التقرب بين سلطان مصر خوش قدم والسلطان محمد الفاتح وهو ماكان يتحاماه أوزون حسن ويعمل على منعه بأى ثمن لاسيما وقد لاحت بوادر الجفاء والعداء بينه وبين جهان شاه صاحب العراق والذى كان ينال تأييد الفاتح فأوفد إلى مصر أمه سارة خاتون ـ التى قامت من قبل بالسفارة لدى السلطان الفاتح عند زحفه إلى طرابزون ـ وسلمت إلى السلطان خوش قدم مفاتيح خرت برت وسألته الرضى عن ابنها وأعربت له عن ولائه الأكيد الدائم له ، وسرعان ماعاد سلطان مصر إلى الرضى عن أوزون حسن ، بل أصبح يرى من واجبه مساعدته ومناصرته فى أى قتال يخوضه لأنه تابع له ونائب من نوابه (1) .

= فقد جاء نبأ استيلاء أوزون حسن على خرت برت صدمة عنيفة على سلطان مصر وشق ذلك على نفسه ، ولكن لم يكن يسعه إظهار الغضب من أوزون حسن لأنه هو نفسه الذى أمره باحتلال هذه المدينة « غير أن كل أحد تحقق وقوع العداوة بين السلطان وبين حسن بك (أوزون حسن) المذكور » (حوادث الدهور) على أن أوزون حسن ليحول دون التقرب والاتفاق بين سلطان مصر والسلطان الفاتح سارع إلى استرضاء سلطان مصر ، أما الأمير ملك أرسلان فقد انتقم منه خوش قدم ـ على نحو ماانتقم من قبل السلطان بربوك من أمير ذى القدر صولى بك ـ فانتدب له فدائياً من طائفة الاسماعلية واغتاله وهو يصلى فى المسجد (عاشق زاده وصولاق زاده وسعد الدين) ونصب خوش قدم مكانة أخاه شاه بوداق (يكتبه بن تغرى بردى شاه بضع . «حوادث الدهور » ويكتبة ابن اياس شاه بضاع) الذى كان لائذاً ببلاطه وأرسل التقليد والتشريف .

(1) حوادث الدهور .

والحق أنه فى هذه الفترة التى اشتد فيها الصراع والنضال بين الدولة العثمانية من جهة وأوزون حسن وحلفائه من البنادقة وأمراء القرمان من جهة أخرى شغلت مصر مركزاً خاصاً وأهمية ممتازة ، واشتد التنافس على خطب ودها ونيل تأييدها وقد رأينا من قبل كيف أن إسحاق بن ابراهيم أمير القرمان كتب إلى سلطان مصر يستنجده ويطلب معونته وكان « يظن أن سلطان مصر يقوم بنصرته » ووعده بالدخول فى طاعته ، ولكن سلطان مصر أخلف ظنه وحذا بير أحمد ـ بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين الفاتح ـ حذو أخيه إسحاق فكتب إلى سلطان مصر يطلب نصرته ومعونته ولم ينس أن يعده أيضاً بالولاء والطاعة له ، وكان أوزون حسن ذلك الأمير التركمانى الداهية الطموح الذى كان يحلم بالتفرد بالسيادة على الشرق أشد الناس تزلفاً وتملقاً إلى سلطان مصر ، ولم يكن هذا الأمير التركمانى يتورع فى سبيل تحقيق غاياته عن سلوك أى طريق ووسيلة من خداع وغدر وملق بل وخيانة دينه ، وكان يرى فى الدولة العثمانية أكبر عدو وأكبر عقبة فى طريق أحلامه فاشترك فى كل مؤامرة =

وفى ثلاث السنوات التالية علا شأن أوزون حسن فى الشرق وذاع صيته وذلك بانتصاره فى ربيع الثانى 872 هـ (نوفمبر 1467) على جهان شاه صاحب أذربيجان والعراقين ثم انتصاره فى رجب 873 هـ (1469 م) على بو سعيد [1] ملك التتار وبعث

= وحملة أعدها الغرب لمحاربتها . وكان يعتقد أن مصر على جانب عظيم من القوة فأراد استغلالها لمصلحته ويستعين بهافى محاربة الدولة العثمانية فأخذ يبعث إلى سلطان مصر كتاباً فى أثر كتاب فى مناسبة وغير مناسبة يتودد إليه ويظهر له الخضوع والطاعة بل يعتبر نفسه مملوكاً ونائباً لسلطان مصر فيما يحكمه من البلاد ووعده بأن يخطب له على المنابر ويضرب السكة باسمه (انظر هذه الكتب فى حوادث الدهور لابن تغرى بردى) وبعد انتصاره على بير أحمد وتنصيب إسحاق بك على إمارة القرمان كتب إلى سلطان مصر يبشره بهذا النصر وأنه هو « وإسحاق كليهما من جملة مماليك السلطان ورعيته » (المرجع السابق) ، ولم يكن أوزون حسن فى حقيقة الواقع يضمر لسلطان مصر خيراً مما كان يضمره لسلطان تركيا من سوء النية والغدر ، ولكن خوش قدم سلطان مصر آنذاك كان رجلاً ليناً أخرق فانخدع بما كان يظهره له أوزون حسن من التودد والخضوع واستقر فى روعه أن ملكه قد اتسع حقاً بما ضم إلى مملكته من البلاد التى كان يحكمها هذا الأمير التركمانى وصار ضلعاً له على الدولة العثمانية وبادأها بالعداوة ، ولكن الأحداث مالبثت أن كشفت لسلطان مصر حقيقة نوايا أوزون حسن ، فقد حدث فى سنة 869 هـ أن حاصرت العساكر الحلبية التابعة لسلطان مصر قلعة كركر على الضفة اليمنى لنهر الفرات جنوب شرقى ملطية ودام الحصار عشرة أشهر ولم تنجح فى فتحها ، ويظهر أن ذلك قد حمل أوزون حسن على استضعاف مصر وأنها دون ماكان يعتقد من القوة والسطوة فزحف فى أربع مئة من جنده واستولى على كركر بناء على طلب أهلها ، وعادت العساكر السلطانية أدراجها فى خزى وذلة بعد حصار طويل شاق ذهب بغير جدوى ، واشتد غضب سلطان مصر لذلك وقامت قيامته وندم على معاداته للسلطان الفاتح وأوفد إليه رسولاً لاسترضائه وإبرام الصلح بينهما (حوادث الدهور) ، وسارع أوزون حسن للحؤول دون هذا الأمر فعرض على سلطان مصر أن يسلم له قلعة كركر على أن يمنحه تعويضاً عنها ولكن سلطان مصر أبى ذلك عليه واضطر أوزون حسن تجاه إصراره أن يسلم إليه القلعة بغير مقابل ، أما السلطان الفاتح فبرغم حرصه على قيام المودة وحسن العلاقة بينه وبين سلطان مصر فإنه لم يتسفل إلى الدرك الذى انحط إليه أوزون حسن من الملق الزائف والتزلف الكاذب والمساومة على تسليم قلعة ! ولم تكن رسائل الفاتح إلى سلطان مصر فى جملتها إلا بشائر بفتوحاته وانتصاراته على الفرنج ، وقد حدثت حوادث خاصة بين السلطان الفاتح وبين كل من سلطانى مصر خوش قدم وقايت باى عكرت صفو العلاقات بين الدولتين سنذكرها فى موضعها من هذا الكتاب فيما بعد .

(1) بوسعيد اسم لاكنية وقيل بوصعيد . (حوادث الدهور)

برأسيهما إلى سلطان مصر ثم قضى على حسن على بن جهان شاه ، وهزم حسين بيقرا ملك خراسان ونصب مكانه منافسه يادكار محمد الذى دان لأوزون حسن بالطاعة والولاء ، وامتدت دولة أوزون حسن بذلك من ماوراء النهر إلى القرمان وازداد ثقة بنفسه وقوته وعظم أمله فى تحقيق حلمه الكبير فى بسط سيادته على الشرق .

واستمر أوزون حسن على سياسته نحو سلطان مصر من التودد والتزلف فبعث إليه بمفاتيح القلاع التى استولى عليها من جهان شاه فى تبريز وأذربيجان « وأكثر من التواضع فى كتابه إلى السلطان جداً وحاصلة أنه من جملة مماليك السلطان وأن كل شيء ملكه من البلاد والقلاع إنما هو زيادة في ممالك السلطان نصره الله وأنه نائبه فيها وسأله إرسال الخلع إليه بذلك» وقد أجابه سلطان مصر إلى ماطلب وأكرم رسوله غاية الإكرام وخلع عليه وأعلن له « أنه عضد أوزون حسن ومساعده »[1] ولم يفت أوزون حسن من جهة أخرى أن يشيد بأعماله الحربية وبطولته فى انتصاره على بو سعيد وبالغ فى ذلك وأسرف فى المبالغة .

وبينما كان أوزون حسن ينهج نحو سلطان مصر هذه السياسة اللينة ؛ سياسة التملق والتخدير اتخذ إزاء السلطان محمد الفاتح سياسة أخرى تختلف كل الاختلاف ، سياسة الاستفزاز المثير والتطاول الوقح والعداء الصريح فلم يكد ينتصر على جهان شاه حتى كتب إلى الفاتح فى غطرسة وفخر ومباهاة يصف له قتاله لجهان شاه وانتصاره عليه ثم قال له فى سخرية وتهكم :

إنه لاشك يدخل على قلبه الغبطة والسرور إذ يرسل إليه بعض روءس القتلى من كبار رجال جهان شاه ـ وكان فى مقدمتها رأس كاتب ديوانه الذى كان قد كتب إلى الفاتح باسم سيده يطلب منه المعونه والمساعدة[2] .

وبعد انتصاره على بو سعيد وحسن بيقرا أرسل أوزون حسن إلى السلطان محمد الفاتح كتاباً آخر لم يجد فيه باباً من أبواب المفاخرة والمباهاة وإظهار البأس والقوة والاستخفاف بالفاتح والتهوين من شأنه إلا سلكه ، ثم أعلن له أنه قد أصبحت له قوة

---

(1) حوادث الدهور

(2) فريدون بك منشآت السلاطين .

ليست لأحد من ملوك الأرض ولم يعد له عدو يخشاه ، وكتب أوزون حسن فى نفس الوقت إلى الأمير القرمانى بير أحمد يبشره بفتوحاته وانتصاراته ويعده بنصره القريب له على خصمه محمد الفاتح [1] .

وقد أجاب السلطان الفاتح على رسالة أوزون حسن بكتاب أكثر عنفاً وشدة حذره فيه من الاندفاع وراء مطامعه الشيطانية فإنها ستودى به إلى الهلاك وأمره أن يثوب إلى عقله ويكف عن الاعتداء على البلاد الإسلامية فإن الاعتداء عليها عدوان على الإسلام نفسه وأن من واجبه وقد أوقف حياته للجهاد فى سبيل الله أن يرد المعتدين على الإسلام أياً كانوا وأينما كانوا وأن له من القوة مايمحق به قوة مايمحق به قوة أوزون حسن ويمحوه من الوجود [2] .

وبالرغم من اختلاف اللهجتين اللتين اتخذهما أوزون حسن فى كتبه نحو سلطان مصر وسلطان تركيا فقد كان فى الواقع يبيت الغدر بهما معاً ويريد القضاء عليهما كليهما ليقيم على أنقاض ملكهما تلك الإمبراطورية الواسعة العريضة فى الشرق التى كان يحلم بها ، وقد طلب أوزون حسن من حلفائه البنادقة ومن فرسان رودس أن يمدوه بالمدافع والأسلحة النارية والرجال المهرة في صنعها ، إذ أن جنوده لاتنقصهم العزيمة والشجاعة وإنما تنقصهم هذه الآلات الفتاكة .

وقد كانت الخطة التى رسمها أوزون حسن فى صراعه أن يبدأ أولاً بالدولة العثمانية التى كانت حينذاك تتألب عليها القوى النصرانية الموتورة حتى إذا مافرغ منها انثنى بقواته على مصر حيث كان سلطانها قد خدرته كتب أوزون حسن وهداياه ومفاتيح القلاع التى أرسلها إليه واستنام إلى الدعة والأمان . ولكن حادثاً عارضاً حمل أوزون حسن على تغيير خطته وقرر أن يهاجم تركيا ومصر معاً فى آن واحد .

لقد علمنا مماتقدم من صفحات هذا الكتاب ـ عند حديثنا عن نشأة إمارة ذى القدر ـ كيف توصل شاه بوداق إلى تولى هذه الإمارة بفضل معونة سلطان مصر وغدره بأرسلان بك . ولكن هذه الطريقة الآثمة الملطخة بالدم التى توصل بها شاه بوداق إلى الإمارة قد

(1) المرجع السابق

(2) فريدون بك منشآت السلاطين

أثارت سخط أهل الرأى والأعيان فى البلد وطلبوا إلى السلطان الفاتح أن يعاونهم على خلع الأمير الغاصب وتنصيب أخيه شاه سوار مكانه وكان إذ ذاك لائذاً ببلاط الفاتح ، واستجاب السلطان طلبهم وأمد شاه سوار بكتيبة صغيرة من الجند لطرد شاه بوداق .

ولما بلغ ذلك سلطان مصر ثارت ثائرته وتحرج موقفه فقد وجد من واجبه تأييد ومساعدة شاه بوادق الذى يعتبره عاملاً من عماله وعدَّ تخليه عنه « عاراً عليه »[1] ولكنه من جهة أخرى كان يتهيب الصدام بالسلطان محمد الفاتح الذى كان يؤيد شاه سوار ويناصره ، ولبث سلطان مصر ينتظر ، فلما تحقق له أن شاه سوار قد استولى على إمارة ذى القدر وطرد شاه بوداق منها كتب إلى جميع نوابه بالشام أن يخرجوا بعساكرهم لقتال شاه سوار وإعادة أخيه شاه بوداق مكانه .

وكان شاه سوار يتوقع أن يحاربه سلطان مصر فحاول استرضاءه وطلب إليه أن يقلده نائباً عنه مكان أخيه ولكنه رفض ، ولم يبق لشاه سوار إلا أن يعتمد على سيفه للاحتفاظ بإمارته ، وقد كان شجعاً بطلاً ماهراً فى فنون القتال وهزم العساكر السلطانية فى مواقع عدة هزائم شنيعة متلاحقة ارتجت لها القاهرة وماجت وبلبلت أفكار الناس[2] .

وقد كشفت هذه الهزائم التى أنزلها شاه سوار بالجيوش المصرية عن ضعف مصر العسكرى وأطمعت الناس فيها « وانتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم حتى إن الفلاحين طمعوا فى الترك وتبهدلوا عندهم بسبب ماجرى عليهم من سواروكادت أن تخرج المملكة عن الجراكسة . »[3]

وكان من جراء هذا الضعف الفاضح الذى ظهرت به مصر فى الميدان الحربى أن غيرً أوزون حسن موقفه نحوها فلم يعد يرى ثمة حاجة إلى تملقها والتزلف إليها فإن التزلف إنما يكون نحو الأقوياء ، كيف وهو الذى هزم جهان شاه صاحب الصول والطول فى فارس وقهر ملك التتار بوسعيد الذى كان ترتعد قلوب الناس لذكر اسمه ؟ فما يكون سلطان مصر إلى جانب هذين العاهلين الجبارين وقد عجز عن كسر شاه سوار وهو أمير

(1) حوادث الدهور .
(2) ابن إياس بدائع الزهور .
(3) ابن إياس المرجع السابق .

ضئيل ؟ وغير أوزون حين لهجة كتبه التى يبعث بها إلى سلطان مصر فنبذ كلمات التودد والخضوع والطاعة وجعل مكانها أشياء أخرى تثير القلق والخوف وصار يهدد سلطان مصر تهديداً سافراً ويلقى إليه القول إلقاء الآمر الناهى .

أما السلطان الفاتح الذى اعتاد أوزون حسن أن يهدده من قبل بكتبه ورسائله فقد بعث إليه هذه المرة برسالة تهديد من نوع جديد ، فقد أرسل مع رسوله إلى الفاتح كيساً مملوءاً بالذرة ، يشير بذلك إلى عظم الجيش الذى سيغزوه به وكثرة عدده به ، وقد أجاب السلطان الفاتح على هذه الرسالة بنفس الأسلوب فطلب عددا من الدجاج ونثر أمامها الحب فانطلقت تلتهمها التهاماً حتى أتت عليها ، ثم التفت الفاتح إلى رسول أوزون حسن وقال له :

هل رأيت كيف التهمت بضع دجاجات هذا الحب الكثير فى مثل لمح البصر ؟ كذلك سيقضى جنودى الإنكشارية على جنود سيدك الكثيرة .

والحق أن أوزون حسن قد جاوز به الغرور كل حد فلم يعد يرى نفسه أميراً من الأمراء أو ملكاً من الملوك بل أصبح يعد نفسه ولى الأمر الذى فرض الله طاعته على الناس ، ولا يجد غضاضة مع ذلك فى سبيل الوصول إلى غايته فى الاستعانة بالنصارى الفرنج ، وقد صح عزمه على أن يهاجم تركيا ومصر معاً فى آن واحد فطلب إلى حلفائه النصارى أن يشنوا هجوماً بحرياً شاملاً على الشواطىء التركية والمصرية معا بينما يقوم هو بمهاجمة الدولتين من البر [1] .

أعد أوزون حسن جيشين لغزو تركيا ومصر ؛ ويبقى هو فى جيش ثالث ردءاً لمن يحتاج إلى المعاونة ، أما الجيش الأول الذى كان يبلغ زهاء مئة ألف مقاتل فقد كان بقيادة الوزير عمر بك وابن عم أوزون حسن بوسفجة ميرزا يصحبهما الأميران القرمانيان بير أحمد وقاسم وقد برروا هجومهم على الدولة العثمانية بأنهم يريدون العبور إلى إمارة ذى القدر ثم انقضوا فجأة على مدينة توقات فأمعنوا فيها قتلاً ونهباً وتخريباً وانتهكوا الحرمات والأعراض ثم أشعلوا النار فى المدينة بعد أن أنزلوا بأهلها أشد وأبشع ضروب التعذيب

---

(1) ابن إياس بدائع الزهور .

والتنكيل ثم واصل الجيش التركمانى زحفه إلى الجنوب ينشر الخراب والدمار والموت فى كل مدينة يدخلها .

ومإإن علم السلطان الفاتح بزحف الجيش التركمانى ومأنزله بتوقات من الحريق والدمار حتى استطار به الغضب وأمر لتوه بنصب خيمته فى إسكدار وبعث إلى حكامه وولاته أن يفدوا إليه فى عساكرهم وكان الموقف على جانب غير قليل من الخطر والحرج إذ لم يكن فى آسيا الصغرى من الجنود مايكفى لصد جحافل العدو العرمرم وكتب الفاتح إلى ابنه مصطفى والى القرمان أن أوزون حسن قد أعماه الغرور واستحوذ عليه العجب فكتب إليه مراراً فى قحة وسوء أدب ولكنه سكت عنه لأنه أكرم من أن يجيب على سفيه وقد آن الأوان لحربه وسينهض إلى ، قتاله أسد الوغى وفرسان القتال وطلب الفاتح من ابنه مصطفى أن يثبت للعدو ويقاتله بكل مالديه من قوة حتى يأتيه المدد والعون .

واستدعى الفاتح محمود باشا وأعاده إلى منصبه الأول فى الصدارة العظمى فأشار على السلطان بأن يرسل داوود باشا مدداً عاجلاً للأمير مصطفى لمناجزة العدو ريثما تمضى بقية فصل الصيف ، وفصل الشتاء يعد فيه السلطان كل عدته من الرجال والمؤن والذخيرة على مهل وإحكام لمقابلة الجزء الأعظم من جيش أوزون حسن ، ووافق الفاتح على هذا الرأى وذهب داوود باشا إلى القرمان لشد أزر الأمير مصطفى .

وكان يوسفجه ميرزا قد وصل فى زحفه إلى قونية وهناك على سهل من سهولها الفسيحة التقى به الأمير العثمانى واحتدم القتال بين الجيشين وامتد من الصباح إلى الأصيل (14 ربيع الأول 877 هـ ـ 19 أغسطس 1472م) وانتهى بانتصار حاسم للجيش العثمانى ومزق الجيش التركمانى شر ممزق وأسر يوسفجه ميرزا ونفر من كبار رجال جيشه ، وفر الأمير القرمانى بير أحمد ولحق بأوزون حسن فى دياربكر ، أما أخوه قاسم فقد انتهز ذهاب الأمير مصطفى بجنوده إلى أماسيا فجمع بعض الجند من أنصاره وسار بهم إلى سلفكة وحاصرها ، وكتب الأمير مصطفى إلى والده السلطان الفاتح يصف له المعركة ويبشره بالنصر المبين الذى آتاه الله [1] .

أما الجيش الذى أرسله أوزون حسن لغزو مصر والذى كان يتولى قيادته بعض أبنائه

---

(1) فريدون بك منشآت السلاطين .

فقد استولى على كختا وكركر ، وأرسل أوزون حسن على أثر ذلك كتاب تهديد شديد اللهجة كتب بماء الذهب إلى الأمير ذى القدر يطلب منه « أن يسلم إليه القلاع التى حوله ولايخرج عن طاعته وأرسل له فى المكاتبة ألفاظاً مزعجة بما معناه : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى ،الأمر منكم »[1].

وقد كان لنبأ غزو جيش أوزون حسن للمالك المصرية وقع شديد فى مصر ارتاع له السلطان قايت باى وبلبل أفكار الناس فيها وأشاع بينهم الذعر والفزع فإنه لم يبعد بهم العهد بعد بحركة شاه سوار وماجرته من هزائم وأهوال وهو أمير صغير فكيف بهذا الأمير التركماني الجبار الذى « لايطاق »[2] وتواردت الأنباء بعد ذلك فما زادت إلا ازعاجاً وإثار ة للقلق والخوف ، وقبض فى حلب على بعض عساكر أوزون حسن وبعض جواسيسه وجماعة من طابوره الخامس الذين كانوا يتواطؤون معه ويكاتبونه بأخبار المملكة المصرية ، وأمر نائب حلب بشنقهم .

وأراد أوزون حسن إلى جانب أعماله الحربية أن يضفى على نفسه السلطة الدينية يدعم بها سلطانه السياسى فاغتنم موسم الحج من تلك السنة (877 هـ) فأوفد إلى الحجاز جنداً من الحجاج أو حجاجاً من الجند ، وماإن وصلوا المدينة حتى انقضوا على قضاتها وضيقوا عليهم وأمروهم « بأن يخطبوا فى المدينة باسم الملك العادل حسن الطويل[3] خادم الحرمين الشريفين[4] وأرادوا أن يفعلوا مثل ذلك بمكة ، غير أن أميرها لاقاهم بظاهرها قبل أن يدخلو ا وقبض على رؤسائهم وفى مقدمتهم أميرهم رستم وصاحبه القاضى أحمد بن وجيه وأرسلهم إلى سلطان مصر ولم يتعرض لمن كان فى ركبهم من الحجاج .

وكان من أثر عدوان أوزون حسن على تركيا ومصر واستعانته عليها بالنصارى أن تقوت روابط التعاون والتحالف بين هاتين الدولتين الإسلاميتين على مقاتلة هذا الطاغية

---

(1) ابن إياس بدائع الزهور

(2) المرجع السابق

(3) هو أوزون حسن . و « أوزون » ـ كما ذكرنا من قبل ـ كلمة تركية معناها الطويل .

(4) ابن إياس بدائع الزهور .

التركمانى ونجحت العساكر المصرية فى استرداد مدينة البيرة من يد التركمان ، وكف أوزون حسن عن متابعة غزو مصر فإن الهزيمة الماحقة التى نزلت بجيشه على يد الأمير مصطفى ـ ولم يكن معه سوى جزء من الجيش العثمانى ـ قد حملته على سحب جيشه من الجبهة المصرية وحشد جميع قواته لتوجيهها ضد الدولة العثمانية . وانصرف كل من الفاتح وأوزون حسن طوال فصل الشتاء إلى الاستعداد والتأهب للمعركة الرهيبة القادمة التى ستكون فصل الخطاب بينهما وترقبا مجئ الربيع . وزال عن مصر كل خطر للغزو التركمانى وأخذت تترقب وتنتظر ولم تكتم سرورها حينما علمت بخروج السلطان الفاتح لمقاتلة أوزون حسن .

وفى شهر شوال 878 هـ (مارس 1473م) كان السلطان الفاتح قد أتم استعدادته العسكرية وجهز نحو مئة ألف جندى بين مشاة وفرسان ، وسار بهذا الجيش شرقاً حتى وصل مدينة سيواس دون أن يظهر للعدو أى أثر ، فأرسل الفاتح طليعة من الفرسان بقيادة على ميخال أوغلى لاستطلاع أخبار العدو واستكشاف حركاته ،ثم أرسل وراءه خاص مراد باشا ومحمود باشا لمعاونته على هذا الأمر .

وكان أوزون حسن قد حشد كل مااستطاع من قوة ولم يجد أحداً يصلح للقتال إلا جنده فقد كان يعلم أنها الموقعة الفاصلة بينه وبين الفاتح ، فإما نصر يرفعه إلى ذروة المجد والسلطان ويجعله السيد الوحيد المطاع فى الشرق ، وإما هزيمة ماحقة لا قومة له بعدها ، فتخير لنفسه مكاناً استراتيجياً حسناً فى إقليم أرزنجان على الشاطىء الأيسر لنهر الفرات ، واندفع القائد الشاب المتحمس خاص مراد باشا فى سيره وعبر نهر الفرات بالرغم من نصيحة النصحاء له بالكف عن هذه المخاطرة ، وقد انسحب ميخال أوغلى نفسه عند مارأى تفوق العدو الساحق .

ومأأن عبر خاص مراد النهر حتى وقع فى كمين نصبه أوزون حسن وغرق خاص مراد فى النهر وتشتت شمل جيشه وأسر ثلاثة من كبار رجاله وهم عمر بك بن طرخان وحاجى بك وأحمد باشا بن فنار ، واغتبط الأمير التركمانى بهذا الانتصار وظن أنه بقيضه على هؤلاء الأسرى الثلاثة الكبار قد قضى على القوة الرئيسية للجيش العثمانى فلم يتمهل وعبر الفرات ليمضى فى زحفه إلى آسيا الصغرى .

أما السلطان الفاتح فقد تلقى نبأ الهزيمة بهدوء ، ويروى أنه بعد هذه الهزيمة رأى فى المنام أنه صارع أوزون حسن فصرع أول الأمر لكنه مالبث أن استجمع قواه وتغلب على خصمه التركمانى بمهارة وقوة فاطمأنت لذلك نفسه وذاع نبأ هذه الرؤيا بين الجنود العثمانيين فاستبشروا بها وتفاءلوا خيراً .

تقدم الفاتح بجيشه وقد جعل على الميمنة ابنه بايزيد وعلى الميسرة ابنة مصطفى واتخذ هو مكانه فى القلب والتقى بالجيش التركمانى فى ترجان وقد جعل أوزون حسن على الميمنة ابنه زينل وعلى الميسرة ابنه أو غورلو محمد واتخذهو مكانه فى القلب فى مواجهة السلطان الفاتح . والتحم الجمعان فى قتال عنيف دام استمر عدة ساعات وقد أبدى الأميران العثمانيان شجاعة نادرة ومهارة فائقة فى القتال فانقض مصطفى على ميمنة العدو ومزقها شر ممزق وقتل قائدها الأمير زينل ، كذلك حمل بايزيد حملة قوية على ميسرة العدو وشتت شملها وأرغم قائدها الأمير أوغورلو محمد على الفرار .

أما أوزون حسن الذى طالما هدد وأرعد وأنذر وأوعد فلم يظهر فى المعركة شيئاً من البطولة أو الشجاعة ، بل ظهر خواراً جباناً فإنه لم يكد يلمح بوادر الهزيمة على جيشه حتى انخلع قلبه وطلب إحضار حصانه السريع فامتطى ظهره وولى هارباً لايلوى على شئ[1] وترك جنوده طعمة لسيوف العثمانيين تطوح برءوسهم وكانت الهزيمة ساحقة ماحقة .

وكتب السلطان الفاتح إلى حسين بيقرا الذى كان قد هزمه أوزون حسن وإلى ابنه جم حاكم قسطمونى يبشرهما بالنصر الذى أحرزه ، وبعث بمثل هذه الرسالة إلى سلطان مصر[2] .

ولسنا بحاجة إلى وصف ماغمر الناس فى مصر من الفرح والابتهاج حينما بلغهم نبأ هزيمة أوزون حسن الذى كان يهدد بلادهم تهديداً خطيراً وأوشك أن يطبق عليهم بجحافله ، وعاد أوزون حسن بعد هذه الهزيمة إلى سياسته القديمة نحو مصر ، سياسة الملق والتزلف والمداهنة فبعث إلى سلطانها يعتذر له عما كان منه ويستصفحه عن خطئه ،

---

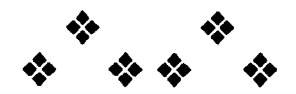
(1) عاشق زاده تاريخى .

(2) خير الله تاريخ دولت عليه عثمانية .

ولكنه سلك مسلكاً آخر مخالفاً تجاه الدولة العثمانية التى كان يعتبرها عدوه الأول ولم تزده الهزيمة إلا عناداً ولجاجاً فى الخصومة والعداء فأذاع أنه سيأخذ بثأره عما قريب من محمد الفاتح ، وأعاد سفراء البندقيةو المجر وبولندا وروما ونابولى الذين كانوا فى بلاطه إلى بلادهم ليطلبوا له من حلفائه معونة جديدة للحملة التى سيقوم بها فى السنة التالية .

غير أن الظروف لم تساعفه على تحقيق هذا الأمر ، فقد شغلته ثورة ابنه أوغورلو محمد عليه سنة 880 هـ (1475 م) ثم ثورة ابن أخيه أويس ، ونزل على بلاده فوق هذا وذاك طاعون شديد فتك بعدد كبير من عسكره فاضمحلت قوته وتلاشى أمره وسر لذلك سلطان مصر وكان سروره أعظم وفرحه أكبر حينما بلغه نبأ موته ، وعد ذلك من طلائع سعده [1] .

أما السلطان محمد الفاتح فقد استمر الصراع والقتال بينه وبين حلفاء أوزون حسن من النصارى وبخاصة البنادقة .



(1) ابن إياس بدائع الزهور .

الفصل الرابع

انتهاء الصراع مع البندقية

البابا سيكست الرابع يواصل جهود سلفه فى محاربة الأتراك ـ الأسطول الصليبى يشن غارات تخريبية على آسيا الصغرى ـ فشل محاولة إحراق دار الصناعة العثمانية ـ والى البوسنة يقوم بغارات تخريبية مماثلة ضد البندقية ـ فتح شبه جزيرة القريم ـ الحصار الأول لشقودره وفشله ـ حصار كرويا ـ غزو البندقية فى عقر دارها ـ نصر جديد للسلطان للفاتح فى الميدان السياسى ـ البندقية تطلب الصلح ـ الحصار الثانى لشقودره ـ إحداق المصاعب والأخطار بالبندقية ـ الصلح النهائى بين السلطان الفاتح وجمهورية البندقية .

على أثر وفاة پول الثانى فى يوليو 1471 خلفه على كرسى البابوية سيكست الرابع Sixte IV فواصل جهود سلفه فى محاربة الدولة العثمانية ورأى أن أول خطوة يجب خطوها فى هذا السبيل هو أن يستأصل جميع أسباب الشقاق والنزاع بين ملوك أوروبا ويصلح مابينهم ويوحد جهودهم وقواهم ويوجهها جميعاً نحو غاية واحدة مشتركة فبعث الكاردينال بساريون Bessarion ليصلح مابين لويس الحادى عشر ملك فرنسا وشارل دوق بورغنديا ويزيل مابينهما من خلاف ويؤلبهما على السلطان محمد الفاتح ، ولمثل هذا الغرض بعث الكاردينال رودينجوبورجيا Rodenigo Borgid إلى ملكى أرجونة والبرتغال والكاردينال ماركو باربو Marco Barbo إلى ملكى بولندا والمجر ، وجمع البابا سيكست الرابع كل ماقدر عليه من مال لتجهيز الحملة الصليبية إلى الشرق .

على أن الرسل الذين بعثهم إلى مختلف الملوك لم يحرزوا فى أداء رسالتهم ماكان ينتظره من النجاح والتوفيق وأسفرت الجهود الأخيرة التى بذلها البابا عن تكوين حلف ثلاثى بينه وبين البندقية ونابولى عرف باسم « حلف كارافا Alliance de Caraffa وهو اسم المندوب البابوى الذى إليه يرجع أكبر الفضل فى عقده .

وكانت البندقية قد أرسلت أسطولها البحرى إلى الشرق بقيادة القبطان بيترو موسينجو ، وقد وجه حملته هذه المرة نحو آسيا حيث يكون أغلب سكانها من المسلمين ، وتشجيعاً لجنوده وعد بأن يمنح دوقة ذهبية لكل من يأتيه برأس مسلم [1] وهى مكافأة سخية مغرية أدت إلى قتل آلاف من نصارى الروم وقدمت رؤوسهم على أنها رؤوس مسلمين ! ووعد بمنح ثلاث دوقات لمن يأتيه بأسير رجلاً كان امرأة .

وكان موسينجو قد قام بتخريبات واسعة النطاق فى شواطئ آسيا عندما جاءته فى منتصف يونيو 1472م (أوائل محرم 877 هـ) أمداد من السفن ، ست عشرة منها أرسلتها نابولى بقيادة ركسنس Requesens وتسع عشرة أرسلها البابا بقيادة أوليفييه كارافا Oliver Caraffa ، وقد صرح كل من هذين القائدين لموسينجو أنه بالرغم من تفوق سيده فى المنزلة والمكانة فإنه قد أمر بالطاعة للقائد البندقى العام والائتمار بأمره والقتال تحت لوائه إظهاراً لعرفان الجميل الذى يدين به جميع النصارى نحو جمهورية البندقية التى تقوم وحدها بالدفاع عن القضية المشتركة .

وانضمت إلى هذا الأسطول الصليبى بعد ذلك سفينتان لرودس وبلغت وحداته بذلك خمسا وتسعين سفينة ، أغارت هذه السفن النصرانية على انطالية وهى مدينة تجارية كبيرة فى جنوبى آسيا الصغرى حافلة بمختلف البضائع والأمتعة ومحطة هامة يتوارد إليها التجار من الشرق والغرب ، وكانت إلى ذلك على جانب غير قليل من المناعة والتحصين ، واستطاع الصليبيون بمدافعهم أن يحطموا السلسلة التى كانت تسد الميناء ونزلوا إلى البر فأمعنوا فى القتل والنهب والسلب ثم جدوا فى حصار القلعة وكان بها حامية قوية ويحيط بها سوران تمكن الصليبيون من الاستيلاء على أولهما ، ولكنهم لقوا عند السور الثانى مقاومة عنيفة مستميتة من جانب الحامية الإسلامية ، وعاود الصليبيون هجماتهم المرة تلو المرة على غير جدوى .

وكانت فى القلعة امرأة نصرانية من الصرب تتأجج فى صدرها نار الحماس الصليبى ، فلما رأت الصليبيين وقد فترت حميتهم وضعفت هجماتهم وشرعوا ينسحبون اعتلت قمةالسور وصاحت فيهم تحرضهم وتشجعهم على مواصلة الهجوم وتطمعهم

Guillet, op. cit. Sismondi, Histoie des Republiques Italiennes(1)

بضعف العدو وكثرة الأسلاب التى تنتظرهم ، ولكن ذهبت صيحاتها مع الريح ، لم تحيى فى الصليبيين عزماً ولاردت إليهم قوة ، وشق ذاك عليها فألقت بنفسها من على السور وخرت صريعة محطمة .

أما الصليبيون فإنهم لما عجزوا عن إخضاع القلعة صبوا نار غضبهم على السكان الآمنين فى الضواحى وقتلوهم تقتيلاً وحرقوا دكاكينهم وأتلفوا مزارعهم ثم أقلعت بهم سفنهم إلى رودس ، وهناك وجد موسينجو رسول أوزون حسن إلى البابا والبندقية ليطلب منهما مساعدته بالمدافع والأسلحة النارية التى تنقص جيشه [1] .

ولم يلبث موسينجو أن أقلع مرة أخرى بأسطرله من رودس ـ وكان القتال قد بدأ بين العثمانيين وجنود أوزون حسن ـ واتجه نحو شواطئ أيونيا فخربها وأتلف المزارع والحقول ، ودفع مندوب البابا مئة وسبعاً وثلاثين دوقة ثمناً لما حمل إليه من الرءوس فى مثل هذا العدد كما جئ بعدد كبير من السكان العزل البائسين وبيعوا فى سوق النخاسة .

وبعد هذه الحملة انفصل ركسنس بسفنه عن الأسطول الصليبى وعاد إلى نابولى على أن ينضم إلى هذا الأسطول مرة أخرى فيما بعد ، وواصل موسينجو ومعه مندوب البابا حملاته وتخريباته فى آسيا الصغرى فقصد بسفنه إلى أزمير أغنى مدينة تجارية على هذا الساحل فى ذلك العهد ، ومما أغرى النصارى بمهاجمتها أنها لم تكن على شئ من المناعة والتحصين ولم تكن بها وسائل كافية للدفاع .

وفى فجر التاسع من ربيع الآخر 877 هـ (13 سبتمبر 1472) رسى موسينجو أمام أزمير ولم يجد جنوده صعوبة تذكر فى دخولها وحطموا المقاومة الضعيفة التى أبداها السكان العزل ومزقوهم شر ممزق ولاذ النساء والأطفال بالمساجد طلباً للأمن والنجاة ، ولكن الجنود البنادقة وأعوانهم لم يتورعوا عن شر وأحط ضروب الوحشية والبربرية فلم يكتفوا بنهب كل ماوصلت إليه أيديهم من متاع بل اقتحموا المساجد وانتزعوا منها النساء والفتيات ليعتدوا عليهن ويبيعوهن بعد ذلك فى الأسواق ، على أن ذلك كله لم يشبع نهم الصليبيين البرابرة فانقضوا أيضاً على الكنائس وفعلوا بها نفس الأفاعيل ولم يميزوا بين

---

(1) وقد أجابت جمهورية البندقية طلب حليفها التركمانى فأرسلت إليه أربع سفن محملة بالبارود والمدافع والرجال الفنيين غير أن من المشكوك فيه أن هذا المدد قد وصل إلى أوزون حسن .

المسلمين والنصارى ، بل تظاهروا بالاعتقاد أن جميع السكان من المسلمين ليبيحوا لأنفسهم ارتكاب شر الآثام والجرائم [1] .

وحاول بالبان بك حاكم المنطقة صد الجنود الصليبيين ولكنهم تغلبوا عليه وهزموه ، وأحرق المنتصرون المدينة وفى ساعات قليلة تحولت إلى كومة من رماد ، وغنم الصليبيون غنائم وافرة لاتحصى أثارت شعور الأسف والندم فى نفس ركسنس وجنوده الذين عجلوا عودتهم إلى نابولى .

وأقلع القائد البندقى بسفنه إلى مودون بالمورة يستريح فيها ريثما يذهب قرس الشتاء ، أما مندوب البابا أوليفيه كارافا فقد آثر العودة إلى إيطاليا ودخل روما فى 23 يناير من السنة التالية دخول الظافر المنتصر ، وكان يقاد أمامه اثنا عشر جملاً يركبها خمسة وعشرون رجلاً من الأتراك احتفظ بهم أحياء تذكاراً لانتصار الصليبيين ، وعلق أمام أبواب الفاتيكان بقايا السلسلة التى كانت تسد ميناء أنطالية .

وفى أثناء استراحة الأسطول البندقى بالمورة تقدم إلى موسينجو شاب صقلى يدعى أنتونيو وعرض عليه أن يقوم بحرق السفن العثمانية الراسية فى كليبولى وتدمير دار الصناعة القائمة فيها ووافق موسينجو على هذه الفكرة وأثنى على شجاعة الصقلى وإخلاصه وأمده بسفينة ونفر من خيرة الجنود المدربين لمثل هذا العمل وتنكر هؤلاء المخاطرون فى زى التجار فملأوا سفينتهم بالبارود والأسلحة وغطوها بالتفاح وأخذوا يبيعونه للجنود بكليبولى دون أن تثور حولهم أية ريبة حتى إذا جن الليل تسللوا خفية إلى دار الصناعة وأشعلوا فيها النار وحاولوا أن يفعلوا مثل ذلك بالسفن الراسية ، ولكن التهاب النار فى دار الصناعة أيقظ الجنود الأتراك وبادروا إلى إخمادها واضطر انتونيو وصحبه إلى الفرار على سفينتهم ولكن النار اندلعت فيها وألقوا بأنفسهم إلى البحر ثم اختبئوا فى إحدى الغابات ، ولم يجد الجنود الأتراك الذين اقتفوا أثرهم صعوبة فى الاهتداء إلى مخبأهم والقبض عليهم وسيقوا جميعاً إلى السلطان الفاتح فسأل انتونيو عما دفعه إلى عمله فأجاب بثبات وشجاعة بأنه يريد بعمله نيل البطولة والمجد لأنه يعتبر

---

(1) Sismondi, op cit. Galibert, Hstoire de la Republique de Venise

السلطان الفاتح ألد عدو للنصرانية وود لو أنه تمكن من قتله هو نفسه وخرق قلبه بالحديد ، اذن لنال بطولة أروع ومجداً أعظم ، ولم يكتم السلطان الفاتح إعجابه بشجاعة هذا الجندى وصحبه ثم أمر بقتلهم جميعاً ، وقد كافأت جمهورية البندقية هؤلاء الجنود لاسيما انتونيو على بسالتهم وتضحيتهم فمنحت مساعدات مالية سخية لأهلهم وذوى قرباهم .

وفى السنة التالية (878 هـ ـ 1473م) تلقى موسينجو أمراً من حكومته بأن يتبع فى حملته القادمة الأوامر التى يصدرها إليه أوزون حسن ويحاول الاتصال به وسيجد من بعض أمراء القرمان عوناً على تحقيق هذا الأمر ، فذهب موسينجو بأسطوله إلى جزيرة قبرص حيث أمده ملكها بأربع سفن ومن هناك قصد إلى سلفكة حيث كان قد واعده على بعد ميل منها الأمير القرمانى قاسم فبعث إليه موسينجو قائده ڤيكتور سورانزو Victor Soranzo فى عدد من الجند والمدافع ، وتمكن قاسم بذلك من الاستيلاء على سلفكة وبعض قلاع أخرى ولم يكن بها سوى حاميات عثمانية صغيرة [1] . وتقديراً للمعونة القيمة التى أسداها موسينجو فى احتلال هذه القلاع قدم إليه قاسم هدية نفيسة من ضمنها جواد مطهم بكامل عدته .

وفيما كان موسينجو يواصل القيام بتخريباته الواسعة النطاق فى مدن آسيا الصغرى والتى يصحبها دائماً أشد ضروب القسوة والفتك والتدمير وانتهاك الحرمات والمقدسات [2] إذ جاءه نبأ هزيمة أوزون حسن فانسحب لفوره من آسيا الصغرى وقصد جزيرة قبرص ، وصادف أن كان قد اشتد فيها النزاع والتنافس بين الطامعين فى العرش ، وانحاز موسينجو إلى جانب الملكة الأرملة كاترين وهى من أصل بندقى وحقق لها النصر وبسط بهذه الطريقة سيادة البندقية على هذه الجزيرة الكبيرة الخصبة ، ونال موسينجو

---

(1) بعد هزيمة أوزون حسن عادت هذه القلاع وخضعت كلها مرة أخرى للدولة العثمانية ونصب الأمير جم حاكماً على القرمان بعد وفاة أخيه مصطفى كما أسندت الصدارة العظمى إلى كدك أحمد باشا بعد مقتل محمود باشا .

(2) وقامت بعض هذه السفن النصرانية بالإغارة على بعض سواحل الإسكندرية ودمياط ولكنها كانت ضيقة النطاق محدودة الأثر « إبن إياس بدائع الزهور » . ومما يؤسف له أن سلطان مصر لم يثبت على محالفته وصداقته للسلطان الفاتح فإنه عقب انتصاره مباشرة على أوزون حسن أطلق قايت باى سراح رستم وصاحبه القاضى أحمد « ترضياً لخاطر حسن الطويل » ابن إياس . بدائع الزهور .

بأيسر جهد وتضحية كسباً لدولته أعظم كثيراً من تلك التخريبات التى أنزلها بالمدن العثمانية بآسيا الصغرى ولم يجن من ورائها شيئاً .

على أن هذه الغارات والتخريبات لم تكن بغير انتقام ، ففى الوقت الذى كان يقوم فيه موسينجو بأعماله التخريبية فى مدن آسيا الصغرى كان إسحاق بك والى البوسنة فى فرقة من الفرسان يقوم بأعماله مماثلة فى أملاك وأطراف البندقية ، فالشر بالشر والبادى أظلم .

وقد دخل إسحاق بك بفرسانه فى مدينة كارنيول وفريول Frioul حتى بلغ ضفاف نهر أسونزو Isonzoوجفلت من أمامه القوات البندقية وولت مذعورة وعبر الأتراك النهر بسهولة واشتد الذعر والفزع بالسكان ، ولو واصل إسحاق بك زحفه لاستولى على مدينة أودين Udineوهى فى غمرة الفزع والدهش ، وعادت حملات إسحاق بك بمثل ماعادت به حملات موسينجو من الغنائم والأسلاب .

وكان السلطان الفاتح فوق ذلك قد اتخذ كل حيطة وحذر حتى لايأخذه عدو من وراء ظهره على غرة أثناء صراعه العنيف مع أوزون حسن فأرسل سرية من الفرسان إلى حدود ألمانيا لتنطس أخبار النصارى وتعرف حركاتهم وأنشأ على نهر الساف قلعة حصينة لمنع ملك المجر من مساعدة حلفائه البنادقة .

أدت هزيمة أوزون حسن إلى وقف الحملات النصرانية البحرية على مدن آسيا الصغرى ولكنها لم تقف الصراع بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية وانتقل ميدان القتال بينهما إلى مكان آخر ، هو ألبانيا .

وطلب السلطان الفاتح إلى وزيره كدك أحمد باشا أن يعد ثلاث مئة سفينة للقيام بغزوة جديدة لم يعلم أحد من أمرها شيئاً ، فلما أعد كدك أحمد الأسطول ذهب إلى السلطان الفاتح يعلنه أن الاستعداد قد تم وأنه فى انتظار أمره .

وكانت قد جرت مفاوضات للصلح فى ربيع سنة 879 هـ (1475م) بين السلطان الفاتح وجمهورية البندقية وباءت بالفشل ، ولكن عقد بينهما مايشبه وقوف القتال عندئذ أصدر السلطان الفاتح أمره فوراً إلى كدك أحمد بالإبحار إلى شبه جزيرة القريم .

وكان الجنويون يملكون فيها بعض مدن وقلاع أهمها مدينة كفة فى الجنوب والتى تعتبر من أهم مستعمراتهم فى الشرق ، إذ كانت مدينة تجارية عظيمة وسوقا عامة ترد إليها البضائع والأمتعة من جميع الأنحاء والجهات ، وكان الجنويون يقومون بمبادلة بعضها ببعض فيبعثون إلى الغرب بمنتوجات الشرق ويبعثون إلى الشرق بمنتوجات الغرب واستدرت عليهم الأرباح والأموال من كل جانب وازدهرت كفة ازدهاراً تجارياً عظيماً ، وظلت هذه المدينة فى حوزة الجنويين أكثر من قرنين ، وكان خانات القريم أو ملوكها قد منحوهم امتيازات كثيرة .

ومنذ أن تسلم بنك القديس جورج إدارة المستعمرات الجنوية فى الشرق عنى عناية خاصة بكفة فقوى حصونها وقلاعها وأسباب الدفاع فيها وأصلح أداة الحكم والإدارة فيها فاستبدلت بالموظفين القدماء المهملين الذين أفسدتهم الرشوة موظفين جدداً نزهاء يشعرون بالتبعة وينهضون بالواجب [1] ، وضاعف بنك القديس جورج جهوده فى هذا السبيل بعد فقد أماصرة وتوقع أن ينزل بكفة نفس المصير فشجع على عقد ذلك التحالف بين أوزون حسن والبنادقة والذى يهدف إلى القضاء على الدولة العثمانية .

وكان السلطان الفاتح برغم اشتغاله بمحاربة هؤلاء الحلفاء الذين تألبوا عليه يتتبع باهتمام مجرى الحوادث فى القريم ويتحين الفرصة الملائمة للاستيلاء عليها فان بقاء قوة نصرانية معادية فى هذه المنطقة الحيوية الهامة من البحر الأسود سيكون مصدر تهديد دائم لدولته وبخاصة المضايق التى تصل البحر الأسود بالبحر الأبيض المتوسط ، وتصل شطرى الدولة العثمانية فى اسيا وأوربا .

ومالبث الأحداث الجارية فى كفة نفسها أن هيأت للسلطان الفاتح الفرصة التى كان يترقبها فقد حدث فى سنة 871 هـ (1467م) أن توفى خان القريم حاجى كراى ووقع الخلف والنزاع بين أبنائه الاثنى عشر واقتتلوا على العرش ، وكان الغلب فى أول الأمر لابنه الثانى نور دولت ولكنه مالبث أن تغلب عليه أخوه منكلى كراى بمساعدة جنويى كفة ، وأسدى إليه هؤلاء الجنويون يدا أخرى بحبسهم نوردولت وأربعة من أخوته الذين لجأوا إلى كفة وقد قدر الخان الجديد منكلى كراى هذه اليد الطولى للجنويين فزار مدينتهم

(1) Heyd, Histoire du Gommrce.

كفه سنة 1468 وجدد معهم المعاهدات القديمة ووثق عرى الصداقة والمودة ، وكان لذلك صدى عظيم فى جنوا وانتعشت الآمال لهذا الوفاق المكين بين جنويى كفة وخان القريم ، واعتقد الناس أنهما سيقفان جنباً إلى جنب إلباً واحداً على العثمانيين إذا ماحاولوا غزو القريم .

ولكن هذا الوفاق مالبث أن تصدع وجدت أحداث أفسدت العلاقة بين الخان والجنويين وهيأت للسلطان الفاتح السبيل المباشر لفتح القريم ، فقد كان للتتار المقيمين فى كفه وماحولها حاكم خاص ينظر فى أمورهم ، وقد شغل هذا المنصب فترة طويلة من الزمن رجل من التتار يدعى ماماك وكان رجلاً ذا دهاء وسطوة ، فلما توفى سنة 878 هـ (1473م) خلفه فى هذا المنصب أخوه أمينك ، وقد اغتبط الجنويون أول الأمر بهذا الاختيار ، ولكن الحاكم الجديد لم يكد يستقر فى منصبه حتى نزعت به نفسه إلى السيطرة وادعى لنفسه ماشاء من المزاعم والادعاءات ولما لم يجد من يؤازره فى أمره فقد امتلأت نفسه حقداً وضغينة وأخذ يعمل على إرهاق المستعمرة الجنوية كفة وتجويعها .

وكانت أرملة الحاكم السابق ماماك تسعى فى خلعه وإحلال ابنها سترك محله وهو رجل لم يكن على شىء من الكفاية والدراية ، وكان فوق ذلك مكروهاً مبغضا لدى جميع مواطنيه التتار غير أن والدته كانت شديدة الحدب عليه حريصة على تحقيق أمله واستعانت لبلوغ هذا الأمر برجل جنوى يدعى قنسطنطينو دى بيترا روسا Constantino di pietra Rossa وأمدته بمال كثير فأخذ يعمل بهذا المال على كسب الأعوان والمؤيدين واستطاع آخر الأمر بعد لأى وجهد أن يستميل إليه عدداً من رجال الحاكم الجنوى فى كفة وأهل استشارته .

ومالبث الحاكم نفسه أن ارتشى مثلهم واستوثق قنسطنطينو بذلك من نجاح أمره ، ولم يأت شهر ديسمبر من عام 1474 حتى كان هو وأعوانه قد ضموا إلى صفهم خان القريم نفسه وأوغروا صدره على أمينك بأن اتهموه بالخيانة وممالأة الأتراك ، ووافق الخان منكلى كراى على عزله ولكنه عارض تنصيب سترك مكانه وآثر أن يكون بدله شخص آخرا أكثر أهلية وكفاية وهو كراى ميرزا وأرسله إلى كفة لشغل هذا المنصب ، ولكن أنصار سترك لم يرضوا به واشتدوا فى مقاومته وخطب أحدهم وهو أوبرتوسكرسيافيكو Oberto Squarciafico الذى وعدته والدة سترك بمكافأة مالية جزيلة إذا وصل ابنها

إلى مبتغاه - خطبة عنيفة هدد فيها الخان بأنه إذا لم يؤيد سترك فإنه سيطلق أخوته الذين نازعوه العرش من قبل ويثيرهم عليه ، وكانوا حين ذاك معتقلين لدى الجنويين ، وارتاع الخان منكلى كراى لهذا الوعيد الذى يهدد عرشه فلانت عزيمته واستسلم لما أراده الجنويون ونصب سترك فى المنصب الذى طال عليه النزاع والمؤامرات .

ولكن نبلاء التتار لم يرضوا عن هذا الحادث وأبوا أن يكون الأمر فى يد فتى غر لاعقل له ولادراية وانحازوا إلى جانب أمينك وتعصبوا له واشتد سخطهم على الخان منكلى كراى الذى خضع للجنويين ونجحوا فى إثارة جميع التتار بالقريم وزحفوا جميعاً إلى كفة وحاصروها وكتبوا فى نفس الوقت إلى السلطان محمد الفاتح يستقدمونه إليهم ودعوه إلى فتح كفه وغيرها من المستعمرات الجنوية .

ولم يكن السلطان الفاتح الذى كان يتتبع بيقظة واهتمام حوادث القريم يتشوف إلى شئ تشوفه إلى مثل هذه الدعوة فأمر لتوه قائده كدك أحمد باشا بأن يبحر بأسطوله الكبير إلى القريم ورسى قبالة كفة فى 26 محرم 880 هـ (أول يونيو 1475م) وأخذ ينزل جنوده وعتاده إلى البر وشرع ينسق مدافعه تجاه أسوار المدينة ، وكان قد مضت ستة أسابيع على حصار التتار لها دون أن يبلغوا منها شيئاً ، إذ لم يكن معهم من الأسلحة غير السيوف والنبال وماعساها أن تبلغ تجاه الأسوار الحصينة الصلدة ، ولكن المدافع العثمانية لم تكد تطلق عليها قذائفها القوية حتى دكتها دكاً وماهى إلا أيام ثلاثة حتى استسلمت المدينة .

وبعد فتح كفة لم يجد العثمانيون صعوبة كبيره فى فتح المدن والقلاع الأخرى التى أخذت تتلاحق فى الاستسلام واحدة بعد واحدة ففتحت جوتى وصولدايا ومنكوب وأنابا وغيره .

وجرياً على السياسة التى كان يتبعها الفاتح اختبر أربعون ألفاً من سكان القريم وأرسلوا إلى القسطنطينية لتعميرها ، وأخذ ألف وخمس مئة من شباب النبلاء الجنويين لتجنيدهم فى الإنكشارية ، وفيما كانت السفينة تمخربهم عباب البحر إلى القسطنطينية دبروا فيما بينهم مؤامرة بارعة فقبضوا على رجال السفينة واعتقلوهم وفروا إلى بعض الشواطئ الغربية للبحر الأسود ونزلوا فى أقكرمان ، ولكنهم اختلفوا فى اقتسام الغنائم الوفيرة التى كانت على السفينة ، فلما بلغ ذلك أمير أقكرمان دعاهم إليه ليقسمها بينهم بالعدل والقسطاس ، فما أن وضع يده علي الغنائم حتي استحوذ عليها وجعلها كلها

لنفسه وطرد الجنويين من مدينته شر طردة وأيديهم خالية ورب ساع لقاعد .

وبقيت فى بعض أنحاء القريم وفى كفه نفسها طائفة غير قليلة من الجنويين مالبث أن انتعشت حالتهم وازدهرت وعاشوا فى أمن وسلام ، يمارسون شئون دينهم وعبادتهم بكل حرية فى ظلال الحكم الإسلامى الجديد [1] .

أما خان القريم السابق منكلى كراى فقد كان من أمره أنه عندما ثار عليه نبلاء قومه وتخلى عنه شعبه خشى على نفسه فأسرع بالفرار إلى كفة ولاذ بها مع ألف وخمس مئة من فرسانه الأقوياء المخلصين له . فلما سقطت هذه المدينة فى يد العثمانيين أسر منكلى كراى فيمن أسر من أهلهاوأرسل إلى القسطنطينية ، وكاد يقتل غير أن السلطان الفاتح عفا عنه ونقله إلى قصر فخم وخلع عليه وأكرمه [2] وبعث إليه بعلم وذيل حصان (وهو من شارات التشريف عند العثماينين) ونصبه خاناً علي القريم كما كان من قبل ، وهو أول خان تتاري يعين من قبل سلطان عثمانى وتقديراً لما أسداه السلطان الفاتح من العفو المكرمة أمر منكلى كراى بذكر اسمه فى خطب الجمعة فى جميع مساجد القريم . وصار ذلك سنة متبعة فى عهد خلفائه من بعده ، وظل منكلى كراى بقية حياته على ولائه للبيت العثمانى واشترك فى بعض حروب السلطان بايزيد الثانى ابن السلطان الفاتح وأبدى فيها شجاعة وبسالة .

وبسيطرة العثمانيين على القريم وسيطرة أسطولهم على البحر الأسود أصبح هذا البحر بحيرة عثمانية لاينازعهم فى سيادتها منازع .

ويعتبر السير إدوارد كريزى فتح القريم أهم فتوحات السلطان الفاتح بعد القسطنطينية

Heyd,op.cit.(1)

(2) جاء فى تاريخ خير الله افندى أن الخلعة التى خلعت على منكلى كراى كانت بطانتها حمراء فردها وطلب بدلها خلعة ذات بطانة بيضاء ولم يمانع السلطان الفاتح فى الأمر ، ولما مثل منكلى كراى بعد بضعة أيام بين يديه لشكره سأله الفاتح عن سبب رفضه للخلعة الأولى فأجاب منكلى كراى بقوله : إنى لم أرفض وإنما كنت سألت عن الخلع ذات البطانة الحمراء فعلمت أنها مخصصة لرجال السيف من الأتراك ، أما الخلع ذات البطانة البيضاء فمخصصة للرجال الذين ينقذهم السلطان ويجيرهم ولما كنت من بعض عبيد السلطان الذين أنقذهم وأجارهم فقد رغبت فى الكسوة التى تليق بى وسر السلطان الفاتح من هذه الاجابة .

لما كان لها من وفرة الثروة والحصون المنيعة ومن ثم سميت بالقسطنطينية الصغرى [1] وهكذا جمع سلطان الفاتح بهمته وعبقريته الفذة بين القسطنطينيتين ولعلها لم تجتمعا قط من قبله لأحد من الفاتحين .

كان السلطان الفاتح عقب انتصاره على أوزون حسن فى صيف 878هـ (1473م) قد عاد إلى القسطنطينية ولبث فيها فترة من الزمن أمضاها فى الاستجمام وإحداث بعض الإصلاحات العمرانية ، بيد أنه لم يشأ أن يترك أعداءه إلى الدعة والراحة ، وكان ألد الدهم وأقواهم شكيمة إذ ذاك البنادقة وكانت لاتزال لهم بعض المعاقل والحصون فى اليونان وألبانيا فأرسل جيشاً كثيفاً بقيادة سليمان باشا لمحاصرة شقورة وهى قلعة تضافرت الطبيعة والفن الحربى على جعلها منيعة حصينة ، إذ تقع على مرتفع شديد الانحدار ويحيط بها نطاق طويل من الأسوار القوية ويتولى قيادة الحامية فيها القائد الإيطالى القدير انتوان لوريدانو Antione Loredano فكانت كما وصفها السلطان الفاتح نفسه فيما بعد أشبه بوكر النسر .

وصل سليمان باشا أمام شقودره فى منتصف ذى الحجة 887 هـ (أوائل مايو 1474م) وأخذ يطلق نيران مدافعه على أسوارها ، وكان القائد الإيطالى موسينجو قد فرغ من شئون قبرس فذهب بسفنه إلى ألبانيا ورسى فى أقرب خليج من شقودره ليشجع المحصورين ويطمئنهم إلى أن هناك قوة قريبة تسندهم ومدداً قريباً سيصلهم ، وفى كل ليلة كان بحارة الأسطول ورجال الحامية يتبادلون الإشارات بالمشاعل على صوارى السفن وأبراج القلعة يؤكد بعضهم لبعض بذلك صدق العزم على قتال العدو .

وقد استبسل المحصورن فى الدفاع فكلما دكت مدافع العثمانيين جانباً من السور بادروا إلى إصلاحه وساعدهم على ذلك حسن موقعهم ، وحاول موسينجو أن يخفف عن المحصورين وطأة الحصار فأرسل إليهم قافلة محملة بالزاد والمؤنة وكتيبة من الجند ، ولكن سليمان باشا اعترض طريق القافلة وهزم من كان فيها من الجند ومنع المدد من دخول القلعة ، وقد شجع هذا الانتصار سليمان باشا فشدد ضرب مدافعه على الأسوار وأحدث بها بعض الثغرات وخيل إليه أنه قد تمهد له السبل للاستيلاء على القلعة ؛ فأرسل

---

(1) Sir Edward Greasy, History of the Ottoman Turks.

إلى قائد الحامية إنذاراً يطلب منه التسليم وأمنه على حياته وحياة جنوده ووعد بحسن معاملتهم وأجاب عليه لوريدانو بقوله : إننى بندقى ومن أسرة لاتعرف معنى تسليم القلاع ، سأحتفظ بشقودره أو موت دونها » .

وهجم سليمان باشا بجنوده على القلعة هجوماً عنيفاً واستمات المحصورون فى الدفاع ونشب بين الفريقين قتال عنيف مرير دام عدة ساعات اضطر سليمان باشا فى نهايته إلى الارتداد بعد أن رأى عبث الاستمرار فى القتال وفقد عدداً غير قليل من جنده .

على أن المحصورين لم يكادو ا يتنفسون الصعداء ويجلوا عنهم هذا الخطر حتى دهمهم خطر آخر أشد هولاً فقد نفذ زادهم ومؤونتهم وقل الماء وكان الوقت صيفاً فجفت الحلاقيم وبدأ التذمر يسرى بين الناس ولم يتردد بعضهم فى الحديث عن التسليم لولا أن تداركهم لوريدانو ونفخ فيهم من عزمه الحديدى وأنعش فيهم القوة والأمل ثم كشف لهم عن صدره وصاح فيهم « من لم يقدر على احتمال الجوع فليتغذ من لحمى فإنه له حلال وهو مشبعه » .

وكان لهذه الكلمة أثرها القوى النفاذ فى نفوس الناس دفعتهم دفعاً إلى الاستماتة والاستبسال وأعلنوا ولاءهم الدائم للبندقية .

ولم يكن الجيش التركى نفسه أحسن حالاً من المحصورين فقد كانت تحيط بمواقعه مستنقعات فاسدة نشرت الأمراض ، وساعد على ذلك تراكم جثث القتلى فتوخم المكان وفسد الجو ، وحاول موسينجو وجرتى Gritti وبمبو Bembo من قادة البنادقة أن يصلوا إلى نجدة أهل شقودره من نهر بوجيانا فدهمهم المرض ونقلوا إلى مكان بعيد ، وعصف الموت عصفاً بالبنادقة والأتراك على السواء بينما كان المحصورون يعانون أشد العطش ، ولم ير سليمان باشا مندوحة من رفع الحصار والابتعاد من هذا المكان الموبوء [1] .

ولم يكد يرحل بجيشه حتى هرول سكان شقودره إلى نهر بوجيانا ليرووا ظمأهم الذى طال عليهم وألقوا بأنفسهم إلى النهر يعبون منه عباً ، وكان ماء هذا النهر قد خالطه

---

(1) بعد أن رفع سليمان باشا الحصار عن شقودره تلقى أمراً من الفاتح بالسير إلى البوغدان لمقاتلة أميرها استفان الأكبر على نحو ماأوضحنا فى الفصل الثالث من القسم الثانى .

الفساد والتسمم فلم يمض قليل على الذين شربوا منه حتى تصلبت أعضاؤهم وخروا صرعى .

وقد أمرت جمهورية البندقية فيما بعد بتعليق راية أهل شقودره فى كنيسة القديس مرقص تقديراً لما أبدوه من ضروب الاحتمال والشجاعة وثباتهم على الولاء للبندقية وأنعمت على القائد لوريدانو بأرفع الرتب وأعلاها ، وطلبت إلى المصور پول ڤيرونيز PaulVéronése أن يسجل هذه الموقعة الظافرة ويخلدها بريشته [1] ، واغتنمت حكومة البندقية هذا النصر الذى أحرزته على الأتراك فبعثت إلى أمراء النصرانية تبلغهم خبره عسى أن يدفعهم ذلك إلى شد أزرها ومساعدتها فى كفاحها لعدوهم جميعا ، وقد خفت بعض دول إيطاليا فعلا كفلورنسة وميلانو إلى معاونتها ومناصرتها [2] .

ويظهر أن المعونة التى لقيتها البندقية لم تكن ذات جداء فآثرت أن تستريح من عناء الصراع المرير الذى خاضته ضد الدولة العثمانية وتعقدمعها الصلح بيد أنها لم تستطع قبول الشروط التى عرضها الفاتح وهى تسليم مدينة كرويا بألبانيا وجميع المواقع التى استولت عليها البندقية منذ بدء الحرب وأن تدفع له فوق ذلك مئة وخمسين ألف فلورن ، واقتصر الأمر على عقد هدنة وقتية بينهما فتح العثمانيون خلالها شبه جزيرة القريم وثأروا من أمير البوغدان استفان .

أما البنادقة فقد شغلتهم فى هذه الفترة أحداث طارئة جدت فى قبرص . ولم يمض عام على هذه الهدنة حتى تجدد القتال مرة أخرى بعد فشل الوصول إلى عقد صلح نهائى فأصدرت البندقية أمرها إلى انتوان لوريدانو أن يذهب بأسطوله إلى شواطئ آسيا الصغرى ويشن عليها غارات تخريبية تدميرية على نحو مافعل موسينجو من قبل .

ورداً على هذا العدوان أمر السلطان الفاتح قائده سليمان باشا بمحاصرة ليبانت بشبه جزيرة المورة وكانت لاتزال فى أيدى البنادقة فأسرعت حكومة البندقية إلى نجدتها ومدها بالمؤن والذخائر والرجال وأمرت لوريدانو أن يترك ماكان يقوم به من القرصنة والتخريب

---

(1) Ghica, L'Aibanie

(2) Guillet, op. cit .Sagredo, Histore de l'Empire Ottoman, Daru, H istoire de la république de Venise.

ويسرع بسفنه للدفاع عن هذه القلعة المهددة ذات الأهمية الحيوية للبندقية ، وحاصرها سليمان باشا من جانب واحد ، هو جانب البر وبقى جانب البحر مفتوحاً ترد منه الأمداد المتواصلة فى أمان وذهبت جميع جهوده وهجماته عليها بغير طائل ، وأدرك أن حصار هذه القلعة المنيعة لن يجدى مالم يساعده أسطول قوى يحاصرها من جانب البحر ، ولم تكن الظروف إذ ذاك تسمح بالقيام بمثل هذا العمل فرفع الحصار عن ليبانت وانسحب بجيشه (882 هـ ـ 1477م) ، ويلوح أن السلطان الفاتح لم يكن يرمى جدياً إلى فتح القلعة بقدر ماكان يرمى إلى شغل قوات البندقية وصرف أسطولها عن أعمال التخريب فى آسيا الصغرى .

والحق أن الصراع بين السلطان محمد الفاتح والبندقية قد بلغ ذروته من الحدة والعنف والشدة فى الفترة الأخيرة التى سبقت عقد الصلح النهائى بينهما ، وشمل هذا الصراع الميدانين الحربى والسياسى على السواء ، ولم يكن السلطان الفاتح فى الميدان السياسى أقل حنكة ومهارة منه فى الميدان الحربى وقد استطاع أن يخذل عن البندقية حلفاءها وأنصارها ويبقيها فى الميدان وحدها تتلقى ضرباته حتى استخذت له آخر الأمر وخرت بين قدميه صريعة !

لم يكد يرفع الحصار عن ليبانت حتى سير الفاتح جيشاً آخر إلى واليه بألبانيا ليحاصربه كرويا ، وهذه المدينة كانت قاعدة إسكندر بك ، فلما وافاه الأجل ولم يكن له من عقب يخلفه غير غلام قاصر عهد بالدفاع عن هذه المدينة إلى حلفائه البنادقة كما جعلهم وصاة على ابنه .

عسكر والى ألبانيا بجيشه فى سفح المرتفعات التى تقع عليها كرويا وطوقها من كل جانب ليمنع عنها كل مدد يأتيها حتى يقضى عليها الجوع .

وفى أوائل سبتمبر 1477م (جمادى الأولى 882 هـ) أرسلت حكومة البندقية جيشاً بقيادة فرانسسكو كونتارينى Francesco Contarini لإمداد كرويا بالمؤنة والذخائر ، غير أن هذا الجيش وقع فى كمين نصبه الأتراك فهزمه ومزقه شر ممزق ، وبقيت كرويا مطوقة من كل جانب .

ولم يكد يبلغ البندقية نبأ الهزيمة التى حلت بجيشها فى ألبانيا حتى فجأها نبأ آخر

أفزع سكان البندقية من أقصاها إلى أقصاها ، فقد قام والى البوسنة فى بداية شهر أكتوبر من نفس العام بالهجوم على فريول زاحفا نحو الغرب وغزا البنادقة بذلك فى عقر دارهم. وكانت حكومة البندقية قد حصنت حدودها من هذه الناحية وشيدت سلسلة من الاستحكامات والحصون تمتد من مصب نهر ايسونزو بالقرب من أكيليه وتنتهى فى جوريزيا ووضعت فيها الحاميات القوية ، وأقيمت المعسكرات الحصينة المنيعة فى جراديسكا Gradiska وفوجليانو Fogliano وغيرهما من المواضع الواقعة على نهر ايسونزو التى يسهل عبورها ، وكان جسر هذا النهر يقع عند جوريزيا ومن ثم حصنت هذه المنطقة تحصيناً قوياً وعهد بالدفاع عن هذه المعاقل والحصون إلى جيرونيمو نوڤللو Geronymo Novello ، واطمأن الناس إلى هذه الاستحكامات والقوات الوفيرة التى أعدت للدفاع عنها فأخلدوا إلى الأمن والسكينة وقعد القائد البندقى عن بث العيون والأرصاد .

وفى ذات مساء من أكتوبر أخذهم الأتراك على غرة واستولوا على جسر جوريزيا ، أمر القائد العثمانى عمر بك عليه ألف رجل من جنده كما أمرّ فرقة من خيالته فى موضع آخر من النهر واستقرت فى الشاطئ الآخر لتكون كميناً على البنادقة ، وكان الليل قد أقبل فتغشى الظلام كل شئ ولم يبق ثمة مجال للقتال ، وماأصبح الغد حتى عبر القائد العثمانى نهرايسونز و بجميع جيشه ، فنهد إليه القائد البندقى والتحم الجمعان فى قتال عنيف دام بعض الوقت ثم تظاهر الأتراك بالهزيمة والفرار استدراجا للبنادقة .

وكان يصحب القائد البندقى ابنه فيليب نوفللو وكان فتى غراً قليل الخبرة بالحروب ومكائدها ، وقد ظن فرار الأتراك هزيمة حقاً فاشتد فى مطاردتهم بالرغم من منع أبيه إياه واندفع وراءه المتحمسون مثله من الشباب ، ولم يجد القائد البندقى بداً من اللحاق بهم لمعاونتهم ولم يلبث أن خرج عليهم الأتراك من خلفهم وأحاطوا بهم من كل جانب ، وقضى على الجيش البندقى كله بين قتيل وأسير .

وانتشرت الخيالة التركية بعد هذا الانتصار فى السهل الواقع بين نهرى ايسونزو وتاجليامنتو Tagliamento ، ويقول المؤرخ سابلليكو Sabellico إن الأتراك أشعلوا النار فى كل ماصادفهم من البيوت والقصور والغابات والمزارع والأهراء ، وبعد يومين عبر الأتراك نهر تاجليامنتو وأخذو يحرقون المدينة الواقعة بين هذا النهر ونهر بياف Piave

وانتشرت النيران وارتفع لهيبها حتى لقد شاهدها الناس من البندقية نفسها واشتد بهم الذعر والفزع وأمر دوج البندقية بحشد الجند من جميع الأنحاء والمقاطعات وفى الثانى من نوفمبر كان قد اجتمع جيش كبير لمناجزة الأتراك غير أن هؤلاء كانوا قد عادوا أدراجهم وعبر وا نهر ايسونزو مرة أخرى .

ولم تكد البندقية تستفيق من هذه الصدمة حتى غشيتها كارثة أخرى أشد فتكاً وهولاً فقد نزل بها وباء ذريع اضطر كثيرا من أهلها إلى الفرار واللجوء إلى الأماكن القاضية ، وكانت جمهورية البندقية قد نهكها الجهد والإعياء من جراء حربها مع الدولة العثمانية بذلت فيها أنفس مالديها من المال والرجال منذ أكثر من عشر سنين دون أن تتلقى معونة تذكر من أمراء النصارى فسعت من جديد إلى وقف القتال وعقد الصلح مع الدولة العثمانية فأوفدت إلى القسطنطينية فى يناير 1478م (شوال 882 هـ)توماس ماليپيرى Thomas Malipieri وخولت له أن يسلم للسلطان الفاتح مدينة كرويا وجزيرة ليمنوس وجزءاً من المورة يدعى براكسيودى مينو Braccio dì Mino ويعيد إليه جميع المواقع والأماكن التى استولت عليها البندقية منذ بدء الحرب ويدفع إليه مئة ألف دوقه ثمناً لزراعة الشب وقبل السلطان الفاتح جميع هذه الشروط ولكنه طلب إضافة شرط آخروهو أن تدفع له جمهورية البندقية جزية سنوية قدرها ستة آلاف دوقة وأجاب ماليپرى بأنه ليست لديه سلطة تخول له البث فى هذا الأمر واستمهل السلطان الفاتح إلى منتصف إبريل 1478م (محرم 883 هـ) ريثما يعود إلى بلاده ويستشير حكومته .

لم يغفل السلطان الفاتح الميدان السياسى فى صراعه مع البنادقة بل بذل فيه نشاطاً كبيراً وأبدى مهارة فائقة كان لهما أثر بعيد فى تقرير نصره الأخير على البندقية ، كان فرديناند ملك نابولى قد غضب لاحتلال الفاتح نيجربون سنة 1470 كما رأينا من قبل وتوترت العلاقات بينهما وصارت أقرب إلى الجفاء ، ولكن العلاقات السياسية بين البندقية ونابولى تطورت فى بضع السنوات التالية تطوراً سيئاً مالبثت ان استحالت إلى عداء صريح واهتبل السلطان الفاتح هذه الفرصة فحسن علاقته بفرديناند وعقد معه معاهدة تحالف يسمح بمقتضاها للسفن العثمانية بدخول موانئ نابولى ، واستطاع السلطان الفاتح فوق ذلك أن يحمل الملك فرديناند على إقناع ختنه ملك المجر (كان ملك المجر قدتزوج منذ قريب ابنة فرديناند) بمفاوضة الفاتح وأن يسلم له جميع مافتحه من بلاد

المجر ، وأمن السلطان الفاتح بذلك على حدوده من هذه الناحية وانصرف بكل قواته إلى البندقية وتفرغ لقتالها .

تحرج موقف البندقية تحرجاً شديداً وأصبحت فى ضيق من أمرها ، فقد ذهبت عنها الحلفاء والنصراء فى كل مكان ؛ فأوزون حسن أكبر حلفائها فى الشرق قد مات وترك أبناءه يقتتلون ، أما فى الغرب فقد استحال حلفاءوها إلى أعداء حتى أصبحت تتوجس خيفة من البابا نفسه ولم تجدبداً تجاه الشدائد والمحن التى تظاهرت عليها من أن تذعن للواقع على مرارته فاجتمع مجلس الشيوخ فى 2 مايو 1478 وقرر قبول عقد الصلح مع الدولة العثمانية بالشروط التى أرادها الفاتح .

وكان السلطان الفاتح من جانبه قد استبطأ رد البندقية وانقضى منتصف إبريل وهو الموعد الذى حدده سفيره البندقية ماليپيرى لعودته ولم يعد ، ووجد الفاتح نفسه فى حل من أمره فزحف بجيشه إلى ألبانيا ، ولما جاء السفير البندقى بعد ذلك لم يجد السلطان فى القسطنطينية فبادر إلى اللحاق به فى صوفيا فصرح له الفاتح بأن الموقف قد تغير وأنه لم يعد مرتبطاً بماكان قد عرضه، فإن كرويا الآن تعد فى يده إذ لامناص من سقوطها وشيكا . فإذا كانت البندقية تريد السلم حقا فعليها أن تسلم له شقودره ، ولم تكن لدى السفير البندقى أية سلطة لاجابة الطلب الجديد فعاد أدراجه إلى البندقية وواصل الفاتح سيره إلى ألبانيا وكانت كرويا لاتزال يحاصرها الأتراك منذ عام حصاراً شديداً لاهوادة فيه ونفذ ماكان بها من الزاد والمؤونة واضطر سكانها إلى أكل لحوم الخيل والكلاب والقطط ، ولما علموا بمقدم السلطان الفاتح فى جيش جديد قطع ذلك عليهم كل أمل فى النجاة فأرسلوا إليه وفداً فى 15 يونيو 1478م (14ربيع الأول 883 هـ) لتسليم المدينة له على أن يؤمنهم على حياتهم ويأذن لهم بأن ينسحبوا بأمتعتهم إلى حيث شاءوا ، ووافق السلطان الفاتح على ماطلبوا وكتب لهم عهداً بذلك واستولى على كرويا المدينة المنيعة الحصينة .

وكان السلطان الفاتح عند دخوله ألبانيا قد سير معظم جيشه وقواده إلى شقودره استعداداً لحصارها بينما مضى هو مع بقية الجيش إلى كرويا التى استسلمت له ، وقد عهد بالقيادة العامة لحملة شقودره أول الأمر إلى كذلك أحمد باشا ، غير أن هذا القائد تعلل ببعض الصعوبات التى تكتنف الحرب فى ألبانيا فعزله الفاتح من القيادة وأبعده إذ ليس

أدعى إلى تثبيط همة الجيش وكسر عزيمته من التهيب والتخوف وجعل الفاتح مكانه محمد باشا القرمانى .

وكانت البندقية قد توقعت بعد انسحاب الأتراك الأول من شقودره أن يعودوا مرة أخرى إلى حصارها فعمدت إلى تقوية حصونها وأسوارها وأمدتها بجنود جدد وأخرجت منها من لايصلح للقتال ، وماأن فرغ السلطان الفاتح من أمر كرويا حتى أسرع إلى شقودره وطوقها بجنوده من جميع الجوانب بعد أن رفض حاكمها التسليم ، وكان الفاتح يدرك مناعة شقودره وما يتطلبه فتحها من الجهد والعدة وأن الحصار قد يطول فلم يكتف بأخذ ماكان معه من المدافع المصنوعة بل أنشأ بجوار جبل الباشا المصاقب لشقودره مصنعاً لصب المدافع فكان يخرج بين حين وأخر مدفعاً جديداً أكبر حجماً من سابقه وأشد تأثيراً ، وكان لاصطدام قذائفها الحجرية الضخمة بالسور دوى هائل مرعب لاسيما فى سكون الليل المظلم ، وفى حصار شقودره استعمل الأتراك لأول مرة القذائف الحارقة وهى مصنوعة من قطع القماش الممزوجة بالكبريت والزيت وغيرهما من المواد الالتهابية وهى أقرب ماتكون إلى النار اليونانية المعروفة ، وكانت عند إطلاقها تحدث صوتاً حاداً وتترك وراءها فى الفضاء خيطاً من النور كالمذنّب وتحرق كل مايصادفها أو يمسها .

وقد عمد المحصورون لاتقاء الحرائق التى تسببها هذه القذائف إلى نزع الأسقف الخشبية من المنازل وإنشاء المخابىء تحت الأرض وألفت فرقة خاصة من الشبان الأقوياء لإطفاء الحرائق كما أقيمت على الأبراج فرقة مراقبة ومعها ناقوس كبير لإنذار أهل المدينة عندما يبدأ الأتراك إطلاق مدافعهم وقذائفهم وكان يتولى قيادة حامية شقودره القائد البندقى انتونيو دى لزى Antouio de Lezze يعاونه الأسقف الدومينيكانى بارتلمى Barthélemyوقد أبلى فى الدفاع عن شقودرهبلاء صاحبه كابسترا نومن قبل فى الدفاع عن بلغراد واستطاع بأعماله وخطبه الحماسية النارية أن يبعث فى نفوس المدافعين روح البسالة والإقدام .

وكان السلطان الفاتح من جانبه قد صمم على الاستيلاء على شقودره بأى ثمن ، طال الحصار أم قصر إذ كانت لهذه المدينة أهمية استراتيجية كبيرة فهى إلى جانب مناعتها وحصانتها تعتبر باب البحر الأيونى والبحر الإدزياتيكى ، وكان الفاتح يزمع إنشاء قواعد بحرية له بألبانيا تمهيداً لأعماله الحربية المقبلة فى الغرب فكان لابد من توطيدسيطرته على

هذه المنطقة الهامة وفضلاً عن ذلك كانت تقع بجوار شقودره غابة تكثر فيها الأشجار الضخمة ذات الأخشاب الجيدة لصناعة السفن .

أخذت المدافع العثمانية منذ الحادى والعشرين من ربيع الأول 883 هـ (22 يونيو 1478م) تطلق قذائفها على أسوار شقودره وكانت القذائف يتزايدعددها يوماً بعد يوم بما يصنع من مدافع جديدة ، وبالرغم من أنه قد فتحت عدة ثغرات فلم يكن من اليسير اقتحام هذه القلعة القائمة على قمة جبل عال شديد الانحدار .

وفى اليوم الحادى والعشرين من ربيع الآخر (22 يوليو 1478) أمر الفاتح جنوده بالهجوم فانطلقوا يتسلقون الجبل من كل جانب وهم يزمجرون كالرعد القاصف واندفعوا صعداً إلى الأسوار فى حمية وحماس عظيمين ، وكان رجال الحامية قد أخذوا أماكنهم منها وأخذوا يمطرون من عل الجنود الأتراك المتسلقين بوابل من القذائف والنبال والأحجار والنيران ولكن ذلك لم يوقف زحف الأتراك بل مضوا قدماً وبدأوا يتسلقون الأسوار نفسها ، وكان أشد القتال يجرى عند أطلال البرج الواقع بجانب الباب الكبير غير أن القذائف الثقيلة المنهمرةكانت تنصب على المتسلقين بغير انقطاع فأوقفت تقدمهم ثم اضطرتهم إلى الانسحاب .

وأذاع السلطان الفاتح فى معسكره بأن على كل رجل أن يستعد للهجوم المقبل الذى سيشن وشيكاً وبعد خمسة أيام فى السادس والعشرين من ربيع الآخر (27 يوليو 1478م)وهو يوم القديس بنتاليون St. Pantaléonتقرر القيام بالهجوم الثانى وقد قضى الجنود العثمانيون الليلة السابقة فى الدعاء والتكبير ويتأهبون للغد ، كذلك قضى أهل شقودره ليلتهم تلك فى الدعاء والضراعة إلى القديسين والقديسات ويتأهبون للغد .

وقرر الفاتح أن يتبع فى الهجوم المقبل الطريقة التى اتبعها من قبل فى الهجوم على القسطنطينية ، وهى أن يقسم جيشه إلى عدة فرق ثم يرسلها للهجوم واحدة بعد واحدة حتى يستنزف قوى المحصورين وينهكهم اللغب والتعب ثم ينقض عليهم الانقضاض الأخير فيكتسحهم اكتساحاً ، وقد واجه قائد الحامية الماهر انتونيو دى لزى هذه الخطة بمثلها فقسم رجاله إلى أربع طوائف تتناوب الدفاع الواحدة بعد الأخرى .

بدأ الهجوم عند الفجر واندفع الجنود العثمانيون بحمية بالغة نحو الثغرات برغم ماكان ينهال عليهم من فوق الأسوار من القذائف والأحجار والنبال والنيران ، واجتازوا أطلال السور الأول وجهدوا فى تسلق السور الداخلى الثانى الذى كان يعتبر آخر سد للمدينة ، وجاء وراء هؤلاء المهاجمين مهاجمون آخرون فدفعوهم إلى قمة السور ولكنهم لم يكونوا يصلون إليها إلا وقد أثختهم الجراح واخترقت أجسامهم النبال والمزاريق فلا يقوون بعد ذلك على القتال ويتهاوون صرعى على من خلفهم من رفقائهم الذين لم يداخلهم مع كل ذلك أى ضعف أو قنوط وضاعف الجنود العثمانيون جهودهم وواصلوا الهجوم ، ولكن ظلت هذه القلعة الشامخة القابعة على قمة الجبل مستعصية عليهم فارتدوا عنها للمرة الثانية ريثما تواتى فرصة أخرى .

واجتمع السلطان الفاتح برجال جيشه يشاورهم فى الأمر ، واجتمع رأى المؤتمرين على القيام بإخضاع الأماكن والقلاع الواقعة حول شقودره والتى كانت لاتزال فى أيدى البنادقة لنزع كل أمل من نفوس المحصورين فى وصول أية نجدة إليهم وأمر السلطان الفاتح بإقامة جسر منيع محصن عند مصب نهر بويانا لمنع أى محاولة قد يقوم بها الأسطول البندقى للوصول إلى شقودره من طريق هذا النهر ، وأخضعت قلعتا شابيبك ودريفاستو ومدينة السيو بعد أن هجرها سكانها .

وفى العشرين من جمادى الآخرة 883هـ (18 سبتمبر 1478م) رفع الفاتح معسكره من جبل الباشا واتخذ طريقه نحو القسطنطينية بعد أن عهد إلى أحمد بك أوره نوس بمواصلة تطويق شقودره وتشديد الحصار عليها حتى يقضى عليها الجوع ويرغمها على التسليم .

وقد كان من طرائق الفاتح فى الحرب أن يشغل عدوه فى أوسع مدى ممكن ويناوئه بالقتال هنا وهناك فتتوزع بذلك جنوده وتتبدد قواه ، ومنذ أزمع على حصار شقودره أرسل فريقاً من جنوده إلى حدود البندقية نفسها فانتشروا فى فريول وكارينول وكارنثيا وستيريا وظهر الأتراك مرة أخرى على شواطىء نهر ايسونزو ووجدوها هذه المرة محصنة بالجند والعدد بقيادة حاكم المنطقة فتور سورنزو Vittor Soranzo بينما تحصن قائد بندقى آخر وهو شارل دى مونتون Charles de Montone فى معسكر جراديسكا .

قسم القائد التركى إسكندر بك جيشه إلى قسمين عبر بأحدهما النهر بالقرب من جراديسكا وترك القسم الآخر على الشط ليكون ردءاً له ، وحاول إسكندر بك أن

يستدرج القائد البندقي ويحمله على الخروج من حصنه لينازله بعد ذلك ويقاتله ، ولكنه اعتبر بماحدث للبنادقة في المرة السابقة فظل في حصنه ممتنعاً به لايريم .

أما إسكندر بك فقدانتظر هناك طيلة يوم كامل ثم تباعد قليلاً عن جراديسكا واتجه بعد ذلك نحو كارنثيا وستيريا السفلى ، ولم يكن الأتراك يعرفون المسالك والدروب في هذه البلاد واندفعت خيولهم تقتحم سهولاً وجبالاً لم يجرؤ أحد من قبل على اقتحامها حتى وصلوا لوبل Loibl وهي المعبر الوحيد الذي يصل كارينول بكارنثيا واستولى على الناس الدهش والعجب من خسارة العثمانيين واقتحامهم أوعر الجبال والصخور وولوا هاربين .

وقد حدثت هذه الغزوة في وقت كان يجتاح البندقية فيه وباء فتاك شتت أهلها وشردهم في كل ناحية حتى لقد تعذر على مجلس الدولة أن يضم رجاله .

والحق أن موقف البندقيةفي ذلك الوقت قد تحرج تحرجاً بالغاً وأحاطت بها المصاعب والمشاكل من كل صوب فحروب البانيا وفريول قد نهكتها واستنزفت قواها والموقف العدائي الذي وقفه ألبابا وفرديناند وحرب توسكان Toscaneقد بعثا خوفاً جديداً ، وفي قبرص تطورت الحالة تطوراً سيئاً أثار القلق والخوف ، فقد ثارت الملكة شارلوت دي لوزنيان واستطاعت بمساعدة البابا والملك فرديناند أن تفر إلى مصر حيث لقيت من سلطانها كل ترحيب وإكرام .

أحدقت هذه المصاعب والأخطار بجمهورية البندقية وأظلمت عليها السبل لاتدرى أيها تأخذ وأيها تدع ، وفيما هي تفكر وتتلمس طريق النجاة إذ جاءها كتاب من حاكم شقودره ينبئها بسوء الحالة فيها فقد هلك كثير من خيرة رجاله وجنده وأوشك الطعام أن ينفد ، فقد اعتقد المحصورون عند بدء الصراع أنهم إذا ماصدوا جميع هجمات الفاتح سيحمله ذلك على الانسحاب بجنوده ويعود بهم أدراجه إلى القسطنطينية ، ومن ثم لم يتزودوا إلا بقدر مايكفيهم لمثل هذه المدة ولم يكونوا يتوقعون أن السلطان الفاتح سيترك جيشا ضخما لتطويق المدينة تطويقا شديداً محكماً لا ثلمة فيه وأنذر حاكم شقودره في كتابه أنه إذا لم يتلق الغوث والنجدة في أقرب وقت فإنه سيضطر إلى التسليم .

وكان لابد من عرض مثل هذا الأمر الخطير على مجلس الشيوخ البندقي ، وكان

أعضاء هذا المجلس قد فرقهم الوباء فى أنحاء مختلفة . وبعد جهد ولأى اجتمع شملهم فى 14 نوفمبر 1478 . وقد كان اجتماعهم بادئ ذى بدء حامياً شديداً يلتهب بالحماس والقوة واتفقوا على حشد ستة آلاف فارس وثمانية آلاف من المشاة ، وأن تشعل نار الثورة فى جميع أنحاء ألبانيا ويستدعى القائد البندقى العام فينيرى Venierie من قبرص وتحشد جميع هذه القوات لرفع الحصار عن شقودره .

ولكن هذا الحماس الفائر المفاجئ مالبث أن تطامن وخبا عند ما تكشفت الحقائق المرة الأليمة التى لامناص من الإذعان لها ، فإن المنفذها الوحيد إلى إنجاد شقودره من نهر بويانا قد سده الأتراك بجسر منيع حصين وخزانة الدولة قد نضبت وأقفرت بعد أن استنزفت الحرب الطويلة كل مافيها وقال بعض الأعضاء أن استدعاء الأسطول البندقى من قبرص سيؤدى إلى ضياع هذه الجزيرة بعد أن تترك إلى دسائس الملكة شارلوت ، وقد يغرى ذلك سلطان مصر بغزوها ، وأبدى كثيرون تخوفهم من هجمات الأتراك المتولية علي فريول وأن المقاومة قد تضعف عن صدها ، ونصح آخرون بانهاء الحرب فى الشرق وأن تركز البندقية كل قواها فى الغرب لتحتفظ بهيبتها وسطوتها فى إيطاليا لاسيما بعد أن صارح الملك فرد يناند بالخصام والعداء بعد عقده معاهدة التحالف مع الأتراك وأن البابا قد امتلأت نفسه سخيمة وضغينه على البندقية فلا يتحدث إليهاإلا فى وعيد وتهديد وبدأت جنوا تتنمر وتتربص ، وفى مثل هذا الموقف المحفوف بالخطر والشر كان الصلح مع الأتراك هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ جمهورية البندقية وقرر مجلس الشيوخ قبول الصلح بالشروط التى يريدها السلطان الفاتح وإن يكن صلحاً مهيناً .

أوفدت جمهورية البندقية إلى القسطنطينية رسولها جيوفانى داريو Giovani. Drio وفى اليوم الثالث من ذى القعدة 883 هـ (26 يناير 1479م) وقع باسم دولته معاهدة الصلح بينها وبين الدولة العثمانية ، وبمقتضاها تخلت البندقية عن أرجوس ونيجربون وسلمت ليمنوس وجميع ألبانيا ماعدا بضعة مواقع على الساحل وتدفع للسلطان الفاتح تعويضاً حربياً قدره مائة ألف دوقة ، وضريبة سنوية قدرها عشرة آلاف دوقة ، وفى مقابل ذلك منح السلطان الفاتح البنادقة حرية التجارة فى جميع أرجاء الدولة العثمانية وأن يكون للبندقية قنصل فى القسطنطينية يشرف على شؤون البنادقة فيها وينظر فى قضاياهم المدنية .

وعلى أثر توقيع المعاهدة حظى الرسول البندقى جيوفانى داريو بمقابلة السلطان الفاتح فخلع عليه ثلاثة قفاطين من الجوخ المذهب ، وأجابه السلطان الفاتح إلى ماطلبه فأطلق سراح بيتروفتور قائد حامية كرويا هو وزوجته وأولاده .

وكان المحصورون فى شقودره قد اشتدت بهم الفاقة والجوع حتى أكلوا الكلاب والقطط وكادوا يستسلمون للمحاصرين ، ولكنهم تسامعوا فى أوائل يناير أن مفاوضات تجرى بين البندقية والدولة العثمانية لعقد الصلح وأشاع ذلك فى نفوسهم قوة على الإحتمال والانتظار ، وبعد أن وقعت المعاهدة الآنفة الذكر سمح لهم أن يخرجوا من مكانهم آمنين على أنفسهم وعلى مايحملون من متاع وعتاد وذخائر مقدسة ، وتركت لهم الخيرة فى أن يعيشوا أينما شاؤوا .

وقد كانت هذه المعاهدة فادحة ثقيلة الوطأة على جمهورية البندقية وعيرتها بعض الدول النصرانية بها ، واعتذرت البندقية بأنها اضطرت إلى إمضائها اضطراراً لم تجد عنه مندوحة بعد أن فقدت الحليف والنصير وظلت طوال ستة عشر عاماً تجابه وحدها قوى الدولة العثمانية بل أخذت بعض الدول النصرانية تتربص بها وتحوك الأحابيل للإيقاع بها .

وقد أملت البندقية من ناحية أخرى أن تجد فى مانالته من حرية الإتجار فى جميع أراضى الدولة العثمانية مايعوضها عن خسائرها ، فقد قامت عظمة البندقية من قبل على التجارة والثروة وهاهو الآن قد انفسحت أمامها سبيل التجارة والثروة .

وتوكيداً لهذه المعاهدة الجديدة أوفد السلطان الفاتح رسولاً خاصاً إلى البندقية وهو لطفى بك لتحية رئيس جمهوريتها ، وفى 18 إبريل 1479 استقبله الرئيس جيوفانى موسينجو Giovani Mocenigo واحتفى بمقدمه وأكرم وفادته ، وأعرب له الرسول التركى عن رضا سيده عن هذه المعاهدة التى ستربط الدولتين البندقية والعثمانية برباط المودة والصداقة ، وقدم إليه هدية من السلطان الفاتح وهى حزام من النسيج الثمين مرصع بالماس وطلب إليه أن يتمنطق به إشارة إلى الصداقة الوثيقة التى تربط بينهما .

وكان الرسول التركى طوال إقامته بالبندقية موضع الحفاوة والتكريم من جانب رئيس الجمهورية ورجال حكومته ، وفى اليوم الثانى من صفر 884 هـ (25 إبريل 1479م)

وهو يوم القديس مرقص عقد احتفال كبير للتصديق على هذه المعاهدة ، وقد وقعها الرئيس جيوفانى موسينجو بنفسه وأقسم على المحافظة عليها ، واستقبل الناس ذلك فى جميع أنحاء البندقية بابتهاج وفرح عظيمين .

وهذه المعاهدة بين الدولة العثمانية والبندقية لم تكن فى الواقع إلا ردفعل لتلك المعاهدة التى عقدت من قبل بين السلطان الفاتح والملك فرديناند ، وكان العداء على أشده بين نابولى والبندقية ، وكانت الدولة العثمانية إذ ذاك أعظم دولة على وجه الأرض تتسابق الدول إلى التقرب إليها وخطب ودها ، فلما عقدت معها نابولى ذلك التحالف وكان موجهاً بطبيعة الحال ضد البندقية عدوها اللدود لم تجد البندقية بدا بعد أن أرهقتها الحرب الطويلة الضروس دون أن تجد عوناً يذكر من أمراء الغرب من أن تحذو حذو نابولى فعقدت مع الدولة العثمانية معاهدة الصلح الآنفة الذكر ، ومن ثم لم يشأ السلطان الفاتح أن يفرض شروطاً بالغة القسوة والشدة على البندقية بالرغم من أنها ارتمت تحت قدميه ، ذلك أنه .

أولاً : لم يشأ أن ينكث قوله ويرجع عما قدمه من شروط من قبل .

وثانياً : لأن الإسراف فى التشديد والقسوة قد يحمل البندقية على الاتفاق مع أعدائها ضده ، وحسب الفاتح أنه باتفاقه مع البندقية قد أمن جانب أقوى دولة بحرية فى ذلك الوقت وأصبح فى وسع أسطوله أن يجوب بحار الشرق فى حرية وأمان وجعل كبرى الدول الإيطالية فوق ذلك طوع يده وجعل بأسها بينها شديداً وأبقاها فى عداء مستمر ، فأخذ يغرى بعضها ببعض ويضرب بعضها ببعض أو على حد تعبير المؤرخين العثمانيين : يضرب الكلاب بالخنازير ويضرب الخنازير بالكلاب ، فتارة يناصر هذه على تلك وتارة يناصر الثانية على الأولى تبعاً للظروف والأحوال ووفقاً لما تمليه السياسة والمصلحة .

ولقد ذكرنا من قبل عند مستهل الحديث عن العلاقات بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية كيف كان البنادقة ينظرون إلى الدولة العثمانية فى بداية نشأتها بآسيا الصغرى نظرة إزدراء واستخفاف لايقيمون لها أى وزن أو اعتبار وكيف كانوايتهجمون على السلطان أورخان فى أول أمره ويستخفون به وينظرون إليه على أنه رجل بربرى جلف لاأهمية له ولاخطر .

ومضت الأحداث وتطورت الأمور وإذا بجمهورية البندقية ذات الصول والطول تستسلم للسلطان محمد الفاتح حفيد السلطان أورخان وتذعن للشروط التى يمليها عليها بعدحرب مريرة دامية دامت ستة عشر عاماً ، وكانت أطول حرب خاضها السلطان الفاتح ضد دولة على انفراد فقد كانت حروبه الأخرى قصيرة سريعة .



الفصل الخامس

حصار رودس ونزول الجيش العثمانى فى أوترانتو

من هم فرسان رودس ؟ ـ طبيعة العداوة بينهم وبين العثمانيين ـ عناية الفرسان بتحصين جزيرة رودس ـ رودس القلعة المنيعة الوحيدة للنصرانية فى الشرق ـ خروج الجيش العثمانى لمحاصرتها ـ إستماتة الفريقين فى القتال ـ غباوة القائد العثمانى ونداؤه المشئوم ـ إرتداد الأتراك ـ اغتباط النصرانية ـ الظروف العامة فى إيطاليا قبل نزول الأتراك فيها ـ فى إيطاليا قوم يتطلعون إلى الحكم العثمانى ـ نزول الجيش العثمانى فى جنوبى إيطاليا واستيلاؤه على أوترانتو ـ خروج الفاتح إلى آسيا الصغرى لقيادة جيش جديد ـ مرضه وموته المفاجئ ـ احتفالات ومهرجانات فريدة فى روما ابتهاجاً بموته ـ أين كان يقصد الفاتح بجيشه ؟ تفنيد من زعم أنه يريد غزو مصر ـ لو مد فى أجل الفاتح سنوات أخرى ..

ظهرت أثناء الحروب الصليبية فى الشرق طوائف دينية عسكرية جمعت بين مظاهر النسك والعبادة والتقوى ومبادىء الفروسية والعسكرية والنجدة ، وكانوا يعنون بتطبيب المرضى وتضميد الجرحى فى الحروب كما امتازوا بالصلابة والشدة فى القتال ، وفى مقدمة هذه الطوائف الدينية العسكرية طائفة « فرسان القديس يوحنا » ويلقبون بـ « Hospitaliers أو Hospitalers ويعرفون عند العرب باسم « الإسبتارية » .

ولما استولى المسلمون سنة 1291 على عكا آخر موقع للصليبيين فى البلاد الإسلامية نزح جان دى فلليبه Jean de Villiers بمن بقى من فرسان الإسبتارية إلى قبرص وأذن لهم ملكها هنرى الثانى دى لوزينان Henri II de Lusignan بالإقامة فى مدينة

ليمسو Limissoوكانوا لايزالون يؤملون العودة إلى الأرض المقدسة بفلسطين فحطوا رحلهم فى المدينة الجديدة يترقبون الفرصة المواتية .

وتطاول بهم المقام فى قبرص دون أن تلوح لهم فى الأفق بارقه أمل لتحقيق أمنيتهم وأنفوا أن يظلوا فى مقرهم الجديد تحت سيطرة ملك قبرص واشتد بهم الضجر والضيق فتطلعوا يبحثون عن مكان آخر أوسع متنفساً ورحابة يجدون فيه العيش الحر الكريم ولاتظلهم سيادة أجنبية ونظروا أولاً إلى بلاد الإسلام فوجدوا من العسير أن يقتحموا قطراً من أقطاره ليحتلوه ثم يتخذوه مقاماً لهم ومستقراً ، فقد كان المسلمون آنذاك أهل البأس والمنعة وماكانوا ليتغاضوا عن عدو واغل ومحتل دخيل ، ودار هؤلاء الفرسان بأبصارهم نحو الغرب فكان أول مالاح لهم جزيرة رودس ، وكانت هذه الجزيرة فى ذلك الحين جزءاً من الإمبراطورية البيزنطيةالهرمة المتداعية وكانت وكراً للقراصنة والمتلصصين .

إن تجار البندقية وجنوا ليقتطعون لأنفسهم كل يوم شلواً من هذه الإمبراطورية المترامية فلم لايقتطع الفرسان ـ وهم جنود الله فى الأرض كما يعتقدون ـ هذه الجزيرة لأنفسهم ويجعلوها قلعة شامخة منيعة تذود عن النصرانية ؟

وذهب رئيسهم فولك دى فللاريه Foulques de Villaret إلى روما ولقى البابا كليمنت الخامس Clement V فأبان له أن لاسبيل إلى غزو أى بلد من بلاد الإسلام المنيعة ويستأذنه فى أن يوجه قوته وسلاحه ضد الروم ، وسر البابا لهذا الرأى وطابت نفسه به وأثنى على إخلاص الفرسان وحماسهم الدافق للنصرانية وجهادهم فى سبيلها ودعا لهم بالبركة والتوفيق وأفاض عليهم بصكوك الغفران وأمدهم بالمال والرجال .

وأذاع البابا بالاتفاق مع ملك فرنسا فيليب لى بل Philippe le Bel نداءاً عاماً فى أوروبا يدعو إلى حملة صليبية جديدة ، وتسابق الناس إلى إستجابة هذا النداء ، وزاد حماسهم إلى استجابته أن هذه الحملة ستكون بقيادة رئيس الإسبتارية الذين أبلوا فى الحروب الصليبية بفلسطين أعظم البلاء وأحسنه واعتقدوا أن هذه الحملة ستشن على

المسلمين فتوافد المقاتلون من فرنسا وإيطاليا وألمانيا حتى ضاقت بهم السفن التى أعدت لحملهم .

أبحر هذا الجيش الصليبى فى سنة 1308 من ميناء برنديزى Brindisi إلى قبرص لأخذ من كان بها من فرسان الإسبتارية ، ثم أقلع ڤللاريه رئيس الفرسان بسفنه فى اتجاه فلسطين ، وكان الوقت ليلاً كثيف الظلام ومالبث أن استدار بسفنه نحو الغرب وبعد عدة أيام رسى بها فى أحد موانىء رودس . أما الجنود الصليبيون فإنهم حينما أدركوا حقيقة الأمر وأين يقصد بهم فرسان الإسبتارية فقد آثر بعضهم القفول إلى بلادهم وبقى آخرون مع الفرسان ورافقوهم إلى النهاية .

بعث الرئيس فللاريه إلى إمبراطور القسطنطينية أندرونيك باليولوج الثانى يطلب منه أن يسحب حامياته من رودس ويسلم إليه هذه الجزيرة كأقطاع على أن يقدم إليه كل ثلاث سنوات ثلاث مئة من الجند ويطهر رودس وغيرها من الجزر من القراصنة ، وغضب الإمبراطور البيزنطى لهذه الجرأة والوقاحة وطرد رسله من عنده وأرسل جنداً لطرد الفرسان الذين نزلوا رودس ، ولكن هؤلاء الفرسان لم يكترثوا لرفض الإمبراطور بعد أن نالوا موافقه البابارئيسهم الأعلى الذى يدينون له بالولاء ، ولم يجدوا صعوبة فى هزم جنود الإمبراطور الضعيف واستولوا على جزيرة رودس فى 15 أغسطس 1309 ، ثم استولوا على بعض الجزر الصغيرة القريبة منها ، وعرف فرسان القديس يوحنا أو الإسبتارية بعد استقرارهم فى جزيرة رودس باسم « فرسان رودس » Chevaiers de Rhodes[1] ، وكان هؤلاء الفرسان لاتزال تجرى فى عروقهم دماء أجدادهم الصليبيين الأول الذين سجل عليهم التاريخ فى فلسطين أبشع صور الضراوة والبربرية الوحشية وورثوا عنهم جميع هذه الصفات فما من مدينة غزوها كالإسكندرية وأزمير إلا جعلوا عاليها سافلها وأمنعوا فيها فتكاً وتقتيلاً لايبقون على طفل رضيع ولاعجوز هرم ولاامرأة

---

(1) Flandin, Histoire des Chevaliers de Rhodes. Biliotti, L'Ile de Rhodes.

ضعيفة ولايتورعون عن انتهاك الآثار والحرمات التاريخية القديمة [1] .

لقد خرج هؤلاء الفرسان من فلسطين مقهورين مهزومين ، تتلظى قلوبهم من الغيظ والحنق على أولئك الذين طردوهم منها ، فجعلوا همهم الأول بعد ذلك محاربة المسلمين أينما كانوا وقد عدهم مؤرخو الفرنج أنفسهم الأعداء الألداء للإسلام ، وقد استقروا فى رودس فى نفس الوقت الذى نشأت فيه الدولة العثمانية بآسيا الصغرى وأخذت تنمو وتتسع ، وكان رجالها ممتلئين حمية وحماساً للدين الذى يعتنقونه وهو الإسلام ويسعون إلى نشره ويجاهدون فى سبيله بكل مافى وسعهم من حيلة وقوة فلم يكن ثمة بد من التصادم بين هاتين الدولتين أو هذين المعسكرين اللذين يختلفان فى كل شئ وتوافرت فيهما جميع أسباب العداوة والخصام ولم يتأخر كثيراً وقوع الصدام بينهما بل وقع مبكراً منذعهد أورخان وذلك حينما انقضت سفن فرسان رودس على بعض سفن عثمانية فى إيمبروس سنة 747 هـ (1346م) وحطمتها تحطيما وأسرت بعض بحارتها العثمانيين .
وأخذ هذا القتال بعد ذلك يتجدد بين حين وحين ، بيد أن وجود البحر بين آسيا الصغرى ورودس وانصراف السلاطين العثمانيين الأول إلى الفتوحات البرية وكانت ميادينها أمامهم فسيحة رحبة وعدم امتلاكهم بحرية قوية وقلة تمرسهم بأساليب القتال فى البحر واشتغال الفرسان أنفسهم بعد نزولهم فى رودس بتشييد القلاع والحصون وتنظيم الشئون الداخلية فيها وإنشاء قوة بحرية قوية لهم ، كل أولئك لم يتح للدولتين المتعاديتين فرصة الالتحام فى معركة كبيرة حاسمة [2]

---

(1) Flandin, op. cit. Biliotti, op. cit. Hammer, L'Empire Ottoman. Baron de Belabre, Rhodes of the Knights.

(2) وقد كان لمصر نصيب فى الصراع ضد فرسان رودس فحاول السلطان الظاهر جقمق فتحها بحجة أن هذه الجزيرة كانت قبل ذلك قد ملكها العرب فحاصرتها السفن المصرية مرتين فى سنة 844 هـ (1440م) و848 هـ (1444م) ولكنها عجزت عن الاستيلاء عليها ، ولكن العلاقات السياسية بين مصر ورودس تحسنت بعد ذلك وغلب جو الصفاء والمودة .

وقد اشترك فرسان رودس برجالهم أو سفنهم فى معظم المعارك والحملات التى شنها نصارى الغرب على الدولة العثمانية فى عهد الفاتح وعهد من قبله من السلاطين وعندما نشب الصراع بين الفاتح وأوزون حسن عقد معه رئيس الفرسان معاهدة تحالف وأمد أوزون حسن بما كان يحتاج إليه من رجال المدفعية وصناع الأسلحة النارية .

فلما تولى محمد الفاتح السلطنة تغير وجه الأمر ، فقد أصبحت للدولة العثمانية قوة بحريةعلى جانب غير قليل من البأس وأصابت قدراً غير قليل أيضاً من المرانة والمراس فى جروب البحر لاسيما فى السنين الأخيرة من حكم الفاتح ، وقد رأى هذا السلطان أن فى وجود جزيرة رودس المحصنة المنيعة على بعد عدة أميال فقط من آسيا الصغرى تهديداً خطيراً وخنجراً مشهوراً يمكن أن يصوب إلى قلب دولته فى أى وقت .

ولم يكد يفرغ من فتح القسطنطينية حتى بعث إلى جان دى لاستيك Jean de Lastic رئيس الفرسان يطلب منهاالخضوع لسلطانه ويدفع جزية سنوية أسوة بغيره من أمراء النصارى الذين يدفعون له الجزية ، وكبر ذلك على رئيس الفرسان فأجاب فى عنجهية وكبرياء :

إننا معشر الفرسان لايجوز لنا أن ندفع أتاوة لأمير نصرانى فكيف ندفع الجزية لأمير مسلم ؟ وقد توليت إمرة هؤلاء العصابة وهم سادة أحرار فكيف أختم عليهم بخاتم الذلة والمهانة ؟ فإذا كان السلطان قد صمم على فتح رودس فعليه أولاً أن يمر فوق جدثى وأجداث هؤلاء الفرسان ، ونهض إلى حصون جزيرته يزيدها تحصيناً وإحكاماً، وبعث إلى ملوك الغرب وأمرائه وبخاصة ملك فرنسا يطلب منهم العون والنجدة .

ومات دى لاستيك فى مايو 1454 وخلفه جاك دى مللى Jacques de Milly وصرف كل سنى رياسته فى تقوية وسائل الدفاع عن رودس والتأهب للقتال ، ولم تمكن الأحداث السياسية والعسكرية فى أوروبا الشرقية وآسيا السلطان الفاتح من التفرغ لمجابهة هذه الجزيرة واقتصر الصدام بينه وبين الفرسان فى السنين الأولى من حكمه على

المناوشات البحرية والغارات التخريبية المتبادلة على الشواطئ المكشوفة لم يكن لها من أثر إلا أنها حملت الفرسان على مضاعفة جهودهم فى تحصين جزيرتهم وسد الثغرات والثلمات التى قد تقتحم .

وحدث بعد ذلك أن وقع نزاع بين المتنافسين على العرش فى جزيرة قبرص تدخلت فيه جمهورية البندقية وفرسان رودس وانحاز كل منهما إلى جانب ، ثم حدث أن سفينتين تجاريتين للبندقية جنحت بهما العواصف إلى شواطئ رودس فاستولى عليهما الفرسان ونهبوا ماكان فيهما من متاجر وأدى كل ذلك إلى التصادم والقتال فترة من الزمن بين جمهورية البندقية وفرسان رودس تفوقت فيه البندقية على الفرسان ورجحت كفتها .

ولم يكد هذا القتال يحسم وينتهى حتى دهم رودس وباء فتاك أهلك كثيراً من أهلها وحمل كثيراً منهم على الفرار واضطر رئيس الفرسان تجاه هذه الكارثة والخوف من تجدد الغارات البحرية التى يشنها الأتراك حيناً والبنادقة حيناً آخر أن يطلب إلى السلطان الفاتح عقد صلح معه ، وقد رفض الفاتح أول الأمر هذا الطلب ولكن تطور الحوادث فى الأفلاق وتأهبه لفتح بعض بحزر الأرخبيل ثم البوسنة كل ذلك حمله علي قبول ما عرضه رئيس الفرسان فعقد معه سنة 866 هـ (1462 م) هدنة لمدة سنتين ، وهى أول هدنة تعقد بين العثمانيين وفرسان رودس .

ومن الواضح الجلى أن هذه الهدنة بين الخصمين العنيدين إنما أملتها الضرورة الملحة من الجانبين ولم تكن ثمة ثقة متبادلة فى حسن نية الآخر فقد كانت طبيعة الأشياء تأباها . على أن هذه الهدنة قد امتدت أكثر مما حدد لها من ميقات ، فقد تواصلت حروب الفاتح فى آسيا وأوروبا فاستطالت معها الهدنة ، أما رئيس الفرسان پيير ريمون زاكوستا Pierre Raimond Zacosta الذى كان يعتقد أنه لامفر من أن تشتبك رودس والدولة العثمانية يوماً ما فى صراع عنيف حاسم فقد استغل الهدنة لإنعاش الحالة فى رودس ومضاعفة الاستعدادات وتقوية وسائل الدفاع وشرع فى بناء قلعة جديدة فيها وهى

قلعة القديس نيقولا ، ولما علم ملك فرنسا شارل السابع بسوء الحال والعوز فى رودس أرسل إليها قدراً كبيراً من المال ، كذلك بعث إليها دوق بورغنديا اثنى عشر ألف إيكوذهباً لإتمام بناء هذه القلعة ولكن هذه الأموال كلها لم تكن كافية لتنفيذ مشروعات زاكوستا فى إقامة التحصينات والقلاع التى كان يريدها فعمد إلى فرض ضرائب جديدة على البضائع التى ترد إلى رودس واتهمه بعض أعدائه بأنه إنما يكنز الأموال لنفسه ولذوى قرباه فاستدعاه البابا إلى روما واستطاع زاكوستا فى المجلس الذى عقد للتحقيق معه لاأن يبرىء نفسه مما أتهم به فحسب ، بل أن يحمل الحاضرين على التحمس لرأيه ووجوب تقوية الاستعدادات للدفاع عن النصرانية ضد أشد عدو يتهددها ، وأيده البابابى الثانى فى موقفه كل التأييد .

وبقى زاكوستا فى روما يستحث الناس على نصرة رودس حتى وافته المنية سنة 1467 . وخلفه على الرياسة جان باتست دى أورسان Jean Baptiste des ursins فواصل أعمال سلفه فى التأهب للقتال كأن الحرب واقعة ، فعبأ الجيش وعين لكل فرقة مكانها الخاص وسد الميناء بحاجز قوى ، وحفرت الخنادق أمام الاستحكامات ووضع الحراس فى أماكن متقاربة وأعدت النيران والنواقيس للإنذار عند أول ظهور العدو وأضيفت أسوار جديدة إلى الأسوار القديمة وحملت إلى سفحها أكوام عظيمة من التراب والأحجار لسد الثغرات التى قد يحدثها العدو وشيدت ثلاثة أبراج جديدة ؛ وأقيمت حراسة قوية على مخازن الأسلحة والمؤن ، وكان يشرف على القيام بهذه الاستعدادات الفارس بيير دوبسون Pierre d,Aubusson الذى انتخب بعد ذلك فى سنة 1467 رئيساً للفرسان ، وكان رجلاً شديد الإخلاص والحماس لطائفته شجاعاً مقداماً ثاقب النظر جم النشاط متوثب الهمة ، ويعد أشهر الرؤساء الذين تولوا حكم جزيرة رودس .

وما إن تولى دوبسون مقاليد الرياسة حتى واصل ماكان يقوم به من قبل من أعمال الإصلاح والتحصين فى الجزيرة ، فشيدت أسوار جديدة وجهزت السفن بمعدات القتال

وشددت الحراسة والمراقبة على المرتفعات وأحصى سكان رودس الذين يقدرون على حمل السلاح ، وأنشأ فى أطراف الجزيرة القريبة من الساحل والتى تستهدف للأخطار أكثر من غيرها قلاعاً منيعة للسكان ومنعهم من الخروج منها صباحاً قبل أن يخرج كشافون من الفرسان ويستوثقوا من عدم وجود أى خطر ، ولما نفدت أموال الخزانة فى هذه الاستعدادات عمد دوبسون إلى أموال الكنيسة واستخدمها فى هذا السبيل وأمر بتخزين الحبوب والطعام وأكره الأجانب المقيمين فى رودس وفيهم المسلمون على الاشتراك فى أعمال التحصين والبناء واستولى على السفن الأجنبية الراسية فى مياه رودس ، وبالاختصار عبأ دوبسون جميع القوى والطاقات لتحصين رودس حتى غدت هذة الجزيرة قلعة محكمة شديدة المناعة لاتقتحم .

وبعث الرئيس دوبسون إلى صذيقه لويس الحادى عشر ملك فرنسا يطلب منه المعونة والاشتراك فى الدفاع عن هذه الجزيرة فأمده بمال وفير وأمر بعقد اجتماع عام فى فرنسا لجمع التبرعات تحمس له البابا سيكست الرابع وباركه وأفاض بصكوك الغفران على المتبرعين فسخت الأيدى وتسابق الناس إلى البذل والعطاء واجتمع من ذلك مال عظيم أرسل إلى رودس وتوافد إليها الفرسان من الأمراء والنبلاء من جميع أرجاء أوروبا ليشتركوا فى الدفاع عنها .

والحق أن جزيرة رودس فى ذلك الحين قد أصبحت القلعة المنيعة الوحيدة فى شرقى البحر الأبيض المتوسط التى تذود عن النصرانية وعن أوروبا ، وسقوطها فى يد الأتراك سيتيح لهم حشد جميع قواتهم البرية والبحرية للزحف إلى غرب أوروبا بعد أن خضع لهم الجزء الشرقى منها وهذا هو مبعث أهتمام اهل الغرب للدفاع عن هذه الجزيرة .

وكانت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرسان رودس قد بلغت درجة كبيرة من السوء والتوتر ، وكان كل شئ ينبئ بأن صداماً عنيفاً بينهما على وشك الحدوث ، فقد انتهى السلطان الفاتح من فتح نيجربون وكفة وانهزم أوزون حسن انهزاماً لاقومة له بعده

وتم عقد الصلح مع جمهورية البندقية ، ولم يكن الجيش العثمانى ليبقى بعد ذلك عاطلاً بدون عمل ، ولم يكن الأسطول العثمانى كذلك ليبقى طويلاً بدون حركة ، واستحوذ على أهل رودس شعور باقتراب هبوب العاصفة ؛ ولكنهم مع ذلك كانوا يشعرون بشئ غير قليل من الثقة والطمأنينة نظراً إلى ماحصنت به جزيرتهم وإلى كفاية ومقدرة رئيسهم دوبسون الذى يعمل الليل والنهار بهمة لاتكل ، وقد قدر الفرسان لرئيسهم جهوده العظيمة فى سبيل الدفاع عن الجزيرة ففوضوا إليه الأمر كله وخولوه السلطة المطلقة فى اتخاذ مايراه من الإجراءات .

وكان الرئيس دوبسون يدرك عظم الاستعدادات التى يعدها السلطان الفاتح وشدة الهجوم الذى سيشنه على رودس ، وأراد أن يتفرغ لهذه المعركة وحدها فصالح أعداءه الآخرين ومن كان يخشى منه انقلاباً عليه أو اعتداء فجدد الصلح مع سلطان مصر الأشرف قايت باى ، وأهم مااشتمل عليه هذا الصلح السماح لسفن فرسان رودس بدخول الموانىء المصرية وأن تجد فيها التسهيلات الضرورية للتزود منها بما تحتاج إليه أو للقيام بإصلاح ماأصابها من العطب [1] وعقد رئيس الفرسان مثل هذا الصلح مع سلطان تونس .

وكانت الجاسوسية سلاحاً هاماً فى الصراع بين الدولة العثمانية ورودس استخدمها الفريقان بحذق ومهارة إلى جانب استعداداتهما الحربية الهائلة فقد كان كل من السلطان الفاتح والرئيس دوبسون يدرك شدة بأس صاحبه وقوة شكيمته وأن القتال سيكون بينهما عنيفاً مراً ، فأخذ كل منهما يبث العيون والأرصاد تتجسس وتتنطس لاستطلاع العورات واستكشاف المداخل والثغرات ، وكان ممن أرسلهم السلطان الفاتح إلى رودس لهذا الغرض رجل من الروم يدعى ديمتريوس سوفيانوس Demetrius Sofianos وقد

(1) Flandin, op. cit. B iliotti, op. cit.
ويذهب لامارتين إلى أكثر من هذا فيقول إن سلطان مصر كان يمد حلفاءه فرسان رودس بالمؤونة والبحارة Lamartine, Histoire de la Turquie .

ذهب إلى رودس على أنه رسول من قبل الأمير جم والى القرمان الذى كان تربطه برئيس الفرسان صلة من التعارف ، فلما قابله الرسول نصح له بأن لايخاطر بالحرب ضد السلطان الفاتح فإنها ستودى به وبجماعته وحثه على قبول دفع الجزية التى طلبها منه وهى مال ضئيل المقدار لايبهظ الكاهل ويعيش بعد ذلك فى أمن وسلام .

وعلم رئيس الفرسان من جواسيسه فى القسطنطينية أن هذا الرسول ماهو إلا جاسوس أوفد إلى رودس ليستطلع أسرار الاستحكامات والتحصينات فتحرز منه دوبسون وأخذ يرصده ويراقب حركاته ويراوغه فى الحديث ويخاتله ولايصدقه فيه ، وبقى سوفيانوس فى رودس يتعلل بمختلف المعاذير والتعلات ليطيل مقامه بها ويتمكن من إنجاز المهم الذى جاء من أجله .

وعاد سوفيانوس إلى القسطنطينية ثم رجع مرة أخرى إلى رودس واقترح على رئيس الفرسان أن يدفع للسلطان قدراً من المال كل عام لاعلى أنه جزية بل على أنه هدية حتى لايمس كرامته وعزته . ولكن دوبسون أصر على رفضه ، ومكث سوفيانوس فترة أخرى فى رودس يواصل تجسسه ، ولكنه كان تحت مراقبة شديدة فلم يتوصل إلى الحصول على معلومات صحيحة عن استحكامات المدينة ووسائل الدفاع فيها ، على أن سوفيا نوس قد عوض فشله بأنه التقى فى رودس برجلين أحدهما مغامر ألمانى يدعى چورچ فربان Georges Frapan ويعرف بالمعلم چورچ Mître Georges وكان متضلعاً فى علوم الرياضة والمدفعية والآخر من نبلاء الروم يدعى انتوان ميليجالو Antoine Meligalo وقد جمعهما أمر واحد وهو طلب المال والثروة فأظهرا إسلامهما وتطوعا للتجسس للسلطان الفاتح واستصحبهما سوفيانوس إلى القسطنطينية .

وكانت مع كل منهم صورة عن رودس وتحصيناتها واستحكاماتها وكانت صورة المعلم چورچ أكثر دقة وإتقاناً ، وأخذ هؤلاء الجواسيس الثلاثة يستحثون السلطان الفاتح على غزو رودس ويغرونه بسهولة فتحها .

وكانت السفن العثمانية من جانبها تقوم بين الفينة والفينة بأعمال الاستطلاع والاستكشاف حول هذه الجزيرة ، ولما أحس الرئيس دوبسون اقتراب هجوم الأتراك أمر بتدمير المبانى والكنائس والأشجار والزروع التى تقع خارج المدينة لكى لاينتفع بها العدو إذا ماوقعت فى يده .

وفى ربيع سنة (885 هـ ـ 1480م) خرج الأسطول العثمانى بقيادة مسيح باشا ـ وهو على مايرجح رومى الأصل من أسرة باليولوج التى حكمت بيزنطة ـ من مضيق الدردنيل وكانت عدته مئة وستين سفينة تقل مئة ألف جندى وفقاً للروايات النصرانية [1] .

وفى الثالث عشر من ربيع الأول 885 هـ (23 مايو 1480م) ظهر هذا الأسطول أمام رودس وألقى مرساه فى الشمال الغربى من الجزيرة فى خليج ترياندا Trianda وبالرغم من المقاومة الشديدة التى أبداها الفرسان نجح مسيح باشا فى إنزال جنوده وعتاده هناك واستولى على مرتفعات جبل القديس اتيين ثم نشر جناحى جيشه أحدهما إلى الشمال الشرقى حتى صاقب قلعة القديس نيقولا St Nicolas وامتد الجناح الآخر إلى الجنوب حتى ضاحية القديس چورچ St Georges ولم يمض يومان حتى كان الأتراك قدوطدوا أقدامهم ونصبوا بطارية من المدافع الضخمة ضد قلعة القديس نيقولا التى كانت تسيطر على مدخل الميناء وتعتبر مفتاح المدينة [2]

وقد أتبع مسيح باشا فى هجومه الخطة التى وضعها المعلم چورچ الذى أخذ يدير بنفسه دفة بطارية المدافع ، وكان هو الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من الجواسيس الثلاثة

---

(1) أما المؤرخون العثمانيون فيجعلون القوات العثمانية أقل كثيراً مما قدرته الروايات النصرانية سواء من حيث عدد السفن أومن حيث عدد الجند .

(2) ويطلق المؤرخون العثمانيون على قلعة القديس نيقولا اسم « برج العرب » (عرب قله سى) . ذلك أن العرب بعد غزوهم لجزيرة رودس فى عهد معاوية بن أبى سفيان سنة 672 م (53 هـ) شيدوا فى هذا الموضع قلعة منيعة لتوطيد مركزهم فيها ، فلما استولى فرسان القديس يوحنا بعد ستة قرون على جزيرة رودس عمدوا فى عهد رئيسهم زاكوستا(1461 ـ 1467) إلى ترميم هذه القلعة العربية وتحصينها وتقويتها وأطلقوا عليها اسم القديس نيقولا .

بعد هلاك صاحبيه ميليجالو وسوفيانوس ، ولم يقف المعلم جورج فى نشاطه وجهوده عند هذا الحد بل أراد أن يستكشف ثغرة فى داخل المدينة نفسها فتظاهر بالفرار من معسكر الأتراك وتمكن بذلك من دخول المدينة ، فلما سمع به دوبسون طلب إحضاره إليه ، ولما مثل جورج بين يديه اعترف بأنه كان قد ارتد عن النصرانية طمعاً فى عرض الدنيا ولكنه الآن قد تاب وندم على مافرط منه وجاء ليعود إلى حظيرة النصرانية والتمس من رئيس الفرسان أن يعفو عنه ويغفر له زلته ويأذن له بأن يكفر عن خطيئته بالقتال مع الفرسان والاشتراك معهم فى الدفاع عن رودس وعن النصرانية .

وقد أثارت إجابات جورج على أسئلة دوبسون ومبالغته وتفخيمه فى ذكر قوة الأتراك وضخامة معداتهم وأسلحتهم الريبة فى نفسه . ، ولم يكن جواسيس دوبسون فى المعسكر العثمانى أقل نشاطاً ومهارة ، ولم يمض غير قليل حتى وقع فى داخل المدينة سهم يحمل هذه الكلمات « احذروا المعلم چورچ » ، ورأى الرئيس دوبسون مع ذلك أن يستفيد من مواهب هذا الجاسوس المهندس فأخفى عنه هذه الرسالة ووضعه تحت مراقبة دقيقة بحيث لايغيب عن نظر حراسه لحظة واحدة ، وحيل بذلك بين المعلم چورچ وبين ماكان يسعى إليه وينشده ، ثم عهد إليه دوبسون فى إدارة إحدى البطاريات اختارها المعلم جورج بنفسه على الأسوار .

ظلت المدافع التركية طيلة ستةأيام تطلق قذائفها الضخمة على أسوار قلعة القديس نيقولا وتهدم جانب كبير منها من ناحية البر فى الجانب الغربى ، وأعقب الأتراك ذلك بهجوم شديد على القلعة ، غير أنهم صدوا وردوا على أعقابهم ، وبادر الرئيس دوبسون إلى سد الثغرات وترميم ماتهدم من الأسوار قبل أن يعاود الأتراك هجومهم وحشد لذلك جمعاً عظيماً من العمال يعملون بغير توان ولاانقطاع ثم تحصن بها دوبسون على رأس أشجع فرسانه ليتولى الدفاع بنفسه عن هذا الموقع الحيوى الهام ، ولما جاء الليل أمر بأن تنصب أخشاب ذات رءوس حديدية حادة فى المكان الضحضاح من البحر الملاصق للقلعة لعرقلة مشاة الأتراك إذا ماحاولوا الهجوم عليها من جهة البحر ، كما أعدت سفن حراقة

ونصبت على الأسوار مدافع لإطلاق النار على السفن التركية التى تحاول الهجوم على القلعة من الشرق .

ولم يمض يومان على هذا الاستعداد والتأهب حتى أقبلت سفن تركية تحمل الجنود وهم يصيحون صيحات التكبير تخالطها دقات الطبول والطنابير واستطاعوا برغم القذائف والنيران التى انهمرت عليهم والعوائق التى اعترضت سبيلهم ـ النزول إلى البر والهجوم على القلعة واشتد القتال عند أسوارها بينهم وبين المدافعين ترددت فيه كفة النصر بين الفريقين ، وكان رئيس الفرسان يلهب نار الحماس ببسالته فى نفوس جنده وتمكنوا آخر الأمر من صد الأتراك وحملهم على الارتداد والانسحاب .

ولما امتنع على مسيح باشا فتح قلعة القديس نيقولا بالرغم من الجهد العظيم الذى بذله واستبسال جنوده فى القتال رأى أن يقتحم المدينة من موضع آخر أكثر سهولة بل هو أضعف نقطة فى استحكامات الجزيرة دلته عليها عيونه وجواسيسه ، وهذه النقطة الضعيفة هى الحى اليهودى فحول مسيح باشا هجومه إليه ، ولم تكد المدافع العثمانية تطلق قذائفها على السور القائم فى هذا الجانب حتى فطن الرئيس دوبسون إلى الخطر المحدق الذى يهدد الجزيرة فأمر لتوه بهدم مساكن اليهود وبنى من أحجارها سوراً داخلياً جديداً قوياً وحوطه بخندق واسع عميق واشترك فى العمل جميع سكان الجزيرة من الفرسان والفلاحين والتجار والرجال والنساء الذين أقبلوا على العمل فى حمية وحماس، وتم بناء السور وحفر الخندق فى وقت قصير ؛ بينما كانت المدافع التركية تهد السور الخارجى بدون تراخ ولا انقطاع ، وأخذت القذائف التى تنفذ إلى داخل المدينة تدك المبانى التى تصطدم بها فلجأ كثير من الناس إلى سراديب الكنائس والخنادق الآمنة .

وكان مسيح باشا يعتقد أنه بعد دك هذا السور سينفتح له الطريق لدخول المدينة ولكن خاب ظنه إذ وجد أمامه سوراً آخر جديداً ، ولم يكن هذا القائد على شىء كبير من قوة العزيمة وصلابة الإرادة أو سعة الحيلة ، فلم يكد يرى أمامه هذا السور الجديد

والخندق الواسع حوله حتى خارت قواه ولانت عزيمته فلم يحاول اقتحامه أو دكه بالمدافع بل آثر السلامة فانسحب بجيشه ليعاود الهجوم على قلعة القديس نيقولا ، وكان الفرسان عقب انسحاب الأتراك عنها قد أصلحوا ماتلف من سورها وقلاعها ، فلما عاد مسيح باشا لمهاجمتها وجدها أقوى من ذى قبل وأمنع !

وقد أقام هذه المرة جسراً من السفن شد بعضها إلى بعض بحبل تجاه قلعة القديس نيقولا ليتسنى مهاجمتها هجوماً مباشراً ، ولكن عندما أظلم الليل غطس بحار إنجليزى يدعى جرفيس رودجرز Gervais Rodgers إلى البحروقطع الحبل ، ومالبثت الأمواج أن دفعت السفن التركية وبعثرتها ، ولكن ذلك لم يثن عزيمة العثمانيين فأعادوا إقامة الجسر بالرغم من النيران والقذائف الشديدة التى كانت يمطرها عليهم الفرسان وفى ليلة 19 يونيو (1480م) وكانت ليلة عاصفة شن الجيش العثمانى هجومه على قلعة القديس نيقولا وأخذت المدافع تتبادل كالطلقات والقذائف من الجانبين فى سكون الليل المظلم وحمى وطيس القتال بين الفريقين وظل محتدماً من منتصف الليل إلى متعة الضحى ، وانكسر الجسر الذى أقامه الأتراك تحت ثقل وطأة الجند وشدة نيران الفرسان فاحترقت بعض السفن وقتل عدد غير قليل من الجند ، وللمرة الثالثة انسحب مسيح باشا بجيشه وذهب يتخير مكاناً آخر يهجم منه على المدينة ووقع اختياره على الحى اليهودى بعد أن أصلح الفرسان أسواره وحصنوها وقووها ! .

ومامن ريب فى أنها بلادة عسكرية من مسيح باشا يدركها أقل الناس إدراكاً وتمييزاً وقد ذهبت جهود الجنود العثمانيين عبثاً وهباء بين بلادة هذا القائد وذبذبته بين الهجوم على هذا الموقع أو ذاك ، ولو أن مسيح باشا واصل هجومه وحصاره على الحى اليهودى أو قلعة القديس نيقولا أو حاصرهما وهاجمهما معاً فى آن واحد وفرق بذلك قوات المدافعين فى جبهتين لتم للأتراك حتما فتح رودس ،

وعلى أية حال فقد شن الأتراك هذه المرة على الحى اليهودى هجوماً أشد وطأة وعنفاً

من الأول ارتاع له كثير من الفرسان أنفسهم وجعلوا يتذمرون ويتمرمرون ويئسوا من نجاح الدفاع ومالوا إلى وقف القتال وعقد الصلح قبل أن يهلكوا فى مجزرة مريعة ، فلما بلغ ذلك مسامع الرئيس دوبسون أسرع إليهم وصاح فى المتذمرين : « من وجد منكم نفسه غير آمن فى هذه المدينة فإنى أفتح له الطريق للخروج منها ومن أراد أن يبقى فيها فلا يتحدثن عن التسليم» [1] وخجل الفرسان المتذمرون من هذا التقريع الشديد فأقسموا أن يقاتلوا حتى ينتصروا أو يقبروا تحت الأنقاض ، ومنذ ذلك الحين لم يفقهم أحد فى الشجاعة والبسالة .

واخترع أحد المهندسين فى رودس منجنيقاً هائلاً يقذف أحجاراً ضخمة كالجلاميد إلى مسافة بعيدة وتدمر كل مايصادفها ، وقد أطلق فرسان رودس على هذه الآلة اسم « الجزية » وهى تسمية تحمل معنى السخرية اللاذعة وتشير إلى ماكان قد طلبه السلطان الفاتح من فرسان رودس من دفع الجزية ، وكأنما يردون بذلك عليه ويقولون له : هذه هى الجزية التى نعطيكها !

وأمر الرئيس دوبسون بأن تحمل إلى الأسوار المواد الحارقة والأكياس المملوءة بالبارود لقذفها على الأتراك قبل أن يطبقوا على رودس فصنع له جورج نوعاً جديداً من المنجنيق ، ولكن قذائف هذه الآلة بدلاً من أن تقع على العدو كانت تقع على أسوار المدينة نفسها ! وقوى ذلك شكوك دوبسون فى هذا الجاسوس وخشى خطره فأمره ، وقد ائتمر هؤلاء الأعوان واتفقوا على اغتيال الرئيس دوبسون بالسم ، غير أن واحداً منهم طمع فى مزيد من المال فباح بسر المؤامرة فكان فى ذلك القضاء عليهم أجمعين .

أما الأتراك فلم يكترثوا لشئ ، لم يكترثوا للآلات الجديدة التى استحدثها الفرسان ولا لقتل المعلم جورج وظلوا يدركون الأسوار بمدافعهم ويواصلون اقترابهم منها وفتحوا

---

(1) Biliotti, op. cit.

عدة ثغرات هنا وهناك وامتلأ الخندق بالأنقاض ، وأراد مسيح باشا أن يفتح ثغرة أخرى في داخل المدينة وذلك باستمالة السكان إليه ، فقذف إليهم سهام كثيرة تحمل المنشورات التي تصف عدالة السلطان الفاتح وكرمه وحدبه على الرعية على عكس هؤلاء الفرسان الأجلاف الغلاظ القلوب المستبدين ، ولكن هذه المنشورات لم تؤت النتيجة المرجوة ، فبعث إلى الرئيس دوبسون نفسه رسالة خاصة يدعوه فيها إلى التروي والتعقل ويجنب أهل رودس ويلات الحرب وأهوالها قبل أن يستحر القتال ويهجم عليه بجنود لاقبل له بها وإنه لابد مستول على الجزيرة ، فإذا قبل الرئيس دوبسون هذه النصائح السليمة التي تحقن الدماء وسلم الجزيرة للسلطان فإنه (أي السلطان) لن يمسه بسوء وسيبقيه في منصبه رئيساً للفرسان وتكون العلاقات بينهما بعد ذلك علاقات ود ومحبة .

وقد أجاب دوبسون على هذه الرسالة بأنه وجنوده المغاوير يؤثرون الموت في المعركة على الاستخذاء والتسليم والاعتراف بسيادة السلطان ، ولن يدخل الجنود العثمانيون المدينة إلا من خلال أسوارها وثغراتها ، فإن كان في استطاعتهم ذلك فليفعلوا ، فقد آن إذن أوان الموقعة الحاسمة .

بدأ الجنود العثمانيون هجومهم على السور اليهودي في فجر يوم الجمعة (20 جمادى الأولى 885 ـ 28 يوليو 1480م) وكبروا بصوت واحد تكبيرة هائلة هزت جوانب الجزيرة واندفعوا في هجومهم كالصاعقة ، وماهي إلا لحظات حتى استولوا على ثغرة واسعة فتحتها المدافع ونشب عندها قتال عنيف دام بينهم وبين المدافعين من الفرسان ، ونجح بعض الجنود العثمانيين في نصب علمهم على السور وشرع آخرون يتسللون إلى داخل المدينة وينتشرون فيها .

وفي هذه اللحظة الحاسمة التي أوشك أن يتقرر فيها مصير رودس حدث حادث مشؤوم لم يكن على بال أحد جلب النكبة والهزيمة على الجيش العثماني ، ذلك أن مسيح باشا القائد المأفون الجشع عندما رأى تدفق الجنود العثمانيين إلى المدينة خشي أن تقع في

أيديهم جميع الغنائم والأسلاب ويستحوذوا عليها وشق ذلك على نفسه فأعلن بواسطة المنادين أنه لايجوز للجنود أن يأخذوا لأنفسهم شيئاً من الأموال والغنائم فإنها كلها للسلطان وحده (1) .

ولم يكد يطرق آذان الجنود العثمانيين وهم فى عنفوان المعمعة هذا النداء المنكود حتى بهتوا وأصابهم مايشبه الشلل المفاجئ وتوقفوا بعض الوقت عن القتال ، ولحظ الرئيس الداهية دوبسون هذه الحال الجديدة التى انتابت الأتراك وماأصابهم من التوقف والتردد فاهتبلها فرصة وكر عليهم بفرسانه كرة عنيفة زحزحتهم عن مواقفهم ، وكأنما أخذ العثمانيون على غرة فردوا على أعقابهم وأخذوا يقاتلون وهم منسحبون ولم تفلح محاولة مسيح باشا بعد ذلك لوقف ارتدادهم وحملهم على معاودة الهجوم وإغرائهم بالغنائم فقد أفلت الزمام وفاتت الفرصة .

وهكذا أدى ذلك النداء الأخرق الأرعن الذى أذاعه مسيح باشا إلى هذه النكبة والهزيمة وقد كان الواجب على قائد فى مثل موقفه أن يبذل قصارى جهده وحيلته لتشجيع جنوده وحثهم على القتال وقد أصبح النصر منهم قاب قوسين أو أدنى وأن يغريهم بالغنائم والأسلاب الوفيرة فإن ذلك مما يزيدهم حماساً وحمية فى القتال فى عهد كانت الغنائم والأسلاب بعض مايكافأبه الجندى ، ولكن مسيح باشا تغلبت عليه طبيعته البخيلة الشحيحة ، وتغلبت عليه فى أدق ساعة وأحرجها فأدت إلى انهزام جيش كان على وشك أن يهزم العدو ويستولى على جزيرة برمتها وبدك قلعة من أمنع القلاع النصرانية الصليبية فى ذلك الحين .

أما أهل رودس فيعزون انتصارهم إلى ظهور صليب ذهبى فى السماء وعذراء تحيط بها هالة من نور وقد أمسكت بيديها ترساً ونشابا وفارس سماوى يحيط به موكب ساطع

---

(1) صولاق زاده تاريخى . سعد الدين تاج التواريخ . تاريخ منجم باشى

وقد ظهروا جميعاً فوق المكان الذى كانت ترفرف فيه أعلام المسيح والعذراء والقديس يوحنا .

ولم يكد مسيح باشا يبحر بجيشه إلى القسطنطينية حتى أقبلت سفينتان من نابولى تحملان المدد لأهل رودس كما تحملان إليهم البشرى بمدد أكبر سيرسله إليهم البابا ، واستطاعت هاتان السفينتان أن تنفذا من بين السفن التركية وتدخلا الميناء ، ثم أقبلت سفينة ثالثة أسبانية تحمل المدد أيضاً لأهل الجزيرة الذين غمرهم فيض من الغبطة والابتهاج لانتصارهم على الأتراك وذهاب الخطر عنهم ووصول الأمداد المتتالية إليهم .

وقد اكتسب فرسان رودس وبخاصة رئيسهم دوبسون ـ الذى كافأه البابا بقبعة الكاردينالية ـ شهرة عظيمة فى عالم النصرانية بعد هذا الانتصار ، وازدادت أهمية جزيرةرودس فى الدفاع عن النصرانيةكما ارتفعت منزلتها فى أعين النصارى .

أما مسيح باشا الذى عاد يجر ذيول الخيبة والهزيمة فقد غضب عليه السلطان الفاتح ولم يأذن له بدخول القسطنطينية وعزله من منصبه وأبعده إلى كليبولى .

على أن هذا الفشل الذى منى به الجيش العثمانى فى حصار رودس قد خفف من سوء وقعه وعوض عنه النجاح الذى أحرزه جيش عثمانى آخر فى جنوبى إيطاليا .

وقد كان فتح هذه البلاد مما استهدفه سلاطين آل عثمان منذ وضعوا أقدامهم فى أوروبا الشرقية ، وقد أقسم السلطان بايزيد الأول يوماً أن يطعم حصانه العشب فى كنيسة القديس بطرس بروما ، ولولا تلك الكارثة التى منى بها على يد تيمورلنك لكان من الممكن أن يبر بايزيد بقسمه ؛ ولكن الزمن لم يمهله وادخر هذا الأمر لينجزه حفيده السلطان محمد الفاتح ولكن الزمن أيضاً ـ كما سنرى ـ لم يمهله .

وقد كانت الظروف العامة إذ ذاك ملائمة مواتية ، فقد استتب السلام على جميع الحدود الشرقية للدولة العثمانية وأمنت الغوائل والفجاءات من هذه النواحى وأصبح فى مقدورها توجيه قواها إلى الغرب ، وكانت إيطاليا نفسها فى ذلك الوقت مقطعة الأوصال

قد استحكم النزاع والعداءبين دولها يتربص بعضها ببعض فإن المعاهدة التى عقدتها البندقية مع الدولة العثمانية قد أثارت القلق والفزع بين دول إيطاليا ، هذه الدول التى أعماها الحقد والحسد والكراهية فلم ترفى هذه المعاهدة إلا أنها ستتيح للبندقية الفرصة لكى تركز جهودها فى إيطاليا وتمكن لها من استعادة ماكان لها من قبل من نفوذ ممدود وسطوة مرهوبة وأخذ القلق والفزع يساوران نابولى وجنوا اللتين أظهرتا عداوة صريحة للبندقية أثناء حربها مع الدولة العثمانية وتخوفتا من انتقامها .

وهناك دويلات أخرى كدوقية ميلان ودوقية فراره ومركيزية مانتو ، فهذه ـ بالرغم من أنها كانت أقرب إلى المحالفة والصداقة مع البندقية ـ قد قابلت هذه المعاهدةباستياء وألم ، فقد كانت جمهورية البندقية أثناء اشتغالها بحرب الدولة العثمانية تجامل هذه الدول مجاملة بالغة وتتودد إليها ، أما الآن ـ وقد فرغت من حربها فى الشرق وشرعت تستعيد قواها ومنزلتها السابقة فى إيطاليا ـ فقد انعكس الأمر وانقلب الوضع وتحتم على هذه الدول أن تظهر احترامها للبندقية وتوددها إليها .

أما البابا سيكست الرابع فقد كان أشد من ثاربه الغضب والسخط على معاهدة البندقية مع الدولة العثمانية واتخذها ذريعة إلى تشنيع البنادقة وتشهيرهم أمام النصارى واتهامهم بخيانة القضية النصرانية فى الوقت الذى كان يعمل فيه البابا ـ كما أعلن فى منشور له إلى أهل أوروبا ـ على توحيد جهود ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا ودوق بورغنديا وتوجيه جميع قوى الغرب ضد الأتراك .

وقال البابا فى منشور آخر وهو يتوقد غيظاً وحنقاً :

إن البنادقة لم يكتفوا بالتخلى والفرار من قضية النصرانية بل تمادوا فى الإثم والإجرام فلم يخجلوا من أن يؤكدوا أمامنا وأمام إخواننا الكرادلة الموقرين وأمام السفراء والأساقفة وأمام جمع كبير من النصارى ـ بأنهم سيحافظون بإخلاص على معاهدتهم مع الكفار (العثمانيين) ولن ينقضوها بأى حال .

وفشلت جميع جهود البابا لحمل البندقية على دخول الحرب مرة أخرى ، وقد يكون لها فى موقفها عذر أو بعض العذر ، فقد خاضت غمار الحرب ضد الدولة العثمانية واكتوت بنارها الحامية طيلة ستة عشر عاماً دون أن تلقى معونة تذكر من أمراء النصرانية ، والآن وقد اكفهر الجو وحزب الأمر وتتابعت النذر وأوشك الجيش العثمانى أن يطبق بجحافله على البلاد الإيطالية أخذوا يلقون عليها كل تهمة .

أجل ، فقد اتهموها أيضاً بأنها هى التى شجعت السلطان الفاتح على غزو إيطاليا بأن حرضته على محاربة نابولى ـ التى كانت إذ ذاك فى حربه مع البندقية لتكرهها على سحب قواتها لمواجهة الجيش العثمانى ـ فأوفدت إلى القسطنطينية رسولها السيناتور سبستيانو جرتى Sebastiano Gritti لحثه على هذا الأمر وإقناعه بأن المناطق الجنوبية من إيطاليا كانت وقتاً ما جزءا من الامبراطورية الشرقية ، فمن حق الفاتح ان لم يكن من واجبه ـ وهو الذى فتح القسطنطينية واليونان ـ أن يسترد هذه البلاد التى كانت جزءاً من تلك الإمبراطورية .

هذه هى الحالة العامة التى كانت تسود إيطاليا قبل أن ينزل العثمانيين شواطئها الجنوبية نزاع مستعر وعداء مستحكم بين دولها يتربص بعضها ببعض ، ومامن ريب فى أنه نجاح سياسى عظيم للسلطان الفاتح إذ استطاع أن يوقف منه الدول الإيطالية هذا الموقف المتوتر الفائر ويجعلها تلجأ إليه يستعديه بعضها على بعض .

ومن جهة أخرى فإن نابولى لم تحترم معاهدة التحالف بينها وبين السلطان الفاتح إذ أرسلت بعض سفنها لنجدة رودس أبان محاصرته لها ، فكان ذلك عاملا جديداً قوى عزم الفاتح على غزو إيطاليا وقد مهد لذلك بأن احتل جزر زنتاوكورفو وسانتامورا وكفالونيا التى تعتبر مراكز أمامية بينما كانت تجهز فى الميناء الألبانى فالونا مئة سفينة لنقل الجنود والمعدات ، ثم أبحر الجيش العثمانى بقيادة كدك أحمد باشا ورسى بأسطوله فى أوترانتو فى العشرين من جمادى الأولى 885 هـ (28 يوليو 1480م) وشرع بعد إنزاله

الجنود والمعدات إلى البر فى حصار قلعة المدينة ، وقد صادف أن كان أول نزول الأتراك فى غابة صغيرة حافلة بأشجار البرتقال والليمون فكانت نبعاً طيباً يزود الجند بشراب منعش لذيذ ، وكانت بجوارها بحيرة مليئة بالسمك فكانت تزود الجند بأشهى الطعام ، وكان ذلك بداية حسنة هيأتها الطبيعة للفاتحين .

والحق أن السبيل للفتح كان ممهداً كل التمهيد ، فإنه إلى جانب عوامل النزاع والشقاق والعداوة المستعرة بين الملوك والأمراء فى إيطاليا وأوروبا عامة كان يسود هذه البلاد تذمر عام بين شعوبها من جراء ماعانته من مظالم حكامها وأمرائها ، وتسامع الناس هناك بالحكم الإسلامى العثمانى ومايتسم به من السماحة والعدالة وحسن المعاملة فى البلاد التى فتحها العثمانيون ، وتهيأت نفوسهم لاستقباله والترحيب به ، فكان فى إيطاليا نفسها « قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى الترك لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أية حكومة مسيحية [1] » فلا غرو إذن أن فكر كثير من الناس فى الانضمام إلى الجيش العثمانى بعد نزوله فى إيطاليا ومعاونته على تحطيم نير رجال الدين والأمراء ، بل إن ألفاً وخمس مئة من جنود الملك فرديناند نفسه قد فروا وانضموا إلى صفوف العثمانيين [2] .

وفى اليوم الرابع من جمادى الآخر 885 هـ (11 أغسطس 1480م) استولى كدك أحمد على مدينة أوترانتو دون أن يلقى مقاومة كبيرة فى احتلالها ، واستحوذ الفزع والرعب على البابا سيكست الرابع ولاح له أن روما ستسقط فى يد الأتراك كما سقطت القسطنطينية من قبل ، وزاد فى فزعه ماشاع من أن الأتراك سينزلون فى ساحل مارش Marches فى وسط إيطاليا واشتد القلق والاضطراب بالبابا لايدرى مايصنع وهم

---

(1) السير توماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام .

(2) Sismondi, op. cit.

ويخطئ إذن من يظن أن الفتوحات العثمانية الإسلامية قد حدثت بقوة السيف والبطش وحدها ولو كانت كذلك لما دامت عدة قرون .

بالفرار من إيطاليا ولكنه تلبث قليلاً واستعاد شيئاً من هدوء النفس ورباطة الجأش وأذاع على أمراء النصرانية كافة وأمراء إيطاليا خاصة رسالة يدعوهم فيها أن يتصافوا ويتهادنوا فيما بينهم ويوجهوا جميع قواهم ضد أعداء النصرانية ، وقال البابا فى رسالته « إذا أراد اتباع المسيح والإيطاليون بخاصة أن يدافعوا عن مزارعهم وبيوتهم ونسائهم وأولادهم وحريتهم وحياتهم ، وإذا أرادوا أن يحتفظوا بدينهم وعقيدتهم فها قدآن الأوان لتنفيذ هذه الكلمات ، فنلأخذ أسلحتنا ولنمض إلى الحرب ولايحسبن أولئك الناس الذين يقيمون فى أقاصى إيطاليا أنهم فى أمان من أنفسهم فإنهم إن لم يسرعوا وينهضوا إلى قتال الأتراك فإن هؤلاء سيصلون إليهم » .

وأراد البابا أن يضرب لهم المثل بنفسه فى تناسى الأحقاد فهادن أعداءه الفلورنسيين وصالحهم ، وبعث فرديناند ملك نابولى إلى ابنه دوق كلابريا ـ الذى كان إذ ذاك يقاتل الفلورنسين وعلى وشك أن يستولى منهم عن مدينة سيين Sienne ـ أن يترك ماهو فيه ويعود من فوره إلى نابولى لمجابهة الجيش العثمانى الذى أخذ يوسع أعماله الحربية ويثبت مراكزه ولبى الدوق نداء أبيه فأسرع فى العودة إلى نابولى وحشد فيها مااستطاع من القوات ثم زحف إلى الجنوب لمقاتلة الأتراك ، وحذره بعض رجاله العارفين من الاندفاع والتهور فإنه مقبل على قتال قوم أولى بأس وقوة ، ومالبث الدوق أن عجم عودهم بنفسه فى بعض المناوشات فأخذ بعدئذ يتريث فى سيره ويتبصر وجعل معسكره قبالة معسكر الأتراك وحصنه بالخنادق والاستحكامات ، وماعتم أن لحق به أبوه الملك فرديناند مع رجال بلاطه فى الميدان ليشعل نار الحماس فى نفوس جنوده ويشجعهم على القتال .

وسارع أمراء إيطاليا الذين شعروا أن الخطر المحدق يهددهم جميعاً إلى مناصرة فرديناند ومده بالجند والعتاد ، والواقع أن الفزع من تقدم الأتراك لم ينحصر فى حدود إيطاليا وحدها بل جاوزها إلى ماوراءها من بلاد أوروبا فجاءت عدة سفن مسلحة من البرتغال وتوافد المقاتلون من مختلف أرجاء أسبانيا لمناصرة فرديناند ومعاونته على صد

زحف الجيش العثمانى [1].

ولكن هذه القوات المتجمعة والجنود المحشودة لم تغنهم كثيراً ولم تستطع زعزعة الأتراك عن مواقفهم ، بل أخذ هؤلاء يشنون هجماتهم وغاراتهم على جموع النصارى ويكبسونهم داخل تحصيناتهم ويثخنون فيهم قتلاً وأسراً .

مضت بقية الصيف من عام 1480 ثم مضى الخريف على هذا النحو ، لم يستطيع النصارى أن يزحزحوا الأتراك عن أماكنهم ، بل ازداد هؤلاء ثباتاً ورسوخاً فى مواقفهم ، وأقبل الشتاء ببرده القارس فجمع دوق كلابريا فرق جيشه وانصرف بها إلى معسكرات الشتاء ولاذ بالمعاقل والحصون وانقطع القتال .

اغتنم كدك أحمد هذه الفرصة فعهد بقيادة الجند إلى أحد رجاله وعاد سراً إلى القسطنطينية ليعرض على السلطان الفاتح نتائج أعماله ، وكان يريد أيضاً استقدام السلطان نفسه إلى إيطاليا ليتولى بنفسه قيادة الجيش فإن وجوده بينهم سيزيدهم قوة وعزيمة فى القتال ، وبعد أن انتهى كدك أحمد من محادثاته مع السلطان عاد إلى ڤالونا حيث حشد جيشاً آخر يبلغ تعداده خمسة وعشرين ألف رجل ليشد به أزر الجيش الرابض فى جنوبى إيطاليا ، وكان السلطان الفاتح ـ كما رأينا من قبل ـ قد أرسل حملة أخرى لفتح رودس بقيادة مسيح باشا ولكنه لم يوفق فى حملته .

وفى أوائل الربيع من العام التالى 886 هـ (1481م) غادر السلطان الفاتح القسطنطينية إلى آسيا الصغرى حيث كان قد أعد فى إسكدار جيش آخر كبير ، وكان السلطان الفاتح قبل خروجه من عاصمة ملكه قد انتابته وعكة ولكنه لم يحفل بها ، وخرج لقيادة جيشه بنفسه وقد كان من عادته أن يجد فى خوض غمار المعارك شفاء لما يلم به من أسقام ، غير أن المرض تضاعف عليه هذه المرة وثقلت وطأته عقب وصوله إلى إسكدار فاستدعى أطباءه ، غير أن القضاء حم به فلم ينجع فيه تطبيب ولادواء .

Sagredo, op. cit. (1)

ومـات السلطان الفاتح وسـط جيشه في يـوم الخميس الرابـع من ربيع الأول 886 هـ (3مايو 1481) وهو فى الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم نيفاً وثلاثين عاماً .

وكان كذلك أحمد باشا لايزال فى الميناء الألبانى ڤالونايتهيأ للإبحار بجيشه الجديد إلى أوترانتو حينما بلغه نعى السلطان الفاتح فعدل عن السفر وعاد أدراجه إلى القسطنطينية ، ومالبث أن ذاع نبأ الوفاة فى الشرق والغرب فأحدث دوياً هائلاً اهتزت له النصرانية والإسلام على السواء ، أما النصرانية فقد كانت هزتها هزة فرح وابتهاج وتلقت هذا النبأ كأحسن ماتتلقى أعظم بشرى . وكانت جزيرة رودس بقربها من الموضع الذى توفى فيه السلطان الفاتح أسبق إلى معرفة النبأ فغمرها فيض من الغبطة والفرح لايوصف فقد كانت تتخوف من هجوم جديد يشنه عليها السلطان الفاتح نفسه ، فلم يكد يصلها نبأ وفاته حتى أمر الرئيس دوبسون بإقامة صلوات الشكر على نجاتهم من هذا « العدو المخيف» [1] .

ولم يكن ملك نابولى أقل ابتهاجاً بتلقى هذا النبأ ، فقد تنفس الصعداء وبادر فعرض على الجيش العثمانى المعسكر فى أوترانتو أن ينسحب منها فى أمان ويعينه على الرحيل منها ، ولكن الجنود العثمانيين أبوا أول الأمر أن يصدقوا نبأ وفاة سلطانهم وحسبوه خدعة من الملك فرديناند لبلبلة أفكارهم وإضعاف عزيمتهم وأصروا على البقاء فى أماكنهم ، ولما رأى دوق كلابريا منهم ذلك شن عليهم القتال وهجم عليهم هجوماً شديداً وجعل شجعان رجاله وصناديدهم فى مقدمة الجيش ، ولكن الأتراك ردوهم على أعقابهم ودحروهم .

ولم يمض على ذلك غير قليل حتى جاءهم النبأ اليقين عن وفاة سلطانهم فانتابهم من ذلك هم شديد وحزن عميق ، فقد كانوا يرجون أن يستأنفوا زحفهم لفتح جميع إيطاليا بعد أن قبضوا على مفتاحها فى الجنوب ، وعرض الملك فرديناند مرة أخرى على الجنود العثمانيين أن ينسحبوا آمنين على حياتهم وأمتعتهم وعتادهم ، وقبل العثمانيون ذلك هذه

---

(1) Flandin, op. cit.

المرة ، وشرعوا ينسحبون عن إيطاليا ويرحلون « ولكن النصارى لم يفوا بما تعهدوا فاعتقلوا بعض الجنود الإنكشارية الذين كانوا فى المؤخرة وصفدوهم بالسلاسل » [1] .

على أن ماأقامه رئيس فرسان رودس وملك نابولى من مظاهر الفرح والابتهاج بوفاة السلطان الفاتح لايعد شيئاً إلى جانب ماأقامته روما من مباهج وأفراح واحتفالات ، وكان أشد الناس اغتباطاً فيها بطبيعة الحال البابا سيكست الرابع الذى حاول الفرار من روما من قبل حينما لاح له أن عرشه قد زال ، فلم يكد يبلغه نبأ وفاة الفاتح حتى أمر بفتح جميع الكنائس وأقيمت فيها الصلوات والاحتفالات ، وسارت المواكب العامة تجوب الشوارع والطرقات وهى تنشد أناشيد النصر والفرح بين طلقات المدافع ، ولم ينس البابا أن يأمر بالغاء الاستعدادات التى أعدت لفراره ، وظلت هذه الاحتفالات والمهرجان اتقائمة فى روما طيلة ثلاثة أيام ، ولم تفعل البابوية مثل ذلك قط لموت أى رجل من رجال الإسلام من قبل ولا من بعد ولا غرو فقد حاربت البابوية السلطان الفاتح بكل ماملكت من قوة وحيلة طيلة ثلاثين عاماً وألبت عليه أمراء الغرب والشرق فلم يغنها ذلك شيئاً ، وحاولت أن تستميله وحببت إليه اعتناق النصرانية وأغرته بملك الخافقين والمجد القاهر فى الأرض فلم تفلح ، وظل السلطان الفاتح فى جهاده يمضى قدماً لايصده شئ حتى أنزل جنوده فى جنوبى إيطاليا وارتاعت البابوية وأوشكت أن تلقى مصرعها ، ولكن القدر المحتوم كان قد جعل للفاتح أجلاً ينتهى عنده لايستقدم ساعةولايستأخر ، وتخلصت النصرانية بوفاته من أعظم خطر كان يهددها .

ولم يكن أحد يعلم شيئا عن الجهة التى كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه ، وذهبت ظنون الناس فى ذلك مذاهب شتى . فهل كان يقصد رودس ليفتح هذه الجزيرة

---

(1) Sagredo, op. cit

ولما تولى بايزيد الثانى السلطنة كتب من فوره إلى الملك فرديناند ينذره بأنه إذا لم يطلق سراح جنوده المعتقلين ويبعث معهم عتادهم وأسلحتهم فإنه سيزحف بنفسه لتخليصهم فارتعب لذلك فرديناند وعجل فى ترحيل هؤلاء الجنود بعداتهم وقدم إليهم سفناً من عنده لنقلهم إلى ميناء فالونا .

التى امتنعت على قائدها مسيح باشا ؟ أم كان يتأهب للحاق بجيشه الظافر فى جنوبى إيطاليا ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما وشمالى إيطاليا ففرنسا وأسبانيا [1] .

---

(1) ذهب كثير من المؤرخين مثل همر وجيبه وغيرهما أنه من المحتمل أن السلطان الفاتح كان يريد بجيشه الذى أعده فى آسيا الصغرى محاربة سلطان مصر لأحداث وقعت بينهما أشار هؤلاء المؤرخون إلى بعضها ، ونحن نوردها هنا جميعاً ، وأول هذه الأحداث ذلك الكتاب الذى أرسله السلطان الفاتح إلى سلطان مصر وغير فيه بعض ألقابه وأدى ذلك إلى إساءة استقبال رسول الفاتح الذى كان يحمل هذا الكتاب ، فقد ذهب به أحد الحجاب إلى مكان الضيافة وأنزله من جواده وهناك وجد جمعاً من أمراء مصر على صهوة جيادهم فلم يحفل بهم الرسول العثمانى ولم يطرح عليهم السلام ولم ينبس ببنت شفة وقصد إلى مكانه بكل هدوء ولم يتكلم الأمراء بكلمة وخرجوا فقال له الحاجب : لماذا لم تسلم على الأمراء ولم تتكلم بكلمة ؟ فأجاب ليس من السنة أن يسلم الراجل على الراكب ولم أتكلم لأنكم لم تسلكوا معى النهج القانونى ، ولما مثل فى اليوم التالى بين يدى سلطان مصر أبى أن يقبل الأرض فأمعن الأمراء فى الزراية به (عشق زاده تاريخى) وقد اعتذر الرسول العثمانى فيما بعد عن عدم تقبيل الأرض « بأنه لايعلم ترتيب هذه البلاد » (حوادث الدهور) ووعد بفعل ذلك فى المرة القادمة ، ورضى سلطان مصر بعض الشئ لذلك ولكنه ظل غاضباً من تغيير اللقب ، فهذه واحدة ، وحدث بعد ذلك أن أرسل سلطان مصر قاصداً إلى تركيا وتسلم منه رئيس التشريفاتية ماكان يحمله من الكتب والهدايا ولما استقبله السلطان الفاتح قال له : « إنى أستقبلك احتراماً لجدك وليس اعتباراً لحوش قدم ، أليس من المؤسف أن يحكم مصر رجل لايعرف القوانين والتقاليد ؟ » (عاشق زاده تاريخى) وأكرم الفاتح وفادة القاصد المصرى واحتفى به غاية الحفاوة الأمر الذى أوغر صدور أمراء مصر فائتمروا فيما بينهم واتفقوا على اغتيال السلطان الفاتح وأرسلوا جماعة من الفدائيين لتنفيذ هذا الأمر ولكن كشف أمرهم فى تركيا وقبض عليهم وأحضروا أمام الفاتح وأقروا بذنبهم ولكنه عفا عنهم وأعادهم إلى مصر ، فهذه ثانية ، وحدث أن أحد علماء تركيا قصد إلى الحج ووجد فى طريقه إلى مكة آباراً مهملة مخربة وحرم الحجاج من مصدر غزير للماء وأوقعهم ذلك فى مشقة وعطش شديد ، فلما عاد العالم إلى بلده رفع الأمر إلى السلطان الفاتح فأمر لتوه بإعداد الفعلة والأموال لإصلاح هذه الآبار وكتب بذلك إلى سلطان مصر طالباً معونته وكاد يتم الأمر على خير وجه لولا أن أمير القرمان الذى كان لايسره شئ غير وقوع العداوة بين الدولتين المجاورتين له استغل الأمر فأوفد رسولاً إلى سلطان مصر يخبره أن سلطان العثمانيين لايريد بإرسال الفعلة والأموال إصلاح الآبار ولكن له مقاصد أخرى ، وصدق سلطان مصر هذا القول فمنع الفعلة من إنجاز ماجاءوا لأجله وقال لهم : إننا لسنا بعاجزين عن إصلاح ماهو مخرب فى بلادنا وردهم إلى بلادهم رداً قبيحاً مهيناً خجل منه السلطان الفاتح (عاشق زاده) فهذه ثالثة ، أما الحادثة الرابعة =

لقد ظل ذلك سراً طواه الفاتح فى صدره لم يبح به لأحد ثم طواه الموت بعد ذلك فى

= والأخيرة - وهى أخطرها جميعا - فهى تتعلق بالتنافس على بسط السيادة على إمارة ذى القدر ، وقد عرضنا من قبل (الفصل الثالث من القسم الثالث) إلى نشأة هذه الإمارة وكيف تغلب شاه سوار بمساعدة السلطان الفاتح وعرض عليه أن تكون له (للفاتح) جميع بلاد شاه سوار على شرط أن يكف عن مساعدته ويتخلى عنه فمايريد (سلطان مصر) إلا أن يظفر بعدوه القاتل شاه سوار ويصيب منه ثأره ، وقبل السلطان الفاتح هذا العرض بعد أن رأى من شاه سوار فتخاذلوا بدورهم عن نصرته بل انقلبوا عليه ، وعلي أثر ذلك دخل الجيش المصري بلاد ذي القدر والتجأشاه سوار التذبذب وعدم الوفاء بماوعد به من الطاعة له . فماكان من السلطان قايت باى إلا أن كتب إلى أمراء ذى القدر وكبار أعوان شاه سوار وفرق عليهم الأموال وأخبرهم بأن السلطان الفاتح قد تخلى عن نصرة شاه سوار بعد أن تخلى عنه جنده إلى قلعة ظمنتو (عاشق زاده تاريخى . وفى تاريخ ابن اياس زمنوطو) وحاصره الجيش المصرى بها وقد استسلم شاه سوار بعد أن أمنه الأمير تمراز التمشى على حياته بشهادة القاضى شمس الدين وذهبوا به إلى القاهرة ولكن السلطان قايت باى شق على نفسه أن يبقى شاه سوار على قيد الحياة بعد أن قتل آلافاً كثيرة من عساكر مصر وعزم على قتله واستفتى فى ذلك « مشايخ العلم والقضاة فأفتوه بأنه خارجى وأنه لايبقى فى قيد الحياة » (ابن إياس بدائع الزهور) وقتل شاه سوار وكثير من أقاربه بعد أن نكل بهم . وما أن تخلص قايت باى من شاه سوار حتى نصب مكانه على إمارة ذى القدر أخاه شاه بوداق نائباً عن سلطان مصر ، فكتب إليه السلطان الفاتح يقول له « أين عهدكم ؟ ألم تتعهدوا بأن بلاد سوار شاه لى ؟ فأجاب قايت باى « لقد قلنا ماقلنا حتى يقع العدو فى أيدينا » وسكت السلطان الفاتح وأسرها في نفسه ، فقد كان إذ ذاك عـلي وشك الالتحام بعدوه اللدود أوزون حسن ومضت عدة سنين على شاه بوداق وهو على إمارة ذى القدر حتى كان عام 885 هـ (1480م) إذ قام عليه أخوه علاء الدولة بمعونة السلطان الفاتح فهزمه وطرده من الإمارة وألجأه إلى مصر ، وكان ذلك آخر ماوصلت إليه العلاقات بين تركيا ومصر فى عهد السلطانين محمد الفاتح كان وقايت باى وليس فيما كتبه المؤرخون العثمانيون والمصريون مايدل من قريب أو بعيد على أن السلطان الفاتح يفكر فى غزو مصر ولم يكن ثمة مايدعو إليه ، واستطاع علاء الدولة فوق ذلك أن يكسب مودة السلطانين معاً فلم يغضب هذا ولاذاك ، وكان السلطان الفاتح بعد ذلك كله مجاهداً إسلامياً أوقف حياته على جهاد المشركين ونشر الإسلام فمن المستبعد أنه فكر فى غزو بلاد إسلامية وإذا كان قد حارب أوزون حسن فلأنه مالأ الفرنج وحالفهم ، فما ذكره همر وغيره من المؤرخين من احتمال أن السلطان الفاتح كان يريد غزو مصر إنما هو رجم بالغيب لايستند إلى أساس ، ولو كان سلطان مصر يتوقع شراً من جانب السلطان الفاتح لاغتبط بنبأ وفاته وخلاصه منه - كما اغتبط من قبل بوفاة أوزون حسن الذى فكر فى غزو البلاد المصرية لا سيما وأن السلطان الفاتح كان أعظم قوة وأشد بأساً - ولكن الذي حدث كان عكس ذلك فإن سلطان مصر لما سمع نبأ وفاة السلطان الفاتح « أظهر الحزن والأسف عليه » (ابن اياس بدائع الزهور) .

حشايا الأرض وظل سراً خفياً على الناس والتاريخ من بعده .

لقد قال كثير من المؤرخين : لو انتصر العرب فى موقعة بلاط الشهداء« بواتييه » لفتحوا فرنسا وانتشر الإسلام فى ربوعها ودرست اللغة العربية فى معاهدها ، ونحن نقول : إنه لو مد فى أجل الفاتح سنوات أخرى لمضى الإسلام فى فتوحاته من جنوبى إيطاليا إلى أقصاها فى الشمال وأوغل بعد ذلك إلى فرنسا وأسبانيا وماوراءهما من البلاد .

وكانت الظروف والأحوال العامة مواتية كل المواتاة لتحقيق هذا الأمر ، فإيطاليا ـ كما قال المؤرخ الإيطالى المعاصر سابلليكوSabellico الذى شاهد الأحداث بنفسه ـ كانت فى حكم المفروغ من أمرها واستيلاء العثمانيين عليها ، وفرنسا كانت منهوكة خائرة تعانى جراح حرب المائة سنة وأوصابها ، وألمانيا كانت تسودها الفوضى والاضطراب ويحكمها الامبراطور « فردريك الثالث » وهو رجل ضعيف الإرداة بليد الطبع ، وقد طالما استصرخت به النصرانية والبابوية لقتال الأتراك فلم يتحرك ولم يتزحزح كأن الأمر لا يعنيه في شيء ، وإنجلترا كانت علي أسوأ حال من الضعف والاضطراب ، فقد استنزفت حرب المائة سنة قواها وأفقدتها أملاكها فى فرنسا ولم تكد تستفيق من أهوال هذه الحرب وويلاتها حتى أضحت طعمة لحرب أهلية ضروس وهى الحرب المعروفة بحرب الوردتين .

وإلى جانب هذا الضعف العسكرى العام الذى كان يسود أوروبا آنذاك كانت شهرة العثمانيين بالسماحة والعدل وحسن المعاملة فى فتوحاتهم قد طبقت آفاق هذه البلاد وأصبح كثير من أهلها يرون فى الجيوش الإسلامية العثمانية جيوش تحرير وإنقاذ من إسار الظلم والاستبداد ، وكان الجيش العثمانى أقوى جيوش العالم فى ذلك العهد وأكملها دربة وحسن تنظيم يتولى قيادته سلطان فى مقتبل الكهولة مسعر حرب ، واسع الدهاء والحيلة قوى الشكيمة صلب الإرادة ، لاتلين له قناة ، يتوقد غيرة على الإسلام والجهاد فى سبيله ، وكان الصراع بين الإسلام والنصرانية فى الأندلس قد شارف النهاية بعد أن

اضمحل شأن العرب فيها وتقلص ملكهم الفسيح العريض وانحصر فى بقعة صغيرة فى أقصى الجنوب وهى غرناطة وقد أضحت مضعضعة واهنة تأكلها نيران الفتن الداخلية ، بينما كان فرديناند وإيزابلا يتربصان ويتحينان الفرصة للقضاء على هذه القلعة الأخيرة للإسلام فى أسبانيا ، فلما نزل الجنود العثمانيون فى جنوب إيطاليا استروح المسلمون فى غرناطة شيئاً من الأمل فى نجدة إخوانهم والخلاص مما هم فيه من الكرب والضيق والخطر المحدق بقدر ما استشعر النصارى فى الأندلس الخطر على أنفسهم ، ومن ثم بادر كثير من المقاتلين الأسبان بالذهاب إلى جنوبى إيطاليا لمعاونة جنود فرديناند ملك نابولى على صد الجيش العثمانى[1] فلو أنه قد مد فى أجل السلطان الفاتح سنوات أخرى وغزا الجيش العثمانى أسبانيا براً أو بحراً أو من الطريقين معاً لسلمت غرناطة حتماً ولتغير مجرى تاريخ المسلمين فى الأندلس وكان أول شئ فى هذا التغير أن ينجوا من فظائع محاكم التفتيش ومأسى التنصير والتشريد .

---

(1) من العجيب أن يزعم السيد عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه « أم القرى » أن السلطان محمد الفاتح قد تواطأ مع فرديناند ملك أسبانيا وزوجته إيزابلا واتفق معهما سراً « على تمكينهما من إزالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية فى الأندلس ورضى بالقتل العام والإكراه على التنصر بالإحراق وضياع خمسة مليوناً (كذا) من المسلمين بإعانتهما بإشغاله أساطيل أفريقيا عن نجدة المسلمين وقد فعل ذلك بمقابلة ماقامت له به روميا من خذلان الإمبراطورية الشرقية عند مهاجمته مقدونيا ثم القسطنطينية » ويكفى لإدحاض هذا القول أن نذكر أن فرديناند لم يتول الملك إلا بعد وفاة أبيه سنة 1479 أى بعد فتح القسطنطينية بستة وعشرين عاماً ولم يستول فرديناند وإيزابلا على غرناطة إلا فى سنة 1492 أى بعد وفاة السلطان الفاتح بأحد عشر عاماً ولو كان قد تم شئ من هذا التواطؤ الذى يزعمه الكواكبى لما خفى أمره ولذكره المؤرخون ، ولكننا لم نجد فيما قرأناه من المصادر الشرقية والغربية أى إشارة إليه ، فاتهام السلطان الفاتح بالتواطؤ مع فرديناند وإيزابلا اتهام باطل لاسند له من التاريخ ولا من المنطق ، وماكنا لنعرض له هنا ونذكره لولا أن الذى قاله رجل معدود من زعماء الإصلاح فى العصر الحديث وممن لهم اطلاع واسع فى التاريخ الإسلامى (انظر ترجمته فى كتاب « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » (للأستاذ أحمد أمين) ، ولعل الذى حدا الكواكبى على اتهام الفاتح بما اتهمه به هو مالقيه فى بلاده (حلب) من العنت والاضطهاد فى عهد السلطان عبد الحميد ، ولكن هل يبيح له ذلك أن يختلق على السلطان محمد الفاتح مثل هذه التهمة الشنعاء وهو الذى نصب نفسه داعياً من دعاة العلم والفضيلة وزعيماً من زعماء التربية والإصلاح ؟!

تلك لمحة عابرة عن الآثار التى كانت قد تكون لو لم يباغت السلطان الفاتح ذلك الموت المفاجئ وهو على أهبة الخروج بجيشه إلى حرب جديدة بينما كان كدك أحمد باشا فى ميناء ڤالونا على رأس خمسة وعشرين ألف جندى يتأهب للإبحار إلى إيطاليا ليشد أزر الجيش العثمانى فيها ويواصل بعد ذلك زحفه الظافر .

ولكن هذه الآمال الضخام قد انطفأت كلها فى لمحة عين ساعة انطفأت حياة السلطان محمد الفاتح ، فلا غرو أن بكاه المسلمون فى جميع أقطار الأرض وحزنوا لوفاته ، وفقد الإسلام بوفاته ركناً من أركانه الشداد وسيفاً من سيوفه الصوارم ، أسبغ اللّه عليه أزكى رحماته ورطب ثراه وأكرم مثوبته كفاء ماأخلص فى الجهاد فى سبيله .



خاتمة

نشأة الفاتح وثقافته الممتازة - نشر المعاهد العلمية وتنظيم مناهج التعليم - رعايته الكريمة للعلم ورجاله - مراسلته العلماء والأدباء فى الأقطار الأخرى وتوافدهم إلى بلاطه - الرسام الإيطالى جنتيلى بللينى يشيد بأيادى الفاتح - الفاتح فى مجالسه العلمية والأدبية - النقل والترجمة من اللغات الأخرى - إزدهار الحركة العلمية والأدبية فى عهده - الفاتح يطلب رسالة فى حقيقة الديانة النصرانية - تشكك بعض المؤرخين الغربيين فى عقيدته الإسلامية وأسبابه - الإسلام والفنون الجميلة - سماحة فذة للفاتح العالم لانجدها بين العلماء والمفكرين - تنظيم درجات العلماء ومراتبهم - حول قانون الفاتح - العلم والعدالة قوام الدولة - قداسة القضاء فى نظر الفاتح - أعماله الإنشائية والبنائيه - الفاتح مؤسس الأسطول العثمانى - التهم الموجهة إلى الفاتح وتفنيدها - الفاتح أمير كامل - أول حاكم إسلامى لقبته أوروبا بالسيد العظيم - أمنية النصارى وأمنية المسلمين.

قد يقع فى بال القارىء للوهلة الأولى مما قرأ من فصول هذا الكتاب أن السلطان محمد الفاتح إنما كان رجل حرب وسياسة أمضى كل عمره فى الغزو والجهاد والفتح ولم يترك أثرا فى أى ميدان أخر من ميادين الحياة ، لذلك فإننا نحاول فى هذه الخاتمة القصيرة أن نعرض فى المامة وجيزة جامعة لجوانب أخرى من شخصية هذا السلطان العظيم لاتتصل بالحرب والسياسة وإنما تتصل بالثقافة والفكر والعلم والفن والإدارة والحكم ، وقد كانت للسلطان الفاتح فيها جولات باهرة لاتقل روعة وعظمة عن جولاته فى ميدانى الحرب والسياسة .

ولد محمد الفاتح فى 26 رجب سنة 833 هـ (20 إبريل 1429م) وقضى مدارج الطفولة الأولى بأدرنة تكلؤه عين والده الشفيق الحازم واهتم بتنشئته وتربيته جسمياً وعقلياً فمرنه على ركوب الخيل ورمى القوس والضرب بالسيف وعند ما شب وترعرع

جعله والده والياً على بعض المقاطعات بأسيا الصغرى يتدرب فيها على شئون الحكم والإدارة حتى إذا ماولى السلطنة وليها على مرانة وخبرة فلايتعثر ولايكبو ، وأخذ السلطان مراد يستصحبه معه بين حين وآخر إلى بعض المعارك ليعتاد مشاهد الحرب والطعان ويتعلم قيادة الجيش ويتمرس بالقتال وأساليبه حتى إذا ماولى السلطنة وخاض غمار المعارك خاضها على دربة وخبرةفلا يجفل لقعقعة السلاح ولا ينخلع قلبه لأهوال القتال وأوار سعيره .

وقد عنى السلطان مراد من جهة أخرى عناية بالغة بتعليم ابنه وتثقيفه ، غير أن محمداً أظهر أول الأمر جموحا وإعراضاً شديداً عن التعلم والدرس ، ولم يسلس قياده لأحد من المعلمين الذين ندبهم أبوه لتعليمه فسأل عن رجل ذى جلالة ومهابة وشدة فدل على المولى أحمد بن اسماعيل الكورانى وكان رجلاً طويل القامة كث اللحية مهيب الطلعة وأعطاه السلطان مراد قضيباً يضرب به ، ودخل على محمد والقضيب فى يده وقال له « أرسلنى والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمرى [1] فضحك ، منه محمد وسخر من كلامه فعاجلة المولى الكورانى بضربة قوية ارتاع لها الفتى الشموس ثم استخذى لها وأدرك أنه أمام معلم جديد يختلف عمن سبقه كل الاختلاف ، وكأنما كانت هذه الضربة الأولى الحازمة التى تلقاها محمد الطلسم الذى فك الأقفال والمغاليق عن نفسه فتفتحت جوانبها وأقبل الفتى على التعلم بنهم وجد ونشاط فما مضى غير قليل من الوقت حتى ختم القرآن ، واستبشر والده بذلك واغتبط وغمر المولى الكورانى بالعطايا والأموال الوفيرة .

وماسمع السلطان مراد بعد ذلك برجل قد برع فى علم من العلوم أو مهر فى فن من الفنون أواشتهر بخصلة من خصال الفضيلة والخير رلا بعث به إلى ابنه محمد لتعليمه وتأديبه [2] وفى مقدمتهم المولى محمد بن فرامز خسرو « وكان إماماً بارعاً مفنناً محققاً

---

(1) الشقائق النعمانية .

(2) وقد كان المولى الكورانى أول معلمى محمد الفاتح عالماً فقيهاً شهد له علماء عصره بالتفوق والإتقان ويقول العلامة السيوطى فى ترجمته « ودأب فى فنون العلم حتى فاق فى المعقولات والأصلين والمنطق وغير ذلك ومهر فى النحو والمعانى والبيان وبرع فى الفقه واشتهر بالفضيلة . . »

نظاراً طويل الباع راسخ القدم »[1] . وممن تتلمذ له محمد الفاتح المولى ابن التمجيد وكان إلى جانب صلاحه وتقواه شاعرا حسن النظم بالعربية والفارسية ، ومنهم المولى خير الدين وقد كان مدرسا ببعض المدارس واشتهر إلى جانب علمه وفضله بالبراعة فى إلقاء دروسه وظرف الطبع وحسن النادرة ، ومنهم المولى سراج الدين الحلبى وقد امتاز بسرعة الكتابة وإجادة الخط .

وإلى جانب هؤلاء الشيوخ والفقهاء أحضر السلطان مراد إلى ابنه محمد معلمين آخرين فى الرياضيات والجغرافية والفلك والتاريخ واللغات المختلفة ، وقد حذق محمد الفاتح من هذه اللغات ـ فضلاً عن لغته التركية ـ العربية والفارسية واللاتينية والإغريقية[2]

ولم ينقطع محمد الفاتح بعد توليه السلطنة عن التعلم والدرس فما توسم فى رجل نبوغاً أو تضلعاً فى علم من العلوم إلا اتخذه معلماً لنفسه ، ومن هؤلاء سنان باشا وقد كان يتوقد ذكاء وألمعية وخطيب زاده وخوجه زاده وهما يعدان إلى وقتنا هذا من أئمة علم الكلام والمبرزين فيه ، ومنهم المولى محيى الدين بن الخطيب وقد اتخذه الفاتح معلماً لنفسه لفصاحته وطلاقة لسانه وجرأة جنانه وقوته على المحاورة والمناظرة ، وأكب محمد الفاتح على قراءة التاريخ لاسيما فيمايتعلق بسير عظماء الرجال فى الشرق والغرب كما اتجه إلى دراسة الفلسفة اليونانية ومعرفة مذاهبها المختلفة ، وقد اهتم بوجه

---

(1) السيوطى نظم العقيان . وكان الفاتح يسميه « أبا حنيفة زمانه » (الشقائق النعمانية وشذرات الذهب)

(2) Thuasne, G.Belllni et Sultan Mohammed II. Cara de Vaux,Les penseurs de I'Islam.

ويضيف جبون إلى هذه اللغات « اللغة الكلدية أو العبرية » . ويرجح فنلى أن تكون هى اللغة السلافية نظراً إلى الروابط القائمة إذ ذاك بين العثمانيين والسلاف ، أما همر فيستبعد أن الفاتح كان يعرف عدة لغات ويعتبر هذه الرواية من الأساطير والخرافات ونسبها إلى جيوفو Giovo وجهل همر أوتجاهل ـ وهو الأقرب إلى الحق ـ أن هذه الرواية قد ذكرها المؤرخ البيزنطى ـ تبريداً للحقد الدفين الذى يتأجج فى صدره ـ ويختلق الأكاذيب على السلطان الفاتح فإن همر لايكتفى بتقبلها عنه بل يزيدها زخرفة وبرقشة ؛ ولكن عندما يذكر هذا المؤرخ البيزنطى للسلطان الفاتح محمدة من المحامد أو مأثرة من المآثر فإن همر يتجاهلها ويفصح عنها ، وهذه طريقة من طرائق هذا المؤرخ النمساوى فى التدليس ونكران الحقائق وإخفاءها .

خاص بفلسفة أرسطو والرواقيين واتخذ له في ذلك أساتذة من العلماء النابهين [1] .

وكان السلطان محمد الفاتح فوق ذلك مغرماً بما نسميه اليوم الفنون الجميلة كالشعر والموسيقى والتصوير والنقش ، واجتمعت للفاتح من كل ذلك ثقافة علمية أدبية فنية ممتازة قلما اجتمعت في أمير من الأمراء حتى في عصرنا الحاضر .

وكان أول ماعني به السلطان الفاتح بعد فتح القسطنطينية أن أنشأ المدارس والمعاهد وعمل على نشرها في جميع أرجاء دولته ، وقد كانت أول مدرسة في الدولة العثمانية هي التي أنشأها السلطان أورخان بمدينة أزنيق ، وسار من بعده من السلاطين على منواله وانشرت المدارس في بروسه وأدرنه وغيرهما من المدن [2] .

---

(1) قريتو وولوس . تاريخ سلطان محمد خان ثاني .
Adnan Adiwar, Osmanli Turklerinde Ilim

(2) من الخطأ الاعتقاد بأن السلاطين العثمانيين الأول لم يكونوا سوى غزاة فاتحين لايحسنون شيئاً غير خوض المعارك والقتال وقهر البلاد وفتحها ولم يكن لهم أي التفات أو عناية بالعلم وشئونه ، والحق أن سلاطين آل عثمان ـ وخاصة المتقدمين منهم ـ قد بذلوا عناية فائقة محمودة بالناحية العلمية ، وقد كان مما أوصى به عثمان ابنه أورخان أن يكرم العلم والعلماء ويعرف أقدارهم ، ولايتسع المقام لذكر ماقام به منهم في هذا السبيل ، وحسبنا هنا أن نورد هذه الكلمات الموجزة لطائفة من مؤرخي الغرب وكتاباتهم .

" Anciennement, I'instruction était Plus générale chez les Othomans, parce que les sultans eux mémes étaient instruits, et qu'ils encourageaient les lettres et les seiences, autant par leur exemple que par la sagesse de leurs lois." (Mouradja d'Ohsson, Tableau général de I'Empire Ottoman .)

" Islamism has been frequently represented as opposed to the diffusion of light, and The Ottoman race in particular as devoted to systematic ignorance,- two assertions equally devoid of foundation." (Sir James porter, Turkey, its history and progress.)

" AII through his regn, in times of peace and war, Orkhan had encouraged art, literature, science and commerce. Roads, bridges, schools and pious foundations of this date, which endure to this day, show that the first Ottomans were not merely the rulers of a barbarous horde such as modern writers love to imagine." (Sir Mark Sykes, The Caliphs' Last Heritage, A short history of the Turkish Empire.)

"Les souverains turcs osmanlis forment une dynastie glorieuse au point de vue intllectuel." (Baron Cara de Vaux, Les Penseurs de l'islam.)

أما السلطان الفاتح فقد بذ جميع سلفه وخلفه فى هذا المضمار ، يذهم بما كان له من الثقافة العالية الممتازة وبما بذله من جهود كبيرة فى نشر العلم وإنشاء معاهدة وماأدخله من الإصلاح والتنظيم فى مناهج التعليم وماأسبغه من رعاية كريمة غامرة على أهل العلم والأدب والفن .

أنشأ السلطان الفاتح المدارس وبثها فى المدن كبيرها وصغيرها بل أنفذها إلى القرى والدساكر النائية وأوقف عليها الأوقاف العظيمة ، ونظم الفاتح هذه المدارس ورتبها على درجات ومراحل ووضع لها المناهج وحدد العلوم والمواد التى تدرس فى كل مرحلة واتخذ لها الامتحانات فلا ينتقل طالب من مرحلة إلى أخرى إلا بعد أداء امتحان دقيق عسير ، وكان السلطان الفاتح يحضر هذه الامتحانات ويشهدها بنفسه ، كما كان يزور هذه المدارس بين الفينة والفينة ويستمع إلى الدروس التى يلقيها الأساتذة ثم يوصى الطلبة بالجد والاجتهاد ويجزل العطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة ، والتعليم فى جميع هذه المدارس بالمجان ، والمواد التى تدرس فيها هى : النحو ، الصرف ، المنطق ، علم الكلام ، علم الأدب ، الحساب ، علوم البلاغة : المعانى والبيان والبديع ، والهندسة ، الهيئة ، الفقه ، الحديث ، التفسير .

وأشهر مدارس الفاتح هى المدارس الثمان التى أنشأها على جانبى مسجده الذى بناه بالقسطنطينية ، على كل جانب منه أربع يتوسطهما صحن فسيح ، لذلك سميت هذه المدارس أيضا بمدارس الصحن [1] وفيها يقضى الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته ، وألحقت بهذه المدارس مساكن للطلبة يتناولون فيها طعامهم كما يتناولون منحة مالية شهرية ، وكانت الدراسة فى هذه المدارس تجرى جميع أيام السنة . وأنشئت بجانبها مكتبة خاصة ، وكان يشترط فى الرجل الذى يتولى أمانة هذه المكتبة أ يكون من أهل الصلاح والعلم عارفاً بأسماء الكتب والمؤلفين ويعير الطلبة والمدرسين مايطلبونه من الكتب بطريقة منظمة دقيقة ، ويسجل أسماء الكتب المستعارة فى دفتر خاص ، وهذا الأمين مسئول عن الكتب التى فى عهدته بل مسؤول عن سلامة أوراقها ، وتفتش هذه المكتبة كل ثلاثة أشهر على الأقل .

---

(1) وقيل فى تعليل هذه التسمية أيضاً إن هذه المدارس أنشئت فى وسط المدينة فبدت هذه المدارس كالصحن الواسع الكبير الذى يشع بالعلم والنور .

وأدخل السلطان الفاتح فى مناهج التعليم نظام التخصص فجعل للعلوم النقلية والنظرية قسماً خاصاً وللعلوم العلمية التطبيقية قسماً خاصاً أيضاً ، وحذا العلماء والوزراء حذو سلطانهم وتنافسوا فى إنشاء المعاهد والمدارس مما أدى إلى أنتشار العلم وازدهاره ، وقد أضفى السلطان الفاتح على الأساتذة والمدرسين رعاية كريمة سابغة ووسع لهم فى المعيشة ليتفرغوا للعلم والتعليم .

وليس أعرف بمكانة العلماء وأقدارهم ممن مارس العلم وجهد فى سبيله ، وقد كان السلطان محمد الفاتح عالماً بحق وبأوسع ماتحمل هذه الكلمة من معنى فقرب إليه العلماء وأعلى شأنهم ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبسط لهم يداً ندية سخية لاتضن بالبذل والعطاء ، وكان السلطان الفاتح يجعل العالم لعلمه وفضله أياً كان جنسه ، أيا كان دينه ، أيا كان موطنه ، بل ولو كان من عدوه !

فقد حدث بعد فتح القرمان أن أمر بنقل العمال والصناع إلى القسطنطينية غير أن وزيره روم محمد باشا اشتد فى الأمر وتعسف الناس وأصابهم منه عنت ورهق وكان من بينهم نفر من أهل العلم والفضل فى مقدمتهم أحمد چلبى بن السلطان أمير على من سلالة العالم الصوفى المشهور جلال الدين الرومى فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه وأعاده إلى وطنه مع رفقائه تحف بهم مظاهر التجلة والتكريم مثقلين بالهدايا (1)

وحدث بعد هزيمة أوزون حسن أن وقع فى يد العثمانيين عدد كبير من الأسرى فأمر السلطان الفاتح بقتلهم «إلا من كان من العلماء وأصحاب المعارف مثل القاضى محمد الشريحى وكان من فضلاء الزمان فأكرمه السلطان والسيد محمد المنشى » موقع ديوان أوزون حسن وكثير غيرهما من العلماء والفضلاء ؛ فهؤلاء قد أكرمهم السلطان الفاتح وأحسن معاملتهم وأغدق عليهم بالعطايا السخية ثم أسند إليهم المناصب العالية فى الدولة .

وبعد فتح طرابزون وقع فى أسر الجيش العثمانى فيلسوف شاعر من الروم يدعى جورج أمويرتزس كان قد وصل إلى الفاتح ذكره وشهرته العلمية فأحسن لقياه واستصحبه معه إلى القسطنطينية وأصبح من خاصته ، ورفع الفاتح منزلته ومنحه أعطيات واسعة

(1) صولاق زاده تاريخى . سعد الدين تاج التواريخ ، تاريخ منجم باشى .

وصار يذاكره فى المسائل الفلسفية وغيرها [1] ، وقد شرح الله صدر هذا الفيلسوف فيما بعد ودخل فى دين الإسلام .

وكان السلطان الفاتح ـ وهو الذى انقادت له الدنيا وخضعت له رقاب الملوك والأباطرة ـ يتطامن صاغراً متخشعاً أمام العلماء وأهل الورع والتقى ، وقد تستبد به فى بعض الأحيان نزوة جامحة أو غضبة طارئة ولكنه مايلبث حتى يعود إلى تطامنه وتوقره .

حدث عقب فتح القسطنطينية أن دخل السلطان الفاتح على الشيخ الزاهد المتصوف آق شمس الدين ـ الذى كان قد بشر بفتح القسطنطينية ـ فى خيمته » وهو مضطجع فلم يقم له فقبل السلطان محمد خان يده وقال : جئتك لحاجة عندك . قال : ماهى ؟ قال : أريد أن أدخل الخلوة عندك أياماً ، قال : الشيخ لا ، فأبرم عليه مراراً وهو يقول لا ، فغضب السلطان محمد خان وقال : إن واحداً من الأتراك يجيء إليك وتدخله الخلوة بكلمة واحدة قال الشيخ : إنك إذا دخلت الخلوة تجد هناك لذة تسقط السلطنة من عينك وتختل أمورها فيمقت الله إيانا والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر مابدا له من النصائح . ثم أرسل إليه ألفى دينار ولم يقبل ، فقام السلطان محمد خان وودعه والشيخ مضطجع كما هو على جنبه ، ولما خرج السلطان محمد خان قال لابن ولى الدين : ماقام الشيخ لى وأظهر التأثر من ذلك ، قال ابن ولى الدين : إن الشيخ شاهد فيكم الغرور بسبب هذا الفتح الذى لم يتيسر للسلاطين العظام وأن الشيخ مرب فأراد بذلك أن يدفع عنكم الغرور .

ثم بعد غد دعا السلطان الشيخ فى الثلث الأخير من الليل وخفنا عليه من ذلك فذهب إليه قال : فلما ذهبت إليه تبادر إلى الأمراء يقبلون يدى قال وجاء السلطان محمد خان والليل مظلم وماأدركته بالبصر بسبب الظلمة لكن عرفه روحى فعانقته وضممته إلى ضماً شديداً حتى ارتعد وكاد أن يسقط فما خليته إلى أن يزول عنه الحال ، وقال السلطان محمد خان : كان فى قلبى شئ فى حق الشيخ فلما ضمنى إليه انقلب ذلك حباً ، ثم إنه دخل معه الخيمة فصاحب معه حتى طلع الفجر وأذن للصلاة والسلطان

---

(1) قريتو وولوس . تاريخ سلطان محمد خان ثانى .
Mirmiroglu. Fatih Sultan Mehmet II devrine ait vesikalar

خلفه ثم قرأ الشيخ الأوراد والسلطان جالس أمامه على ركبتيه يستمع الأوراد»[1] .

وحدث أيضاً أن السلطان الفاتح بعث مع أحد خدامه بمرسوم إلى المولى الكوراني - وكان إذ ذاك يتولى قضاء العسكر - فوجد فيه أمراً يخالف الشرع فمزقه وضرب الخادم ، وشق ذلك على السلطان الفاتح وتغلبت عليه سورة الغضب فعزل الكوراني من منصبه ووقع بينهما نفور وجفوة ، ورحل المولى الكوراني إلى مصر حيث احتفى به سلطانها قايت باى وأكرمه غاية الإكرام وأقام عنده برهة من الزمن ، ومالبث الفاتح أن ندم على ماكان منه فكتب إلى السلطان قايت باى يلتمس منه أن يرسل إليه المولى الكوراني « فحكى السلطان قايت باى كتاب السلطان محمد خان للمولى المذكور ثم قال : لاتذهب إليه فإنى أكرمك فوق مايكرمك هو ، قال المولى : نعم هو كذلك إلا أن بينى وبينه محبة عظيمة كما بين الوالد والولد ، وهذا الذى جرى بيننا شئ آخر وهو يعرف ذلك منى ويعرف إنى أميل إليه بالطبع فإذا لم أذهب إليه يفهم أن المنع من جانبك فيقع بينكما عداوة .

فاستحسن السلطان قايت باى هذا الكلام وأعطاه مالاً جزيلاً وهيأ له ما يحتاج إليه من حوائج السفر وبعث معه هدايا عظيمة إلي السلطان محمد خان » ، وأسند إليه الفاتح القضاء ثم الإفتاء وأجزل له العطاء وأكرمه إكراماً لامزيد عليه .

وكان العلماء يصحبون الفاتح فى غزواته وحروبه فكانوا فى كل ميدان من ميادين القتال فى طليعة الجيش إلى جانب السلطان يثيرون الحماس فى نفوس الجند ويتلون عليهم آيات الجهاد والنصر ، ومن لطيف مايروى فى هذا الصدد « إن السلطان محمد خان خرج من قسطنطينية لأجل الجهاد والعلماء معه والطبول تضرب خلفه ، قال بعض العلماء : ما الحكمة فى أمر المؤمنين بالإيمان في قوله - تعالي - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقال السلطان محمد خان للمولي حسين التبريزى : أيها العجمى بين الحكمة فيه قال : تجيب عنها هذه الطبول ، قال ماهو ؟ قال : الطبول تقول دم دم ، والمراد بقوله - تعالى - ﴿ آمِنُوا ﴾ دوموا على الإيمان ، فأعجب السلطان هذا الكلام واستحسنه »[2] .

---

(1) الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية .

(2) الشقائق النعمانية .

وقد دأب محمد الفاتح منذ كان أميراً على مغنيسيا على مراسلة العلماء والمثقفين من الأمراء فى فارس وغيرها ، وبقى الفاتح على هذه السنة الحسنة بعد توليه السلطنة وضاعف ماكان يسبغه على العلماء والأدباء من تكريم ورعاية ومنح فكان يرسل إلى خوجه جهان أول كُتَّاب الهند فى عصره ألف دوقة كل عام وكذلك إلى المولى عبد الرحمن الجامى من أعاظم علماء وشعراء فارس فى ذلك العهد .

وممن كان يكاتبهم السلطان الفاتح من علماء مصر الشيخ محمد بن سليمان المحيوى المعروف بالكافياجى الرومى الأصل وهو أستاذ السيوطى العالم المصرى المعروف ، وقد أثنى عليه العلماء والمؤرخون المصريون ثناءاً عظيماً لعلمه وفضله وخلقه وورعه [1] وكان الفاتح يكاتبه « ويهدى إليه الهدايا السنية فى كل قليل » .

وماسمع الفاتح قط عن عالم فى مملكته أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته ومنحه مايستعين به على الحياة والعيشة الرضية ، بل إنه جعل للعالم الذى يعتزل عمله لسبب من الأسباب راتباً خاصاً يعرف بـ « راتب التقاعد » يستعين به على تكاليف الحياة صوناً له عن ذل السؤال وصوناً للعلم أن يمتهن ؛ ولايقل هذا الراتب فى كثير من الأحيان عن الراتب الذى كان يتناوله أثناء عمله .

وكان من أثر ماأفاضه السلطان محمد الفاتح على العلم وأهله من رعاية سابغة وتقدير كريم وبذل سخى أن توافد إلى رحابه العلماء والأدباء والشعراء والفنانون من كل حدب وصوب ، واجتمع فى بلاطه من جميع هؤلاء عدد عديد من الترك والفرس والعرب ، واليهود والروم واللاتين .

وبعد عقد الصلح الأخير مع البندقية طلب السلطان الفاتح إلى رئيس جمهوريتها أن يبعث إليه برسام ماهر ومثال وسباك للبرونز [2] ، وقد أوفد إليه رئيس البندقية المثال بارتولوميو Bartolomeo والرسام جنتيلى بلينى Gentile Bellini أحد عباقرة فن

---

(1) السخاوى ، الضوء اللامع . ابن إياس ، تاريخ مصر . السيوطى ، بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب .

(2) Thuasne, Gentile Bellini et Sultan Mohammed II

أما الأستاذ توماس أوكى فيقول إن السلطان الفاتح طلب رساماً ومهندساً معمارياً .

Thomas Okey, The Story of Venise

الرسم فى عصره ، وإذا كنا لم يصلنا شئ عما قام به بارتولوميو من أعمال فى القسطنطينية فإنا نعلم الشئ الكثير عن أعمال بلينى فيها ، وبعض آثار هذا الرسام لاتزال باقية إلى اليوم ، لقد احتفى السلطان الفاتح بالرسام البندقى أجمل حفاوة وأنزله أكرم منزل وظل بلينى طوال مدة إقامته بالقسطنطينية موضع الرعاية والتجلة من السلطان ، وقد طلب إليه فيما طلب إليه أن يرسم له صورته فرسمها بإتقان بالغ يستثير الإعجاب ، وهذه الصورة موجودة الآن فى المتحف الوطنى للصور بلندن ، وكان السلطان الفاتح يختبر الصور التى يرسمها بلينى ويمتحنها بدقة ومهارة ولاغرو فقد كان الفاتح نفسه رساماً بارعاً ذا يد صناع فى هذا الفن .

مكث الرسام البندقى فى القسطنطينية نحو عام كان خلاله موضع التكريم المتواصل والرعاية الدائمة ، ولما أزمع العودة إلى بلاده قدم إليه السلطان الفاتح كثيراً من الهدايا الثمنية وطوق جيده بعقد نفيس من الذهب وأسبغ عليه ألواناً من التشريف والتكريم وسلم إليه رسالة توصية إلى حكومته ، وقد اهتمت حكومة البندقية بهذه الرسالة فعينت للرسام راتباً سنوياً سخياً طول حياته ، وبقى جنتيلى بلينى يحمل فى نفسه أجمل الذكريات وأزكاها عن الأيام التى أمضاها فى القسطنطينية ومالقى فيها من السلطان الفاتح من كرم الرعاية وفيض الأريحية ، وظل يذكر ذلك ويتحدث به إلى الناس إلى آخر عمره [(1)].

وكان السلطان الفاتح يقضى الأوقات التى يستجم فيها بالقسطنطينية من الحروب فى عقد المجالس العلمية والأدبية ، فيباحث العلماء فى المسائل العلمية ويعقد بينهم المناظرات المختلفة ، وقد يشتد وطيس بعضها وتمتد عدة أيام كتلك المناظرة التى جرت بين المولى مصلح الدين خوجة زاده والمولى محمد المشهور بزيرك وجرت عادة الفاتح فى شهر رمضان أن يستحضر إلى قصره بعد صلاة الظهر جماعة من العلماء المتضلعين فى تفسير القرآن فيقوم فى كل مرة واحد منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها ، ويناقشه فى ذلك سائر العلماء ويجادلونه وكان الفاتح يشترك أيضاً فى هذه المناقشات ،

(1) Guillet, Histoire du régne de Mahomet II. Daru, Histoire de la répubilque de Venise. Thuasne, Gentile Bellini et Sultan Mohammed II. Okey, The S tory of Venise .

فكان هذا الدرس الديني بمثابة امتحان لهؤلاء العلماء واختبار لمقدرتهم وكفايتهم فيبعثهم ذلك على التنافس في الإجادة والإتقان ، وبعد الفراغ من الدرس يناول السلطان كلاً منهم مكافأة مالية جزيلة .

والحق أن العالم في حضرة الفاتح كان عرضة دائماً للسؤال والامتحان ، وكان يعجبه من العالم أن يكون حاضر العلم سريع الإجابة ، وقدحدث يوماً أن سأل السلطان الفاتح ـ وهو في طريق عودته إلى القسطنطينية ـ المولى محيي الدين المعروف بابن المغنيسي الذي اشتهر بالجد في التحصيل والإكباب على الدرس ـ عن بيت عربي فقال المولى « أتفكر فيه بالمنزل ثم أجيب ؟ فقال له السلطان محمد خان : يحتاج إلى فكر في بيت واحد ؟ فسكت المولى ابن المغنيسي وقال السلطان لبعض خدامه : احضر مولانا سراج الدين وهو كان إذ ذاك موقعاً للديوان العالي فحضر فسأله عن ذلك البيت فقال هو للشاعر الفلاني من قصيدته الفلانية من البحر الفلاني ثم قرأ سباق البيت وسياقه وحقق معنى البيت فقال السلطان لابن المغنيسي : ينبغي أن يكون العالم هكذا في العلم والمعرفة والتتبع »[1] .

وحتى في ميادين الحرب كان السلطان الفاتح ينتهز الفترات التي يتوقف فيها رحى القتال فيعمد إلى مناظرة من يكون معه من العلماء وبلغ من حبه لأهل العلم ومجالسهم أنه نبذ ملابس السلطنة الفاخرة وآثر عليها لباس العلماءوتزيابزيهم .

ولم يكن السلطان الفاتح أقل ولعاً وكلفاً بندوة الأدباءوالشعراء ومجالسهم ولاغرو فقد كان هو نفسه شاعراً وكان يكتب أشعاره باسم « عوني» وهو يعد أول شاعر إمبراطوري اتخذ لنفسه إسماً مستعاراً [2] ، وللفاتح ديوان باللغة التركية معظمه في الغزل [3] .

وأسبغ الفاتح على أهل الأدب والشعر ماأسبغه على أهل العلم من كريم الرعاية وسمو التقدير وكان في بلاطه ثلاثون شاعراً يتناول كل منهم راتباً شهرياً قدره ألف

---

(1) الشقائق النعمانية .

(2) Gibb, A History of Ottoman Poetry

(3) طبع هذا الديوان حديثاً في تركيا بالحروف اللاتينية بعنوان « ديوان الفاتح » .
Fatih Divani (Istanbul 1944)

درهم ، وبرزت فى عهده عدة شاعرات منهن الشاعرة زينب وقد ألفت ديواناً من الشعر باللغتين التركية والفارسية وأهدته إلى الفاتح . وكان هذا السلطان يطرب لسماع الشعر فى أى لغة من اللغات التى كان يحذقها ويتمثل به فى بعض المناسبات كما تمثل ببيت فارسى عند دخوله قصر الإمبراطور قسطنطين ، وحدث بعد فتح القسطنطينية أن رفع إليه الشاعر الإيطالى فيليلف Philelphe رسالة وقصيدة يلتمس منه فيهما إطلاق نسوة من ذوات قرباه وقعن فى أسر العثمانيين فأمر السلطان الفاتح من فوره بإطلاق سراحهن بغير فدية [1] .

وكان طبيعياً بعد ذلك كله أن يطنب الشعراء والأدباء فى مدح السلطان الفاتح لما أسداه إلى العلم والأدب من كريم الرعاية وجميل التقدير والتشجيع وقد مدحه كل شاعر باللغة التى يحسنها .

وفى المجالس العلمية والأدبية التى يحضرها الفاتح كان يحرص أشد الحرص على أن يسودها جو الوقار العلمى وآداب المناظرة والحديث ، فكان يطلب إلى كل مناظر أن يكون أمينا فى قوله أمينا فى إيراد كلام مناظرة فلا يدلس ولايغالط ، وكان يكره من رجل العلم النفاق والغرور والادعاء ويبتغى منه أن يكون قدوة حسنة للناس فى القول والعمل ، ولا يتغاضى الفاتح عن عالم صدر منه مايجافى الدين أوالمروءة فإنه يبعده من حضرته ولوكان من المقربين إليه .

وينكر على الشعراء التبذل والمجون والدعارة ، ويعاقب الشاعر الذى يخرج عن آداب اللياقة بالسجن أو بطرده من بلاطه ولا غرو فقد نشأ الفاتح منذ صغره على خير ماينشأ عليه الأمير من نبل الخلق وسمو التربية ، ولا نعدوا الحق إذا قلنا أن محمد الفاتح كان خير أمراء زمانه تربية وأدباً [2] .

وعمد السلطان الفاتح إلى إذكاء روح العمل والانتاج وتنشيط الحركة العلمية

---

(1) Thuasne, G. Bellini

وقد كتب هذا الشاعر الإيطالى فيما بعد أرجوزة شعرية فى حياة السلطان الفاتح وهي لاتزال مخطوطة وموجودة الآن بمكتبة جنوا .

(2) Voltaire, Essai sur les Moers et l' esprit des nations, Enault, Constantinople et la Turquie..

بجميع وسائل التشجيع الأدبية والمادية ، وكثيراً ماكان يطلب إلى نفر من العلماء الكتابة فى موضوع واحد ليدفعهم التنافس والتسابق إلى الإجادة والإتقان ثم يمنح المتسابقين مكافآت جزيلة ويخص المتفوقين بالخلع السنية فازدهرت النهضة الفكرية فى عهده وخصب الإنتاج وكثر التأليف [1].

ولم يفت الفاتح الثاقب البصر أن يستعين بالنقل والترجمة فى بعث النهضة الفكرية ونشر العلم والعرفان بين قومه ، فأمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية ، من ذلك كتاب « مشاهير الرجال » لبلوتارك وقد علق الأستاذ بيورى على ذلك بقوله : فإذا كان السلطان الفاتح نفسه يعرف اللغة الرومية فلا شك أنه قد أمر بترجمته لتعميم نشره وفائدته بين رعاياه [2] ، ونقل إلى التركية كتاب التصريف فى الطب لأبى القاسم الزهراوى الطبيب الأندلسى مع زيادات فى صور الآلات الجراحية وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية .

وقد عثر السلطان الفاتح بعد فتح القسطنطينية بكتاب بطليموس فى الجغرافية وخريطة له ،وقام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومى جورج أمير وتزوس ثم طلب إليه الفاتح وإلى ابنه (ابن العالم الرومى)الذى كان يجيد اللغتين الرومية والعربية بترجمة الكتاب إلى العربية وإعادة رسم الخريطة مع التحقيق فى أسماء البلدان وكتابتها بوضوح باللغتين العربية والرومية وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جمة ، ويقول الأستاذ عدنان أديوار أن هذه الترجمة العربية موجودة الآن بمكتبة أيا صوفيا فى مجلدين (تحت رقم 2610 و 2596) [3] أما الخريطة فلاتزال مفقودة ، ويرجو الأستاذ المستشرق ديزمان Deisman أن يعثر عليها يوماً ما .

ويمكننا أن نستنتج من أمر الفاتح بترجمة كتاب بطليموس إلى العربية شدة اهتمامه وعنايته بهذه اللغة ، ولاعجب ؛ فإنها لغة القرآن الذى حفظه الفاتح منذ الصغر

---

(1) يجد القارئ فى كتاب « الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية » ثبتاً حافلاً بتراجم العلماء الذين زانوا عهد الفاتح وما أنتجه كل منهم من المؤلفات ويتعلق أكثرها بعلوم الكلام والشرع واللغة.

(2) الأستاذ Bury فى تعليقاته على كتاب جيبون Gibbon .

(3) Adnan - Adivar, Osmanli Turklerinde Ilim

فضلاً عن أنها كانت كأختها الفارسية من اللغات العلمية المنتشرةفى ذلك العهد ، وكان المولى على القوشجى وهو من أكبر علماء عصره فى الرياضيات والفلك كلما ألف كتاباً بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح [1] .

وليس أدل على اهتمام الفاتح باللغة العربية من أنه طلب إلى « المدرسين بالمدارس الثمان أن يجمعوا بين الكتب السنة في علم اللغة كالصحاح والتكملة والقاموس وأمثلها ودعم الفاتح حركة التأليف والترجمة لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة ، وأشأ له فى قصره خزانة خاصة احتوت غرائب الكتب والعلوم وعين المولى لطفى أميناً عليها ، وكان بها إثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت عام 1465 ، وقد وصف الأستاذ ديزمان هذه المكتبة بأنها بمثابة نقطة تحول فى العالم بين الشرق والغرب [2] .

على أن أهم مايسترعى النظر والالتفات فى السلطان الفاتح ويستثير فينا عظيم الإعجاب والتقدير هو مااتصف به فى الناحيتين الدينية والعلمية على السواء من رحابة صدر وسعة أفق وسماحة نفس وإدراك صحيح لمعنى حرية الضمير وحرية الرأى والقول ، فبرغم مابلغه من سعة الملك وقوة السلطان ونفاذ الكلمة لم يشأ أن يفرض دينه على أحد ولم يشأ أن يفرض رأيه على أحد ، وقد رأينا من قبل ماأجاب به الفاتح عندماسأله أمير صربية برنكوفيتش وسأله هوينادر المجرى عما يصنعه كل منهما بالكنائس الأرثوذكسية إذا ماكتب له النصر .

ويزداد تقديرنا لهذه المعانى الأدبية الرفيعة فى نفس الفاتح إذا نظرنا إلى العصر الذى عاش فيه ، عصر التعصب الدينى والفكرى لاسيما فى الغرب الأوربى حيث تلطخت

Ibid(1)

وعلى القوشجى هذا كان قبل التحاقه ببلاط الفاتح فى حاشية الغ بك الفلكى المشهور ملك ماوراء النهر ، ولما توفى هذا الملك قصد إلى أوزون حسن الذى أكرمه ثم أرسله فى مهم خاص إلى السلطان الفاتح فأكرمه إكراماً بالغاً وسأله « أن يسكن فى ظل حمايته » وأجابه القوشجى إلى ذلك بعد إتمام الرسالة فبعث إليه الفاتح لنفقات السفر ألف درهم لكلى مرحلة من مراحل الطريق وخدماً يخدمونه أثناءها ليخففوا عنه وعثاء السفر ومشاقه واحتفى به فى القسطنطينية احتفاءاً عظيما .

(2) وجدير بالذكر هنا أن السلطان الفاتح كان كثيرا مايستعيض عن مال الجزية بالكتب والمخطوطات فمن ذلك أنه طلب مرة إلى جمهورية زاجورة أن تدفع له الجزية ببعض المخطوطات الإيطالية .

أقطاره بالمذابح والمجازر البشرية الفاجعة ضد المخالفين فى العقيدة والرأى ، ومذبحة سان بارتلمى Saint - Barthélemy التى حدثت فى فرنسا بعد نحو قرن من وفاة السلطان الفاتح وفتك فيها الكاثوليك ـ بموافقة ملك فرنسا شارل التاسع ـ بمواطنيهم البروتستانت غيلة وغدراً وذبحوهم دبح الخراف حادثة معروفة مشهورة .

كان السلطان الفاتح بطبعه بحاثاً طلاباً للعلم والمعرفة نزاعا إلى الواقعية [1]، شديد الكلف بالعلوم التطبيقية والعلوم الدينية بخاصة ، وفى أثناء وجوده بالقسطنطينية كثيراً ماكان يزور البطريك جناديوس ـ وكان رجلاً واسع العلم قوى العارضة كثير التأليف ـ ويحادثه فى المسائل المتصلة بالديانة النصرانية ويستحثه على أن يتكلم ويعبر عن أرائه بحرية وصراحة ولم يكتف السلطان الفاتح بهذه المحادثات أو المحاضرات التى كان يلقيها عليه بطريرك القسطنطينية فطلب إليه أن يكتب رسالة خاصة يشرح له فيها النصرانية بأسانيدها وبراهينها ، وقد أجابه البطريرك إلى طلبه وكتب له هذه الرسالة [2].

وحدث أن وفد على السلطان محمد الفاتح جماعة من الطائفة الحروفية وهى فرع من االباطنية وتدعو إلى نوع من الإباحية ولكنه أبى أن يحكم على هؤلاء الناس بالضلال والكفر والزندقة قبل أن يعرف مذهبهم على حقيقته ودفعه حب الإطلاع إلى معرفته فأنزلهم فى قصره وأخذ يحادث رئيسهم فى هذا الأمر ، ولكن محمود باشا خشى أن يتأثر السلطان الفاتح بهم فشكا أمرهم إلى المفتى فخر الدين العجمى ، وتظاهر محمود باشا لرئيس الطائفة الحروفية إنه قد مال إلي مذهبه ودعاه إلي بيته ، وهناك أخذ رئيس الطائفة يشرح مذهبه والمفتى مختبئ وراء ستار يسمع كلامه فلما وصل الحروفى إلى القول بالحلول لم يملك المفتى نفسه فوثب من مخبئه وجرى وراء الحروفى الذى حاول الفرار حتى اعتقله وساقه إلى الجامع ، واجتمع الناس هناك على أصوات المنادين والمؤذنين ، وصعد المفتى المنبر وخطب الناس وبين لهم الطريقة الحروفية وبطلانها وخروجها على الشريعة وحكم بكفر أتباعها وزندقتهم ووجوب إحراقهم ، وأسرع

---

(1) وقد كان من الأسباب التى من أجلها اختبر بلينى دون غيره لإرساله إلى القسطنطينية أنه كان رسأماواقعياً Realiste

(2) انظر هذه الرسالة بنصها الرومى فى كتاب الأستاذ Mirmiroglu وقد أرفق بها المؤلف ترجميين تركيتين إحداهما لأحمد بن محمود شلبى والأخرى للمؤلف .

المفتى فأوقد ناراً حامية وأحرق بنفسه رئيس الحروفية . ثم أحرق بعده بقية أصحابه [1] .

وقد كانت هذه السماحة البالغة التى اشتهر بها السلطان الفاتح ورحابة فكره وحسن تقديره لحق الغير فى أن يتكلم ويعبر عن رأيه بحرية ، كل ذلك كان مما شجع البابا بى الثانى وحمله على أن يبعث إليه بتلك الرسالة المشهورة التى يدعوه فيها إلى اعتناق النصرانية ووعده بالملك العريض الباهر فى الأرض والمجد الذى لايضارع .

وقد عرض فريق من المؤرخين الغربيين لعقيدة السلطان الفاتح ودينه وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى .

فقال المؤرخ الإيطالى سباندوجينو Spandugimo إن السلطان الفاتح قد استماله بطريرك القسطنطينية إلى النصرانية وأنه فى أواخر أيامه كان يمارس بعض طقوسها .

أما الأستاذ شلانبرجيه عضو المعهد العام بفرنسا فيذهب إلى عكس هذا إذ يصف الفاتح بأنه متعصب للإسلام Fanatique وقد دفعه تعصبه الشديد إلى إبادة أعداء دينه بغير شفقة ولا رحمة وبدون تمييز بين الجنس والأعمار .

ويذهب المؤرخ الرومى خالكونديل إلى أن الفاتح لادين له .

أما المؤرخ الفرنسى جيبه فيقول إن الفاتح لم يقتنع بصحة دين من الأديان ، ولكنه كان تارة يتظاهر بالإخلاص للقرآن وتارة بالإخلاص للإنجيل ليخدع النصارى والمسلمين على السواء حسبما توحى إليه السياسة والمنفعة ، وشبيه بهذا قول لامارتين بأن الفاتح لم يكن مسلماً إلا ظاهرياً فقط مجاراة لشعبه .

ويقول الأستاذ تيازن إن الفاتح كان يساوره شك فلسفى ، ولم يكن يعنيه أمر الدين فى شئ . غير أنه كان مضطراً أن يظهر للناس احترامه للدين الإسلامى فأنشأ المساجد وقرب إليه العلماء والشيوخ وكان يرسل كل عام صدقات كثيرة إلى المدينة المنورة ، وقد حرم الإسلام التصوير ومع ذلك اتخذ الفاتح فى قصره صوراً وتماثيل .

وأخيراً يقول الأستاذ دستريل Destrilhes إن الفاتح كان نصف نصرانى ونصف مسلم demi - chrétien et demi - musulman

---

(1) الشقائق النعمانية .

هذه الآراء المختلفة المتناقضة مـردها الى ضيق التفكير وسوء الفهم أو خبث الغرض ، والحق الذى لامرية فيه هو أن السلطان الفاتح كان مسلماً صادق الإسلام مؤمناً قوى الإيمان وقد كان أول مارضع من لبان العلم والمعرفة فى صغره هو القرآن الكريم ونجد جميع أقواله وخطبه تفيض حماساً وحمية للإسلام ، وقد ذكرنا من قبل طرفاً من تدينه وتقواه وسيرته مع الشيوخ وعلماء الدين ، وكان الفاتح أثناء وجوده بالقسطنطينية لاتفوته صلاة الجماعة بالمسجد الجامع ويكثر زيارة قبر الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى الذى اكتشف عقب فتح القسطنطينية .

ويظهر أن الذى أثار الإشكال على هؤلاء الذين تشككوا فى عقيدة الفاتح هو أن عقولهم لم تستسغ كيف يكون السلطان مسلماً ثم يعامل النصارى بسماحة كريمة بالغة لايجدها النصارى أنفسهم بعضهم من بعض ؟ وكيف يكون السلطان مسلماً ثم يطلب رسالة فى حقيقة الديانة النصرانية ؟ وكيف يكون السلطان مسلماً ثم يعشق الفنون الجميلة كالموسيقى والنقش والتصوير ؟ فقد وقر فى أذهان أولئك المؤرخين أن هذه الأمور تجافى تعاليم الإسلام وتناقضها ، وإنهم فى هذا الاعتقاد لعلى خطأ كبير .

أما التسامح نحو أهل الأديان الأخرى فشيء قد أمر به الإسلام نفسه ، وعلى هذا المبدأ سار المسلمون فى فتوحاتهم منذ فجر تاريخهم ، أما نشدان المعرفة والإطلاع على حقيقة النصرانية أو غيرها فأمر لاحرج فيه بل إن الإسلام يأمر بتحري الحقيقة في كل شيء ، أما الميل إلي الفنون الجميلة فليس فى الدينماينهى عنه ، وفى الحديث :

«إن الله جميل يحب الجمال » [1] .

وقد انتشرت هذه الفنون على اختلاف أنواعها فى البلاد الاسلامية وازدهرت وبلغت أوجها فى القرنين السابع والثامن الهجرى (الثالث عشر والرابع عشر الميلادى)

أما ماذكره الأستاذ تيازن من تحريم الإسلام للتصوير ـ أى تصوير الكائنات الحية ذوات الروح ـ وعمل التماثيل فلم يرد فى القرآن الكريم نص صريح على ذلك ، ولكن وردت أحاديث عن الرسول ـ ﷺ ـ تفيد هذا التحريم كقوله :

---

(1) رواه أحمد عن أبى ريحانة ومسلم والترمذى عن ابن مسعود . كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للمفسر المحدث اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحى .

« إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

ويظهر أن الباعث على التحريم هو أن العرب كانوا حديثى عهد بالوثنية وعبادة الأصنام فربما أثرت التصاوير والتماثيل فيهم لاسيما السذج وبسطاء العقول منهم ورجعت بهم إلى العهد السابق ، ولكن لم يكن ثمة ضير من اتخاذ التماثيل والتصاوير عند من يؤمن فيهم جانب الزيغ والارتداد إلى الوثنية ، فقد روى أن السيدة عائشة اتخذت فى سهوتها [1] تماثيل تمثل البنات الصغار وبعض الحيوانات كالحصان ، وقد رأها النبى - ﷺ - فلم ينكر عليها شيئاً فإن شخصاً فى مقام السيدة عائشة وفى منزل الرسول بنجوة تامة من التأثر بمثل هذه الأشياء ومن خطر الارتداد إلى الوثنية . ومهما قيل فى صغر سن السيدة عائشة فقد كانت إذ ذاك زوجة الرسول - ﷺ - تتلقى عنه أحكام الدين وتعاليمه ويتلقاها عنها بدورها الصحابة من الرجال والنساء . أما التفسير بأن هذه التماثيل كانت من اللعب التى يلعب بها الصبيان فإذا كان قد أجيز اتخاذ الصور والتماثيل لغرض التسلى والتلهى فأحرى أن يجوز ذلك بعد أن ظهرت للصور والتماثيل فوائد علمية جزيلة ، فضلاً عن بعد العهد بالوثنية وزوال الخشية من الرجوع إليها ، ومن جهة أخرى فإن اعتبار تلك التماثيل لعباً لايخرجها من أن فيها مضاهاة ومشابهة لخلق الله وهو مما احتج به القائلون بالتحريم ، وذهب بعض العلماء إلى جواز التصوير وعمل التماثيل واستدلوا علي ذلك بالقرآن نفسه وذلك يقول - تعالى - : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ [2] فإن المقام مقام امتنان من الله - سبحانه وتعالى - على نبيه سليمان إذ يقوم الجن بخدمته وعمل التماثيل له وليس مقام إنكار ، أما الشيخ محمد عبده فقد أجمل رأيه حول هذا الموضوع فى قوله « وبالجملة أنه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لاخطر فيها على الدين لامن جهة العقيدة ولامن وجهة العمل » [3] .

---

(1) السهوة : شبه الرف والطاق يوضع فيه الشيء أو بيت صغير شبه الخزانة الصغيرة أو الكوة (القاموس) وانظر نص حديث عائشة فى سنن أبى داوود .

(2) القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن . أبو حيان : البحر المحيط .

(3) محمد رشيد رضا تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . وهناك آراء أخرى لبعض العلماء الشرقيين والغربيين بين مؤيد للتحريم ومعارض له .
راجع التعليقات القيمة التى كتبها الدكتور زكى محمد حسن وألحقها بكتاب « التصوير عند العرب للمرحوم أحمد تيمور باشا .

وقد أخذ الفنانون المسلمون منذ القرنين الأول والثانى من الهجرة يرسمون الصور الحيوانية إلى جانب الصور النباتية والزخارف المنوعة « ففى قصر عمراً الذى كشفت بقاياه فى بادية الشام ، ويظن أن بانيه أحد الأمراء الأمويين ، صور كثيرة حيوانية ونباتية . . . وقد روى أن المنصور العباسى حينما بنى بغداد أمر أن يوضع على إحدى قبابها صورة فارس تحركها الريح ، وكذلك كشفت آثار سامرا وآثار الفاطميين فى مصر عن صور حيوانية كثيرة ، ولاتزال آثار الأندلس شاهدة بمثل هذا »[1] . ولم يقل أحد إن أبا جعفر المنصور وغيره من الأمراء قد خرجوا على الدين أو خالفوا أحكامه ، ونخلص من ذلك كله أنه ليس من الحق والإنصاف فى شئ أن يتهم السلطان محمد الفاتح فى دينه ويتشكك فى عقيدته لمجرد ميله إلى التصوير واتخاذه صوراً وتماثيل فى قصره .

وقد كان الإسلام هو الأساس الأول الذى قامت عليه دولة بنى عثمان ، وفى سبيل هذا الدين قام سلاطينهم بفتوحاتهم الواسعة شرقاً وغرباً . وفى هذا الصدد يقول الأستاذ الجليل محمد شفيق غربال :

ويختلف المؤرخون فى الكشف عن سر هذا الفتح العظيم وعما أدى إلى إقامة هذه الدولة الإسلامية الجديدة على أنقاض دول المماليك والروم والصقالية وماخلفته إغارات التتار والصليبيين من مختلف الممالك والأمارات ، وعما دعا السلاطين الواحد بعد الآخر إلى الإمعان فى شن الحروب فى البر والبحر ، فى أوروبا وأفريقيا وآسيا ، والداعى إلى هذا كله ـ فيما أرى ـ هو نصرة الإسلام ونشر بنوده في الأرضين والذب عن بيضتة لنصر الإسلام نشأت أمارة عثمان ولأجلها خلق أورخان أداة النصر ـ العسكر الجديد[2] ـ ؛ وفى سبيلها استشهد مراد فى ساحة قوصوة وفتح محمد القسطنطينية وتطلع إلى كرسى المسيحية الآخر ـ رومية ـ ولصون الإسلام سلك جيش سليم أوعر

---

(1) الدكتور عبد الوهاب عزام فى مقدمته لكتاب « التصوير فى الإسلام عند الفرس » تأليف الدكتور زكى محمد حسن .

(2) الرأى الشائع بين المؤرخين أن السلطان أورخان هو الذى خلق العسكر الجديد أو الإنكشارية ، ولكن الأستاذ جبونز Gibbons يرى بعد النظر والموازنة بين الروايات المختلفة أن الذى أنشأ هذا العسكر إنما هو السلطان مراد الأول . وقد تابعه فى رأيه هذا بعض المؤرخين منهم اللورد إيفرسلى . انظر
Lord Eversly, The Turkish Empire

المسالك ـ الجبال إلى تبريز والصحراء إلى القاهرة ـ ولحفظ هذا التراث أنفق سليمان أحسن العمر فى ميادين القتال ، وحال دون امتداد النفوذ الأوروبى إلى سواحل البحر المتوسط وجزره واعترض تقدم الأوروبيين فى اتجاه البحار العربية ، فلاعجب إذن أن أصبح العالم الإسلامى والدولة العثمانية فى نظر الأوروبيين اسمين لشئ واحد » وأصبح لفظ عثمانى يرادف لفظ مسلم (1) .

وإذا صح أن يقال إن العرب قامت دولتهم ومجدهم بفضل الإسلام وإنهم ماكانوا ليكونوا شيئاً فى التاريخ لولا هذا الدين صح كذلك أن يقال إن العثمانيين إنما قامت دولتهم ومجدهم بفضل الإسلام وإنهم ماكانوا ليكونوا شيئاً فى التاريخ لولا هذا الدين ، أما وصف الأستاذ شلانبرجيه للفاتح بالتعصب الشديد والفتك بأعداء دينه بغير شفقة ولارحمة فقول هراء تكذبه الحوادث التاريخية الثابتة ، وقد اعترف بتسامح الفاتح الدينى نحو أهل الأديان الأخرى أشد المؤرخين الأوربيين تحاملاً عليه وعلى سلاطين آل عثمان (2) .

وتبدو لنا سماحة السلطان الفاتح ورحابة صدره وسعة أفق تفكيره وحسن تقديره لحرية الرأى والقول فى صورة أروع وأبهر فى الميدان العلمى ، وقد كان السلطان الفاتح عالماً حقاً وكدأب كل عالم جعل هدفه الأول فى العلم الوصول إلى الحقيقة وقد قال مرة لبعض العلماء :

« إن الباحثين عن علوم الحقيقة المتكلمون والصوفية والحكماء ، ولابد من المحاكمة بين هؤلاء الطوائف » .

فقيل له إنه لايقدر على المحاكمة بين هؤلاء إلا المولى عبد الرحمن الجامى فأرسل إليه الفاتح « رسولاً مع جوائز سنية والتمس منه المحاكمة المذكورة ، فكتب رسالة حاكم بين هؤلاء الطوائف فى مسائل ست : منها مسألة الوجود وأرسلها إلى السلطان محمد خان وقال إن كانت الرسالة مقبولة يلحقها بباقى بيان المسائل وإلا فلا فائدة فى تضييع

---

(1) Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire†

(2) Prudhomme, Les Crimes des Empereurs Turcs.

« جرائم السلاطين الأتراك » وهو كتاب ينبئك عنوانه بما يحتويه بين دفتيه .

الأوقات ، فوصلت الرسالة إلى الروم بعد وفاة السلطان محمد خان »[1].

ولم يكن شغف الفاتح بالقراءة ونهمه إلى الاطلاع يقفان عند حد ، فكان يقرأ كل مايرى فيه فائدة ومتعة لعقله وفكره أو يكسبه تجارب من الحياة فقرأ فيما قرأ كتاباً في سيرة تيمورلنك وهو الذى هزم جده بايزيد الأول ، ولم ير فى ذلك غضاضة لنفسه أو نيلاً من مقامه .

وكان فى معية الأمير مصطفى ابن الفاتح رجل إيطالى يدعى جيوفانى ماريا انجيوللو G. Maria Angiolello وشهد معه معركة ترجان التى انهزم فيها أوزون حسن العدو اللدود للدولة العثمانية وقد ألف هذا الإيطالي فيما بعد كتاباً ب للاتينية في سيرة أوزون حسن أثبت فيه كثيراً ، مما تقوله هذا الأمير التركمانى وتخرص به على السلطان الفاتح من القذع والافتراء الباطل ، وبعد أن أتم انجيوللو تأليف كتابه أهداه إلى السلطان الفاتح نفسه فلم يغضب ولم يثره بل تقبل بالكتاب كأحسن ما تتقبل الهدية الغالية النفيسة وغمر مؤلفه بالأفضال الواسعة والهدايا الثمينة وأقبل الفاتح على قراءة الكتاب بشغف ونهم ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة التركية !

فهذه سماحة فذة وتقديرعظيم لحرية الرأى والكتابة لانجد لهما نظير حتى بين العلماء والمفكرين أنفسهم بله الملوك والسلاطين الذين اعتادوا منذ القدم فى الشرق والغرب على السواء أن يعتبروا أنفسهم أشخاصا مقدسة مبجلة لايجوز مساسها بنقد أو تجريح ولو كان من الحق المحض الصراح .

ومن خير ماأسداه السلطان الفاتح نحو العلم والعلماءماابتدعه من التنظيم والتنسيق فى درجات العلماء ومراتبهم والتمييز بين المناصب والوظائف العلمية كالتدريس والقضاء وقد جعل التدريس نفسه درجات ، وكذلك القضاء درجات فلا يشغل وظيفة من هذه الوظائف إلا من ثبتت كفايته وأهليته لها ، أما الوظائف الصغيرة التى ليست بذات خطر كالإمامة أو الأذان فى مسجد فكان يكفى فيمن يشغلها أن يكون قد أصاب قدراً من الثقافة الدينية ، وكان السلطان الفاتح يحتفظ بسجل خاص فى قصره يثبت فيه أسماء العلماء ومنزلة كل منهم فى العلم وماله من كفاية وإنتاج ، فإذا ماخلا منصب من

---

(1) الشقائق النعمانية .

المناصب الكبيرة فى الدولة رجع إلى هذا السجل واختار للمنصب الشاغر أصلح العلماء له .

ويقال إن السلطان الفاتح وضع لدولته بمعونة وزيره محمد باشا القرمانى قانوناً لتنظيم شئون الإدارة الداخلية وتنظيم اختصاصات كبار رجال الدولة وبعض التقاليد والمراسيم [1] ولقب من أجله بـ « القانونى » غير أنه لم يشتهر به اشتهاره بلقب « الفاتح » .

---

(1) لقد حاولنا وجهدنا فى المحاولة ـ الإطلاع على قانون الفاتح فى أصله التركى ولكننا لم نوفق . وقد أورد همر خلاصة وافية لهذا القانون تناول فيها نظام هيئة الحكومة وأعمدتها الأربعة وهم الوزراء وقضاة العسكر والدفتردار والنيشانجى ومدى سلطة كل منهم واختصاصاته ، وكيفية اجتماع الديوان والشارات التى يحملها الوزراء ونظام الاحتفال بالأعياد والغرامات المالية ونظام الجيش وفرقه المختلفة ، والنظام الداخلى للقصر السلطانى ، ونظام إدارة المقاطعات والولايات ، ويؤاخذ هذا المؤرخ النمساوى السلطان الفاتح مؤاخذة شديدة على أنه فى هذا القانون قد أجاز لكل سلطان ممن سيأتون بعده عند ارتقائه العرش أن يقتل أخوته وذلك فى سبيل السلام العام ودفعاً للفتنة وأن السلطان الفاتح لم يقرر ذلك إلا بعد موافقة معظم العلماء ورجال الدين . وذهب جماعة من المورخين الأوربيين مثل Lanepoole, Leoncavallo, Gibb, Eichthal إلى تأييد السلطان الفاتح فيما ارتأه . وخلاصة قولهم إن الفاتح ماشرع هذا القانون إلا لدفع ضرر أكبر وتجنب سفك دماء أكثر ولإقرار الأمن والسكينة فى الداخل ، ويلاحظ الأستاذ ليون كافالو أن الدولة العثمانية عندما كانت تطبق هذا النظام (نظام قتل الأخوة) كانت تنعم دائماً بالاستقرار الداخل وتزداد تقدماً وازدهاراً فى مختلف ميادين النشاط الداخلى والخارجى ولكنها بعد إلغاء هذا النظام ولجأت إلى سجن ولى العهد وحبسه فى القصر بين الحريم وقطع كل صلة بينه وبين العالم الخارجى فلا يخرج يوم يخرج من القصر لتولى السلطنة إلا أبله أخرق قد اجتمعت عليه أحط النقائض من الرعونة والسفه والانحطاط الفكرى والجهل المطبق المظلم لأمور الدنيا وواجبات السلطنة والانغماس فيما نشئ عليه من الترف والملذات الدنيا الرخيصة ، تفشت من هو له الدسائس والمؤامرات وكثرت الفتن والاضطرابات واصبحة الدولة نهباً مباحاً للطايعين وسفكت الدماء ثغير حساب وصار الأمر فى يد الانكشارية يولون ويعزلون ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن انحدرت الدولة العثمانية انحداراً سريعاً إلى الانحلال والاضمحلال ، وقد استشهدالأستاذ ليون كفالو لتأييد رأيه بأراء ونظريات لبعض كبار المشترعين مثل مونتسيكو Montesquieu الفرنسى وڤاتل Vattel السويسرى .

ومامن ريب فى أن السلطان الفاتح حينما وضع التشريع الخاص بجواز قتل الأخوة الذى قد يبدو للوهلة الأولى قاسياً شديداً كان يهدف قبل كل شىء إلى المصلحة العامة للدولة ، إذ لم يكن قبله نظام ثابت واضح لوراثة العرش . وقد عرف من تاريخ الدولة العثمانية نفسها كيف جر التنازع والتنافس على السلطنة إلى الفتن والاضطرابات وكيف أوشكت الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد الأول أن =

وقد أظهر الفاتح فى الناحية الإدارية كفاية ومقدرة لاتقلان عن كفايته ومقدرته فى الناحيتين السياسية والحربية .

= تودى بالدولة العثمانية برمتها ، فقتل أخ أو أخوة إذن أهون فى نظر الفاتح من فتنة شعواء تهلك آلاف الأنفس وقد تودى بالدولة نفسها إلى الفناء ، على أن التشريع الذى وضعه الفاتح بنص ـ كما يؤخذ من رواية همر ـ على أنه من حق السلطان أو يجوز للسلطان عند ارتقاء العرش فى سبيل سلام العالم ودفعاً للفتنة أن يقتل أخوته ، ومعنى ذلك أنه إذا أمنت الفتنة وأمن على السلام العام للدولة فلا موجب هناك البتة للقتل ، ومعنى ذلك مرة أخرى أن الفاتح لم يجعل هذا القتل ضربة لازب لابد منها بل ترك الأمر لتقدير السلطان نفسه ، فحكم همر على الفاتح بالبربرية والوحشية لوضعه هذا التشريع حكم جائر أملاه التعصب والتحامل الأعمى المغرض ، ونحن إذا أمعنا النظر بعد ذلك كله وجدنا أن الفتن الكبرى فى الإسلام التى أهريقت فيها دماء المسلمين إنما ترجع فى حقيقتها إلى التنازع والتنافس على الخلافة والملك ، وقد قال عمر بن الخطاب قبل موته حين فوض الأمر إلى ستة من أجلة الصحابة « قد رأيت من أصحابى حرصاً سيئاً وإنى جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله ـ ﷺ ـ وهو عنهم راض» ثم أرسل إلى أبى طلحة الأنصارى وقال له : كن فى خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى ، فإنهم فيما أحسب سيجتمعون فى بيت أحدهم فقم على الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم ولاتتركهم يمضى اليوم الثالث حتى يؤمروا أحدهم وقم على رؤوسهم ، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما ، فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلو الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس ، ولايحضر اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، اللهم أنت خليفتى فيهم . (انظر طبقات ابن سعد وتاريخ الطبرى) .

وقد توقع عمر أن يحدث شقاق وخلاف وصح ماتوقعه .

ولسنا نريد من هذا كله إلا أن يتريث المؤرخ ويتروى ويتبصر فى حكمه ، ويحسن تقديره للظروف والملابسات التى أحاطت بالسلطان الفاتح والغاية التى استهدفها من وضع ذلك التشريع إن صح أنه وضعه .

تنبيه هام : قبل طبع هذا الكتاب اطلعنا على الكتاب الذى ألفه الأستاذ الجليل على همت بركى الأقسكى ـ الرئيس السابق لمحكمة النقض بتركيا ـ عام 1953 بمناسبة مرور خمس مئة عام على فتح القسطنطينية ، وهذا الكتاب خاص بالحياة العدلية فى عهد السلطان محمد الفاتح ، وقدعرض المؤلف للقانون الآنف الذكر فأثبت بالأدلة القوية القاطعة عدم صحة نسبة هذا القانون إلى الفاتح وأنه إما مزور وإما مدسوس عليه .

وقد كان أول ماقام به عقب توليه السلطنة أن عزل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء ، واتخذ الكفاية وحدها أساساً فى اختيار رجاله ومعاونيه وولاته . واهتم الفاتح بالناحية المالية فوضع القواعد المحكمة الصارمة فى جباية أموال الدولة وقضى على إهمال الجباة وتلاعبهم مماكان يضيع على الدولة ثلث إيراداتها .

لقد كان السلطان الفاتح بسبيل إنشاء دولة عظيمة ، وأدرك أن مثل هذه الدولة لاتتوطد أركانها وتزدهر حالها إلا بأمرين عظيمين : العلم والعدالة .

ونعنى بالعلم العلم على أوسع معانيه سواء ماكان منه نظرياً يتصل بالفقه والآداب والحكمة ونحوها ، أو عملياً يتصل بالهندسة والطب وصناعة الآلات الحربية وغيرها .

أما العدالة فهى - كما قيل بحق منذ أقدم الأزمان - أساس الملك لاتقوم دولة بغيرها ، وقد كان السلطان الفاتح - شأنه فى ذلك شأن من سلف من آبائه - شديد الحرص على إجراء العدالة الدقيقة الحازمة فى كل جزء منم أجزاء مملكته [1] ، شديد الحرص على تحقيق الرفاهية والرخاء لجميع رعاياه .

ولكى يستوثق السلطان الفاتح من هذا الأمر كل الإستيثاق كان يعهد بين الفينة والفينة إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجول والتطواف فى أرجاء البلاد العثمانية ويمنحهم - بمرسوم مكتوب يبين مهمتهم - السلطة المطلقة فى التنقيب والتحرى والاستقصاء لكى يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجرى ميزان العدل بين الناس فى المحاكم ، وقد منح هؤلاء المبعوثون الحرية الكاملة فى تسجيل ونقد مايرون ثم يرفعون ذلك إلى السلطان الفاتح ، وقد كانت تقارير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائماً بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون تمييز أو محاباة مما يبشر باطراد وانتشار الرفاهية والسعادة ، بل أن السلطان الفاتح عند خروجه إلى بعض

---

(1) قريتووولوس ، تاريخ سلطان محمد خان ثانى و Gibb, op. cit.
" Ce qu'on aura peine a croire d'un empereur presque toujours occupé de guerres et de conquetes, il fit rendre dans tous ses états une exacte justice." de la Croix, Abrégé Chronologique de l'Histoire Ottomane.

الغزوات والحروب كثيراً ماكان يتوقف فى بعض أطراف مملكته ويأمر بنصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته [1].

وقد كان مماقصد إليه الفاتح من تعلم اللغات الأجنبية كاللاتينية والرومية أن يتمكن من الاتصال المباشر بشعوبه العديدة ذات الألسنة المختلفة ويقف على أحوالها بنفسه [2] فهذه غاية فى تحرى العدالة وتقصيها لم تسم إليها همم الملوك من قبله ولا من بعده .

وأدرك السلطان الفاتح أيضاً بألمعيته وثاقب بصره الصلة الوثيقة بين الدين والعدالة وأن رجال الفقه والشريعة هم أعرف الناس بالعدالة وأبصرهم بمواقعها وأحرصهم على إنفاذ ها ، وفى الحديث « العلماء ورثة الأنبياء » وخص العلماء بالوراثة لأنهم أحرى الناس باتباع الأنبياء فى الرسالة التى بعثهم الله بها لإصلاح شئون البشر وإجراء العدل والنصفة بينهم ، وقد قال للفاتح بعض علمائه : إن العلماء بمنزلة القلب من البدن ، إذا صلح صلح البدن كله وإذا فسد فسد البدن كله ، ومن ثم كانت عناية الفاتح البالغة بالعلم وأهله فيسر سبل العلم على طالبيه وكفاهم مؤونة التعيش والتكسب ليتفرغوا للدرس والتحصيل ، وأكرم العلماء ورفع منزلتهم .

وقد عنى الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل فى أمور الناس فلايكفى فى هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين فى الفقه والشريعة والإتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب بل لابد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع تجلة واحترام بين الناس، وأن تكفى مؤونتهم المادية كفاية تامة سداً لسبل الإغراء والرشوة فوسع لهم الفاتح فى المعيشة كل التوسعة وأحاط منصبهم بهالةمهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة حرم مساسها على الناس .

وقد حدث أن أحد غلمانه ظهر منه بعض الفساد بأدرنة فأرسل إليه القاضى بعض الخدم لمنعه فلم يمتنع ، فركب إليه القاضى بنفسه فاعتدى عليه الغلام وضربه ضرباً شديداً ، فما إن سمع السلطان الفاتح بذلك حتى أخذه الغضب واستطار به « وأمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة ، وتشفع الوزراء للغلام لدى السلطان الفاتح فلم

---

(1) صولاق زاده تاريخى

(2) Thuas, op. cit.

يقبل شفاعتهم فالتمسوا من المولى محيي الدين محمد أن يصلح هذا الأمر لدي السلطان، ولكن الفاتح أعرض عنه ورد كلامه فقال له المولى محيى الدين : إن النائب (أى القاضى) بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء فلم يكن هو عند الضرب قاضياً فلم يلزم تحقير الشرع حتى يحل قتله (قتل الغلام) فسكت السلطان محمد خان. ثم جاء الغلام إلى قسطنطينية فأتى به الوزراء إلى السلطان محمد خان لتقبيل يده شكراً للعفو عنه ، فأحضر السلطان محمد خان عصا كبيرة فضربه بنفسه بها ضرباً شديداً حتى مرض الغلام أربعة أشهر فعالجوه فبرىء ثم صار ذلك الغلام وزيراً للسلطان بايزيد خان واسمه داوود باشا ، وكان يدعو للسلطان محمد خان ويقول : إن رشدى هذا ماحصل إلا من ضربه »[1] ، أما القاضى المرتشى فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل ، القتل العنيف الزاجر .

وكان السلطان الفاتح ـ برغم اشتغاله بالحروب والفتوحات التى لاتكاد تنقطع ـ يتتبع كل مايجرى فى أرجاء دولته بيقظة واهتمام لاتكاد تفلت من نظره صغيرة ولاكبيرة ، وأعانه على ذلك ماحباه الله به من ذكاء قوى وبصيرة نفاذة وذاكرة حافظة وجسم قوى مفتول لاينال منه الإعياء والكلال وكان كثيراً مايعس بالليل ويجوب الطرقات والدروب ليتعرف أحوال الناس بنفسه ويتسمع إلى شكاياتهم .

كان الصدر الأعظم محمود باشا قد ارتفعت منزلته لدى السلطان الفاتح بعد بلائه العظيم فى فتح جزيرة نيجربون ، ولكن الفاتح مالبث أن تجهم له وغضب عليه حينما علم أن وزيره يتغاضى عن نصوح بك ويتغافل عنه ويتستر عليه بالرغم من ظلمه وشروره فى البلاد التى يحكمها بحدود ألبانيا وقال له الفاتح :

« فإذا لم يكن لك علم بأفاعيل نصوح بك كنت غافلاً عن أحوال البلاد ، وإذا كنت على علم بها وأغضيت عنه وقعدت عن عقابه كنت عوناً له على الشر والخيانة فى حق البلاد وإن الغفلة مفسدة للوزارة وإذا لم يكن الوزير يقظاً مصلحاً فى إدارة الأمور لم يكن ظهيراً للسلطان وعوناً له فيما يعمل لجلب الخير والرفاهية للرعية والعمران للبلاد » .

واستدعى السلطان الفاتح من فوره نصوح بك إليه فأدبه بنفسه وقوم اعوجاجه[2] .

(1) الشقائق النعمانية .
(2) تاريخ خير الله أفندى .

وقد قرن السلطان الفاتح هذه الإدارة الحازمة اليقظة بأعمال إنشائية واسعة النطاق فى أرجاء مملكته سواءفيما يتعلق بالأغراض الحربية أو السلمية فأنشأ دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة وأقام القلاع والحصون فى المواقع ذات الأهمية العسكرية من البلاد وأدخل إصلاحات جديدة فى الجيش .

ويمتاز السلطان الفاتح عمن سبقه من السلاطين أنه إلى جانب اهتمامه وعنايته بتنظيم وتنمية قوات الجيش البرى أولى اهتماماً كبيراً وعناية عظيمة للقوة البحرية ، وقد أدرك عظم خطورة هذه القوة وشدة الحاجة إليها منذ أزمع على حصار القسطنطينية إذ رأى أنهالامندوحة عنها لإحكام حصار هذه المدينة وتطويقها براً وبحراً .

نعم ، سبق لبعض سلاطين آل عثمان قبل محمد الفاتح أن أنشأوا سفناً أغير بها على بعض المواقع ، ولكن لم تكن هناك عناية خاصة واتجاه مقصود لتنمية الأسطول البحرى ، أما السلطان الفاتح فقد أدرك أن هذا الأسطول أمر لابد منه وعنصر لاغناء عنه لمد فتوحاته والمحافظة على سلامة حدود دولته المترامية التى تواجه البحر من أنحاء كثيرة ، كما علم من قراءته لتاريخ الأمم القديمة مدى ضرورة القوة البحرية لقوة الأمة وعظمتها فكان ذلك يزيده إقبالاً على العناية بالأسطول ، وقد شاهد بنفسه ماوصلت إليه الدول الإيطالية وبخاصة البندقية من عظمة وقوة وثراء ورخاء بفضل أسطولها القوى الذى يجوب البحار ، ومن ثم لم يدخر السلطان الفاتح وسعاً فى سبيل تنمية القوة البحرية وإدخال أسباب التحسين والتقدم عليها فأمر باتخاذ سفن جنوا والبندقية ـ أكبر الدول البحرية فى ذلك العهد ـ نماذج تبنى على مثالها السفن العثمانية .

وعندما وجد فى سينوب سفينة ضخمة نادرة المثال أمر بأخذها وبناء سفن على نمطها مع إدخال التحسينات عليها ، ولهذا الاهتمام البالغ والعناية الفائقة التى أبداها السلطان الفاتح والتقدم الذى أحرزته القوة البحرية فى عهده عده المؤرخون مؤسس الأسطول العثمانى [1] .

أما فيما يتعلق بالأعمال المتصلة بالعمران والأغراض السلمية فقد أكثر الفاتح من إنشاء المبانى العامة والطرق والجسور فى أرجاء مملكته، وخص مدينة القسطنطينية بأعظم

---

(1) الأميرال اسماعيل سرهنك . حقائق الأخبار عن دول البحار .

قسط من عنايته واهتمامه في هذه الناحية . فما أن أدخلها بعد فتحها حتى عمل على إقرار الأمن والنظام فيها وعين قار شديران سليمان بك محافظاً للقسطنطينية وعهد إليه بالإشراف على تعمير المدينة وتنظيم شئون الإدارة فيها ودعا الفارين من أهلها إلى العودة إليها وأمنهم على حياتهم وأموالهم وبعث إلى ولاته فى الأناطول والروملي يطلب منهم إرسال جماعات من السكان إلى القسطنطينية فأوفدت اليها آلاف من الأسر المختلفة (1)

وكان الفاتح بعد ذلك كلما فتح بلدة أو مدينة فى آسيا وأوروبا اصطفى من سكانها أهل الجاه والرفعة والثروة ومهرة الصناع والفنانين والعمال ونقلهم إلى القسطنطينية ، واجتمعت فى هذه المدينة بذلك العصارة المختارة من أهل آسيا وأوروبا وأقامت هذه الجاليات المختلفة فى مدينتهم الجديدة ترعاهم دولة واحدة وتظلهم عدالة واحدة ثم تمازجت مع مرور الزمن واختلطت ولايزال أهل القسطنطينية إلى يومنا هذا من أعرق الناس فى دماثة الخلق وآداب السلوك .

وأنشأ السلطان الفاتح فى القسطنطينية كثيراً من المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة ، وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المبانى وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المبانى التى تزيد فى عمران المدينة وزينتها ولم يأل الفاتح جهداً ولا مالاً فى هذا السبيل ، فقد كان يريد أن يجعل من القسطنطينية « أجمل عواصم العالم ، وحاضرة العلوم والفنون » (2) . واستبحر العمران فى عهد الفاتح وانتشر ، ويعد هذا السلطان بحق من أعظم البناة المنشئين .

---

(1) يجد القارىء تفصيلاً وافياً عن جنسيات هؤلاء السكان والمناطق التى نقلوا منها فى آسيا وأوروبا والأماكن التى نقلوا إليها فى المدينة الجديدة فى كتاب أحمد مختار باشا (فتح جليل قسطنطينية) غير أن هذا المؤلف يذكر أن فيمن نقل إلى القسطنطينية عرباً ويهود من بعض أنحاء فلسطين كغزة والرملة وصفد ، وهذا فى نظرنا بعيد إذ أن هذه المناطق إلى ذلك الوقت لم تكن قد دخلت بعد فى حوزة الدولة العثمانية ، والفاتح إنما نقل السكان القاطنين فى أرجاء دولته ، ويذكر الأستاذ موردتمان Mordtman الذى كتب مادة « القسطنطينية » فى معلمة الإسلام أن عدداً كبيراً من العرب واليهود الذين طردوا من أسبانيا نزحوا الى القسطنطينية وأقاموا بها .

(2) فريتوولوس تاريخ سلطان محمد خان ثانى .

ولابد لنا هنا من وقفة قصيرة لننظر فى إعجاب ودهشة إلى ذلك النظام الدقيق الذى وضعه السلطان الفاتح للمستشفيات أودور الشفاء كما يسميها الأتراك ، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب – ثم زيد إلى اثنين من حذاق الأطباء من أى جنس كان ، يعاونهما كحال وجراح وصيدلى وجماعة من الخدم والبوابين ، ويشترط فى جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوى القناعة والشفقة والإنسانية ، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين فى اليوم ، وأن لاتصرف الأدويةلهؤلاء المرضى إلا بعد التدقيق فى إعدادها ، وأكثر من هذا كله أنه كان يشترط فى طباخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهى الأطعمة والأصناف التى توافق المرضى منها [1] وكان العلاج والأدوية فى هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم ، ولقد كان السلطان الفاتح شديد الحدب على الفقراء والمساكين برابهم ، ولم يكن فى صدقاته وإحسانه نحوهم يفرق بين المسلم وغيره حتى لقب بأبى الخيرات وأبى الحسنات .

وعنى الفاتح أيضاً بالتجارة والصناعة وعمل على إنعاشهما بجميع الأسباب والوسائل ، وكان فى ذلك مترسماً خطا من تقدمه من آبائه السلاطين الذين « كانوا دائماً على استعدادلانعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم ، وإن كثيراً من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهاراً كبيرا عندما خلصها الفتح التركى مما أصابها فى عهد الدولة البيزنطية من

---

(1) Adnan - Adivar, op. cit

وكان فى بلاط السلطان الفاتح سبعة أطباء : أربعة منهم من الفرس وهم الحكيم قطب الدين العجمى وكان فى أول أمره وزيراً لبعض ملوك العجم ثم ارتحل إلى السلطان محمد الفاتح واتصل بخدمته ، فأكرمه الفاتح وعين له كل يوم خمس مئة درهم وكل شهر عشرين ألف درهم فضلاً عما أسبغه عليه من الخلع والإنعامات النفيسة . ومنهم الحكيم شكر الله الشيروانى وقد ارتحل من بلاده أيضاً وقصد إلى رحاب الفاتح حيث نال كل تقدير وتكريم لحذقه ومهارته فى الطب ، والطبيبان الفارسيان الآخران هما عطاء الله العجمى والعجمى اللارى ، وقد هاجرا من موطنهما كذلك وانتجعا قصر الفاتح حيث لقياكل حفاوة وتقدير ، أما الأطباء الثلاثة الآخرون فأحدهم يهودى يدعى يعقوب وكان ماهرا فى الطب غاية المهارة فنال الحظوة لدى السلطان ثم أسلم فاتخذه الفاتح وزيراً ، والثانى عربى من بيت المقدس وقد برع فى الطب واستطارت شهرته فى ذلك ، فلما سمع به الفاتح استقدمه إليه وأكرمه كل الإكرام أما الطبيب الأخير فتركى يدعى التنجى زاده وقد تخصص فى أمراض المسالك البولية ، ويتألف من هؤلاء الأطباء السبعة مجلس الشورى للطب تحت رياسة قطب الدين العجمى .

طغيان الثروة الحكومية التى عرقلت نهضتها وشلت حركتها ، ومن هذه المدن نيقية التى سلمت لأورخان 1330 بشروط ملائمة جداً بعد حصار طويل ، وكان العثمانيون كالرومان القدماء مهرة فى إنشاء الطرق والكبارى مما سهل التجارة فى جميع أنحاء الدولة، وقد اضطرت الدول الأجنبية إلى السماح بفتح موانيها لتجار الإغريق وكانوا قد منعوا من دخولها فى عهد الأباطرة البيزنطيين ، ذلك أنهم قد أصبحوا فى تلك الحالة يبحرون فى ظل الراية العثمانية ، وقد اتخذوا زى الأتراك وعادتهم ، ومن ثم ظفروا من أمم غربى أوروبا بالاحترام والتقدير اللذين كان الكاثوليكيون يرفضون دائماً حتى ذلك الحين أن يمنحوهما أفراد الكنيسة الإغريقية [1] » وكان من أثر ذلك أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية فى جميع أرجاء المملكة ، وفى عهد الفاتح ضربت النقود الذهبية لأول مرة فى تاريخ الدولة العثمانية .

يتهم كثير من المؤرخين ـ لاسيما الأوروبين ـ السلطان الفاتح بالقسوة وغلظة القلب والميل إلى سفك الدماء ويأخذون عليه الإسراف فى قتل أعدائه والفتك بمن يقع فى يده من الأسرى . وينبغى علينا قبل كل شئ أن ننظر كيف كان أعداءالفاتح يعاملون الأسرى الأتراك الذين يقعون فى أيديهم ومايلحقونه بهم من ألوان التعذيب والتنكيل والتمثيل ، وقد رأينا من قبل شيئاً من أفاعيل هوينياد والبنادقة ودراكول حاكم الأفلاق ،فلم يكن الفاتح فى شدته وقسوته على أعدائه إلا أنه يرد الشر بمثله . على أن قتل الأسرى قد يكون فى بعض الأحيان أمراً لامناص منه تقتضيه الضرورات الحربية أو السياسية [2] .

---

(1) توماس أرنولد الدعوة الى الإسلام .

During the best days of Ottoman Empire large sums of money were spent on roads, trade flourished, the rights of citizens were respected and the churches of the Christian communities remained unviolated," Miller, The Balkans.

وانظر Forbes, The Balkans

(2)من ذلك أن امبراطور طرابزون داوود كومنين بعد هزيمته واستسلامه أرسله الفاتح وأهله إلى أدرنة حيث عاشوا فى رغد وأمن ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى أخذ داوود يراسل أوزون حسن ويكاتبه ، ووقعت إحدى الرسائل فى يد الفاتح فأيقن أن هناك مؤامرة تدبر من ورائه بل فى عقر داره فلم يسعه ـ وكان إذ ذاك مقبلاً على محاربة عدوه اللدود أوزون حسن وحلفائه ـ إلا أن يقتل الإمبراطور داود ومن ممن يخشى شرهم بعد أن عرض عليهم الإسلام ورفضوا .

ويأخذون على الفاتح قتله لوزيريه محمود باشا وخليل باشا وقتله لأخيه الصغير .
أما قتل محمود باشا فيرجع إلى بواعث عدة ، فقد كان هذا الوزير - برغم ماأسداه من خدمات للدولة - رجلاً حقوداً حسوداً ، يغلب عواطفه وأهواءه الشخصية على المصالح العامة فمن ذلك أنه عندما عبر خاص مراد باشا نهر الفرات لاستطلاع حركات جيش أوزون حسن أرسل الفاتح وراءه وزيره محمود باشا لمعاونته ، ولكن هذا الوزير كان يحقد عليه لما كان يتمتع به لدى السلطان الفاتح من الحظوة ورفعة المنزلة لشجاعته وإخلاصه ، فلما تحرج موقفه ووقع في الكمين الذى نصبه له التركمان قعد محمود باشا هن نجدته ومساعدته ونظر إليه فى شماتة زرية وهو يهلك مع من معه من آلاف الجند ، وعند فتح البوسنة خالف محمود باشا أوامر السلطان الفاتح ، إذ بادر - لغرض فى نفسه - إلى تأمين ملك البوسنة وعرض الصلح عليه بدون إذن الفاتح ، وفى حرب القرمان أظهر محمود باشا تلكأ متعمداً ومكن إسحاق بك من الفرار إلى سلفكة ، وقد مر بنا آنفاً كيف كان محمود باشا يتستر على نصوح بك ويغضى عن مساوئه ومظالمه فى حكم البلاد .

وكان محمود باشا فوق ذلك كله لايتورع عن الدس والوقيعة وإفساد العلاقات الطيبة بين الفاتح وبين المقربين إليه من أساتذته وعلمائه ، فقد نفس على المولى خوجه زاده بما ناله من المكانة والحظوة لدى السلطان الفاتح لعلمه وفضله حتى اتخذه معلماً لنفسه وغلى مرجل الحقد فى قلبه وسعى إلى التفريق بينهما فذهب إلى السلطان وقال له « يريد خوجه زاده قضاء العسكر قال : « أي السلطان لأى شيء يترك صحبتي ؟ قال : يريده ، وقال لخوجه زاده : أمرك السلطان أن تصير قاضي العسكر . فقال : أنا لاأريده . قال : هكذا جرى الأمر ، فامتثل أمره وصار قاضياً بالعسكر » وفعل محمود باشا مثل ذلك فيما بين السلطان الفاتح وأستاذه المولى عبد القادر ، فقد طلب الفاتح ذات يوم إلى أستاذه هذا أن يصحبه فى بعض روحاته فاعتذر بوعكة نزلت به ، فدس محمود باشا بعض الناس إلى هذا العالم وزينوا له الخروج إلى بعض الحدائق للتفريج عن نفسه وألحوا عليه فى ذلك إلحاحا شديدا حتى طاوعهم وذهب معهم ، وعندئذ أسرع محمود باشا إلى السلطان الفاتح ليوغر صدره على أستاذه وقال له فى خبث ومكر « إنه تعلل فى صحبتك

وذهب مع الظرفاء إلى الحديقة الفلانية [1] ، واستخبر الفاتح عن الأمر فوجده صحيحاً ، وشق على نفسه أن يؤثر أستاذه صحبة الظرفاء والمجان فغضب عليه وأبعده من حضرته . فعاد المولى عبد القادر إلى بلاده ولم يلبث إلا قليلاً حتى مرض ومات .

ولكن هذه الدسائس والمكائد التي كان يلفقها محمود باشا والتي تنم عن سوء الطوية وخبث السريرة مالبث أن انكشفت للسلطان الفاتح فتملكه الغضب ولم يسعه إلا أن يجتث الشر ويستأصله من شأفته ، فإن مثل هذه الدسائس والمكائد إذا أرخى لها الحبل - لاسيما إذا كان مرتكبها وزيراً مسموع الكلمة في الدولة - قد تؤدي يوماً ماإلى إثارة فتنة عمياء أوخصومة شعواء يستفحل معها الخطر والبلاء فلم ير الفاتح مندوحة من قتله ، على أن بعض الروايات تفيد أن السلطان الفاتح لم يقتله بل اكتفى بنفيه إلى خاص كوى وبقى هناك إلى أن وافاه أجله ، أما خليل باشا الوزير العجوز الذى كان يمالئ الروم أثناء حصار القسطنطينية فإن السلطان الفاتح رعاية منه لشيخوخته وكبر سنه اكتفى بمصادرة أمواله وحبسه حتى مات فيه .

بقيت مسألة قتل الفاتح لأخيه الرضيع الصغير ، وتتلخص الحادثة في أن محمد الفاتح عند توليه السلطنة كان له أخ رضيع فطلب إلى أحد رجاله وهو على بن أوره نوس أن يقتله فما كان منه إلا أن غطسه في الماء حتى اختنق ومات في نفس الوقت الذى كانت فيه والدة هذا الأمير تقدم إلى السلطان الفاتح تهانئها بتوليه عرش السلطنة . ويقول همر إن الذى بعث الفاتح على ارتكاب هذه الجريمة أنه كان يخشى من أخيه الصغير هذا أن ينازعه الملك فيما بعد لأنه كان أحق به ، إذ كانت والدته أميرة حرة ، بينما والدة الفاتح كانت أم ولد ، ويضيف همر إلى ذلك قوله : ولكن السلطان الفاتح خشى - وهو في مستهل حكمه - أن يحدث عمله المنكر تذمراً وسخطاً بين الناس ، ولم يجد سبيلاً للتخلص والتبرء من الجريمة خيراً من نفيها عن نفسه وإسنادها إلى ابن أوره نوس فأمر بقتله ليظهر كمن اقتص للأمير القتيل [2] ، وقد أخذ همر هذه الرواية عن المؤرخ البيزنطى دوكاس وتناقلها عنه من جاء بعده من المؤرخين الغربيين والشرقيين على السواء حتى صارت هذه القضية كأنها أمر مفروغ منه .

والحق أن هذه الحادثة المنسوبة إلى السلطان الفاتح بقتل أخيه الرضيع ماهى إلا حادثة موضوعة لاسند لها من الواقع ، وأول شئ يقال في هذا الموضوع أن الإسلام لايفرق في

(1) الشقائق النعمانية .

(2) Hammer, Histoire de l' Empire Ottoman

الوراثة بين من كانت أمه حرة ومن كانت أمه أمة ، فكلاهما فى الوراثة سواء ، على أنه ليس من المقطوع به تماماً أن والدة الفاتح كانت أم ولد فإن من المؤرخين من يقول انها أميرة صربية ومن يقول إنها أميرة من سينوب ، ومنهم من يذهب إلى أميرة فرنسية ثم هناك اختلاف شديد بين المؤرخين حول اسم الأمير الرضيع وعمره .

ولو كان هذا الأمر الذى نسب إلى الفاتح على شئ من الصحة لذكره المؤرخ البيزنطى المعاصر فرانتزتس ، فقد كان هذا المؤرخ ـ كما ذكرنا من قبل ـ أمين الإمبراطور قسطنطين وصديقه ، وقد قام بالسفارة بينه وبين القصر العثمانى عدة مرات فكان بذلك أقرب إلى العلم بهذا الحادث من غيره من مؤرخى الروم ، وكان فرانتزتس بعد ذلك أحرى الناس بذكره وتهويله وإشاعته لما كان يضطغنه على السلطان الفاتح من كراهية شديدة وعداوة عمياء وميل إلى الطعن عليه والقدح فيه وتشهيره ، ولكنه برغم ذلك كله لم يذكر شيئاً عن هذه الجريمة التى نسبت إلى الفاتح بل إنه ذكر بصراحة ووضوح فى سياق حديث له مع إمبراطور طرابزون أن محمد الفاتح حينما تولى السلطنة لم يكن له أخ البتة ، وود من صميم قلبه لومات الفاتح ولحق بوالده لتصبح الدولة العثمانية بغير وارث وتقع فريسة للفوضى والاضطراب ونهباً مباحاً يقتتل عليه الطامعون .

وقد كان للفاتح أخوة أربعة ماتوا كلهم فى حياة والدهم مراد الثانى ، وعند ماعرض العلامة موراجا دوسون إلى ذكر السلاطين العثمانيين الذين قتلوا اخوتهم وأقاربهم لتأمين عروشهم لم يذكر شيئاً عن السلطان محمد الفاتح ، إذن فحادثة قتل الأخ الرضيع المنسوبة إلى الفاتح إن هى إلا رواية موضوعة اختلقها المؤرخ البيزنطى دوكاس وأخذها عنه المؤرخ النمسوى المعروف همر ثم تناقلها عنه من جاء بعده من المؤرخين ، واكتسبت بالتناقل والانتشار صفة الرواية الأصيلة الصحيحة ، وهى عن الأصالة والصحة فى بعد سحيق [1] ، أما المصادر التركية القديمة التى ذكرت حادث قتل الأخ فلا تخلو من الخلط والاضطراب .

---

(1) أما جبون فلم يقتصر على أن الفاتح قتل أخاً رضيعاً واحداً بل ذهب إلى أنه قتل عدة أخوة ، وأمعن من هذا فى الخطأ والضلال ماذهب إليه الأستاذ بيورى فى تعليقه من أن أحد هؤلاء الأخوة قد أفلت من القتل وفر إلى رومه حيث عمد ونصر وعرف باسم كاللستوس العثمانى Callistus Othomanus وقصد بعد ذلك إلى النمسا حيث أقطعه الإمبراطور فردريك بعض الأرض يعيش من ريعها ، وأبى بعض المؤرخين الأوربيين إلا أن يزيدوا هذه الأسطورة زخرفة وزركشة فزعموا أن أميرة نمساوية وقعت فى غرام هذا الأمير العثمانى الذى شغفها حباً فلما مات حزنت عليه أشد الحزن فنبذت الدنيا وترهبت فى أحد الأديار .

وهناك حوادث سفك دم أخرى نسبت إلى الفاتح يلمس فيها الانسان لأول نظرة أثر الصنعة المتكلفة والغلو الصارخ ، وقد استبعدها همر نفسه وغيره من المؤرخين فلا حاجة بناهنا إلى ذكرها ، ولسنا ننكر أن السلطان محمد الفاتح كان قاسياً صارماً شديداً ، ولكن قسوته وصرامته وشدته إنما كانت دائماً فى الحق ولأجله .

ويتهم بعض المؤرخين السلطان الفاتح بالاستكبار والترفع عن الناس والاستنكاف حتى من مؤاكلة وزرائه حتى أصبح كالإله ، وليس ثمة وصف أبعد عن الحقيقة من هذا الوصف ، والحق أن السلطان الفاتح برغم مابلغه من سعة الملك وعظم السلطان وعزة المجد والقوة لم يداخله البطر والغرور ، فبقى متواضعاً موطأ الأكناف ، يخفض جناحه لجميع الناس وبخاصة أهل العلم ، وقد رأينا من قبل مجالسه الكثيرة معهم وتواضعه وتخشعه لهم ، ويذكر لنا صاحب الشقائق النعمانية أنه كان من عادة السلطان الفاتح أثناء وجوده بالقسطنطينية أن يزور قبر الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى ، فربما مر فى ذهابه بمنزل المولى حسين التبريزى فيستقبله هذا العالم عند الباب ويقدم إليه من الحساء والشربة فيتناولها منه الفاتح ويشرب منها ثم يسلم عليه ويذهب فى سبيله وكان السلطان الفاتح فى ملبسه ومأكله أقرب إلى التقشف والزهادة .

وكان أستاذه المولى الكورانى يعظه دائماً ويقول له « إن مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط » ، وكان هذا العالم « يخاطب الوزير والسلطان باسمه ، وكان إذا لقى السلطان يسلم عليه ولاينحنى له ويصافحه ولايقبل يده ولايذهب إليه يوم عيد إلا إذا دعاه » .

وكثير من العلماء فى عهد الفاتح كانوا على مثال المولى الكورانى فى الإباء والصرامة والحرص على قول الحق ، لايغضبون إلا له ولايرضون إلا له ، يجبهون الوزراء ورجال الدولة بل السلطان الفاتح نفسه بأشد القول وأعنفه ، لايخشون لومة لائم ولايبتغون من وراء ذلك إلاصلاح الدين والدنيا ، وكان إذا أنكر أحد من العلماء على الفاتح شيئاً هدده بالخروج من مملكته أو يصلح ماينكر ، ولم يكن أشق على نفس الفاتح من أن يرى عالما يخرج من بلاده ، وأثر عن الشيخ مصلح الدين القوجرى « أنه كان الوزراء يزورونه وهو يوبخهم توبيخاً عظيماً ويذكر ماسمعه من مظالمهم فكانوا يعتذرون

إليه ويتوبون عنده من الظلم ويقبلون يده »[1].

وقد وجد الفاتح فى هؤلاء العلماء خير عون له وسند فى تنفيذ سياسته التى كان يتوخى منها نشر العدل والرخاء بين رعاياه.

لقد كان السلطان محمد الفاتح فذاً عظيماً فى كل ميدان من ميادين الحياة.

كان فذاً عظيماً فى ثقافته وعلمه ، عاش طوال عمره ـ برغم إنهماكه فى الحروب والفتوحات ـ تلميذاً لايكف عن نشدان العلم والمعرفة ، حاميا للعلوم والآداب والفنون، أسبغ على أهلها أكرم رعاية وأسناها ، وقدر الكرامة الانسانية حق قدرها فجعل حرية الضمير وحرية الفكر والقول حقا مشاعا لجميع الناس.

كان فذا عظيماً فى حروبه وسياسته ، قلما ارتد عن غاية استهدفها ، لايبطره الظفر إذا انتصر ولاتقعده الهزيمة إذا انكسر .

كان فذا عظيما فى إدارته لملكه وحسن حكمه لرعاياه وسماحته نحو أهل الأديان الأخرى .

وكان فوق ذلك كله خير أمراء زمانه تربية وأدبا فلا غرو إذن ، إذا نظر إليه الأمير المؤرخ ديمتريوس كانتمير واعتبره أميرا كاملا an acomplished prince [2]

---

(1) الشقائق النعمانية .

(2) Demetrius Cantemir, The History of the Growth and Decay of the Othoman Empire.

يؤاخذ الأمير كانتمير السلطان الفاتح على عدم وفائه بعهوده فى بعض الأحيان تحقيقاً لمصلحة دولته ، وقد يكون السلطان الفاتح ارتكب شيئاً من هذا ، ولكن يجب علينا قبل كل شيء أن نذكر أن أعداءه قد اتخذوا نقض العهود والمواثيق ديدنا لهم ومذهباً ، بل ذهب مندوب البابا الكاردينال سيزارينى إلى اعتبار نقض عهد المسلمين عملاً صالحاً وقربى إلى الله ولم يكن الفاتح لينقض كلمة قالها أوينكث عهدا قطعة إلا حيث تحتم عليه ذلك ضرورة حربية أو سياسية رداً على نقض أعدائه ، وقد غضب الفاتح على قائده زغنوس باشا وعزله حينما علم أنه أمن إحدى الحاميات بالمورة ثم غدر بها ، ومع ذلك فإن كثيراً من المؤرخين الأوروبيين وفى مقدمتهم همر لايتورعون عن التحامل الشديد على الفاتح ووصمه بأقبح صفات الغدر والخيانة .

ويعد محمد الفاتح أعظم سلاطين آل عثمان طرا وأعظم ملوك عصره ، ويصح أن يقال إنه كان محور السياسة الدولية فى عهده صاحب الكلمة فى الشؤون العالمية ، وقد اتصلت علاقاته السياسية وحروبة بالقارات الثلاث آسيا وافريقيا وأوربا ، ووطد السيادة العثمانية فى أوربا توطيدا مكينا ، وقد مد بعض خلفائه حدود الدولة العثمانية بفتوحات جديدة فى المجر ، ولكنها لم تثبت ولم تعمر طويلاً ، فما عتمت أن زالت وأمحت ، أما فتوحات السلطان الفاتح فقد ظلت فى معظم أجزائها ثابتة راسخة إلى مابعد النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ولم يشتهر أحد من السلاطين العثمانيين لدى الأوروبيين وكثر تحدثهم عنه مثل السلطان الفاتح وهو أول سلطان عثمانى بل أول حاكم إسلامى أطلق عليه أهل أوروبا لقب « السيد العظيم » Grand Seigneur

لقد مات قبل السلطان الفاتح عظماء فى الإسلام ومات بعده عظماء فلم تحفل النصراية بموت أحد منهم مثلما حفلت بموت هذا السلطان ، وقد رأينا فيما تقدم ماأقامته البابوية فى روما من الحفلات والمهرجانات الصاخبة ابتهاجاً بموته ، وظلت الرهبة من هذا السلطان تخيم على أوربا حقبة طويلة من الزمن ، وظلت ذكراه تلقى الفزع والرعب فى قلوب أهلها إلى عشرات من السنين بعد وفاته .

وفى القرن السابع عشر الميلادى وبالتحديد فى سنة 1681 أى بعد وفاة السلطان الفاتح بقرنين من الزمان ألف مؤرخ فرنسى يدعى جييه كتاباً فى تاريخ حكم السلطان محمد الفاتح وأهدى كتابه هذا إلى لويس الرابع عشر أولويس الأكبر أعظم ملوك فرنسا وأعظم ملوك عصره ، وقد قال المؤلف فى مقدمة كتابه :

إنه إذ يسأل الله لملك فرنسا طول البقاء وأن يهب له المجد والسؤدد والقوة والسعادة يرجو من الله كذلك أن لايظهر مرة أخرى على وجه الأرض حاكم كالسلطان محمد الفاتح ، فقد كان حكمه بلاء ونكبة على النصارى والنصرانية ثم يقول :

هذا مايجب أن يتمناه دوما بدون انقطاع لاالفرنسيون وحدهم ، بل جميع الشعوب النصرانية الأخرى [1].

---

(1) Guillet, Histoire du régne de Mahomet II (Paris 1681)

أما المؤرخون المسلمون والمصريون بخاصة فقد أشادوا فى اعتزاز وافتخار بالسلطان محمد الفاتح =

هذا ماقاله المؤرخ الفرنسى جيبه ، وهذه أمانيه وأمانى قومه .

أما نحن ، نحن معشر المسلمين فإننا نسأل الله مخلصين - لا سيما فى هذا الزمن الذى انحط فيه شأن المسلمين وتداعت عليهم الأمم وتكالبت عليهم الدول من كل جانب - أن يقيض لدينه رجلاً قوياً عبقرياً مخلصاً كالسلطان محمد الفاتح فينبعث الإسلام على يديه من جديد فيقوى بعد ضعف ويعز بعد ذلة ويستعلى بعد استكانة .

هذه هى أمنية كل مسلم على وجه الأرض فى هذا العصر ، فلعل الله أن يستجيب .

= وجهاده المتواصل للفرنج ودكه حصونهم وفتحه بلادهم ومدنهم مع التنويه بقوة إيمانه بالله وشدة تدينه وحسن سيرته وعدله وميله إلى العلم والعلماء وتكريمه لهم ورفعه منزلتهم .

راجع : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ7ص 357 و 437

ابن تغرى بردى : حوادث الدهور جـ2 ص 298 - 9 وجـ3ص448 - 9 (والنسخة المخطوطة بالقسم الأول ورقة 198)

السخاوى : الضوء اللامع جـ10ص47

السيوطى : نظم العقيان ص 173

ابن اياس : بدائع الزهور جـ2 ص 5.204

الشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى : نزهة الناظرين ورقة 282(مخطوط بدار الكتب المصرية . تحت رقم 2269 تاريخ)

قطب الدين الحنفى : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص 118

ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ7 ص 5.344

محمد بن على الشوكانى : البدر الطالع جـ2ص269

الإسحاقى : لطائف أخبار الأول ص 202

محمد بن محمد أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ورقة 9 (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1926 تاريخ)

ترجمة السلطان محمد الفاتح . وهو مخطوط صغير الحجم بالخط المغربى غير مرقوم الصفحات . مكتوب فى أول صفحة منه مستخرجة من كتاب بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (دار الكتب المصرية تحت رقم 698 تاريخ)

ونجتزئ هنا بما كتبه المؤرخ المصرى ابن إياس فقد جمع قوله بين الإيجاز والشمول . قال « وفى ربيع الأول (886) جاءت الأخبار بوفاة السلطان المعظم المفخم المجاهد المغازى ملك الروم وصاحب القسطنطينية العظمى وهو محمد بن مراد بن محمد بن عثمان وكان ملكاً جليلاً عظيماً ساد على بنى عثمان كلهم وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق وحاز الفضل والعلم والعدل والكرم الزائد وسعة المال وكثرة الجيوش والاستيلاء على الأقاليم الكفرية وفتح الكثير من حصونها وقلاعها » بدائع الزهور جـ2 ص 204 - 5

المراجع التركية

1.أحمد مختار باشا ـ فتح جليل قسطنطينية (قسطنطينية 1316هـ)

2ـ خير الله أفندى ـ تاريخ دولت علية عثمانية (قسطنطينية 1281هـ)

3ـ سعد الدين أفندى ـ خواجة ـ تاج التواريخ (أستانبول 1879)

4ـ صولاق زادة تاريخى (أستانبول 1297 هـ)

5ـ عاشق باشا زادة تاريخى (أستانبول 1332 هـ)

6 ـ فريدون بك ـ مجموعة منشآت السلاطين (قسطنطينية 1264 هـ)

7ـ قريتو وولوس ـ تاريخ سلطان محمد خان ثانى . ثانى . (أستانبول 1328 هـ) نقله من الرومية إلى التركية الأستاذ قاروليدى .

Adnan - Adiwar, Abdulhak. Osmanli Turklerinde Ilim. -8 (Istanbul 1943)

Mirmiroglu. Fatih Sultan Mehmet II devrine ait vesikalar. -9 (Istanbul1945).

S,akir, Zia. Fatih Istanbulu nasil aldi. (Istanbul 1942)-10



المراجع العربية

1- أرنولد ، السير توماس ، الدعوة إلى الإسلام (مكتبة النهضة المصرية القاهرة ـ 1947) نقله من الإنجليزية إلى العربية الأساتذة / الدكتور حسن إبراهيم حسن ـ عبد المجيد عابدين ـ إسماعيل النحراوى .

2 ـ ابن إياس ، محمد بن أحمد ـ تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور فى وقائع الدهور (المطبعة الأميرية بولاق 1311) .

3 ـ ابن تغرى بردى ، ابو المحاسن يوسف ـ (1) حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور (طبعة كاليفورنيا 1930 ـ 2)

4 ـ ابن تغرى بردى ، ابو المحاسن يوسف ـ (2) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة كاليفورنيا 1928) .

5 ـ ديل شارل ، البندقية : جمهورية أرستقراطية (مطبعة المعارف بمصر 1948 نقله من الفرنسية إلى العربية الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، والأستاذ توفيق إسكندر .

6 ـ السخاوى ، محمد بن عبد الرحمن ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (مكتبة القدس 1354) .

7 ـ السيوطى ، جلال الدين بن عبد الرحمن ـ نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، حرره الدكتور فيليب حتى (نيويورك 1927) .

8 ـ طاشكبرى ، أحمد بن مصطفى بن خليل ـ الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية على هامش وفيات الأعيان لابن خلكان (المطبعة الميمنية بمصر 1310هـ)

9 ـ كوبيه اليسوعى ، الأب دى ، كشف المكتوم فى تاريخ أخر سلاطين الروم (بيروت 1890) ، نقله من الفرنسية إلى العربية الأستاذ خليل بن ميخائيل البدوى .



المراجع الأوربية

1 - Biliotti, Edouard et Cottett, l'abbe L' Ile de Rhodes (Paris 1881) .

2 - Cantemir, Demetrius, The history of the growth and decay of the Othman Empire. (London 1734) .

ترجمه من اللاتينية إلي الإنجليزية الأستاذ . تندل N. Tindal

3 - Cara de Vaux, Baron. Les Penseurs de I'Lslam (Paris 1921)

4 - Chopin et Ubicini. Provinces Danubiennes et Roumaimes . (Paris 1856)

5 - Creasy, Sie Edward S. History of the Ottoman Turks. (London 1878) .

6 - Croix, M. de la. Abrege Chronologique de I'Histoire Ottomane (Paris 1768) .

7 - Daru. Histoire de la republique de Venise . (Paris 1853) .

8 - Diehl, Charles. Histoire de l' Empire Byzantin . (Paris 1924)

9 - Diehl, Charles. Byzannce, grandeur et decadence. (Paris 1930)

10 - Djuvara, T. G. Cent projets de partage de la Turquie (Paris 1914) .

11 - Eversly, lord. The Turkish Empire (London 1924) .

12 - Finlay, George. A History of Greece from its conquest by the Romans to 1864 (Oxford 1877) .

13 - Flandin, Eugene . Histoire des Chevaliers de Rhodes (Tours 1873).

14- Forbes (Nevill) Toymbee (Arnold) , Mitrany (D) and Hogarth (D.J.) The Balkans (Oxford I9I5).

15-Galibert,Leon. Histoire de la Requblique de Venise.(Paris I 856).

16- Gibb, E. J.W.A History of Ottoman Poetry . (LondonI900-2)

17-Gibbon,Edward.The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. (edJ.B. Bury).(London I909 - I9I4).

18- Gibbons,Herbert Adams. The Foundation of Ottoman Empire (Oxford I9I6).

19- Guillet, G.Histoire du regne de Mahonet II (Parus I68I).

20 - Hammer, Joseph Von. Histoire de l' Empire Ottoman(Paris I843) J . J . Hellert . ترجمه من الألمانية الى الفرنسية الأستاذ هللير

21 - Heyd,W.Histoire du commerce du Levant.(Leipzig I936).

22-Jonquiere, Vte A. de la . Histoire de L'Empire Ottoman (Paris I9I4).

23- Jorage, N. Histoire des roumains et de leur civilisation.(Paris I920).

24-Jorga , N. Histoire des Etats Balkaniques jusqu'a I924 (Paris 1925).

25- Lamouche , Colonel.Histoire de la Turquie. (Paris 1924).

26- Lamouche , leone .La Peninsule Balkanique. (Paris 1899) .

27 - Miller , William. The Balkans: Roumania, Bulgaria, Serbia and Montenegro.(London,NewYork 1908) .

28 - Miller , William. Trebizond, the last Greek Empire.(London 1926).

29- Ohsson , Mourad ja d'. Tableau General de l'Empire Ottoman(Paris 1788 - 1824) .

30 - Pears, Edwin. The Fall of Constantinople , being the Story of the Fourth crusade .(London 1885) .

31 - Pears ,Edwin . The Destruction of the Greek Empire and the story of the Capture of Constantionople by the Turks. (London 1903).

32 - Porter, Sir James.Turkey; its History and Progress. (London 1854).

33 - Sagredo, Histoire de l' Empire Ottoman'.(Paris 1724).

34 - Schlumberger,Gustve. Le Siege, la prise et le Sac de Constantinople par Turcs en 1453 (paris 1935).

35 - Sismondi, J.C.L . Sismonde de . Histoire des Requbliques Italiennes du Moyen Age. (paris 1809 - 18).

36 - Sykes ,Sir Mark . The Caliphs' Last Heritage. A Short History of the Turkish Empire.(London 1915) .

37 - T emperly , Harold W . V . History of Serbia (London 1917) .

38 - Thuasne, L . Gentile Bellini et Sultan Mohammed II (Paris 1888).

39 - Voltaire .Essai sur les Moers et l'Esprit des nations (Oeuvres Completes tome II (Paris 1846) .

40 - Watson , R . W . Seton . A History of the Roumanians (Cambridge 1934) .





الفهـــرس

الفهرس